أسباب وعلاج التمزق
في
ميزان الشريعة الإسلامية

تأليف/

محمد نعمان محمد علي البعداني

أستاذ مساعد

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ-٢٠١٥م
الحقوق محفوظة للمؤلف

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الهادي إلى سواء السبيل، أحمده وأستعينه وأستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ربي لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[النساء:١]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد: فإن جمع الكلمة، ووحدة الصف، وتحقيق الأخوة، وتأليف القلوب، وتوحيد المسلمين، من أسمى المطالب وأغلاها، وأجلها وأعلاها، وأشرفها وأثمنها؛ لما ينتج عن ذلك من قوة ضاربة للمجتمع المسلم، لا يجرؤ أعداؤه من التسلط عليه، ولهذا امتن ربنا جل في علاه على عباده بتأليف قلوبهم، وجمع شتاتها وتمزقها، فقال جل شأنه وتقدست أسماؤه وصفاته: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[الأنفال:٦٣]، وقد أدرك حبيبنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام هذا الأمر وأهميته، فبادر في أول تأسيسه للدولة الإسلامية في المدينة النبوية إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وجمع كلمتهم، وتوحيد صفهم، وإزالة الفخر بالأنساب والعشائر والعصبة، فجمعت هذه الأخوة في صدرها الرحب والواسع بين

علي القرشي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، فتكون مجتمع واحد، صفه واحد، فقويت بذلك شوكتهم، واستعصوا على عدوهم، فما استطاع مد أقوى وأعظم امبراطوريتين –فارس والروم– من الوقوف أمام زحفهم لنشر نور الحق والهداية لجميع الخلائق، بل سقطت تلك الامبراطوريتان أمام هذا المجتمع الموحد القوي، وقد كان النبي ﷺ يتعهد هذه الأخوة، ويقوي روابطها، ويزيل كل دخن ولبس وما من شأنه أن يكدر صفوها، ويعيد الفضل في كل ذلك كله إلى الله الواحد الأحد، لا لحنكته، ولا لسياسته، ولا لخبرته، ولا لإنجازاته، ولما وجد الأعداء أن الدولة الإسلامية دولة قوية، نظروا في مصدر قوتها، فوجدوا أن وحدتها وجمع كلمتها وصفها هو السبب الرئيس لذلك، فجعلوا يكيدون المؤامرات لتفريقهم وتمزيقهم، ونجحوا عندما أسقطوا الخلافة العثمانية، ومزقوا دولة الإسلام إلى دويلات صغيرة، لكل دولة حدودها التي تفصلها عن غيرها، ومن ثم قاموا بغرس الدولة اليهودية الخبيثة في قلب دولة الإسلام، وفي خضم هذه الأحداث الأليمة أشرق شعاع الوحدة اليمنية، وظهر بصيص الأمل في توحيد جميع الممزقات الإسلامية، إلا أن أصواتاً ظهرت تنادي بتمزيق البلاد، كان لها محاولة فاشلة عام ١٩٩٤م، إذ أشعلوا فتيل حرب أطفأها الله تعالى، ورد كيدهم في نحورهم، إلا أن هذه الأصوات قد كثرت في الآونة الأخيرة وهذه المرة وجدت لها تأييداً شعبياً من مجموعة من الناس الذين استُغِلوا في ظل الظروف السيئة التي يعيشونها بل تعيشها البلاد برمتها، كذلك الوضع في جنوب السودان وما فيه من مطالبة لاستقلال إقليم دار فور والحرص الغربي المريب في هذا الإقليم، وما يحصل في أرض الصومال من فتنة وحروب، وما شابه ذلك من مطالبات لتمزيق بعض بلاد الإسلام من قبل جماعة من أبنائها؛ لسبب أو لآخر، فأحببت من خلال هذا البحث أن أتطرق إلى بيان مجموعة من الأسباب الحقيقة التي أدت وتؤدي

إلى ظهور مثل هذه المطالبات والاضطرابات والقلاقل والفتن، وسأقسم هذه الأسباب على ستة مباحث، كالتالي:

المبحث الأول: المخالفة والذنوب، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: وفيه السبب الأول وهو مخالفة الشريعة

المطلب الثاني: وفيه السبب الثاني وهو الذنوب والمعاصي

المبحث الثاني: وفيه السبب الثالث وهو انتشار الجهل.

المبحث الثالث: وفيه السبب الرابع وهو الظلم.

المبحث الرابع: التفرق والعصبية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: وفيه السبب الخامس وهو التنازع وتفرق جماعة المسلمين

المطلب الثاني: وفيه السبب السادس وهو إثارة العصبية

المبحث الخامس: الخروج والإعراض، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: وفيه السبب السابع وهو الخروج بالسلاح

المطلب الثاني: وفيه السبب الثامن وهو الإعراض عن شكر النعمة

المبحث السادس: وفيه السبب التاسع وهو التآمر الخارجي.

المبحث الأول: المخالفة والذنوب

وفيه مطلبان:

المطلب الأول:

وفيه السبب الأول وهو مخالفة الشريعة

المطلب الثاني:

وفيه السبب الثاني وهو الذنوب والمعاصي

المطلب الأول: مخالفة الشريعة

إن كل شر يحدث في مجتمعاتنا إنما هو بسبب مخالفة الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ من عند ربه عز وجل، والمقصود بالمخالفة هنا الذهاب إلى خلاف أمر الله وأمر رسوله ﷺ، ومضادة أمرهما، والخروج عنه[١]، فإن في هذه المخالفة عين الهلاك والخسران، قال الله ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

قال الإمام الشوكاني: «أي: يخالفون أمر النبي ﷺ بترك العمل بمقتضاه، وعدى فعل المخالفة بعن مع كونه متعدياً بنفسه؛ لتضمينه معنى الإعراض أو الصد»[٢].

قال الإمام ابن كثير: «أي: عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان»[٣].

فهذا تهديد أكيد ووعيد شديد من الله تعالى للمعرضين عن منهجه القويم الذي أرسل به رسوله الكريم ﷺ بأن: ﴿تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: محنة في الدنيا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن معنى قوله: ﴿فِتْنَةٌ﴾ قتل، وعن عطاء: زلازل وأهوال، وعن جعفر بن محمد: يسلط عليهم سلطان جائر[٤]، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة[٥].

وإنما كان الإعراض عن الشريعة الغراء ومخالفتها هو السبب الرئيسي للتمزق والفتن؛ لأن هذه الشريعة المباركة مبناها وأساسها على مراعاة مصالح العباد في المعاش والمعاد، فهي

١- انظر: المصباح المنير ١/١٧٩، ولسان العرب ٩/٩٠، والمعجم الوسيط ١/٢٥١.

٢- فتح القدير ٤/٥٨.

٣- تفسير ابن كثير ٣/٣٠٨.

٤- وكل هذا واقع في الأمة اليوم، فمحن، وقتل مستعر، وأهوال، وجور، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

٥- الكشاف ٣/٢٦٥.

عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، ولهذا فإن كل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها بالتأويل ونحوه، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره ﷻ الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، وهي التي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة[١]، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم[٢] قد بقيت لخربت الدنيا، وطوي العالم، وهي العصمة للناس، وقوام العالم، وبها يمسك الله السموات والأرض أن تزولا، فإذا أراد الله ﷻ خراب الدنيا وطي العالم رفع إليه ما بقي من آثارها، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله ﷺ هي عمود العالم، وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة[٣].

إن ما نحن فيه من فتنة ومحنة، ومن حكومات غشومة[٤] جائرة، متغطرسة جاهلة، مترددة حائرة، لشعوبها قاهرة، وللأعداء ذليلة صاغرة، وما سلط على كلٍ من حاشية فاسدة مفسدة تعيث في الأرض الفساد، نهبوا الخيرات، وأشاعوا المنكرات، يحمون الفساد والمفسدين، ويعرضون عن هدي رب العالمين، الكذب شعارهم، والنفاق دثارهم، من قال

١- العصمة: الحفظ والوقاية والمنعة، أي أن التمسك بالشريعة يحفظ ويقي ويمنع العباد من الوقوع في الهلاك أو الأسباب المؤدية إليه، انظر لمعنى العصمة: لسان العرب ٤٠٣/١٢، والمعجم الوسيط ٦٠٥/٢.

٢- الرسم بقية الأثر، انظر: العين للخليل بن أحمد ٢٥٢/٧، مادة: رسم.

٣- انظر: إعلام الموقعين لابن القيم ٣/٣.

٤- الغشوم: الذي يخبط الناس ويأخذ كل ما قدر عليه، ويقال للحرب غشوم؛ لأنها تنال غير الجاني، والغشم: الظلم والغصب، انظر: لسان العرب ٤٣٧/١٢، والمعجم الوسيط ٦٥٣/٢.

كلمة الحق أخرس، ومن تزلف أبرز، أسعار تحرق البيوت، ومنكرات تدمر الشعوب، أصبح الربا ربحا، وفشا الزنا، وطفف المكيال والميزان، وحُكِم بغير الحق -إلا من رحم الله تعالى من الحكام وبطاناتهم-، فقطع الرزق، وتسلط العدو، وظهرت الفتن، وتمزقت الصفوف، وتقاتلت الشعوب مع حكامها أو فيما بينها، وما كل ذلك إلا بالإعراض عن شريعة الله رب العلمين الهادي إلى سواء السبيل وهديه المبين، والخروج عن هذا السبيل القويم إلى سبل الشياطين، لا نخرج من سبيل إلا وتلقفنا آخر؛ جزاء وفاقاً؛ لتركنا الأخذ بهدي رب العالمين القائل ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣].

لقد صار حال جماعة منا بل الكثير الإعراض عن شرع رب العلمين القائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٤]، وعن هدي رسوله ﷺ القائل: "فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[(١)]، نقدم القوانين الوضعية الوضيعة وكلام البشر على هدي رب البشر وسنة رسوله الأغر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[الحجرات:١]، وقال رسول الله ﷺ: "مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ وَإِنْ شَرَطَ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ شَرْطُ اللَّهِ أَحَقُّ وَأَوْثَقُ"[(٢)].

لقد أثمر هذا الإعراض ذلاً وصغارا، وتمزقاً ودمارا، وفتنة لا تتوارى، فصدق فينا قول الله ربنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾[المجادلة:٢٠]، وقول

١- رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ٥/ ١٩٤٩ برقم: ٤٧٧٦، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم ٢/١٠٢٠ برقم: ١٤٠١.

٢- رواه البخاري، كتاب البيوع، باب البيع والشراء مع النساء ٢/٧٥٦ برقم: ٢٠٤٧، ومسلم، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق ٢/١١٤١ برقم: ١٥٠٤.

رسوله ﷺ فيما رواه عنه ابن عمر: "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ[١]، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً، لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ"[٢]، والقائل ﷺ: "وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"[٣].

قال الإمام المناوي: «"سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ" بضم الذال المعجمة وكسرها ضعفاً واستهانةً، "لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ" أي: إلى الاهتمام بأمور دينكم، جعل ذلك بمنزلة الردة والخروج عن الدين؛ لمزيد الزجر والتهويل»[٤]، وقال الإمام الزرقاني في شرح "بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ": «أي: الحرب والفتن والاختلاف»[٥].

الأمن والنجاة في ظلال الشريعة

إن السبيل إلى الخلاص من الفتن والتمزق والتفرق والهلاك هو بالعودة الصادقة إلى دين الله تعالى، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، وتحكيم الشريعة في الواقع حقيقة لا مجرد حبر على

١- قال الإمام المناوي: «"إذا تبايعتم بالعينة" بكسر العين المهملة وسكون المثناة تحت ونون وهو أن يبيع سلعة بثمن معلوم لأجل ثم يشتريها منه بأقل ليبقى الكثير في ذمته..."وأخذتم أذناب البقر": كناية عن الاشتغال عن الجهاد بالحرث، "ورضيتم بالزرع" أي: بكونه همتكم ونهمتكم، "وتركتم الجهاد" أي: غزو أعداء الرحمن ومصارعة الهوى والشيطان»، فيض القدير ١/٣١٣، ٣١٤.

٢- رواه أبو داود، باب في النهي عن العينة ٢/٢٩٦ برقم: ٣٤٦٢، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/٧٠ برقم: ١٣٨٩.

٣- رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢ برقم: ٤٠١٩، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة ٢/ ٣٧٠ برقم: ٣٢٤٦.

٤- التيسير بشرح الجامع الصغير ١/٨٤، وقال محمد شمس الحق: «أي: صغاراً ومسكنةً، ومن أنواع الذل الخراج الذي يسلمونه كل سنة لملاك الأرض، وسبب هذا الذل والله أعلم أنهم لما تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الإسلام وإظهاره على كل دين عاملهم الله بنقيضه وهو إنزال الذلة بهم فصاروا يمشون خلف أذناب البقر بعد أن كانوا يركبون على ظهور الخيل التي هي أعز مكان»، عون المعبود ٩/٢٤٢.

٥- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٢/٥٨.

ورق، والرد إليها في جميع الأحوال عموماً، وفي مثل هذه القلاقل والفتن والاضطرابات خصوصاً: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[النساء:٦٥]، وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء:٥٩] حتى تتنزل الرحمات، فيرفع البلاء، ويعم الخير: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأنعام:١٥٥]، ونفوز بمحبة الله تعالى القائل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[آل عمران:٣١]، ونسلم من طريق الزيغ والضلال والهلاك والتفرق والفتن فقد قال ﷺ: "وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ"(١)، وقال ﷺ: "قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ"(٢).

لماذا الشريعة الإسلامية؟

إنما كان الحل والأمن والاستقرار والأخوة والوحدة والقوة والغلبة والسعادة والاستقامة والحفظ والوقاية والمنعة والعصمة في رحاب الشريعة الإسلامية؛ لأن لها خصائصها الخاصة بها التي تميزها عن غيرها من القوانين الوضعية —الوضيعة– تمييزاً واضحاً بارزاً لا يدع مجالاً للشك في أن صلاح الأمة بل العالم بأسره موقوف على الأخذ بها، وتطبيقها تطبيقاً تاماً كاملاً، ولإيضاح ذلك فهذه وقفه سريعة مع هذه الخصائص التي ميزت هذه الشريعة المباركة.

١- رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ ٢/ ٨٨٦ برقم: ١٢١٨.

٢- رو أحمده في المسند، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية ٣٦٧/٢٨ برقم: ١٧١٤٢، قال شعيب الأرنؤوط: «حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن».

شريعة سماوية من عند الله

إن الشريعة الإسلامية من حيث مصدرها هي من عند الله ﷻ، فمصدرها ومشرع أحكامها ومناهجها هو الله ﷻ، فهي وحيه إلى رسوله الكريم ﷺ باللفظ والمعنى -القرآن الكريم-، وبالمعنى دون اللفظ -السنة النبوية-، فهي بهذه الخصيصة تختلف اختلافاً جوهرياً عن جميع القوانين الوضعية التي مصدرها الإنسان، فهذه الشريعة ربانية إلهية سماوية في مصدرها، نزلت من عند الله تبارك وتعالى رب البشر على خاتم الأنبياء والمرسلين الأغر عليه الصلاة والسلام، وهذا يعني كمالها وخلوها من معاني النقص والجهل والهوى والظلم؛ لسبب بسيط واضح هو أن صفات الصانع تظهر في ما يصنعه، ولما كان الله ﷻ له الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، ويستحيل في حقه خلاف ذلك، فان أثر هذا الكمال يظهر في ما يشرعه من أحكام ومناهج وقواعد، وبالتالي لا بد أن يكون كاملاً، وهذا بخلاف ما يصنعه الإنسان ويقننه؛ فإنه لا ينفك عن معاني النقص والهوى والجهل والجور؛ لأن هذه المعاني لاصقة بالبشر، ويستحيل تجردهم عنها كل التجرد، وبالتالي تظهر هذه النقائص في القوانين والتشريعات التي يضعونها، بخلاف الشريعة الإسلامية فهي كاملة تامة لا نقص فيها كما قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، ولا يداخلها خلل كما هو الحال في التشريعات والقوانين الوضعية المنبثقة من البشر ذات النقص والضيق والخلل، وهي منزهة عن العبث واللغو، ولهذا ظلت وستظل شامخة عزيزة منذ بزغ فجر الرسالة على الرغم من كيد الكائدين وتآمر المتآمرين.

شريعة محفوظة

بالإضافة إلى أن هذه الشريعة الغراء سماوية المصدر كاملة المنهج فإنها محفوظة بحفظ الله تعالى لها، فلا يعتريها التغيير أو التحريف أو التبديل أو التزوير كما اعترى غيرها من شرائع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وهذا هو الفرق بين الشريعة الإسلامية وما سبقها من الشرائع، وإن كانت جميعها من عند الله، إلا أن تلك الشرائع دخلها التحريف والتبديل والتغيير؛ لأن الله تعالى أوكل حفظها إلى من أنزلت إليهم كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[المائدة:٤٤]، فأخبر ﷻ في هذه الآية الكريمة أن الأحبار والرهبان استحفظوا كتاب الله -يعني استودعوه- وطلب منهم حفظه، ولم يبين هنا هل امتثلوا الأمر في ذلك وحفظوه أو لم يمتثلوا الأمر، ولكنه بين في مواضع أخر أنهم لم يمتثلوا الأمر ولم يحفظوا ما استحفظوه، بل حرفوه وبدلوه عمداً، وخانوا الأمانة[1]، كقوله ﷻ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء:٤٦]، وقوله ﷻ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾[المائدة:٤١]، وقوله ﷻ: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[الأنعام:٩١]، وقوله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[البقرة:٧٩]، وقوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ

١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/٤٠٤.

ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران:٧٨]، فالتوراة والإنجيل التي أنزلها الله ﷻ ووصفها بالهدى والنور ليست هي التوراة الموجود اليوم لدى اليهود ولا الإنجيل الموجود اليوم عند النصارى، فالذي بين أيديهم محرفة ومبدلة، وهذا التحريف: إما بتغيير اللفظ، أو المعنى، أو هما جميعا، أو المحو للنصوص بالكلية، أو محو ما يبين الحق ويدمغ الباطل، أو إخفاء الحق عن الخلق وادعاء الباطل، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة وقد زنيا فقال لهم: "كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَى مِنْكُمْ؟ قَالُوا: نُحَمِّمُهُمَا[١] وَنَضْرِبُهُمَا، فَقَالَ: لاَ تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ الرَّجْمَ؟ فَقَالُوا: لاَ نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ: كَذَبْتُمْ ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فَوَضَعَ مِدْرَاسُهَا[٢] الَّذِي يُدَرِّسُهَا مِنْهُمْ كَفَّهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَطَفِقَ يَقْرَأُ مَا دُونَ يَدِهِ وَمَا وَرَاءَهَا، وَلاَ يَقْرَأُ آيَةَ الرَّجْمِ، فَنَزَعَ يَدَهُ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَالَ مَا هَذِهِ؟ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا: هِيَ آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا قَرِيباً مِنْ حَيْثُ مَوْضِعُ الْجَنَائِزِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ، فَرَأَيْتُ صَاحِبَهَا يَجْنَأُ[٣] عَلَيْهَا يَقِيهَا الْحِجَارَةَ"[٤]، قال الإمام النووي: «قال العلماء: هذا السؤال ليس لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم؛ فإنما هو لإلزامهم بما يعتقدونه في كتابهم، ولعله ﷺ قد أوحى إليه أن الرجم في التوراة الموجودة في أيديهم لم يغيروه كما

١- نحممهما: نسكب عليهما الماء الحميم، وقيل: نجعل في وجوههما الحمة: أي السواد، فتح الباري ٨/٢٢٤.

٢- صاحب دراسة كتبهم، انظر: عمدة القاري ٨/١٣٣.

٣- يميل عليها وينعطف، النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٨٣٠.

٤- رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[آل عمران: ٩٣] ٤/١٦٦٠ برقم: ٤٢٨٠، ومسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى ٣ / ١٣٢٦ برقم: ١٦٩٩. واللفظ للبخاري.

غيروا أشياء، أو أنه أخبره بذلك من أسلم منهم، ولهذا لم يخف ذلك عليه حين كتموه»[١]، فانظر إلى كذبهم وتزويرهم وإخفائهم لما كان لا يزال على الحق لم يحرف، وادعائهم للباطل في زمن الوحي، فكيف بالأمر في هذه الأزمان التي زاد فيها تحريفهم وكيدهم وخبثهم، حتى أنهم عملوا على محو كل ما من شأنه أن يدل أو يرشد إلى النبي الخاتم ﷺ والشريعة الخالدة، ومن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم والتي وصفت وذكرت النبي ﷺ بصفاته التي لا تنطبق ولا تصدق إلا عليه ﷺ على غيره وكتمانها أو محوها بالكلية، فكان حالهم في العلم شر حال؛ إذ قلبوا فيه الحقائق، وجحدوا الحق، ونزلوا الحق على الباطل[٢].

أما الشريعة الإسلامية فمحفوظة من التحريف أو التبديل أو الزيادة أو النقص؛ لأن الله ﷻ لم يكل حفظ كتابها ومنهجها إلى أحد، بل تولى حفظ ذلك جل وعلا بنفسه الكريمة المقدسة[٣] كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩]، وقال ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[البروج:٢١- ٢٢] وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤١-٤٢].

قال الإمام الرازي: «واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ؛ فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصوناً عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى

١- شرح صحيح مسلم ٢٠٨/١١.

٢- تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص١٨١.

٣- أضواء البيان للشنقيطي ٤٠٥/١، ٢٥٥/٢، ٢٥٦.

متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات، وأيضاً أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظاً عن التغيير والتحريف، وانقضى الآن قريباً من ستمائة سنة فكان هذا إخباراً عن الغيب، فكان ذلك أيضاً معجزاً قاهراً»[١]، بل قد انقضى إلى الآن أكثر من ألف وأربعمائة سنة وهو محفوظ.

قال الإمام السعدي: «﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء من المسائل والدلائل الواضحة وفيه يتذكر من أراد التذكر، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله واستودعه في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من معانيه إلا وقيض الله له من يبين الحق المبين»[٢].

أيضاً الشرائع السابقة كلها منسوخة بسبب ما دخلها من التحريف والتبديل، أما الشريعة الإسلامية فلا يوجد شريعة ناسخه لها؛ لأنها محفوظة بحفظ الله لها، ولأن الشرائع قد انقطعت بختمها بالشريعة الإسلامية الخالدة؛ لأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا رسول ولا نبي بعده، وبالتالي لا شريعة بعد شريعته؛ لأن وحي السماء قد انقطع نزوله بموته ﷺ، قال ﷻ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب:٤٠]، فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة[٣]، ومنها: قوله ﷺ: "لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ، قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟

١- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ١٢٨/١٩.

٢- تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص٤٢٩.

٣- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ٤٩٤/٣.

قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ"[١]، وقوله ﷺ: "ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ"[٢]، وقوله ﷺ: "إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ، فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ"، قَالَ: فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: قَالَ: "وَلَكِنِ الْمُبَشِّرَاتُ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: "رُؤْيَا الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ"[٣]، وقوله ﷺ: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ"[٤].

أيضاً فإن الله ﷻ أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى الناس كافة، ونسخ بشريعته سائر الشرائع، وجعل كتابه الكريم مهيمناً على سائر الكتب السماوية، فالواجب على جميع أهل الأرض من الجن والإنس سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو غيرهم من سائر أجناس بني آدم ومن سائر أجناس الجن أن يدخلوا في دين الله الذي بعث به خاتم الرسل إلى الناس عامة، وأن يلتزموا به، ويستقيموا عليه؛ لأنه هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد أي دين سواه كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ

١- رواه البخاري، كتاب التعبير، باب المبشرات ٦ /٢٥٦٤ برقم: ٦٥٨٩.

٢- رواه أحمد، مسند النساء، حديث أم كرز الكعبية ١١٥/٤٥، ١١٦ برقم: ٢٧١٤٠، وابن ماجه، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ٢/ ١٢٨٣ برقم: ٣٨٩٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢/ ٣٣٨ برقم: ٣١٤٤.

٣- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ ٣٢٦/٢١ برقم: ١٣٨٢٤، والترمذي، كتاب الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات ٥٣٣/٤ برقم: ٢٢٧٢، والمنقول عن الألباني تصحيح إسناده، انظر الجامع الصغير وزيادته ٢٥٢/١ برقم: ٢٥١١.

٤- رواه البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ ١٣٠٠/٣ برقم: ٣٣٤٢، ومسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ١٧٩٠/٤ برقم: ٢٢٨٦

ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[آل عمران: ١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران: ٨٥]، وقال ﷻ بعدما ذكر التوراة والإنجيل يخاطب نبيه محمداً ﷺ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ * أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة:٤٨-٥٠]، ففي هذه الآيات الكريمة الدلالة الظاهرة والبرهان القاطع على وجوب الحكم بين اليهود والنصارى وسائر الناس بما أنزل الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ، وعلى أنه لا إسلام لأحد ولا هداية إلا باتباع ما جاء به، وأن ما يخالف ذلك فهو في حكم الجاهلية، وأنه لا حكم أحسن من حكم الله.

وقال الله ﷻ: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٧]، ففي هذه الآيات الكريمة الدليل القاطع والحجة الدامغة على عموم بعثة النبي ﷺ لليهود والنصارى، وأنه بعث بالتخفيف عنهم، وأنه لا يحصل الفلاح لكل من كان في زمانه من الأمم وهكذا ما بعد ذلك إلى قيام الساعة إلا بالإيمان به ونصره وتعزيزه واتباع النور الذي أنزل معه، ثم قال ﷻ بعد ذلك تأكيدا للمقام وبياناً لعموم الرسالة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف:١٥٨]، وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: "أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى

قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"[١]، وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"[٢]، فهذه النصوص وما قبلها يتضح منها لكل عاقل أن الهداية والنجاة والسعادة والأمن إنما تحصل لمن آمن بمحمد ﷺ واتبع ما جاء به من الهدى، والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وفيها دلالة على نسخ جميع الشرائع السماوية ما عدا شريعة الإسلام التي بعث الله بها خاتم النبيين وسيد المرسلين وإمام المتقين نبينا محمد بن عبد الله ﷺ وعلى سائر النبيين والمرسلين، وجعلنا من اتباعهم بإحسان إلى يوم الدين، إنه على كل شيء قدير، وليس معنى نسخ الشرائع السابقة أنها لا تحترم أو أنه يجوز التنقص منها، وإنما المراد رفع ما قد يتوهمه بعض الناس من أنه يسوغ اتباع شيء منها، أو أن من انتسب إليها من اليهود أو غيرهم يكون على هدى، بل هي شرائع منسوخة لا يجوز اتباع شيء منها لو علمت على التحقيق وسلمت من التغيير والتبديل، فكيف وقد جهل الكثير منها لما أدخل فيها أعداء الله –الذين يكتمون الحق– من تحريف وهم يعلمون ويكذبون على الله ورسوله وعلى سائر النبيين والمرسلين وسائر الصالحين[٣].

شريعة شاملة

والشريعة الإسلامية من حيث مدى ونوع العلاقات التي تنظمها والأفعال التي تحكمها شاملة لجميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان، وهي صفة حقيقية ثابتة لها لا يجوز تجريدها منها إلا بالافتراء عليها، أو بالجهل بها، وشمولها هذا لا يقبل الاستثناء ولا التخصيص، فهو

١– رواه البخاري، كتاب التيمم ١/ ١٢٨ برقم: ٣٢٨، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/ ٣٧٠ برقم: ٥٢١.

٢– رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة ١/ ١٣٤ رقم: ١٥٣.

٣– انظر: فتاوى مهمة لعموم الأمة، فتوى للشيخ ابن باز رحمه الله تعالى ١/ ١٢٦– ١٣١.

شمول تام بكل معاني كلمة الشمول، وهذا بخلاف المبادئ والنظم البشرية فإن الواحد منها له دائرته الخاصة التي ينظم شؤونها، ولا شأن له فيما عدا ذلك، وعلى هذا فلا يمكن للمسلم القول: إن هذا المجال لي أنظم أموري كما أشاء بمعزل عن تنظيم الإسلام؛ لأن الشريعة الإسلامية تحكمه من يافوخه إلى أخمص قدميه.

إن الشريعة تختلف اختلافاً بيناً مع القوانين الوضعية في هذا المجال من ناحيتين:

الناحية الأولى: مراعاة المعاني الأخلاقية، فالشريعة الإسلامية راعت جانبها كل الرعاية، ومزجتها بالقواعد القانونية، وأقامت الأحكام التنظيمية عليها، وهذا بخلاف القوانين الوضعية؛ حيث إنها لا تراعي المعاني الأخلاقية، بل إن الأصل فيها هو الفصل بين القواعد الأخلاقية والقواعد القانونية، فالغدر والخيانة وعدم الالتزام بالكلمة معاني ذميمة في ميزان الأخلاق ومن ثم لا تجوز ولا تباح في جميع العلاقات التي تنظمها الشريعة الإسلامية والأحكام التي تقررها، سواء أكانت هذه العلاقات بين فرد وفرد، أو بين دولة ودولة، ولا عجب من ذلك فالشريعة الإسلامية من عند الله، وما يأتي من الله هو الحق والعدل الخالص.

الناحية الثانية: من جهة الحل والحرمة في الفعل نفسه، فإن الفعل قد يكون صحيحاً في ظاهره لاستيفائه شروط الصحة المطلوبة ولكنه يعتبر حراماً لمخالفة حقيقته الباطنة أو قصد صاحبه لما يأمر به الإسلام، وهذه الصفة للشيء في الحل والحرمة تبقى لاصقة بالفعل وإن صدر بها حكم قضائي يقضي بخلاف ذلك؛ لأن الأمر عند الله تعالى على حقيقته وهو أن هذا المدعي ارتكب حراماً وأكل سحتاً وهذا لا يجوز في شرع الله، ولا ينفعه حكم الحاكم بما ادعى لنفسه ظلماً؛ لأن الحاكم يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، ولأن مناط الثواب والعقاب في الآخرة على حقائق الأفعال ونيات الإنسان، وما ارتكبه من حلال أو حرام، والأصل في تعلق الحقوق وثبوت الآثار الشرعية على حقيقة الفعل

وكونه حلالاً جائزاً ظاهراً وباطناً، ولكن لما كان الباطن أمراً خفياً يعجز الإنسان عن إدراكه أو يتعذر عليه، ولأجل استقرار الأمور وجريان الأحكام على أسس ثابتة وقواعد مضبوطة، فقد اعتبرت الشريعة الإسلامية الظاهر، وجعلت صحته ومطابقته لمتطلبات الشريعة قرينة على صحة الباطن وحله، ومناطاً لتعلق الحقوق وثبوت الآثار، ولكن الشيء أو الفعل يبقى بالرغم من ذلك موصوفاً بالحل والحرمة بناء على حقيقته الباطنة، وما يترتب على هذا الوصف من جواز الإقدام عليه أو تحريمه وما يتبع ذلك من ثواب أو عقاب؛ لأن الحكم حسب الظاهر لا يقلب الحلال حراماً ولا الحرام حلالاً، وبالتالي لا يحل للمسلم أن يبيح لنفسه فعل الحرام أو أكله وإن أباح له ذلك القضاء، ويدل لذلك قول النبي ﷺ: "إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلَا يَأْخُذْهَا"[1]، ولهذا إذا ظهر الباطن ظهوراً كافياً، وتكشفت حقيقته، فالعبرة به لا بالظاهر، وتظهر أهمية هذه الناحية في حفظ حقوق الناس، وكف بعضهم عن بعض عن الاعتداء... فقد نظمت الشريعة الإسلامية شؤون الخلق أحسن التنظيم وأتمه وأكمله، ووضعت الحدود التي تمنع من التعدي على الغير وحقوقهم، قال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[البقرة:١٨٧]، وقال ﷻ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة:٢٢٩]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[الطلاق:١].

١- رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين ٢/٩٥٢ برقم: ٢٥٣٤، ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ٣/١٣٣٧ برقم: ١٧١٣.

شريعة عامة

وتمتاز الشريعة الإسلامية بعمومها إذ جاءت لعموم البشر، ولم تأتِ لطائفة معينة منهم أو لجنس خاص من أجناسهم، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[سبأ:٢٨]، وقال رسول الله ﷺ: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: ... وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"(١)، وفي رواية: "وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً"(٢)، وفي أخرى: "كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ"(٣)، وعمومها هذا غير مقصور على فترة معينة من الزمن أو جيل خاص من البشر وإنما هو عموم في الزمان كما هو عموم في المكان، ولهذا فهي باقية لا تزول، ولا تتغير، ولا تنسخ، وعموم الشريعة الإسلامية وبقاؤها وعدم قابليتها للنسخ والتبديل والتغيير بالتنقيص أو الزيادة كل ذلك يستلزم عقلاً وعدلاً أن تكون قواعدها وأحكامها ومبادئها وجميع ما جاءت به على نحو يحقق مصالح الناس في كل عصر ومكان، ويفي بحاجاتهم ولا يضيق بها ولا يتخلف عن أي مستوى عال يبلغه المجتمع البشري؛ لأن الله تعالى إذ جعلها عامة في المكان والزمان، وخاتمة لجميع الشرائع، جعلها ذات قواعدها ومبادئ وأحكام صالحة لكل زمان ومكان، ومهيأة للبقاء والاستمرار لهذا العموم.

١- رواه البخاري، كتاب التيمم ١/ ١٢٨ برقم: ٣٢٨، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/ ٣٧٠ برقم: ٥٢١.

٢- رواه البخاري، كتاب الصلاة، أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ "جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا" ١/ ١٦٨ برقم: ٤٢٧.

٣- رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/ ٣٧٠ برقم: ٥٢١.

شريعة مثالية وواقعية

وتمتاز هذه الشريعة الغراء بالمثالية والواقعية من حيث نزوعها إلى المثالية دون إغفال للواقع.

أما مثالية الشريعة فتظهر بحرصها على إبلاغ الإنسان أعلى مستوى ممكن من الكمال بجعل تصرفاته وأقواله وأفعاله وتروكه وقصوده وأفكاره وميوله وفق المناهج والأوضاع والكيفيات التي جاء بها الإسلام، وقد تحقق ذلك كله في رسول الله ﷺ، ولذلك أمرنا الله ﷻ بالتأسي به ﷺ بقوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١]، وهذه هي مثالية الشريعة الإسلامية، وقوام هذه المثالية بأمرين:

الأول: بالاعتدال المتمثل في عدم الإفراط والتفريط في أي شيء، وإعطاء كل ذي حق حقه، وهذا الاعتدال مطلوب حتى في العبادات، فلا ينبغي للمسلم أن يرهق نفسه، أو يؤذي جسده، وليس من منهاج الإسلام في بلوغ الكمال حرمان الإنسان نفسه أو جسده من الطيبات والمتع الحلال، وإنما منهاجه في الاعتدال، فإذا وجد الإنسان أو تيسر له شيء من الطيبات بطريق الحلال أخذه وتناوله، ولا يقدح ذلك في تعلقه بمثالية الإسلام، فالمطلوب لبلوغ الكمال تقوى الله وليس تحريم الطيبات وحرمان الجسد أو النفس منها، ومع هذا فقد يسوغ أو يندب أو يجب أخذ الإنسان نفسه بالشدة وخشونة العيش ورضاه بالضيق إذا كان ذلك لغرض مشروع أو مقصد نبيل أو لسبب مقبول، كما لو كان المسلم في مقام القدوة، أو بسبب إيثار الغير على نفسه، أو بسبب امتناعه عما لا يجوز له، وعلى هذا الأساس يجب أن نفهم سيرة أسلافنا الصالحين وما روي عنهم من أخذ نفوسهم بالشدة وامتناعهم عن كثير من طيبات العيش ونعومته.

الثاني: بالشمول فالشريعة الإسلامية تريد من المسلم أن يبلغ الكمال المقدور له بتناسق وفي جميع شؤونه، فلا يقبل على جانب واحد أو عدة جوانب ويبلغ فيها المستوى العالي من الكمال بينما، يهمل الجوانب الأخرى حتى ينزل فيها إلى دون المستوى المطلوب، إن مثله مثل من يقوي يديه ويترك سائر أعضائه رخوة هزيلة ضعيفة، وعلى هذا الأساس فهم الصحابة الكرام مثالية الإسلام، فلم تأسرهم عبادة ولم تقيدهم عادة، وإنما تقلبوا في جميع العبادات والأحوال وبلغوا فيها المستوى العالي من الكمال، فلم يحبسوا أنفسهم في مكان ولا على نوع من العبادة ولا على نمط معين من الأعمال، وإنما باشروا الجميع، فعند الصلاة كانوا في المسجد يصلون، وفي حلقات العلم يجلسون معلمين أو متعلمين، وعند الجهاد يقاتلون، وعند الشدائد والمصائب يواسون ويساعدون، وهكذا كان شأنهم في جميع الأحوال.

وأما واقعية الشريعة فتظهر في أنها لا تغفل عن طبيعة الإنسان وواقعه، فالإسلام لا يغفل طبيعة الإنسان، وتفاوت الناس في مدى استعدادهم لبلوغ المستوى الرفيع الذي يرسمه لهم، وفي ضوء هذا النظر الواقعي جعل الإسلام حداً أدنى أو مستوى أدنى من الكمال لا يجوز الهبوط عنه؛ لأن هذا المستوى ضروري لتكوين شخصية المسلم على نحو معقول، ولأنه أقل ما يمكن قبوله من المسلم ليكون في عداد المسلمين، ولأنه وضع على نحو يستطيع بلوغه أقل الناس قدرة على الارتفاع إلى مستوى الكمال، وهذا المستوى الأدنى يتكون من جملة معاني يجب القيام بها وهي المسماة بالفرائض، كما يشمل جملة معان يجب هجرها وهي المسماة بالمحرمات، وهذه الفرائض والمحرمات جعلت بقدر طاقة أقل الناس استعداداً لفعل الخير وابتعاداً عن الشر، ومن ثم يستطيع كل واحد الوفاء بمقتضاه، ولا يعذر في التخلف عنها، ولكن بجانب هذا المستوى الإلزامي الواجب بلوغه على كل مسلم، وضعت الشريعة مستوى آخر أرفع منه وأوسع منه، وحببت إلى الناس بلوغ هذا

المستوى العالي، فإلزامهم به إرهاق لهم وحرج شديد، والحرج في شريعة الإسلام مرفوع؛ لأنه يخالف نظرة الإسلام الواقعية، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج: ٧٨] وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]، وهذا المستوى العالي يشمل المندوبات التي ترغب الشريعة في القيام بها، والمكروهات التي ترغب الشريعة في ترك المسلم لها، وتظهر واقعية الإسلام في أمر آخر هو إيجاد المخارج المشروعة للمسلم في أوقات الشدة والضيق، وعدم إلزامه بما كان لازماً له أو واجباً عليه أو محرماً عليه في الأوقات العادية، وعلى هذا الأساس جاءت الرخص كلها، وجاءت القاعدة الفقهية (الضرورات تبيح المحظورات)؛ لأن النفوس قد لا تقوى على الاستمرار بما يريده الإسلام في الظروف القاسية والأحوال الاضطرارية فتقع في المعصية، فخفف الإسلام عنها بما شرعه من رخص، كإباحة أكل الميتة عند الجوع الشديد الذي يخاف فيه تلف النفس، وإباحة ترك الواجب مثل الفطر في رمضان للمريض والمسافر، وإباحة الصلاة للمريض وهو قاعد إذا كان لا يقوى على الوقوف.

وبهذه المثالية والواقعية في الإسلام يستطيع المسلم أن يحقق لنفسه الكمال المقدور له بيسر واعتدال وشمول وبما يوافق الفطرة، دون إرهاق ولا حرج ولا انعزال عن الحياة وأهلها[1].

الجزاء في الشريعة الإسلامية

وتمتاز الشريعة الإسلامية بخصيصة هامة تتجرد وتتعرى عنها القوانين والأنظمة الوضعية البشرية، وهذه الخصيصة هي أن الجزاء في الشريعة الإسلامية دنيوي وأخروي، فالجزاء الدنيوي يتمثل في العقوبات التي يوقعها قضاء الدولة على من يرتكب جرماً أو يترك

١- انظر لما سبق من الخصائص: أصول الدعوة للعلامة الدكتور عبد الكريم زيدان -رحمه الله تعالى- ص٤٠-٧٧.

واجباً، والأخروي قد أعد الله تعالى له يوما سماه يوم الدين أي: اليوم الذي يدين الله تعالى فيه العباد بأعمالهم ويحاسبهم عليها، وكون الجزاء في الشريعة الإسلامية دنيوي وأخروي فهذا يعني الآتي:

أ- أن الشريعة الإسلامية تعنى بإصلاح الفرد إصلاحا جذرياً عن طريق تربيته على معاني العقيدة الإسلامية، ومنها: مراقبته لله، والخوف منه، وأداء ما افترضه عليه من ضروب العبادات، وهذا كله سيجعل نفسه مطواعة لفعل الخير، كارهة لفعل الشر، بعيدة عن ارتكاب الجرائم، وفي هذا كله أكبر زاجر للنفوس، وبالإضافة إلى ذلك فإن الشريعة الإسلامية تهتم بطهارة المجتمع وإزالة مفاسده، ولهذا ألزمت أفراده بإزالة المنكر، ولا شك أن المجتمع الطاهر العفيف سيساعد كثيراً على منع الإجرام وقمع المجرمين والمفسدين، وسيقوي جوانب الخير من النفوس ويسد منافذ الشر التي تطل منها النفوس الضعيفة، وفي هذا أيضاً ضمان لتقوية النفوس وإعطائها مناعة ضد الإجرام، وهذا بدوره يعمل على الاستقرار وإيجاد الأمن وإزالة المحن والفتن والقلاقل والاضطرابات وأسباب التمزق، فيأمن كل فرد على نفسه ودينه وماله وأهله، فترتاح القلوب وتصفو النفوس ويتحد الصف وتجتمع الكلمة[1].

ب- أن المجرم إذا أمكنه أن يهرب من حكم الله وعقابه في الدنيا فلن يفر من ذلك في الآخرة، وهذا يربي النفوس على الخوف من الإقدام على الجرائم حتى لو ضمن التخفي والتستر عن أعين الناس والفرار من العقاب بالتزوير والتلفيق؛ لأنه يعلم أن عين الله تراه، وأنه سيحاسب على جرمه ويطالب برد الحقوق إلى أهلها في يوم لا عملة فيه إلا الحسنات والسيئات، ولذلك يقول النبي ﷺ في حديث أم سلمة رضي الله عنها: "إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ

١- المصدر السابق ٣١٦/١، ٣١٧ بتصرف.

إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلَا يَأْخُذْهَا"[1]، بينما المجرم في القوانين الوضعية إن أمكنه الفرار من العدالة والتحايل عليها فإنه يسارع ويبادر؛ لأنه بفراره من العدالة والتحايل عليها يكون قد فر من الجزاء الذي يخافه، أما المسلم فإنه إن فر مما يخافه في الدنيا فلن يفر منه يوم القيامة، مع العلم أن العقاب الدنيوي للمجرم لا يمنع العقاب الأخروي ما لم يقترن به الإقلاع عن الجرم والتوبة النصوح ورد المظالم، وهذا بدوره يعمل على منع الإجرام والسطو على حقوق الآخرين وظلمهم، وبالتالي يتحقق الاستقرار ويوجد الأمن وتتوحد القلوب ويلتم الشمل.

ج- جميع العقوبات الشرعية بنيت على أساسين كبيرين: **الأول**: العدل، **والثاني**: الردع، ويظهر الأساس الأول –العدل– في أن العقوبة بقدر الجريمة، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[الشورى:٤٠] فليس فيها زيادة على ما يستحقه المجرم، ويظهر الأساس الثاني –الردع– في مقدار الألم الذي تحدثه العقوبة في المجرم وما تسببه له من فقدان حريته أو بعض أعضائه، ولا شك أن فقده هذه الأشياء يؤلمه ويخيفه فيمتنع من الإجرام بدافع من حب الذات والخوف من المؤذي المؤلم إذا ما سولت له نفسه الإجرام وزين له الشيطان مخالفة حدود الإسلام[2].

إن هذين الأساسين ينعدمان في القوانين الوضعية عموماً والمعاصرة خصوصاً، وبالتالي لا يمكن مساواة الأحكام الشريعة بالقوانين والأنظمة الوضعية؛ وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠]،

١- رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين ٢/٩٥٢ برقم: ٢٥٣٤، ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ٣/١٣٣٧ برقم: ١٧١٣.

٢- أصول الدعوة للعلامة عبد الكريم زيدان ص٣٢٠.

فالاستفهام للإنكار والتعجب من حالهم ولتوبيخهم؛ لأن التولي عن حكم الله وحكم رسول الله ﷺ وطلب حكم آخر منكر عجيب، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب[١].

قال ابن كثير: «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات بما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير»[٢].

وبهذا يظهر أن الحل للخروج من الأزمات والمآزق يتمثل في تطبيق الشريعة الإسلامية ذات المبادئ والأسس السماوية السامية التي تحفظ لجميع سكان الأرض أمنهم واستقرارهم، والعمل على نشر تعاليم هذه الشريعة المباركة التي تربي النفوس وتعمل على كبح شهواتها، لا محاربتها ونعتها ومن تمسك بها بالنعوت المستوردة.

حراسة الشريعة سبيل النجاة

مما سبق تبين أن الشريعة الإسلامية تمتاز بأنها ربانية المصدر -أي بأنها من عند الله- وبالتالي فهي كاملة تامة، وتمتاز بعمومها لجميع أهل الأرض على مختلف ألوانهم وألسنتهم وأعراقهم وأجناسهم وأوطانهم، وتمتاز بمرونتها وذلك من خلال باب الاجتهاد الذي

١- روح المعاني ١٥٥/٦.

٢- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ٢/ ٦٨.

أكسبها هذه الخصيصة الفريدة مما جعلها لا تضيق بحاجات البشر أبداً في كل زمان ومكان، وتمتاز بشمولها لجميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان، وتمتاز بالمثالية أي بحرصها على إبلاغ الإنسان أعلى مستوى ممكن من الكمال، والواقعية حيث إنها لا تغفل عن طبيعة الإنسان وواقعه، وتمتاز بأن الجزاء فيها دنيوي وأخروي، وهذا بدوره يحد من وقوع الجرائم والاعتداء على حقوق الآخرين، وبالتالي لا ولن يوجد على وجه الأرض قوانين أو تشريعات تحقق الأمن والاستقرار، وتوحد القلوب والصفوف، وتزيل أسباب التفرق، وتطيب بها النفوس كما هو الحال في هذه الشريعة الغراء.

وعليه **فالحل للخروج من التمزق والاضطرابات** والفتن والمحن وكل المآزق بحراسة هذه الشريعة المباركة الغراء التي بها الحفظ والوقاية والمنعة من الهلاك أو الأسباب المؤدية إليه، ويتحقق ذلك بأمرين:

الأمر الأول: المحافظة على هذه الشريعة بإبقاء حقائقها ومعانيها ونشرها بين الناس كما بلغها رسول الله ﷺ، وسار عليها صحابته الكرام، ونقلوها إلى الناس من بعدهم، وعلى هذا لا يجوز أي تبديل أو تحريف في هذه الحقائق والمعاني، لأن التحريف والتبديل يدخلان في نطاق الابتداع المذموم في دين الله، ولا يجوز التردد أبداً في منع التبديل والتحريف بحجة حق الفرد في إبداء الرأي وحرية الفكر والاجتهاد[1]؛ لأن الفرد إن كان

١- **قرار المجمع الدولي بشأن حرية التعبير عن الرأي**: إن مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنعقد في دورته التاسعة عشرة في الشارقة من ١ إلى ٥ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ، الموافق ٢٦-٣٠ إبريل ٢٠٠٩م، بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع: ((**حرية التعبير عن الرأي (ضوابطها، وأحكامها)**)، وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حوله، قرر ما يأتي:

أولاً: المقصود بحرية التعبير عن الرأي: تمتع الإنسان بكامل إرادته في الجهر بما يراه صواباً، ومحققاً النفع له، وللمجتمع، سواء تعلق بالشؤون الخاصة، أو القضايا العامة.

ثانياً: حرية التعبير عن الرأي حق مصون في الإسلام في إطار الضوابط الشرعية.

ثالثاً: من أهم الضوابط الشرعية لممارسة حرية التعبير عن الرأي:=

مسلماً فليس من حقه أن يبدل دين الله، وإذا اختار لنفسه الضلالة ولعقيدته الفساد فليس من حقه أبداً أن يضل الآخرين أو يفسد عقائدهم، وإن كان الفرد غير مسلم فليس من حقه أبداً أن يخرج على نظام دار الإسلام ويشوه حقائق الإسلام وإلا كان ناقضاً لعقد الذمة، ومع هذا فقد يقع المسلم في زيغ أو شبهة أو خطأ، نتيجة فهم سقيم أو تضليل خبيث، فيجب على الحكام الاستعانة بالعلماء للعمل على كشف الشبهة وإظهار الصواب بالدليل والبرهان؛ حتى يظهر الحق وتقوم الحجة، فإن أصر المبطل على

=أ- عدم الإساءة للغير بما يمس حياته، أو عرضه، أو سمعته، أو مكانته الأدبية، مثل: الانتقاص، والازدراء، والسخرية، ونشر ذلك بأي وسيلة كانت.

ب- الموضوعية، ولزوم الصدق، والنزاهة، والتجرد عن الهوى. ج- الالتزام بالمسؤولية، والمحافظة على مصالح المجتمع، وقيمه.

د- أن تكون وسيلة التعبير عن الرأي مشروعة، فلا يجوز التعبير عن الرأي ولو كان صواباً بوسيلة فيها مفسدة، أو تنطوي على خدش الحياء، أو المساس بالقيم، فالغاية المشروعة لا تبرر الوسيلة غير المشروعة.

هـ- أن تكون الغاية من التعبير عن الرأي مرضاة الله تعالى، وخدمة مصلحة من مصالح المسلمين الخاصة أو العامة.

و- أن تؤخذ بالاعتبار المآلات والآثار التي قد تنجم عن التعبير عن الرأي؛ وذلك مراعاة لقاعدة التوازن بين المصالح والمفاسد، وما يغلب منها على الآخر.

ز- أن يكون الرأي المعبر عنه مستنداً إلى مصادر موثوقة، وأن يتجنب ترويج الإشاعات التزاماً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات:٦].

ح- أن لا تتضمن حرية التعبير عن الرأي أي تهجم على الدين، أو شعائره، أو شرائعه، أو مقدساته.

ط- أن لا تؤدي حرية التعبير عن الرأي إلى الإخلال بالنظام العام للأمة، وإحداث الفرقة بين المسلمين. ويوصي بما يلي:

أ- تأمين الضمانات الكافية لحماية حرية التعبير عن الرأي المنضبطة بالشريعة، والمراعية للمسؤولية، بِسَنّ القوانين الحامية لذلك، والتشريعات، وبالقضاء العادل.

ب- اتخاذ الوسائل المتاحة لمنع استخدام حرية التعبير عن الرأي أداة للإساءة إلى الثوابت والمقدسات الإسلامية، أو بث الفتنة بين المسلمين.

ج- العمل على تطبيق ما اشتملت عليه المواثيق الدولية من قيود لمنع الإساءة إلى الأديان، ورموزها، مع استبعاد الازدواجية في تعامل المجتمع الدولي مع القضايا الإسلامية والقضايا الأخرى.

د- عمل الدول الإسلامية إلى إصدار تشريع دولي يحمي المشاعر والمقدسات الدينية بوجه عام من التطاول عليها، والسخرية بها، والتشويه لها، تحت ستار الفن، أو حرية التعبير عن الرأي، أو غيرها. والله أعلم.

باطله وسعى إلى نشره في الناس منع من ذلك وأقيم عليه ما يوجبه الشرع؛ لأن التهاون في مثل ذلك يؤدي إلى فساد دين الناس ودنياهم، فيتهارجون ويتقاتلون وتعم الفتن ويصبح هذا الجيل مفرطاً في الشريعة ومضيعاً لها، وبالتالي غير مؤهل للقيام بما أوكل إليه، وبالتالي يذهب الله به ويأتي بغيره، فأي جيل يريد الحفظ له ولذريته فعليه بالمحافظة على شريعة الله؛ لأن الله تعالى حافظ دينه وشريعته لا محالة، فمن حفظها حفظه الله، ومن ضيعها أهلكه الله.

ومن لوازم حفظ الشريعة تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة- ويدخل في ذلك التسلح النووي الدفاعي فإنه حق مشروع وإلا كيف يحق ذلك لدول دون دول! أليس من حق جميع دول العالم أن تدافع عن نفسها وتحمي ديارها وأراضيها؟!- حتى لا يظهر الأعداء على حين غرة ينتهكون فيها محرماً ويسفكون فيها لمسلم أو معاهداً دماً، ودفع الأعداء عن دار الإسلام ضروري لحفظ الدين وبقائه؛ لأن استيلاء الكفرة على دار الإسلام ضياع للإسلام وطمس لحقائقه وفتنة عظيمة للمسلمين وزعزعة لعقائدهم بسبب حكم الكفرة له وما يبذلونه لصرف المسلمين عن دينهم الحق بالوعد والوعيد والتلبيس والخداع والتضليل، بل من لوازم وتمام حفظ الدين العمل على إعلاءه وإظهاره على جميع أنظمة الكفر حتى لا يبقى للباطل حكم قائم ولا راية مرفوعة.

الأمر الثاني: تنفيذ هذه الشريعة بالتطبيق الكامل والشامل والتام لأحكام هذه الشريعة الكاملة بحذافيرها في سائر معاملات الناس وعلاقاتهم فيما بينهم، وفي علاقاتهم مع الدولة، وفي علاقة الدولة مع غيرها من الدول، وحمل الناس على الوقوف عند حدود الله والطاعة لأوامره وترغيبهم في ذلك، ومعاقبة المخالفين بالعقوبات الشرعية، وإزالة المفاسد والمنكرات من المجتمع كما يقضي به الإسلام، إذ لا يمكن ادعاء حفظ الدين مع ترك المفاسد والمنكرات بلا إنكار ولا إزالة مع توفر القدرة على ذلك[1]، وقد أشار القرآن

١- انظر: أصول الدعوة للدكتور زيدان ص ٢٥٦-٢٥٧.

الكريم إلى هذا المقصد من مقاصد الحكم الإسلامي، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١].

قال الإمام البهوتي: «ويلزم الإمام عشرة أشياء:

[الأول] حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة، فإن زاغ ذو شبهة عنه بين له بالحجة، وأخذه بما يلزمه من الحقوق؛ ليكون الدين محروساً من الخلل.

[الثاني] وتنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع ما بينهم من الخصومات.

[الثالث] وحماية البيضة، والذب عن الحوزة؛ لينصرف الناس في معايشهم، ويسيروا في الأسفار آمنين

[الرابع] وإقامة الحدود؛ لتصان محارم الله عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف أو استهلاك.

[الخامس] وتحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون بها محرماً أو يسفكون بها دماً معصوماً.

[السادس] وجهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة.

[السابع] وجباية الخراج والصدقات على الوجه المشروع.

[الثامن] وتقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير، ودفعه في وقته من غير تقديم ولا تأخير.

[التاسع] واستكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال والأموال؛ لتكون مضبوطة محفوظة.

[العاشر] وأن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، ويتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً؛ فقد يخون الأمين ويغش الناصح»[١].

قرار مجمع الفقه الدولي بشأن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره الخامس بالكويت من ١ إلى ٦ جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ/١٠ إلى ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٨م، بعد اطلاعه على البحوث المقدمة من الأعضاء والخبراء في موضوع: (تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية) واستماعه للمناقشات التي دارت حوله، وبمراعاة أن مجمع الفقه الإسلامي الذي انبثق عن إرادة خيرة من مؤتمر القمة الإسلامية الثالثة بمكة المكرمة، بهدف البحث عن حلول شرعية لمشكلات الأمة الإسلامية وضبط قضايا حياة المسلمين بضوابط الشريعة الإسلامية، وإزالة سائر العوائق التي تحول دون تطبيق شريعة الله، وتهيئة جميع السبل اللازمة لتطبيقها، وإقراراً بحاكمية الله تعالى، وتحقيقًا لسيادة شريعته، وإزالة للتناقض القائم بين بعض حكام المسلمين وشعوبهم، وإزالة لأسباب التوتر والتناقض والصراع في ديارهم، وتوفيراً للأمن في بلاد المسلمين قرر:

أن أول واجب على من يلي أمور المسلمين تطبيق شريعة الله فيهم، ويناشد جميع الحكومات في بلاد المسلمين المبادرة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وتحكيمها تحكيماً تاماً كاملاً مستقراً في مجالات الحياة، ودعوة المجتمعات الإسلامية أفراداً وشعوباً ودولاً للالتزام بدين الله تعالى وتطبيق شريعته باعتبار هذا الدين عقيدة وشريعة وسلوكاً ونظام حياة.

ويوصي بما يلي:

١- مواصلة المجمع الأبحاث والدراسات المتعمقة في الجوانب المختلفة لموضوع تطبيق الشريعة الإسلامية ومتابعة ما يتم تنفيذه بهذا الشأن في البلاد الإسلامية.

١- كشاف القناع ٦/ ١٦٠-١٦١، وانظر: مطالب أولي النهى ٦/٢٦٦.

٢- التنسيق بين المجمع وبين المؤسسات العلمية الأخرى التي تهتم بموضوع تطبيق الشريعة الإسلامية وتعد الخطط والوسائل والدراسات الكفيلة بإزالة العقبات والشبهات التي تعيق تطبيق الشريعة في البلاد الإسلامية.

٣- تجميع مشروعات القوانين الإسلامية التي تم إعدادها في مختلف البلاد الإسلامية ودراستها للاستفادة منها.

٤- تطبيق الشريعة الإسلامية، وإعداد جيل مسلم يحتكم إلى شرع الله تعالى.

٥- التوسع في تأهيل الدارسين والخريجين من قضاة ووكلاء نيابة ومحامين لإعداد الطاقات اللازمة لتطبيق الشريعة الإسلامية[١].

وجاء في **بيان مجمع الفقه الدولي في دورة مؤتمره الثالثة عشرة** المنعقدة في الكويت في ١٤٢٢هـ الموافق ٢٠٠١م بشأن أحداث فلسطين وغيرها:

وإن المجمع يوصي الأمة الإسلامية حكاماً وشعوباً بالآتي:

أولاً: الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة:

إن ما حلَّ بالأمة الإسلامية داخلياً وخارجياً من مصاعب، وأزمات، وحروب، سببه الابتعاد عن العقيدة والشريعة وهي هدي الله وذكره، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه:١٢٤]، وإن طول الأمد باستبعاد الشريعة الإسلامية يزيد من الفجوة بين الحكومات وشعوبها، ويزيد من الاجتهادات الخاطئة، والانحرافات الفردية والجماعية في الفكر والسلوك.

ويؤكد المجمع في توصيته في الدورة السابعة بدعوة الحكومات في البلاد الإسلامية للذود عن العقيدة الإسلامية، وتمكينها بصورتها النقية من الشوائب، والتحذير من كل ما يؤدي إلى

١- مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الخامس ٢/١١٤٠٣.

هدمها، والتشكيك في أصولها، ويقسم وحدة المسلمين ويجعلهم مختلفين متنابذين، كما يؤكد ما جاء في هذه التوصية بدعوة الحكومات في البلدان الإسلامية إلى العمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، واتخاذها منهجاً في رسم علاقاتها السياسية: المحلية والعالمية...

وفي الختام يدعو علماء المجمع الله تبارك وتعالى أن يوفق ولاة أمور المسلمين لما يحبه ويرضاه، وأن ييسر لهم طريق تطبيق شريعته، فهي حبل الله المتين، ونوره المبين، وصراطه المستقيم، لا نجاة ولا عزة لهم إلا بالتمسك به، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل[1].

١- المصدر نفسه، العدد الثالث عشر ٢/٢٥٨١٢، ٢٥٨١٣، ٥٨١٧.

المطلب الثاني: الذنوب والمعاصي

إن هذا السبب وإن كان لا يخرج عما قبله وما يأتي بعده في السبب الرابع -لأن في الذنوب والمعاصي مخالفة للشريعة، وانهماك العباد فيها مما يظلم فيه العباد أنفسهم- إلا أنه لأهميته وحاجته لشيء من البيان أفردته.

إن مما ينبغي على كل إنسان أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، فما من شر وبلاء وفتنة وداء في الدنيا والآخرة إلا كان سببه الذنوب والمعاصي، فما الذي أخرج آدم وحواء من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب، وما الذي أخرج إبليس من ملكوت الله في السماء وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه، فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبدل بالقرب بعدا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحا، وبالجنة نارا تلظى، وبالإيمان كفرا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تبارك وتعالى، وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال، وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة، وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم، وما الذي رفع قرى قوم لوط حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فأهلكم جميعا، ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم -ولإخوانهم أمثالها- وما هي من الظالمين ببعيد، وما الذي أرسل على قوم

شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارا تلظى، وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق والأرواح للحرق، وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله، وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرا، وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم، وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فاهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علو تتبيرا، وما الذي سلط عليهم أنواع العذاب والعقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب؟![1] إنها الذنوب والمعاصي.

إن ما نزل وينزل بنا من البلايا والفتن، والمصائب والمحن، والضعف والهوان، والذل والصغار، وتسلط الأعداء وأعوانهم العملاء، إنما سببه الذنوب والمعاصي التي في الوقوع فيها المخالفة للشريعة والخروج عن حدودها، بل لقد انتشرت الذنوب والمعاصي وعمت حتى أصبحت شيئا مألوفاً مع أنها من المهلكات، فعن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش رضي الله عنهم أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: **"لاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ؛ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ؛ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ: زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ"**[2]، وعن أنس ﷺ قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في

١- انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) لابن القيم ص ٢٦، ٢٧.

٢- رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج ٣/ ١٢٢١ برقم: ٣١٦٨، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ٤/ ٢٢٠٧ برقم: ٢٨٨٠.

أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات، قال أبو عبد الله: يعني بذلك المهلكات»[١].

إن للذنوب والمعاصي آثارها السيئة على البلاد والعباد؛ لأنها تحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن[٢]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١].

قال الألوسي: «كالجدب، والموتان[٣]، وكثرة الحرق، والغرق، وإخفاق الصيادين والغاصة، ومحق البركات من كل شيء، وقلة المنافع في الجملة، وكثرة المضار»[٤].

وقال الحسن: «أفسدهم الله بذنوبهم في بر الأرض وبحرها بأعمالهم الخبيثة»[٥].

وقال أبو العالية «من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة»[٦].

قال الإمام ابن القيم: «ونَزِّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أُخَرُ متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم

١- رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من محقرات الذنوب ٥/٢٣٨١ برقم: ٦١٢٧.

٢- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) لابن القيم ص٤٢.

٣- قال ابن منظور: «والموتان و الموتان كله الموت يقع في المال والماشية»، لسان العرب ٢/٩٣.

٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ٢١/٤٧.

٥- رواه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الزهد، كلام الحسن البصري ٧/١٨٨، برقم: ٣٥٢٠٥.

٦- تفسير ابن كثير ٣/٤٣٦.

ومياههم وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم»[١].

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"[٢].

وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: «لما فتحت مدائن قبرص وقع الناس يقتسمون السبي ويفرقون بينهم، ويبكى بعضهم على بعض، فتنحى أبو الدرداء ثم احتبى بحمائل سيفه فجعل يبكى، فأتاه جبير بن نفير فقال: ما يبكيك يا أبا الدرداء؟ أتبكى في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله وأذل فيه الكفر وأهله!، فضرب على منكبيه ثم قال: ثكلتك أمك يا جبير بن نفير، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، بينا هي أمة قاهرة ظاهرة على الناس لهم الملك حتى تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى، وإنه إذا سلط السباء على قوم فقد خرجوا من عين الله ليست لله بهم حاجة»[٣].

١- الطب النبوي ص٢٨٢.

٢- رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢ برقم: ٤٠١٩، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة ٢/ ٣٧٠ برقم: ٣٢٤٦.

٣- سنن سعيد بن منصور ٢/٢٩٠، ٢٩١ برقم: ٢٦٦٠.

وروي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[البقرة:١٥٩] قال: «دواب الأرض -الخنافس والعقارب- يقولون: منعنا القطر بخطايا بني آدم»[١].

انتشار الذنوب والمعاصي بأنواعها

لقد فشت الذنوب والمعاصي بجميع أنواعها:

فترى الكبرياء، والجبروت، والعظمة، والقهر، والعلو، والظلم، واستعباد الخلق، والقول على الله بلا علم في خلقه وأمره، وهذه ما يسميها علماء السلوك بالصفات الملكية، وهي أن يتعاطى العبد ما لا يصلح له من صفات الربوبية، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله ﷻ ربوبيته وملكه وجعل له نداً وهذا أعظم الذنوب عند الله ﷻ ولا ينفع معه عمل، قال رسول الله ﷺ: "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ"[٢].

وترى الحسد، والبغي، والغش، والغل، والخداع، والمكر، وتطفيف المكيال والميزان، والغيبة، والنميمة، والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعة الله وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال، وهذه الذنوب الشيطانية؛ للتشبه فيها بالشيطان.

وترى العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، واستحقار الناس والترفع عليهم، والجرأة على الظلم والعدوان، وهذه الذنوب السبعية.

١- رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب الثاني و العشرين من شعب الإيمان وهو باب في الزكاة، التشديد على من منع زكاة ماله ٣/ ١٩٨ برقم: ٣٣١٧.

٢- رواه أبو داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر ٢/٤٥٦ رقم:٤٠٩٠، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع ٢/١٣٩٧ ر قم: ٤١٤٧، قال الألباني: «صحيح لغيره»، صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٦٤ رقم: ٢٨٩٨

وترى الشره، والحرص على قضاء شهوتي البطن والفرج، ومنها يتولد: الزنا، والسرقة، وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشح، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك وهذه الذنوب البهيمية؛ لأن أصحابها جعلوا من أنفسهم كالبهائم(١).

لقد فشا الربا بل صارت الدول تتعامل به وما أذون الخزانة[٢] إلا من الربا، وصارت مجموعة من البنوك والمؤسسات تتعامل به، بل هناك مجموعة من المعاملات الدقيقة التي ربما يدخل الربا من خلالها من دون قصد وشعور لعدم العلم بحرمتها، وأصبح الميسر والقمار شائعاً تحت مسمى المسابقات، ويروج لذلك في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية-كما يروج لذلك عبر رسائل الجوال التي تقول: اتصل برقم كذا بمبلغ كذا لتحصل على كذا-حتى بعض الشركات التي ملاكها من أهل الصلاح.

وسائل إعلام أم معاصي وإجرام

لقد أصبحت وسائل الإعلام تروج للإجرام والفجور بدعوى الانفتاح وتحرير المرأة الذي يقصد منه تعرية المرأة وتجريدها من عفتها وحشمتها، وأصبحت هذه الشاشات وسيلة للحرب على الحجاب والعفة وتعاليم الإسلام، فإحدى القنوات تعرض حال المرأة المسلمة في أبشع صورة إذ تعرض امرأة في بيتها ترتب أمور البيت وبعد ذلك تخرج إلى الشارع وتعمل على جمع المال من الناس بالتسول الذي تقرن معه بعض أعمال السحر والشعوذة، ثم تستضاف إحدى المتحللات السافرات اللائي يعشن في بلاد الغرب لتتحدث عن سوء وضع المرأة المسلمة، وتجعل من حال هذه المرأة بأنه حال جميع المؤمنات الطاهرات العفيفات، إن ما أصاب هذه المرأة هو بجهلها وجهل من يقوم عليها، وإلا فإن الإسلام الذي أمر المرأة بالقرار في بيتها وعدم الخروج إلا للحاجة- لصيانتها وتطهيرها وتنقيتها من

١- الجواب الكافي ص٨٦ بتصرف.

٢- قروض تصدر بمعدل فائدة ثابتة.

الاختلاط وما يسببه من المفاسد والأضرار، ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:٣٣][1]- قد كفل لها نفقتها، فيجب على زوجها أن ينفق عليها حتى لو كانت غنية، والبنت ينفق عليها أبوها، فلماذا التزوير والتلفيق والتشويه للإسلام.

قالت سلمى الحفار الكزبري -إحدى زعيمات الحركة النسائية المعاصرة-: «عُدْتُ من رحلتي للولايات المتحدة منذ خمسة أعوام وأنا أرثي لحال المرأة التي جرفها تيار المساواة الأعمى فأصْبَحَتْ شَقِيّة في كفاحها لكسب العيش[2]، وفَقَدَتْ حتى حُرِيّتها»[3].

فهلا تفطنت نساؤنا لهذا، أما أنهن بحاجة إلى أن يخدعن ثم يفقن وقد فقدن الشرف والعفاف، وهدمن كيان وأركان الأسرة المسلمة.

١- قال القرطبي: «معنى هذه الآية الامر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة، على ما تقدم في غير موضع». الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٧٩.

٢- قال سيد قطب: «والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى، غير مشوهة، ولا منحرفة، ولا ملوثة، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة، ولكي يهيئ الإسلام للبيت جوه ويهيئ للفراخ الناشئة فيه رعايتها، أوجب على الرجل النفقة، وجعلها فريضة... فالأم المكدودة بالعمل للكسب، المرهقة بمقتضيات العمل، المقيدة بمواعيده، المستغرقة الطاقة فيه... لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها... والمرأة أو الزوجة أو الأم التي تقضي وقتها وجهدها وطاقتها الروحية في العمل لن تطلق في جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال، وإن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول، في عصور الانتكاس والشرور والضلال»، في ظلال القرآن ٦/٧٨.

٣- مقالات الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السحيم.

إن على المرأة المسلمة أن تعتز بدينها وطهرها وعفافها وحشمتها، ولتجعل لها من النساء المؤمنات الصادقات الطاهرات من نساء نبينا ﷺ ورضي الله عنهن ونساء الصحابة والتابعين ومن تبعهم أسوة وقدوة، ولها اليوم عبرة في المرأة المسلمة المصرية مروة الشربيني والتي قتلت على يد متطرف ألماني داخل قاعة المحكمة، حيث استفزها هذا المتطرف في حديقة عامة في ألمانيا فرفعت فيه دعوى ودخلت المحكمة بحجابها معتزة به، فحكمت المحكمة على الخبيث بالغرامة، وفي جلسة استئنافية ينقض عليها أمام الحضور والقضاة ليطعنها ١٨ طعنة يرديها قتيلة والجميع يتفرج وهي حامل في شهرها الثالث، وولدها الذي عمره أربع سنوات يشاهد المنظر، ولما هب زوجها الطبيب المسلم لنجدتها أصيب قيل من قبل رجال الأمن بدعوى الخطأ، وقيل من الجاني[١].

فيسلم المجرم، وتُقتل المظلومة، ويصاب زوجها أمام القضاة ووسائل إعلامهم، فكيف دخل هذا القاتل بالسلاح إلى المحكمة، وكيف أتم ١٨ طعنة؟! أين الأمن؟! أين الحاضرون؟! أين القضاة؟! لماذا سكتت وسائل إعلامنا عن التغطية التامة والوقوف على تفاصيل هذا الحدث وتوضيحه للناس[٢]؟! وانصرفت لتنقل حالة مأساوية تعيشها امرأة مسلمة في بلاد إسلامية لتجعل من حالتها هذه حجة وسلاحاً للغرب يطعنون به الإسلام، أين الحرية المزعومة؟!، لماذا لم تتسع حريتهم لحجاب امرأة مسلمة!!، أما يكفينا خداع وتضليل!!، أما يكفي إعلامنا تبعية وعبودية!!

لقد أصبحت الدول تأخذ مخططات الغرب، وتضع منها قوانين وتشريعات، كما حاول البعض وضع مسألة تحديد سن الزواج بالثامنة عشرة، ومن زوج أو تزوج قبله فقد وقع في جرم يعاقب عليه القانون؛ معللين ذلك باضطهادها وهي صغيرة، وعدم صلاحها لذلك

١- انظر الرابط: (almoslim.net)، والرابط: (www.panet.co.il/online/articles).

٢- إن ذلك يبين عظيم مبادئ الإسلام في أمره المرأة بالقرار في بيتها وتجنيبها مخالطة الرجال والبروز عليهم، ويبين زيف دعاوى حرية المرأة، وأنها شعارات لهدم الأسرة المسلمة من خلال هدم قيم الإسلام.

في السن المبكر، في حين أن الشرق والغرب يروج في وسائل الإعلام إلى الفجور والفاحشة، بل في الغرب يعلمون الذكور والإناث ويحثونهم على ممارسة الجنس والنشاط به من وقت مبكر، إنها والله الدعوة إلى الانحلال والفجور، وإلا كيف تمنع من الزواج بشخص تحت حجة أن الزوج في صغرها يمارس معها العنف؛ لأنها لا تحتمل المعاشرة الزوجية في صغرها ثم تدعى إلى ممارسة الفاحشة مع كل من هب ودب! ألا تتأثر بذلك؟! أليس من العنف دعوتها إلى الفجور مع كل من راودها، فكيف تحتمل ذلك بالفجور دون الزواج؟!، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠].

إن اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم من الانحلال والسفور وجدوا أن مجتمعاتهم على وشك الانهيار والانقراض بعكس المجتمعات المسلمة، وعندما درسوا هذه الظاهرة وجدوا أن الفجور والانحلال الأخلاقي هو السبب فيما وصلوا إليه، وأن العفة والحشمة والزواج هو سبب صيانة المجتمعات المسلمة، فامتلأت قلوبهم حقداً وغلاً على المسلمين، ورأوا أن السبيل إلى فساد مجتمعات المسلمين في فشو الزنا والفاحشة والسبيل إلى ذلك بتأخير الزواج وخروج المرأة ومخالطتها للرجال، فوردوا لها هذه الأفكار، وتبناها بعض العملاء والجهال المغرر بهم مع أنها مخططات تأتينا من الغرب عبر لجان للمرأة وضيفتها التفرغ لتوريد أمثال هذه المخططات المقننة المدروسة[1]، والتي تسعى إلى تمزيق الترابط الموجود في الأسر والمجتمعات في بلاد الإسلام.

١- ورحم الله شيخنا العلامة حسن محمد مقبولي الأهدل رحمة الله لما ذكر تحديد سن الزواج، ذكر أن هذا الأمر لو تعلقت به مصلحة شرعية، كأن يتعجل الناس في بلد تزويج بناتهم وهن غير مؤهلات للوطء، أو إنما يبحثون عن مصالح دنيوية من وراء ذلك، فيمكن أن يكون ذلك محلاً لنظر العلماء في مدى إمكان اعتبار ذلك نظراً لمصلحة شرعية معتبرة، وذكر رحمه الله أن إثارة تحديد سن الزواج، ومحاولة سن قوانين تمنع الزواج المبكر إنما هو أمر من ورائه منظمات غربية، لا النظر إلى أي مصلحة شرعية. ومع ذلك فإن علاج هذه الحالات النادرة ممكن دون حاجة لسن أي قوانين ولو في إطار ضيق.

عقلاء الغرب يرفضون التبرج

إن عقلاء الغرب يرفضون التبرج والسفور والانحلال والدعوة إليه؛ لما يسببه من ضياع للأسرة، وخراب للأوطان، وتشريد للأطفال، وضياع للعفاف والشرف والكرامة، والهبوط إلى القاع والحظيظ.

قال (ساويل سمايلس) -وهو أحد أركان النهضة الإنجليزية-: «إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل-مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد- فإن النتيجة كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية؛ لأنه هاجم هيكل المنزل، وقوض أركان الأسرة، ومزق الروابط الاجتماعية»[١].

إمبراطور ألمانيا

لما قام إمبراطور ألمانيا (غليوم) بزيارة تركيا، أحب أعضاء جمعية الاتحاد والترقي التركية أن يُظهروا له تمدنهم! فأخرجوا بعض بنات المدارس وهن متبرجات لاستقباله، واستغرب الإمبراطور، وقال للمسؤولين: إني كنت آمل أن أشاهد في تركيا الحشمة والحجاب بحكم دينكم الإسلامي، وإذا بي أشاهد التبرج الذي نشكو منه في أوربا، ويقودنا إلى ضياع الأسرة، وخراب الأوطان، وتشريد الأطفال!![٢].

سفير الدولة العثمانية في بلاد الإنجليز

اجتمع سفير الدولة العثمانية في بلاد الإنجليز مع كبراء الدولة، فقال أحد الكبراء للسفير: لماذا تُصرون على أن تبقى المرأة المسلمة في الشرق الإسلامي متخلفة، معزولة عن الرجال، محجوبة عن النور؟! فرد السفير العثماني -بذكاء وسرعة بديهة-: لأن نسائنا المسلمات في الشرق لا يرغبن أن يَلِدْنَ من غير أزواجهن! فخجل الرجل وسكت، وبُهِت

١- مقالات الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السحيم.

٢- المصدر نفسه.

الذي كفر، ولم ينطق ببنت شفه، وتمنى أنه لم يغمز المسلمين بكلامه[١]، فما أحوج أمتنا إلى أمثال هؤلاء الذين يعتزون بدينهم وعقيدتهم وقيمهم وأخلاقهم، ويدافعون عنها، ويرفعون بها رؤوسهم ورؤوسنا.

لقد أصبحت شاشات إعلامنا ساحات عرض تعرض من خلالها المذيعات المفاتن، فهذه تكشف شعرها، وأخرى تضيف صدرها، وثالثة تستعرض بضيق ثيابها مفاصل وعضلات جسدها، وأخرى تستعرض بحليها على أذنها وصدرها، وأخرى تظهر وربما لا يعرفها أهلها مما وضعت على وجهها وجسدها من أصباغ وألوان، فأين الحياء يا بنات الإسلام؟! أبهذه السهولة صرتن ألعوبة ودُما للعرض والتسلي والتشهي؟!! بل أين آباؤهن وأزواجهن وإخوانهن؟!! بل العجيب أن البعض يفخر بظهور محرمه بأمثال هذه الصور؟!! فإذا ضاعت عندهم سلطة وعزة الدين، فهل بقي لهم نخوة ورجولة؟!!

شركات نقل أم شاشات إفساد

ومن المؤلم والعجيب أن شركات النقل الداخلية والخارجية أصبحت شاشات عرض للمنكرات والفساد، فتجد فيها عددا من الشاشات التي تعرض بما يسمى الأفلام العربية والأجنبية بدون حياء أو أدب أو خجل، لا من الله ولا من خلقه، فبعد أن كانت أمثال هذه الشاشات التي تعرض هذه الأفلام للناس تسمى بالسينما التي لا يرتادها إلا السفهاء، صارت هذه الشركات التي لا هم لها إلا جمع المال والحرص على ما يسمى بما يطلبه المستمعون أشبه بالسينما المتحركة...

وهذا غيض من فيض، وبعد هذا نستغرب مما نحن فيه من فتنة وبلاء، وفرقة وغلاء، وتسلط العملاء، وحرمان العلم في أنفسنا وبلداننا، وحرمان الرزق أو البركة فيه، وحرمان

١- الرائد دروس في التربية والدعوة ١٣٨/٣.

الطاعة، ووهن وضعف القلوب والأبدان، ومحق البركة والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

عن عمرو ابن المهاجر قال: «كنت أسمع عمر بن عبد العزيز كثيراً يتمثل بهذه الأبيات:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

ولا تحقرن صغير الذنوب ... فإن الإله شديد النقم[١]»

مع كل هذا في الدنيا يلحق العاصي العذاب يوم القيامة، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى"[٢].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ –أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ– فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ[٣]، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ[٤].

١- تاريخ مدينة دمشق ٥٤/٧٠.

٢- رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ٦/٢٦٥٥ برقم: ٦٨٥١.

٣- أي يحملون كالأمتعة جماعات منفردين في تفرقة، فيض القدير ٢/١٦٩.

٤- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ١/١٧٢ برقم: ١٨٥.

وسائل معينة على الخلاص من الذنوب والمعاصي

السبيل إلى الخلاص بالإقلاع عن الذنوب والمعاصي، والحذر منها، ويعين على ذلك الآتي:

١- الحياء من الله عز وجل، والعفة عن محارمه، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ"[١]، فيحفظ الرأس عن استعماله في غير طاعة الله، وما وعى أي: جميع الرأس من اللسان والعين والأذن، ويحفظ البطن وما اتصل اجتماعه به من الفرج والرجلين واليدين والقلب، فإن هذه الأعضاء متصلة بالجوف، وحفظها بأن لا يستعملها في المعاصي بل في مرضاة الله.

٢- أن يتذكر الموت وصيرورته في القبر عظاماً بالية، فيتيقن بأن هذه الدنيا وما فيها من ملذات هي بالقطع إلى زوال، وأن الإنسان لا ينفعه يوم القيامة سوى أن يأتي الله ﷻ بقلب سليم، ولا تتم سلامة القلب حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى نفس يناقض التجرد من شهوات الدنيا[٢].

٢- استحضار العقوبة بالخوف والخشية والرهبة، وأن يضع نصب عينيه أنه لن يفلت من العقاب، وأن هذا العقاب قد يعاجله في الدنيا فتكون معيشته ضنكا، ويرسل عليه

١- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ ١٨٧/٦ برقم: ٣٦٧١، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ ٦٣٧/٤ برقم: ٢٤٥٨، قال الألباني: «حسن لغيره »، صحيح الترغيب والترهيب ١٤٩/٢ برقم: ١٧٢٤.

٢- انظر: الجواب الكافي لابن القيم ٨٤/١، ٨٥، وتحفة الأحوذي ١٣١/٧.

أنواعاً أخرى من الهموم والبلايا ما يجعله في نكد دائم وحزن مستمر، وإذا أفلت العاصي من عقاب الدنيا فإن عذاب الآخرة أشق، وليعلم أن المؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

الأول: أن يتوب فيتوب الله عليه.

و**الثاني**: أن يستغفر فيغفر له.

والثالث: أن يعمل حسنات تمحوها، فإن الحسنات يذهبن السيئات.

والرابع: أن يدعو له إخوانه المؤمنون، ويستغفرون له حياً أو ميتاً.

والخامس: أن يهدوا له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

والسادس: أن يشفع له نبينا محمد ﷺ.

والسابع: أن يبتليه الله ﷻ في الدنيا بمصائب تكفر عنه.

والثامن: أن يبتليه في البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه.

والتاسع: أن يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر به عنه.

والعاشر: أن يرحمه أرحم الراحمين ﷻ[1].

٤- التحلي بالعفو والصفح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٢].

٥- الإقلاع الفوري عن الذنوب والمعاصي، ورد المظالم إلى أهلها، والاعتذار عن الإساءات والإهانات التي يكون قد آذى بها غيره، وأول ذلك اجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[النساء: ٣١].

١- انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/٤٥.

٦- الاستغفار والتوبة الصادقة النصوح، وهما الباب الذي لا يغلقه الله في وجه أحد ما لم يغرغر، فالله عز وجل يغفر الذنوب جميعا عدا الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٨]، وقال ﷺ: "التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ"(١).

٧- ملازمة الذكر والدعاء والإكثار منهما؛ لأنهما من موجبات الرحمة، وغفران الذنوب، فيرفعان أسباب العقاب والذي منه التمزق، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[غافر: ٦٠]، وكان الرسول ﷺ يكثر من الدعاء بـ: "يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"(٢)، فلندعو الله أن يباعد بيننا وبين المعاصي والفتن والتفرق والتمزق وكيد الأعداء، ويثبتنا على الدين والطاعة.

٨- الابتعاد عن قرناء السوء؛ لأنه لا يجني من ورائهم إلا الخسران، فإن المرء مفطور على التأثر والتأثير؛ لأنه اجتماعي بالطبع، وهو كما يقال: ابن بيئته، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ في حديث أبي موسى ﷺ إذ يقول ﷺ: "مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ

١- رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة ٢/١٤١٩ برقم: ٤٢٥٠، حسنه الألباني في صحيح سن ابن ماجة ٢/ ٤١٨ برقم: ٣٤٢٧.

٢- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ ١٩/١٦٠ برقم: ١٢١٠٧، والترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٤/ ٤٤٨ برقم: ٢١٤٠، صححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/١٧١ برقم: ٢٧٩٢.

الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ[١]، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"[٢]، ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها، فقد قيل سمي الإنس؛ لأنه يأنس بما يراه خيراً أو شراً[٣]، وما يصيب الأمة اليوم من الفساد الذي ينخر الدول والحكومات إلا بسبب الحواشي الفاسدة التي تزين للحكام معادة صلحاء العباد، وتمدح سياساتهم الفاسدة في البلاد، والمواقف والآراء المعوجة التي تمزق وتفرق وتهلك الحرث والنسل.

٩- جهاد الشيطان واتخاذه عدوا، فعلى المسلم بعد إقلاعه عن الذنب وتوبته واستغفاره أن يحصن مواقعه حتى لا يخترقها عدوه اللدود وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[فاطر:٦]، وعليه أن يعلم أن هذا العدو اللعين يتخذ من الحيل والأساليب ما يجعله يرتدي ثياب الصديق، فيبذل الكثير من الوعود الكاذبة والأماني الخادعة، ويدعو أصحابه ليكونوا من أصحاب السعير، ثم لا يغني عنهم فتيلاً عند القضاء بين العباد.

١٠- التخلص من كل الأسباب والأدوات والوسائل المؤدية إلى الوقوع في المعصية، أو المهيجة لها، أو المسببة لإثارتها، من صور، ومجلات، وأفلام، وأشرطة، ورفقة سوء، والابتعاد عن أماكنها.

١- يحذيك: يعطيك، شرح النووي لصحيح مسلم ١٦/١٧٨.

٢- رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك ٥/٢١٠٤ برقم: ٥٢١٤، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء ٤/ ٢٠٢٦ برقم: ٢٦٢٨.

٣- فيض القدير ٥/٥٠٧.

١١- مجاهدة النفس، ومقاومة المقدمات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩]، وقال ﷺ: "الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ"[١].

١٢- أن يجعل الصلة بالله ركناً أساسياً، ومكوناً رئيسياً في شخصيته، ونفسيته، وحياته.

١٣- الجلوس مع النفس لمحاسبتها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[الحشر: ١٨]، قبل العمل وبعده إذا قصر فيه بحق الله تعالى، **وحق الله في العمل والطاعة ستة أمور** هي: الإخلاص فيه، والنصيحة لله، ومتابعة الرسول، وحصول المراقبة، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره بعد ذلك كله، فيحاسب نفسه: هل وفى هذه المقامات حقها، وهل أتى بها في هذه الطاعة[٢].

قال الإمام الغزالي: «اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم؛ حرصاً منهم على الدنيا، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل فكيف لا

١- رواه أحمد، تتمة مسند الأنصار، مسند فضالة بن عبيد الأنصاري ٣٧٥/٣٩ برقم: ٢٣٩٥٢، والترمذي، فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطا ١٦٥/٤ برقم: ١٦٢١، صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣١/٢ برقم: ١٢١٨.

٢- انظر: إغاثة اللهفان ٨١/١-٨٢، وموسوعة نظرة النعيم ٣٣١٨/٨- ٣٣٢٤

يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد، ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك»[١].

١٤- شغل أوقات الفراغ واستغلالها بما يعود نفعه على الفرد والمجتمع والأمة من: قراءة للقرآن، والذكر، والدعاء، وتعلم للعلم ومناقشته، ومطالعة للكتب، والبرامج النافعة، والقيام بأعمال وأنشطة نافعة، فإن الفراغ نعمة إذا استغل، ومفسدة إذا ضيع، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: "**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**"[٢]، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون[٣]

١٥- إدارة الوقت، ويعين في ذلك ما يلي:

أ- التخطيط اليومي من الصباح الباكر، وإن كان في الأمر مشقة في أوله لكنه سيصبح أمراً عادياً مع الاستمرار، يتم من خلال هذا التخطيط وضع أهداف اليوم، والأعمال التي تحتاج إلى إنجاز، وترتيب الأولويات، والأوقات على الأعمال، ووضع برنامج لأوقات الفراغ؛ لأن الفراغ إذا لم يستغل فهو فساد ومفسدة.

ب- وضع جدول للأعمال اليومية ليتذكرها به، ويوزع من خلاله أوقات الأعمال، وترتب به الأعمال بحسب أولوياتها، ويستحسن وضعه في مفكرة للأعمال اليومية، وعدم المبالغة في تقدير الأوقات للأعمال، وشغل أوقات الفراغ، وعدم شغل الجدول بأعمال كثيرة يعجز عن القيام بها؛ فيصاب بإحباط، وليكن فيه مرونة لمواجهة الظروف غير المتوقعة، والمبادرة إلى تنفيذه.

١- إحياء علوم الدين ٤/٤٠٥.

٢- رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة ٥/٢٣٥٧ برقم: ٦٠٤٩.

٣- فتح الباري ١١/٢٣٠.

ج- المبادرة إلى تنفيذ الأعمال وعدم التأخير والحذر من التسويف؛ فإنك بيومك ولست بغد، فإن يك غداً لك فكسر في غد كما كسرت في اليوم، وإلا يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم[١].

د- ترك الخوض في فضول الأعمال واللغو والعبث لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ، تَرْكُهُ مَالا يَعْنِيهِ"[٢].

وسائل للاستفادة من الفراغ

أ- وضع مصحف صغير في الجيب؛ لاستثمار أوقات الفراغ في قراءة القرآن ومراجعته.

ب- اصطحاب بعض الكتيبات النافعة؛ لاستثمار أوقات الفراغ في قراءتها.

ت- الالتزام ببرنامج للقراءة اليومية خلال أوقات الفراغ.

ث- المشاركة في برامج نافعة، كالدورات العلمية والتدريبية، والأنشطة والمراكز العلمية ونحوها.

ج- الحذر من أهل البطالة الذين لا هم لهم إلا إضاعة الأوقات، فهم من أضيع الناس للزمن، وأكثرهم تعطيلاً للعقل، وأسوأ الناس لصاحب وأهدرهم لطاقة[٣].

١٦- عمل استبيان يسجل فيه الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في المعاصي وإضاعة الأوقات، والعمل على معالجتها بجدية وحزم.

١٧- اعتماد مبدأ (ماذا استفدنا من مجلسنا هذا) في كل مجلس يجلس فيه.

١- قصر الأمل لابن أبي الدنيا ص١٤٤.

٢- رواه الترمذي، كتاب الزهد ٤/٥٥٨ رقم: ٢٣١٧، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة ٢/١٣١٥رقم: ٣٩٧٦، صححه الألباني في صحيح ابن ماجة ٢/٣٦٠ رقم: ٣٢١١.

٣- الرائد دروس في التربية والدعوة ٤/ ٢٩٧- ٢١٣.

١٨- تربية الأجيال تربية تتكامل فيها جميع جوانب الشخصية المسلمة العقدية والفكرية والسلوكية، وذلك يتضمن:

أ- إعداد الأفراد في محاضن تربوية ذات منهج يكفل تأسيس جوانب الشخصية المسلمة.

ب- اكتشاف مهارات الأفراد وتنميتها، والتعرف على مواهبهم واستثمارها، وغرس حب القيم الأخلاقية والتربوية للشريعة الإسلامية في نفوسهم.

ت- ترسيخ مبدأ حب الطاعة والفضيلة والتعاون على القيام به ونشره.

ث- معالجة الآفات السلوكية، وتزكية النفوس وتنقيتها من الأمراض المسببة للوقوع في المعاصي.

ج- ترسيخ مبدأ البغض للمعصية والرذيلة والحذر منها أو التعلق بها أو بأهلها وحبهم.

ح- إحياء وترسيخ مبدأ الرقابة عند المربين والجهات المربية.

خ- بناء المجتمع المسلم الذي يعيش للإسلام ويحمل هم العمل به وتطبيقه، مجتمع يسود فيه مبادئ الإسلام ويتعامل بأخلاقه وقيمه، ويحتكم إلى شريعته.

د- التشجيع على إقامة الأسرة المسلمة المتماسكة.

١٩- مناصحة ولاة الأمور والتعاون معهم على البر والتقوى وتكثير سبل الخير في المجتمع.

٢٠- توجيه الإعلام لخدمة الأمة ومناصرة قضاياها والتعريف بعقيدتها وقيمها ومبادئها وأخلاقها

٢١- أن يقوم العالم الإسلامي بكافة فئاته وطوائفه على العمل من أجل نشر الفضائل، والحد من انتشار الرذائل، والمحافظة على القيم الأخلاقية، وغرسها في قلوب الجيل والنشء، وتربيتهم عليها، وعلى وجه الخصوص تلك الفئات التي تتعامل بطريقة

مباشرة في مجال بناء الإنسان، كالمعلمين والمربين الذين يشكلون القدوة لأبنائنا في المدارس عبر مساحات العالم الإسلامي، ولهم تأثير واسع وكبير في بناء شخصيات هؤلاء الأبناء، وكالإعلاميين والذين لهم دور بارز وخطير في التعليم والتربية، وفي مجال التأثير المباشر وغير المباشر عبر وسائل الاتصال الحديثة والمتنوعة، والتي جعلت من العالم كله كقرية صغيرة، والدعاة أصحاب التأثير الخطير في مجال الاتصال بالجماهير، والذين يعتبرهم الناس أهل علم الإسلام، والقدوة الاجتماعية، ويزداد هذا العمل أهمية بالنسبة لهم فيما يواجه المجتمع الإسلامي من تحديات، وأولياء الأمور خاصة في العصر الذي نعيشه الذي يتسم بسرعة التغيير وسرعة الاتصال، وما يشوب وسائل الاتصال والتربية من شوائب، تتطلب من أولياء الأمور وعيا راشداً.

٢٢- معاقبة النفس على المعاصي بعقوبات مالية، فإذا وقع في معصية أخرج مبلغاً وتصدق به لجهة خيرية كفارة لذنبه، وهكذا كلما وقع في ذنب؛ لأن النفوس مجبولة على حب المال والشح به، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[الفجر:٢٠] وإذا أدبت بفقده فلعل ذلك يكون رادعاً لها.

٢٣- الثقة برحمة الله تعالى وسعة عفوه، فإنه تعالى كتب على نفسه الرحمة.

٢٤- إنشاء وإقامة المؤسسات الدعوية الحكومية وغير الحكومية، التي تعمل على نشر الفضلية، ومحاربة الرذيلة، لا محاربة الفضيلة والسعي في نشر الرذيلة.

٢٥- المسارعة إلى عقد الصلح مع الله تعالى لا محاربة دينه وشريعة نبيه ﷺ.

المبحث الثاني: انتشار الجهل

إن الجهل[١] يورد المهالك، ويجلب المصائب والفتن، والبلايا والمحن، ويفسد ولا يصلح، ويخرب ولا يعمر، ويذل عزيز القوم، والمعصية أثر من آثاره وثمرة من ثماره، شر أنواعه ما كان صاحبه لا يعلم بجهله، وشر منه من كان يظن أنه على ما فيه عالم[٢]، وهو مرض وبيل وداء وخيم[٣]، وبظهوره تظهر الفتن ويتسع انتشارها وتكثر الفوضى وتركب المعاصي، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْهَرْجُ؟ فَقَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ، فَحَرَّفَهَا كَأَنَّه يُرِيدُ الْقَتْلَ"[٤]، وعنه ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْكَذِبُ، وَتَتَقَارَبَ الْأَسْوَاقُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ، قِيلَ: وَمَا الْهَرْجُ ؟ قَالَ: الْقَتْلُ"[٥]، وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ

١- الجهل في اللغة: خلاف العلم [معجم مقاييس اللغة ٤٨٩/١]. وفي الاصطلاح: هو عدم العلم عما من شأنه العلم، فإن قارن ذلك اعتقاد النقيض فهو جهل مركب، وهو المراد بالشعور بالشيء على خلاف ما هو به، وإلا فبسيط وهو المراد بعدم الشعور[الأشباه والنظائر لابن نجيم ص٣٠٣]، قال الجرجاني: «الجهل هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه»[التعريفات ص١٠٨]، وقال المناوي: «الجهل التقدم في الأمور المنبهمة بغير علم»[التعاريف ص٢٦٠].

٢- أنواع الجهل: ذكر الإمام الجرجاني بأن الجهل ينقسم إلى قسمين: جهل بسيط، وجهل مركب: أما البسيط: فهو عدم العلم عما من شأنه أن يكون معلوما، وأما المركب: فهو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع.[التعريفات ص١٠٨].

وقال الراغب: «الجهل على ثلاثة أضرب: الأول: وهو خلو النفس من العلم هذا هو الأصل وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مقتضياً للأفعال الجارية على غير النظام، والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً كمن يترك الصلاة متعمدا وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[البقرة: ٦٧]»، المفردات في غريب القرآن ١٠٢/١.

٣- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ٩/ ٤٣٨٩.

٤- رواه البخاري، كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ٤٤/١ برقم: ٨٥، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ٢٠٥٦/٤ برقم: ١٥٧، وهذا لفظ البخاري.

٥- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ ٤٢٢/١٦ رقم: ١٠٧٢٤، وابن حبان، كتاب التاريخ، باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث ١١٣/١٥ رقم: ٦٧١٨، قال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا"[١]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ، وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ، حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضُ (فَيَفِيضَ)"[٢]، قال ابن القيم: «فأصل كل خير هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم»[٣]، فبالجهل تتمزق الصفوف، وتتفرق الكلمة، وتتنافر القلوب، ويكثر التشاحن والتباغض والتدابر والتقاطع[٤]:

والجهل داء قد تقادم عهده ... في العالمين ولا يزال عضالا

لولا الجهالة لم يكونوا كلهم ... إلا خلائق إخوة أمثالا[٥]

جهل الحاكم والمحكوم

إن جهل الحكام بواجبهم الذي نصبوا من أجله وهو حماية الدين وسياسة الدنيا به، وجهلهم بما يجب للشعوب عليهم من السعي في تحقيق النظام ورفع الفوضى والعشوائية، وتوفير الأمن لهم في أنفسهم وأموالهم ومن ذلك الأمن الغذائي الذي لا يتحقق الأمن ولا يوجد بغيابه، ولهذا أمتن الله على قريش بتحقيق الأمنين: الأمن من الخوف والأمن الغذائي من الجوع فقال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾[قريش:٤]، وتحقيق الحياة الكريمة لمواطنيهم، وبأنهم وكلاء عن الشعوب وليس للوكيل أن يتصرف في غير ما

١- رواه البخاري، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل ١/٤٣ برقم: ٨٠، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ٤/٢٠٥٦ برقم: ٢٦٧١.

٢- رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات ١/٣٥٠ برقم: ٩٨٩.

٣- إغاثة اللهفان ٢/١٣٧.

٤- وكل هذا مما يقود إلى القتل، وانظر إلى واقع الأمة اليوم تجد ذلك جلياً واضحاً، قتل مستعر، ودمار ينتشر.

٥- ديوان خليل جبران ص١٧٢٩.

وكل فيه، وأن تصرفاتهم في شعوبهم منوطة بالمصلحة، وأن للشعوب الحق في الاحتساب عليهم وتقويم اعوجاجهم.

وجهل الشعوب بما يجب عليها تجاه حكامها من الطاعة بالمعروف في غير معصية؛ لأن الناس في طاعة الحكام بين إفراط وتفريط: فقسم أعلن الطاعة المطلقة العمياء حتى رأى أن الوقوف بكلمة الحق في وجه الحاكم الظالم من الخروج عليه، وقسم آخر أعلن العصيان والتمرد حتى لو أمر الحاكم بما فيه خير حمله على شر محمل وأبى الانصياع إليه، والحق مع فريق هم وسط بين هذين الطرفين، يسمع ويطيع في المعروف من غير ظلم ومعصية، فإن أمر بمعصية أو ما فيه ظلم فلا سمع ولا طاعة في ذلك الأمر.

وكذلك جهل الشعوب بالصفات الواجب توفرها في الشخص حتى يكون أهلاً لتولي هذا المنصب[1]، وأن من واجبهم نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم وإن كان حاكماً.

١- قال الماوردي: «وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة:

أحدها: العدالة على شروطها الجامعة [وهي خمسةٌ: الإسلامُ، والبلوغ، والعقل، والسلامة من الفسق -وهو ارتكابُ كبيرةٍ، أو إصرار على صغيرةٍ- والسلامة مما يخرم المروءة، انظر: شرح التبصرة والتذكرة ١/١٠٤].

والثاني: العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام. والثالث: سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها. والرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

والخامس: الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح. والسادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

والسابع: النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه، وانعقاد الإجماع عليه» الأحكام السلطانية ١/٦.

وقال ابن قدامة: «وينبغي أن يكون الحاكم قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، ويكون حليماً متأنياً ذا فطنة وتيقظ، لا يؤتى من غفلة، ولا يخدع لغرة، صحيح السمع والبصر، عالماً بلغات أهل ولايته، عفيفاً ورعاً نزهاً بعيداً عن الطمع، صدوق اللهجة، ذا رأي ومشورة، لكلامه لين إذا قرب، وهيبة إذا أوعد، ووفاء إذا وعد، ولا يكون جباراً، ولا عسوفاً فيقطع ذا الحجة عن حجته» المغني ١٠/٩٥.

تنبيه: اشتراط أن يكون الخليفة قرشياً هو مذهب الجمهور؛ لحديث: "**الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ**"، وفي الصحيحين: "**النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ، مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ، وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ**"، ولكن النصوص دلت على أن ذلك مشروط بإقامتهم الدين وطاعتهم لله ورسوله، وإلا فغيرهم ممن يطيع الله تعالى وينفذ أوامره أولى؛ كقول النبي ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه: "**إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ، لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَّهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ**»[أضواء البيان ١/٢٤].=

وجهل الطرفين-أي: الحكام والمحكومين- بحرمة سفك الدم، وبأن الأعداء يلعبون بكل طرف ويحرضونه على الآخر ويدعمونه لمواجهة الآخر، حتى أصبح من أهداف الغرب الآن تعمد إيجاد الأنظمة المستبدة الظالمة الجاهلة ومن ثم الضغط عليها للقيام بتجهيل شعوبها؛ لتضرب الحكام بالشعوب والشعوب بالحكام، وبسبب جهل الجميع بما يجب لهم وعليهم فمن السهل إشعال نار الفتنة وإثارة الشبهات والقلاقل التي تموج وتعصف بالبلاد والعباد؛ لأن البيئة الجاهلة أخصب بيئة لإثارة الفتنة فيها:

هـــذا الزمـــان زمـــان الجهـــل والفـــتن فـــانظر إلى مـــا فشـــا في النـــاس مـــن نـــتن

يغمـــى علـــى المـــرء في أيـــام محنتـــه حـــتى يـــرى حســـنا مـــا لـــيس بالحســـن[1]

=ولا يشترط أن يكون هاشمياً ولا علوياً باتفاق فقهاء المذاهب الأربعة؛ لأن الثلاثة الأول من الخلفاء الراشدين لم يكونوا من بني هاشم، ولم يطعن أحد من الصحابة في خلافتهم، فكان ذلك إجماعاً في عصر الصحابة[الموسوعة الكويتية ٦/٢١٩].

فلم يخص النبي ﷺ بني هاشم دون غيرهم من قريش وهم أفضل بطون قريش؛ لأنها بطن من قبيلة، فعددها محصور وقليل، فلا يلزم أن يكون الفضلاء فيها، كما أن أفضل الناس بعد النبي ﷺ لم يكن فيهم، وإنما في بني تيم وهو أبو بكر، ثم عمر من بني عدي، ثم عثمان من بني أمية، ثم علي من بني هاشم.

والحكمة في ذلك أن قريشاً هي أفضل قبائل العرب بنص الحديث عن النبي ﷺ، فهم مظنة أن يكون فيهم الخير أعظم مما يوجد في غيرهم، ولهذا كان منهم أشرف خلق الله تعالى ﷺ، وكان منهم الخلفاء الراشدون، وسائر العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم، وغيرهم ممن لا يوجد له نظير في العرب وغير العرب، فلا بد أن يوجد في الصنف الأفضل ما لا يوجد مثله في المفضول، فمظنة وجود الفضلاء في قريش أكثر من مظنة وجودهم في غيرها، ومن الحكمة أيضاً أن الله ﷻ قد ميزهم عن غيرهم من سائر القبائل بقوة النبل وسداد الرأي، وهما صفتان هامتان وضروريتان للإمام، يدل لذلك الحديث ما رواه أحمد بإسناد صحيح عن جبير بن مطعم ﷺ[فتاوى الشبكة الإسلامية على الرابط: (http://www.islamweb.net)].

ولا يشترط هذا الشرط في ولاية الأقاليم؛ فقد استعمل النبي ﷺ والصحابة من بعده أمراء غير قرشيين كما هو مشهور معلوم، ولا يشترط هذا الشرط إلا عند الاختيار من أهل الحل والعقد، أما الإمام المتغلب الذي غلب على الحكم بالقوة فلا يشترط فيه القرشية؛ بدليل قول النبي ﷺ: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ"، رواه البخاري (٦٧٢٣)، فالحديث أوجب الطاعة لكل إمام، وإن كان عبداً حبشيًّا. فتاوى من موقع الإسلام اليوم على الرابط: (www.islamtoday.net).

١- الثقافة التي نحتاج إليها ص٩.

أعظم الجهل والتجهيل

وإن من أعظم الجهل والتجهيل اليوم الحرب ضد تعليم الدين، وسياسة تجهيل الشعوب بالإسلام؛ تحت ستار مكافحة الإرهاب، ومن مظاهر ذلك تغيير المناهج، وتقليص مواد الدين في كثير من البلاد، وغلق المعاهد والمدارس الشرعية والعلمية، ومضايقة أهل السنة ودعم أهل البدعة[١]، ونحو ذلك مما يساهم في إبعاد الناس عن العلم الشرعي[٢]، عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: "إِنَّهُ سَيَلِي أَمْرَكُمْ مِنْ بَعْدِي رِجَالٌ يُطْفِئُونَ السُّنَّةَ، وَيُحْدِثُونَ بِدْعَةً، وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ بِي إِذَا أَدْرَكْتُهُمْ؟ قَالَ: لَيْسَ يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ طَاعَةٌ لِمَنْ عَصَى اللهَ"[٣].

لقد أُصبنا بإخفاق مشاريعنا التعليمية؛ لغياب الهدف والوجهة لدى الواضعين للبرامج التعليمية، وربط التعليم بالوظيفة، وآفة الاختلاط بين الذكور والإناث، مما أوجد في المدارس ظروفاً أبعد ما تكون عن ظروف الطلب، وسيادة النزعة المادية؛ إذ غلبت المطالب المادية على المطالب الفكرية والروحية مما أدى إلى تراجع قيمة طالب العلم الاجتماعية بالمقارنة مع أصحاب المال، ففي مجتمعاتنا إذا كان الشخص ذا مال وثروة فلا ضير أن يكون أُمياً جاهلاً، وفي المقابل لا قيمة للشخص وإن حصل على أعلى الدرجات العلمية ما دام عاطلاً، والتباين الثقافي بين الحكام والمحكومين في البلدان الإسلامية، وهذا العامل لا يعود بالضرر على التعليم فقط، بل على جميع مناحي الحياة، بل هو أم المشاكل عند المسلمين في هذا العصر، والاستغلال السياسي للتعليم؛ مما يؤدي إلى مفاسد كثيرة منها:

١- ناهيك عن تدمير المساجد ودور القرآن ومراكز العلم، ومطاردة أو تهجير أو حبس أو أي استهداف للبارزين من أهل العلم، تحت أي مسمى أو شعار أو ستار ومبرر، فإن هذا عمل على استئصال الدين لا مجرد حرب له، ومعلوم من يخدم هذا العمل...

٢- الوقت وأهميته في حياة المسلم ٢/٨٦.

٣- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ ٦/٣٣٩، ٣٤٠ برقم: ٣٧٩٠، وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب لا طاعة في معصية الله ٢/٩٥٦ برقم: ٢٨٦٥، صححه الألباني في صحيح ابن ماجة ٢/١٤٢ برقم: ٢٣١٤.

١- تشكيل البرامج بما يتماشى مع أيديولوجية الحاكم، والحاكم غالباً لا يتبنى قضايا الأمة، ولا يحمل همومها.

٢- الإصرار على تجهيل الشعوب؛ خوفاً من أن تثور على الحاكم، ومن ثم العمل على أن يبقى التعليم صورياً فقط.

٣- تهميش الدين الذي يُصلح الأفراد ويُحرر العقول من أسر التبعية والاستسلام.

٤- تدخل الدول المستعمِرة في تشكيل البرامج التعليمية في الدول المستعمَرة[١].

إن الحكام وكل من يساندهم في تطبيق سياسة تجهيل الشعوب هم جهال ومغرر بهم، أو أصحاب أهواء ومصالح شخصية:

جَهِلْتَ فَعَادَيْتَ العُلُومَ وَأَهْلَهَا كذاكَ يعادي العلمَ مَنْ هوَ جاهلهْ

وَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَصَدِّرًا ويكرهُ لا أدري أصيبتْ مقاتله[٢]

أنواع الجهال وكيفية التعامل معهم

قال الراغب: «الإنسان في الجهل على أربعة منازل:

الأول: من لا يعتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا طالحاً، فأمره في إرشاده سهل إذا كان له طبع سليم، فإنه كلوح أبيض لم يشغله نقش، وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر، ويقال له باعتبار العلم النظري: غفل، وباعتبار العلم العملي: غمر، ويقال له: سليم الصدر.

والثاني: من يعتقد رأياً فاسداً لكنه لم ينشأ عليه، ولم يترب به، واستنزاله عنه سهل، وإن كان أصعب من الأول، فإنه كلوح يحتاج فيه إلى محو وكتابة، وكأرض يحتاج فيها إلى تنظيف، ويقال له: غاو وضال.

١- مناهجنا التعليمية والمنهج النبوي (نقط الاختلاف) للحسين بودميع، نقلاً عن مجلة البيان، العدد٢١٣، ص٩.

٢- ديوان ابن دريد ص٩٨.

والثالث: من يعتقد رأياً فاسداً قد ران على قلبه، وتراءت له صحته، فركن إليه لجهله وضعف نحيزته، وقد صفهم الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الأنفال: ٢٢] فهذا ذو داء أعيا الأطباء، فما كل داء له دواء، فلا سبيل إلى تنبهه وتهذيبه، كما قيل لحكيم يعظ شيخاً جاهلاً: ما تصنع؟ فقال: أغسل مسحاً لعله يبيض.

والرابع: من يعتقد اعتقاداً فاسداً عرف فساده، أو تمكن من معرفته، لكنه اكتسب دنية لرأسه، وكرسياً لرئاسته، فهو يحامي عليها، فيجادل بالباطل ليدحض به الحق، ويذم أهل العلم ليجر إلى نفسه الخلق[1]، ويقال له: فاسق ومنافق، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر في نحو قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[المنافقون:٥] فنبه ﷻ أنهم ينكرون ما يقولونه؛ لمعرفتهم ببطلانه، لكن يستكبرون عن التزام الحق وذلك حال إبليس فيما دعي إليه من السجود لآدم عليه السلام»[2].

أحوال وعقوبة أهل الجهل في الحال والمآل

إن أهل الجهل الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والظلم باتباع أهوائهم يصدق فيهم قوله ﷻ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النجم:٢٣]، وهؤلاء قسمان:

١- انظر: موسوعة نضرة النعيم ٩/٤٣٦٨.

٢- بل إن فريقاً منهم قادوا العباد والبلاد إلى الهلاك والدمار في سبيل الحصول على أهوائهم، وغلفوا باطلهم بشعارات ظاهرها فيها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب.

أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى وهم أهل الجهل والضلال، فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله وهم يحسبون أنهم على شيء وهم كاذبون كما قال الله ﷻ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[المجادلة:١٨]، فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب- ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري- الذي يحسبه الظمآن في القاع المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا واد ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، كما قال الله ﷻ عن الذين كفروا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[النور:٣٩] وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما يكون محتاجاً إليه، ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان كما هو حال من قصد السراب فلم يجده ماء، بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ﷻ فحسب له ما عنده من العلم والعمل فوفاه إياه بمثاقيل الذر، وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباء منثورا؛ إذ لم يكن خالصاً لوجهه ولا على سنة رسوله ﷺ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً نافعة كذلك هباءً منثوراً، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه.

الثاني: أصحاب الظلمات وهم المنغمسون في الجهل بحيث قد أحاط بهم من كل وجه فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلا، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة بل بمجرد التقليد واتباع الآباء والأهواء من غير نور من الله ﷻ كظلمات عديدة وهي: ظلمة الجهل، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي

بعث الله ﷻ به رسله صلوات الله وسلامه عليهم والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور، فإن المعرض عما بعث الله ﷻ به محمداً ﷺ من الهدى ودين الحق **يتقلب في خمس ظلمات**: ظلمة قوله، وظلمة عمله، وظلمة مدخله، وظلمة مخرجه، ومصيره إلى الظلمة، فقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم، وإذا قابلت بصيرته المظلمة ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور جد في الهرب منه وكاد نوره يخطف بصره فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خفـــافيش أعشـــاها النهـــار بضـــوئه ووافقهـــا قطـــع مـــن الليـــل مظلـــم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونخالة الأذهان جال ومال وأبدى وأعاد وقعقع وفرقع فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجر في حجرة الحشرات[1].

١- اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ١/١٥- ١٧، بتصرف.

دور العلم والعلماء في رفع الجهل وتحقيق الوحدة وتثبيتها

أولاً: دور العلم في رفع الجهل وتحقيق الوحدة وتثبيتها

إن العلم هادٍ به يهتدي الجاهل والضال، وبنوره يتلاشى ويزول جهل الجاهل وضلال الضال؛ لأنه تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووراثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، والسلاح على الأعداء، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال، به يُعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغني الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة وقربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام؛ لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه[1].

فالعلم أساس صحة الاعتقادات والعبادات، وهو دليل حب الخير للآخرين؛ لحرص صاحبه على إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، وبه يعم النفع إذ ينتفع به صاحبه وينتفع به غيره ممن علَّمه، ويورث الخشية لله، والتواضع للخلق، ويورث صاحبه

١- انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/٤٦٩، ٤٧٠)، (٣/٢٦٢).

أعلى المراتب بعد الأنبياء، ويرفع الوضيع، ويعز الذليل، ويجبر الكسير، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، ويبقى أجره بعد انقطاع أجل صاحبه، وهو صمام الأمان للأمم والشعوب من القلاقل والفتن والتمزق والمحن، لهذا كان العالم أضر على الشيطان من العابد، والعلم هو طريق الرقي والفلاح في الدنيا والآخرة[١].

قال الإمام الشافعي:

تعلم فليسَ المرءُ يولدُ عالما ... وَلَيْسَ أخو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ
وإنَّ كَبِير الْقَوْمِ لاَ علْمَ عِنْدَهُ ... صَغيرٌ إذا الْتَفَّتْ عَلَيهِ الْجَحَافِلُ
وإنَّ صَغيرَ القَومِ إنْ كانَ عَالِماً ... كَبيرٌ إذَا رُدَّتْ إليهِ المحَافِلُ[٢]

وقال آخر:

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يجلي سواد الظلمة القمر
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ماله بصر[٣]

وقال آخر:

العِلمُ يُحْيي قلوبَ المِيِّتِين كما ... تحْيا البلادُ إذا ما مَسَّها المطَرُ
والعلم يجلُو العَمَى عن قلبِ صاحبِه ... كما يُجَلِّي سوادَ الظُّلْمةِ القمرُ[٤]

وقال آخر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسادهم دون القبور قبور
إن امرأ لم يحي بالعلم صدره ... فليس له حتى النشور نشور[٥]

١- موسوعة نضرة النعيم ٢٩٨٢/٧ بتصرف.
٢- ديوان الإمام الشافعي ص٨٨.
٣- جامع بيان العلم وفضله ٤٩،٥٠/١
٤- العقد الفريد ٧٣/٢.
٥- معجم الأدباء ٣١٤/٤.

إن العلم ينجي من المهالك، وبه تدفع الفتن، وتعالج البلايا والمحن، وتجمع الصفوف، وتوحد القلوب؛ لأنه السبيل إلى معرفة الدواء النافع والبلسم الشافي لرفع وإزالة كل الأسباب التي تؤدي إلى التفرق والتمزق، بل هو الدواء النافع والبلسم الشافي بنفسه؛ إذ به يرفع الجهل، ويعرف الخطر المترتب على مخالفة الشريعة، والوقوع في الذنوب والمعاصي، والإعراض عن شكر النعمة، والظلم، والدعوة إلى العصبية والمناطقية، والخروج بالسلاح، والتآمر الخارجي من أعداء هذه الأمة عليها، وحرصهم على تفريقها وتشتيتها، وبه تعرف كل الوسائل والسبل للوقاية من كل ذلك، وبذلك كان للعلم الأثر البالغ في تحقيق الأمن والاستقرار، وإرساء العدل والمساواة، وتحقيق الأخوة والوحدة وتثبيتها.

لقد سمى الله ﷻ العلم الذي بعث به رسوله ﷺ نوراً وهدى وحياة، وجعله روحاً؛ لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، ونوراً؛ لما يحصل به من الهدى والرشاد، بينما سمى ضده ظلمة وموتاً وضلالاً، قال الإمام ابن القيم: «والجهل نوعان: جهل علم ومعرفة... وجهل عمل وغي، وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب، وكما أن العلم يوجب نوراً وأنساً فضده يوجب ظلمة ويوقع وحشة، وقد سمى الله ﷻ العلم الذي بعث به رسوله نوراً وهدى وحياة، وسمى ضده ظلمة وموتاً وضلالاً، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

﴿بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٥-١٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[النساء:١٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]، فجعله روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، ونوراً لما يحصل به من الهدى والرشاد»[١].

فمتى وُجِد العلم تبدد ظلام الجهل واضمحل، ومتى اضمحل الجهل وتبدد وذهب انقشعت معه سحابة الفتنة التي تفرق وتمزق وتدمر وتهلك ليعقبها نور العلم الذي يوفق ويوحد ويجمع ويؤلف.

ثانياً: دور العلماء في رفع الجهل وتحقيق الوحدة وتثبيتها

لقد سبق لنا التعرف على أن العلم تحصل به النجاة من المهالك، وبه تدفع الفتن، وتعالج البلايا والمحن، وتجمع الصفوف، وتوحد القلوب؛ لأنه السبيل إلى معرفة الدواء النافع والبلسم الشافي لرفع وإزالة كل الأسباب التي تؤدي إلى التفرق والتمزق والفتن، بل هو الدواء النافع والبلسم الشافي بنفسه، فبه تعرف كل الوسائل والسبل للوقاية من كل ذلك، وبذلك كان له الأثر البالغ في تحقيق الأمن والاستقرار وإرساء العدل والمساواة وتحقيق الوحدة وتثبيتها عبر التاريخ لما كان له الكلمة المسموعة والرأي النافذ، ومن المعلوم أن العلماء هم حملة هذا العلم وأهله والعارفون به والمطالعون لأسراره والغائصون في بحوره

١- مدارج السالكين ٣/١٦٣.

والمستخرجون لكنوزه والمتفانون في تحصيله، وبالتالي كان العلماء الربانيون العاملون المخلصون الصادقون هم الطبيب الحاذق الذي يعرف الدواء الناجع والبلسم الشافعي لكل فتنه تحدث في الداخل أو تأتي من الخارج؛ لما يحملونه من نور العلم الذي تحصل به الهداية والرشاد، وتحيا به الأرواح والأبدان.

لقد كان لعلماء المسلمين دور كبير في جميع عهود التاريخ الإسلامي في الدعوة إلى لم الشمل والوحدة والأخوة، فمنذ سقوط الدولة العامرية[١] في الأندلس وتفرقها إلى طوائف ارتفعت أصوات العلماء بالدعوة إلى الوحدة؛ إدراكاً منهم للخطر الذي يتهدد المسلمين من التفرق والتمزق[٢].

ويعتبر غياب دور العلماء عن الساحة في كثير من البلاد الإسلامية غياباً كلياً أو نسبياً من ضمن الأسباب التي تساعد على وقوع التمزق والتفرق وحصول الفتن؛ إذ بغيابهم يغيب العلم، وبغيابه يظهر الجهل ويشيع وينتشر، وبشيوعه وانتشاره تظهر جميع الأسباب التي تشعل نيران الفتن؛ لأن غياب العلم والعلماء عن الساحة يجعلها بيئة خصبة ومستنقعاً مناسباً لكل الجراثيم والطفيليات الداخلية والخارجية التي تذكي نار الفتنة وتشعلها، فلابد إذن من إعادة دورهم، ويعتمد ذلك على ما يلي:

١- أن ينبري العلماء لهذا الدور بالإخلاص لله، والقيام بواجبهم تجاه الحكام بالمناصحة، وتجاه عموم المجتمع بالتربية والتوجيه والإرشاد، وأن تخص فئة الشباب بمزيد التربية والعناية؛ لأن فئة الشباب أكثر الفئات تأثراً وتأثيراً، وكثيراً ما نجد أن هذه الفئة يكون لها دور كبير في كثير من الأحداث؛ إذ أنها فئة قابلة للنشاط فكرياً وبدنياً، وكثيراً ما

١- الدولة العامرية (مملكة بَلَنْسِية شرقي الأندلس) أسسها أبو الجيش مجاهد بن عبدالله العامري سنة اثنتي عشرة وأربعمائة واستمرت حتى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة هجرية، علوم القرآن عند ابن عبد البر ٢١/١.

٢- مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ٣٦٠/٣٢.

يستهدفها الناشطون وأصحاب المنظمات والحركات، وبسبب عدم النضوج الفكري، وغياب الخبرة، ووجود الاندفاع والحماسة من هذه الفئة للمبادئ والأفكار التي يتم تلقيها، تستغلها المنظمات في إمرار أفكارها ومخططاتها بعد أن تجرى لهم دورات لصياغة وصناعة أفكارهم، بل نجد شريحة كبيرة من هذه الفئة يكفيها التأثر بالشعارات الظاهرة البراقة لإثارة حماسها وحميتها للاستفادة من طاقاتها في تحقيق الأهداف، ومثل هذا الأمر تضل به أكثر فئات المجتمع حتى بعض الدعاة الغير ضالعين في العلم ربما استغلوا في أمثال هذه الظروف، بل ربما أوقعوا في الدعوة إلى مثل ذلك متأثرين بظاهر الأمر الذي يُنَزِلونه على الواقع المحيط بهم، لكن العلماء العاملين المخلصين والراسخين في العلم الغائصين في بحوره والمستخرجين لكنوزه يدركون المخاطر التي تدور من حولهم، ولا تخدعهم تلك الشعارات البراقة؛ لأنهم أكثر الناس وقوفاً مع الأحداث ومعرفة لتاريخ الأمم وللأسباب التي أوقعتها في الفتن وطرق الخلاص منها، فهم يسترشدون بنور الوحي أولاً، وبواقع الأمم التاريخي المسطر ثانياً، ولربما اتهموا بقصور علمهم بالواقع المعاصر، وإن كانوا في الحقيقة من أعرف الناس به؛ لأن الأحداث التاريخية تعيد نفسها في كل زمان ومكان، وأسباب الفتن والتمزق هي هي بعينها متواجدة ومتوافرة في كل زمان ومكان، فما كان من هذه الأسباب يعرف من علم الوحي فإن العلماء هم الأعرف به؛ لأنهم أهله، وإن كانت هذه الأسباب مما يفرضها الواقع فأنهم أعلم بها من جهتين: الأولى: من جهة علم الشريعة الذي يحملونه ولا تقف أمامه أي معضلة لما تمتاز به هذه الشريعة السماوية الخالدة من الشمول والمرونة، ومن جهة أخرى: من جهة ضلوعهم في العلم بالأحداث والوقائع التاريخية التي تعيد نفسها في كل زمان ومكان، لذلك فإن العلماء هم صمام أمان هذه الأمة؛ إذ أن الفتنة إذا أطلت برأسها عرفها العلماء.

قال الشيخ محمد بن إسماعيل المقدم: «إن الله ﷻ ينصب الأدلة الواضحة على بطلان وزيف دعاوى المدعين، لكنها قد لا تظهر إلا لأولي العلم الذين اختصهم الله ﷻ بالبصيرة في الدين»[١].

إذن الأسباب التي تثير الفتن وتفرق المجتمعات إذا ما أطلت برأسها فمنها ما لا يستبين أمرها إلا للعلماء، ومنها ما قد يعلمه غيرهم، وأول من يدخل في معرفتها والعلم بها أهل العلم، فالرجوع إليهم بكل حال خير وفضيلة، فهم يرشدون الضال، ويصوبون المخطئ، ويثبتون المحق.

٢- أن يبتعد العلماء عن كل ما يخدش مقام العلم والعلماء وكرامتهم من الحرص على الدنيا والتكالب عليها، وحب البروز والظهور، والتحاسد الذي يحصل بين الأقران.

قال كعب رحمه الله: «يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، ويخوفون الناس ولا يخافون، وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم، ويؤثرون الدنيا على الآخرة، يأكلون بألسنتهم، يقربون الأغنياء دون الفقراء، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره، أولئك الجبارون أعداء الرحمن»[٢].

٣- أن يبتعد العلماء عن كل ما من شأنه العمل على تحجيم دورهم ودعوتهم، كالانكماش والانحصار في ظل الإطارات الضيقة التي تلزمهم بحصر بيانهم ودعوتهم من خلالها وإلا كان لها عليهم وجهة نظر، وهذا يشكل خطراً على العلماء وعلى الأمة؛ لأن بعض العلماء صاروا أتباعاً بدل أن يكونوا متبوعين، وضعفت كلمتهم ودورهم.

١- معالم ومنارات في تنزيل أحاديث الفتن وأشراط الساعة على الوقائع والحوادث ص١٣٤ نقلاً عن المهدي وفقه أشراط الساعة ص٥٧٩.

٢- إحياء علوم الدين ١/٦٤.

٤- أن يعمل الحكام وولاة الأمور على احترام العلماء، وإنزالهم منازلهم، ومشاورتهم، والأخذ برأيهم فيما يترتب عليه صلاح الأمة، وأن يكون أهل الشورى والرأي من العلماء الربانيين الصادقين المخلصين أصحاب التقوى والورع الذين يقولون كلمة الحق، ويحرصون على ما فيه صلاح الخلق، لا أن يحارب العلماء ويزاحوا من مناصبهم، ومن ثم يقرب الجهال والحاقدون على أهل العلم أو أنصاف أو أرباع المتعلمين الذين لا يفقهون أسرار وحكم التشريع.

قال الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى:٣٨] «أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها»[١]، وقال الإمام القرطبي: «قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، قال أعرابي: ما غبنت قط حتى يغبن قومي، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا أفعل شيئا حتى أشاورهم، وقال ابن خويز منداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها، وكان يقال: ما ندم من استشار، وكان يقال: من أعجب برأيه ضل»[٢].

قال الإمام البخاري: «باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩]، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن

١- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ٤/١١٩، وانظر: فتح القدير ١/٣٩٣.
٢- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ٤/٢٤٩.

لبشر التقدم على الله ورسوله، وشاور النبي ﷺ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج فرأوا له الخروج، فلما لبس لَأْمَتَهُ وعزم قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم وقال: لا ينبغي لنبي يلبس لَأْمَتَهُ فيضعها حتى يحكم الله، وشاور علياً وأسامة فيما رَمَى بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ عائشة، فسمع منهما، حتى نزل القرآن، فجلد الرامين، ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكن حكم بما أمره الله، وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره؛ اقتداء بالنبي ﷺ... وكان القراء أصحاب مشورة عمر رضي الله عنه كُهُولًا أو شُبَّاناً، وكان وَقَّافاً عند كتاب الله عز وجل»[1].

٥- أن يعمل الحكام وولاة الأمور على إنشاء وتأسيس المعاهد والمراكز والجامعات التي تهدف إلى تخريج العلماء العاملين، أصحاب الورع والتقوى، والعمل على دعم الجامعات والمؤسسات والمعاهد التي تسعى إلى تحقيق هذا الهدف، وتسهيل وتمهيد كل ما من شأنه أن يقف عائقاً أمامها، لا أن تكون الدول هي العائق وحجر العثرة والسلاح الذي يحارب هذه المؤسسات، إلى درجة أن بعض الدول تأنف أن تمد أنابيب المياه وخطوط الكهرباء إليها، بل تعاملها على أنها مؤسسات تجاريه، ومن ثم يُنظر إلى المتخرجين منها نظرة خاصة تعمل على إزاحتهم وإقصائهم.

٦- إنشاء المجامع الفقهية وهيئات العلماء وتزويدها بالخبراء والمختصين، وإحالة المشاكل والفتن التي تنزل بالبلد خصوصاً وبالمسلمين عموماً إلى هذه المجامع، وإحياء دورها، ودعمها وتسهيل أعمالها، وأن يكون أهلها من كبار العلماء المشهود لهم بالعلم والورع والجرأة على قول الحق، لا أن يحارب إنشاؤها، أو يتم لَيّ أعناقها ويُسيطر عليها لتصبح جسداً بلا روح، بأن تقوم الدول بالتلاعب في عضويتها بحيث يُضم إليها من تشاء الحكومات والحكام، بل أصبحت بعض المجامع أو هيئات العلماء في بعض البلاد

١- صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٦/٢٦٨١.

الإسلامية صورية فقط؛ إذ قامت هذه البلدان بحشد أنصارها من الموظفين والأنصاف أو الأرباع متعلمين في عضوية هذه الهيئات والمجامع؛ لتتلاعب بالقرارات كما تشاء، بل يتم إقصاء أهل العلم الحقيقي والاختصاص، بل تركوا هم الانضمام إليها لما يشاهدونه من صوريتها والتلاعب بها حيث صارت الدول تتخذ منها شماعات ومظلات لتحقق في ظلها ما تشاء من سياساتها المنحرفة والمعوجة، وبعض الدول حجمت دور المجامع في مناقشة القضايا المتعلقة بالعبادات أو المعاملات المالية فقط لا غير وكأنها شيكات مفتوحة لحساب الحكام، أما قضايا الأمة وما يحل بها من البلايا والمصائب والجرائم والمظالم والسلب والنهب فلا ناقة لهذه المجامع فيها ولا جمل.

٧- أن يوكل إلى العلماء -الربانيين أصحاب الجرأة في قول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحاسبة للولاة، والنصح بالحق، الذين لا يخشون أحداً إلا الله ﷻ، ولا يسكتون عن حق وجب إذاعته، ولا يكتمون حكماً شرعياً في قضية، سواء أكانت متعلقة بشؤون الأمة أم بعلاقات الدولة- أن يوكل إليهم مباشرة مهمة التوجيه والإرشاد، ومعالجة الأمور، ويتم تمكينهم من القيام بواجبهم، وفتح السبل لكلمتهم، والسماح بمرورها إعلامياً، وأن يشكل العالم الشرعي مرجعية حقيقية للجميع، مما يساعد في القضاء على أسباب الفتن.

٨- أن تعرف الدول دور العلماء وأهميته ومكانته، وتعطي لهم الأولوية في التدريس في الجامعات وسائر المؤسسات التعليمية.

٩- أن تعرف المؤسسات العلمية كالجامعات والمعاهد التعليمية والمدارس وغيرها دور العلماء وأهميته ومكانته، وتعمل على إتاحة الفرصة لهم للتوجيه فيها والوعظ والإرشاد، وفتح الأبواب أمام الراغبين منهم في التدريس.

١٠- أن يعرف المجتمع خصوصاً فئة الشباب للعلماء دورهم وأهميته ومكانته، ولهم مكانتهم واحترامهم، وأن يعملوا على الاستفادة من علمهم والتحصن من الشبهات الوافدة بالرجوع إليهم، وأخذ الدين عنهم.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز: «وأن نقص العلم يسبب وقوع المجتمع في أخطاء كثيرة، والواجب على العلماء في كل مكان بذل الدعوة، وبذل النصيحة، ونشر العلم بين الناس ولا سيما بين الشباب الذين يرغبون في العلم ويدعون إلى الله ﷻ، وعلى طالب العلم أن يقبل العلم ويسعى إلى أن يتبصر ولا يعجل، والواجب على الشباب وعلى غيرهم ممن ليس عندهم العلم الكافي ألا يعجلوا في الأمور وأن يتفقهوا في الدين ويستمعوا لتوجيه العلماء مما يقال ويكتب؛ حتى يكونوا على بينة، وعليهم أن يتدبروا ما يطلعون عليه أو يقال لهم أو يسمعونه في إذاعة أو غيرها، ويعرضوه على الأدلة الشرعية، وأن يسألوا أهل العلم عما أشكل عليهم وممن يوثق فيهم، حتى يكونوا على بينة، ويتحروا أهل العلم الذين يعرفون بنشر الحق والعناية به وإقامة الأدلة عليه ويستفيدوا من علمهم»[١].

قال أمير المؤمنين علي ﷺ:

فلا تصحب أخا الجهل ... وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى ... حليماً حين آخاه
يُقاسُ المرْءُ بالمرْءِ ... إذا ما المرء ماشاهُ
وللقلب على القلبِ ... دَلِيْلٌ حِيْنَ يَلْقَاهُ
وللشيء من الشيء ... مقاييسٌ وأشباه
وفي العين غنى للعين ... أنْ تَنْطِقَ أَفْواهُ[٢]

١- مجموع فتاوى ابن باز ٦/ ١٧٣، ١٧٤.

٢- ديوان علي بن أبي طالب ﷺ ص١٧٤

١١- إعادة الثقة بين العلماء والحكام والأمة على أسس سليمة من وعي لواقع الأمة وتمسك بشريعتها السماوية.

١٢- الحذر من اتباع أهواء السلاطين القائمة على تقديم المصالح الشخصية والتلاعب بالشريعة تحت مسمى السياسة، أو أهواء العامة، يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «إن إتباع أهواء العامة لا يقل عن إتباع أهواء السلاطين، حيث يقترب بعض الدعاة أو الأئمة مما يسمى بما يطلبه المستمعون، فإن وجد من حوله يميلون إلى مذهب معين زكاه على غيره، أو جماعة معينة رفع من قدرها على حساب غيرها، أو يميلون إلى التشديد والعنف يخشى أن يفتى باليسر، أو وجد بين قوم متساهلين يفتى لهم بالرخص في كل مذهب، وهذا كائن في الغرب خاصة؛ لأن مشايخنا غالباً ما تخضع رواتبهم لمجالس إدارات مختلفة في أمزجتها واتجاهاتها، وتضيع معالم الاجتهاد الإصلاحي ليظهر الاجتهاد التسويفي، وبهذا يضعف دور العلماء في الشرق باتباع أهواء السلاطين، وفي الغرب باتباع أهواء العامة من المسلمين إلا من رحم الله ورزقه قوة في عمله، ويقيناً في قلبه، وشجاعة في نفسه؛ لينهض بواجبه في تقدير المصالح والمفاسد، وتحري الأسباب والمقاصد، ويفتى الناس بما يرضي رب الناس، ويحسن التوكل عليه ملتمساً منه الحفظ والأمان ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤]، فإن ابتلي صبر موقناً أنه بصبره وتوكله على الله سوف تصل رسالته إلى نياط القلوب الحية والعقول الذكية فتؤتى ثمارها بإذن ربها كما ننهل الآن من علم أئمتنا الأعلام مع تباعد الزمان، وهذه من سنن الرحمن التي لا تتخلف في أي زمان أو مكان»[١].

١٣- أن يستعين العلماء بشتى الأساليب التي تعمل على تحقيق دورهم من: الدعوة والإرشاد والتوجيه بحكمة، والوعظ عن طريق الترغيب والترهيب، والجدل والحوار بالتي هي أحسن، وإقامة الحجج والبراهين، والقدوة الحسنة، والاهتمام بالعقل باستخدام العلم

١- الخلاصة في فقه الأقليات ١/٣٦.

ونظرياته واكتشافاته، والاهتمام بالروح وتزكية النفس وأعمال البر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووسائل الإعلام من تلفزيون وصحافة وراديو، والتأليف والكتابة والتحقيق والتخريج، ودروس المساجد، والخروج إلى القرى والمساجد والمدن، وكل ما من شأنه العمل على إيصال علمهم إلى الأمة[١].

١٤- قطع الطريق على المتلاعبين بالفتوى؛ بالتحذير منهم، وعدم فتح المجال لهم في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام، وتوجيه الناس إلى العلماء المعتبرين، وجهات الفتوى المعتمدة[٢].

١٥- الرد في المختلف فيه إلى كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة، ونبذ التعصب، ومراعاة أدب الخلاف؛ لتتحد كلمة العلماء، ويجتمع أمرهم، ويرد كيد الشيطان وأعوانه في نحورهم، قال الإمام النووي: «ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع على إنكاره، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه؛ لأن كل مجتهد مصيب، أو المصيب واحد ولا نعلمه ولا إثم على المخطئ، لكن إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب، ويكون برفق؛ لأن العلماء متفقون على استحباب الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بسنة ثابتة، أو وقوع في خلاف آخر»[٣].

كل يرى رأياً وينصر قوله ... وله يعادي سائر الإخوان
ولو أنهم عند التنازع وفقوا ... لتحاكموا لله دون توان
ولأصبحوا بعد الخصام أحبة ... غيظ العدا ومذلة الشيطان[٤]

١- انظر: نضرة النعيم ٥/ ١٩٤٦.

٢- ملتقى أهل الحديث على الرابط: (http://www.ahlalhdeeth.com).

٣- روضة الطالبين ٢١٩/١٠، ٢٢٠.

٤- زاد المسلم والداعية من الشعر والبيان ١٤٢/١، ١٤٣.

١٦- الجرأة على قول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإخلاص النصح للحكام بالحق؛ لأن في صلاح الحكام صلاح للرعية؛ لأن الله يزع[١] بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[٢]، فلا يجوز غشهم بترك مناصحتهم، قال سفيان الثوري: «أدخلت على أبي جعفر المنصور بمنى فقال لي: ارفع إلينا حاجتك، فقلت له: اتق الله فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً، قال: فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك، فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعاً فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم، فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك، فقلت: حج عمر بن الخطاب ﷺ فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهماً، وأرى ههنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها»[٣].

١٧- التحلي بصفة الإنصاف، وسلوك درب المنصفين، ولزوم آدابهم، وأهمها:

أ- التجرد وتحري القصد عند الكلام على المخالفين، وذلك أنه قد تلتبس المقاصد عند الكلام عن المخالفين، فهناك قصد حب الظهور، وقصد التشفي والانتقام، وقصد الانتصار للنفس أو للطائفة التي ينتمي إليها الناقد... وقد حذر ابن تيمية من يرد على أهل البدع من التباس المقاصد فقال: «وهكذا الرد على أهل البدع من الرافضة وغيرهم إن لم يقصد فيه بيان الحق وهدى الخلق ورحمتهم والإحسان إليهم لم يكن عمله صالحاً، وإذا غلظ في ذم بدعة و معصية كان قصده بيان ما فيها من الفساد ليحذرها العباد كما في نصوص الوعيد وغيرها، وقد يهجر الرجل عقوبة وتعزيزا والمقصود بذلك ردعه وردع أمثاله؛ للرحمة والإحسان لا للتشفي والانتقام»[٤]

١- معنى يزع: يكف، انظر: المبدع ٣/٣٤٣.

٢- جاء عن عثمان موقوفاً ونحوه عن عمر كذلك، انظر: الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث ص٦٠ رقم: ٥٧، وكنز العمال ٥/٩١٨ برقم: ١٤٢٨٤.

٣- إحياء علوم الدين ٢/ ١٤٦، ١٤٧، وفي حلية الأولياء ٧/٤٥، وسير أعلام النبلاء ١٢/٣٨٦، أنه أدخل على المهدي.

٤- منهاج السنة النبوية ٥/٢٣٩.

وقد انتبه ابن القيم-رحمه الله- إلى هذا الأمر فوضع قاعدة لمن يريد أن يتجرد من الهوى فقال: «وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل، ولا تغتر باللفظ كما قيل في هذا المعنى:

تقول هذا جنى النحل تمدحه وإن تشأ قلت: ذا قيء الزنابير[1]

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل فجرده من لباس العبارة، وجرد قلبك عن النفرة والميل، ثم اعط النظر حقه ناظراً بعين الإنصاف، ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظراً تاماً بكل قلبه، ثم ينظر في مقالة خصومه وممن يسيء ظنه به كنظر الشزر والملاحظة، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ، والناظر بعين المحبة عكسه، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق وقد قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

وقال آخر:

نظروا بعين عداوة لو أنها عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

فإذا كان هذا في نظر العين الذي يدرك المحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها فما الظن بنظر القلب الذي يدرك المعاني التي هي عرضة المكابرة، والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ورد الباطل وعدم الاغترار به»[2].

١- الزنبور والزنبار والزنبورة ضرب من الذباب لساع، وقيل: الزنبور طائر يلسع، وقيل: الزنبور الدَّبْرُ، لسان العرب ٣٣١/٤.

٢- مفتاح دار السعادة ١٤١/١.

ب- التبين والتثبت قبل إصدار الأحكام، وذلك امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات:٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٗا﴾[النساء: ٩٤]، فالتبين والتثبت من خصائص أهل الإيمان، قال الحسن البصري-رحمه الله-: «المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب»[١]، وقال محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله-: « ومتى لم تتبين لكم المسألة لم يحل لكم الإنكار على من أفتى أو عمل حتى يتبين لكم خطؤه، بل الواجب السكوت والتوقف»[٢].

ج- حمل الكلام على أحسن الوجوه، وإحسان الظن بالمسلمين، فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بكلام أخيه المسلم، وأن يحمل العبارة المحتملة محملاً حسناً، فقد حث النبي ﷺ على إحسان الظن بالمسلم حين قال وهو يطوف بالكعبة: "مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، وَمَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ، وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلاَّ خَيْرًا"[٣]، وقال سعيد بن المسيب:

١- إحياء علوم الدين ١٨٦/٣.

٢- مؤلفات محمد بن عبد الوهاب في العقيدة ٢٤٠/١.

٣- رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله ١٢٩٧/٢برقم: ٣٩٣٢، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا" رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ٢٢٥٣/٥ برقم: ٥٧١٧، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها=

كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ: «أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، و لا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً و أنت تجد له في الخير محملا»[١].

ت- ألا ينشر سيئات المخالف ويدفن حسناته، فقد ذكر الرسول ﷺ عمر بحسنات حاطب فقال: "إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"[٢]، فكون حاطب من أهل بدر أمر يرفعه ويذكر له في مقابل خطئه الفاحش، ولذا غفر له خطؤه.

ث- النقد يكون للرأي وليس لصاحب الرأي، فالنقد الموضوعي هو الذي يتجه إلى الموضوع ذاته وليس إلى صاحبه، وكان الرسول ﷺ إذا حدث خطأ من أحد أصحابه أو بعضهم لا يسميهم غالبا وإنما يقول: "مَا بَالُ أَقْوَامٍ"[٣]، "مَا بَالُ رِجَالٍ"[٤].

ج- الامتناع عن المجادلة المفضية إلى النزاع، فقد حذر النبي ﷺ من الجدل المفضي إلى الخصومة فقال: "إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ"[٥]، بفتح الخاء وكسر الصاد

=١٩٨٥/٤ برقم: ٢٥٦٣. قال الإمام النووي: «المراد النهي عن ظن السوء»، شرح صحيح مسلم ١١٨/١٦، وقال المباركفوري: «"إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ" أي: اتقوا سوء الظن بالمسلمين » تحفة الأحوذي ١٠٥/٦.

١- رواه البيهقي في شعب الإيمان، السابع والخمسون من شعب الإيمان وهو باب في حسن الخلق، فصل في ترك الغضب وفي كظم الغيظ والعفو عند القدرة ٣٢٣/٦ برقم: ٨٣٤٥.

٢- رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس ١٠٩٥/٣ برقم: ٢٨٤٥، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة ١٩٤١/٤ برقم: ٢٤٩٤.

٣- رواه البخاري، كتاب الشروط، باب المكاتب وما لا يحل من الشروط التي تخالف كتاب الله ٩٨١/٢ برقم: ٢٥٨٤، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه... ١٠٢٠/٢ برقم: ١٤٠١.

٤- رواه البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترط شروطا في البيع لا تحل ٧٥٩/٢ برقم: ٢٠٦٠، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم ٧٧٥/٢ برقم: ١١٠٤.

٥- رواه البخاري، كتاب المظالم، باب إذا أذن إنسان لآخر شيئا جاز ٢ /٨٦٧ برقم: ٢٣٢٥، ومسلم، كتاب العلم، باب في الألد الخصم ٢٠٥٤/٤ برقم: ٢٦٦٨، من حديث عائشة رضي الله عنها.

أي: الدائم في الخصومة، ويحتمل أن يكون المراد الشديد الخصومة؛ فان الخصم من صيغ المبالغة، فيحتمل الشدة، ويحتمل الكثرة، أو كلاهما أي: الشديد اللدد الكثير الخصومة[١] وقال الإمام مالك بن أنس: «المراء يقسي القلوب، ويورث الضغائن»[٢]، وقال مسلم بن يسار: «إياكم والمراء؛ فإنه ساعة جهل العالم، وعندها يبتغي الشيطان زلته، وقيل: ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل»[٣].

ح- حمل كلام المخالف على ظاهره، وعدم التعرض للنوايا والبواطن، وقد علمنا ذلك رسولنا الكريم ﷺ حينما قتل أسامة بن زيد المشرك بعد أن قال: لا إله إلا الله، فلما علم ﷺ أنكر ذلك عليه[٤]، قال أسامة بن زيد رضي الله عنهما: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فصبحنا القوم، فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: **"يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! قُلْتُ: كَانَ مُتَعَوِّذًا، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ"**[٥]، وفي رواية: قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلاَحِ، قال: **"أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ، فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّى أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ"**[٦].

١- فتح الباري ١٨٨/٨، ١٨٠/١٣.

٢- إحياء علوم الدين ١١٧/٣.

٣- إحياء علوم الدين ١١٧/٣.

٤- انظر موضوع الإنصاف في موسوعة نصرة النعيم ٥٨٣/٣.

٥- رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهنية ١٥٥٥/٤ برقم: ٤٠٢١، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله ١/ ٩٦ برقم: ٩٦.

٦- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله ٩٦/١ برقم: ٩٦.

لازموا الركب

إن على الأمة أن تلزم ركب العلماء العاملين المخلصين، وتتحصن من هذه الفتن والقلاقل والاضطرابات بالرجوع إليهم؛ لأنهم صمام أمان هذه الأمة؛ لأن الفتنة إذا أقبلت لم يعرفها إلا العلماء، وإذا أدبرت عرفها العلماء والجهال؛ لأن العلم وراثة النبوة، وهم حملته قال رسول الله ﷺ: **"وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"**(١).

قال ابن القيم في النونية:

والجهـــــل داء قاتـــــل وشـــــفاؤه أمـــــران في التركيـــــب متفقـــــان

نـــص مـــن القـــرآن أو مـــن ســـنة وطبيـــــب ذاك العـــــالم الربـــــاني

ومتى قبض العلم انتشر الجهل وصحبه وقوع الفتن، وقبض العلم بموت العلماء فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"**(٢).

وإذا تحقق دور العلماء في المجتمع، فإن هذا المجتمع سوف يكتسب حصانة من مظاهر الانحراف والتمزق والفتن.

١- رواه أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم ٣٤١/٢ رقم: ٣٦٤١، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ٤٨/٥ رقم: ٢٦٨٢، وابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ٨١/١ رقم: ٢٢٣، صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٧/١ رقم: ٧٠.

٢- رواه البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم ٥٠/١ برقم: ١٠٠، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ٢٠٥٨/٤ برقم: ٢٦٧٣.

إن أية محاولة لمعالجة الفتن التي تؤدي إلى التفرق والتمزق لابد أن تنطلق من أرضية صحيحة، وهي تعاليم الدين الإسلامي الحنيف التي تلقها الصحابة الكرام عن الحبيب المصطفى والنبي المجتبى ﷺ، ثم تلقاها عنهم العلماء بعضهم عن بعض في كل زمان ومكان إلى يومنا هذا، وأن لا نعالج بعض مظاهر الفتنة كالعنف، ثم نهمل الجذور الحقيقية لها التي أنشأتها وتغذيها[١].

هات الرسالة من يمين محمد ... إنا نسينا الدين كيف يقام
وإذا الحياة تنكرت أعلامها ... فالدين دستور لها ونظام
إنا جهلناها وعندك علمها ... والجهل داء للشعوب عقام
هو إن سألت أولي المعارف ما اسمه ... سل يذيب حياتها وجذام[٢]

دور الدعوة والدعاة في رفع الجهل وتحقيق الوحدة وتثبيتها

إن الدور الذي تقوم به الدعوة ويتحمله الدعاة والمربون في العمل على رفع الجهل، وتحقيق الوحدة وتثبيتها، وترسيخ كل مبادئ الخير في المجتمعات الإنسانية، لا يقل أهمية عن الدور الذي يقوم به العلماء حملة العلم؛ لأن الدعاة يمارسون الدعوة التي فيها دلالة الناس على الخير وهدايتهم إليه، وفي القيام بها نشر للفضيلة ومحاربة للرذيلة، وشرح سبل الإسلام السمحة للعالم كله، والرد على الدعاوى الباطلة التي يلصقها المغرضون بالدين الحنيف، وبيان الحق وإيضاحه، وإظهار مدى التكالب والتآمر على الأمة، وتثمر محبة الله ومحبة الناس، وترشد إلى الصلاح والاستقامة، وبها يصلح الأفراد وتسعد الشعوب، وتنتشر كل الأسباب والوسائل التي تحقق الأخوة وتعمقها، وتتعرى أسباب الفتنة وتظهر.

١- انظر: بدع الاعتقاد وأخطارها على المجتمعات الإسلامية ١/٩٣، ٩٤.

٢- ديوان أحمد محرم ص ٩١٧، ٩١٨.

إن الدعوة إلى الله تعالى باب من أبواب النصيحة، ومن المعلوم أن النصيحة هي لب الدين وجوهر الإيمان، ودليل حب الخير للآخرين، وبغض الشر لهم، وفيها صلاح المجتمع؛ إذ تشاع فيه الفضيلة، وتستر فيه الرذيلة، وبها تحل الرحمة والوداد مكان القسوة والشقاق، والقيام بها يكفل صلاح حال الفرد والمجتمع معاً، وتوفير الحياة المستقرة للمجتمع الإسلامي، ومن قام بها على وجهها يستحق الإكرام لا اللوم والتقريع، وبها يتقرب العبد من ربه ويفوز بمحبته ورضاه، فعن تميم بن أوس الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ"**[١]، وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: **"بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ"**[٢].

إن الوضع المضطرب والمصطنع الذي تعيشه كثير من الدول الإسلامية يتحتم مزيد الاهتمام والاعتناء بشأن الدعوة والنصيحة، خصوصاً النصيحة لأئمة المسلمين، وذلك: بإرشادهم إلى الحق، ومعاونتهم عليه، وأمرهم به، وطاعتهم فيه، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم، ومن النصيحة لهم أن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم، **والنصيحة لعامة المسلمين**: بإرشادهم لمصالحهم في دنياهم وأخراهم، وكف الأذى عنهم، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يجب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك

١- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة ١/ ٧٤ برقم: ٥٥.

٢- رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: "الدين النصحية لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"١/٣١ برقم: ٥٧.

من أحوالهم بالقول والفعل الذي لا يكون فيه تعدٍ على الغير أو حقوقهم، وحثهم على التخلق بالفضائل، وتنشيط هممهم إلى الطاعات[١].

إن الداعي إلى الله تعالى يتشبه بالأنبياء والصالحين ويسلك مسالكهم، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف: ١٠٨] أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، بها يُحث الخلق والعباد على الوصول إلى ربهم ترهيباً وترغيباً على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية[٢].

قال الإمام ابن القيم: «فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً، وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم»[٣].

ولما تقوم به الدعوة من بيان للحق ودمغ للباطل، وجمع للكلمة ورفع للفرقة، والتوجيه إلى تحقيق الوحدة وتثبيتها، والإرشاد إلى كل ما فيه خير العباد وصلاحهم في الدنيا والآخرة، والتحذير من الفُرقة وكل ما من شأنه أن يجر الشر والضر على العباد في المعاش

١- شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٣٨، ٣٩

٢- تفسير السعدي ص٤٠٦.

٣- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام ص٤١٥.

أو المعاد، كانت أحسن الأقوال أقوال الدعاة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت: ٣٣] وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي: لا أحد أحسن قولاً وكلاماً وطريقةً وحالاً ممن دعا إلى الله؛ لتعليمه الجاهلين، ووعظه الغافلين والمعرضين، ومجادلته للمبطلين، وأمره بعبادة الله بجميع أنواعها والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، وزجره عما نهى الله عنه وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحثه على مكارم الأخلاق والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام وبر الوالدين، ووعظه لعموم الناس في أوقات المواسم والعوارض والمصائب بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفراده بما تشمله الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر، وهو مع دعوته الخلق إلى الله بادر هو بنفسه إلى امتثال أمر الله بالعمل الصالح الذي يرضي ربه، وقال إنني من المسلمين المنقادين لأمره السالكين في طريقه[١].

إن مما لا يخفى على كل من له أدنى علم أو بصيرة أن العالم الإسلامي اليوم بل العالم كله في أشد الحاجة إلى الدعوة الإسلامية الواضحة الجلية النابعة من كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة، وعلى طريقة أصحابه رضي الله عنهم، ومنهج السلف الصالح التي تشرح حقيقة الإسلام، وتوضح أحكامه ومحاسنه، وبذلك يتضح لكل مسلم أن الدعوة إلى الله من أهم المهمات، وأن الأمة في كل زمان ومكان في أشد الحاجة إليها بل في أشد الضرورة إلى ذلك، فالواجب على أهل العلم أينما كانوا أن يبلغوا دعوة الحق.

١- تفسير السعدي ص٧٤٩، بتصرف.

لقد كان للدعوة والدعاة دور كبير في جميع عهود التاريخ الإسلامي في لم الشمل وتحقيق الوحدة وتثبيتها، والقضاء على التفرق والتمزق، ويعتبر غياب دور الدعاة عن الساحة في كثير من البلاد الإسلامية غياباً كلياً أو نسبياً من أهم الأسباب التي تساعد على وقوع التمزق والتفرق وحصول الفتن، إذا صارت البيئة مع غياب دورهم مستنقعاً مناسباً لكل الجراثيم والطفيليات الداخلية والخارجية التي تذكي نار الفتنة وتشعلها، فلابد من إعادة دور الدعاة، ويعتمد ذلك على ما يلي:

١- أن ينبري الدعاة لهذا الدور بالإخلاص لله، والقيام بواجبهم تجاه الحكام بالمناصحة والتعاون معهم على البر والتقوى، وتكثير سبل الخير في المجتمع، وتجاه عموم المجتمع بالتربية والتوجيه والإرشاد، وأن تخص فئة الشباب بمزيد التربية والعناية.

٢- أن يبتعد الدعاة عن كل ما من شأنه الخدش بمقام الدعوة والدعاة وكرامتهم: من الحرص على الدنيا والتكالب عليها، وحب البروز والظهور، والتحاسد الذي يحصل بين الأقران.

٣- معرفة الأهداف ووضوحها، مع مراعاة الأولويات وتقديم المهمات؛ لأن النبي ﷺ لما أرسل معاذا إلى اليمن وضع له الأهداف ورتبها له وراعى المهمات وقدم الأولويات، فأول ما أوصاه به الدعوة إلى الشهادتين مرتكز وأساس التوحيد، ثم الدعوة إلى العبادة وباقي أركان الإسلام، ثم بمعاملة الناس بالحسنى، وعدم أخذ أموالهم بالإكراه ودون طيب نفس منهم، ثم أوصاه بالأخلاق الحميدة والمسالك والتصرفات العالية الرفيعة أثناء الدعوة ومخالطة الناس؛ وذلك باحترامهم، وعدم ظلمهم، وتحقيق العدل والإخاء والمساواة بينهم[١]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ حين بعثه إلى اليمن: **"إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ**

١- انظر: الرائد دروس في التربية والدعوة ١٣١/٣، ١٣٢.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ (فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا) وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ"[1]، فأصبح الهدف المرسوم واضحاً وهو تحقيق رضا الله ﷻ، ونصرة دينه، والفوز بجنته، فوضوح الهدف من شأنه أن يجعل الداعية لا يهدأ حتى يحقق الهدف، فتزداد الذاتية الدعوية والعطاء.

٤- على الدعاة إلى الله أن يجمعوا صفوفهم، ويوحدوا كلمتهم، ويتنازلوا عن الخلافات الجانبية، فكفى فرقةً ونزاعاً، فلم يعد الوقت وقت خلافات ودعوة للذات.

٥- التحاكم عند التنازع إلى كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، ونبذ التعصب للرأي؛ لتتحد كلمة الدعاة ويجتمع الصف ويلتم الشمل، ويرد كيد الشيطان وأعوانه في نحورهم:

كل يرى رأياً وينصر قوله ... وله يعادي سائر الإخوان

ولو أنهم عند التنازع وفقوا ... لتحاكموا لله دون توان

ولأصبحوا بعد الخصام أحبة ... غيظ العدا ومذلة الشيطان[2]

٦- الابتعاد عن كل ما من شأنه العمل على تحجيم دورهم ودعوتهم، إلى الأفق الواسع الذي يجعلهم يحتوون جميع فئات المجتمع، ولينبذوا كل ما من شأنه أن يؤدي إلى نشوء العصبية، وضعف كلمتهم ودورهم؛ لأن في هذا الخطر عليهم وعلى الأمة.

١- رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا ٢/٥٤٤ برقم: ١٤٢٥، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/٥٠ برقم: ١٩.

٢- زاد المسلم والداعية من الشعر والبيان ص١٤٢، ١٤٣.

٧- التميز الإيماني والسمو الروحي، فإن التميز الإيماني من أعظم أسباب نجاح الداعية، إذ ليس النجاح بفصاحة اللسان ولا قوة البرهان ولا كثرة الأعوان، بل هو مع ذلك وقبل ذلك بتوفيق الله الذي يخص به أولياءه، ولا شك أن الدعاة الذين يكرسون أوقاتهم لله لدفع الناس إلى سبيله، لابد أن يكون شعورهم بالله أعمق، وارتباطهم به أوثق، وشغلهم به أدوم، ورقابتهم له أوضح.

لقد قصر بعض الدعاة والجماعات الإسلامية في العناية بهذا الجانب المهم بسبب تضخيم العناية بالجوانب الفكرية والسياسية وغيرها، والمطلوب التوازن والشمولية وإعطاء كل جانب حقه من الاهتمام.

٨- الرصيد العلمي والزاد الثقافي، وهذا أساس لابد منه؛ لأن العلم هو العدة التي بها يُعَلم الناس أحكام الشرع، ويُبَصرهم بحقائق الواقع، وبه يجد إجابة للتساؤلات، وحلولاً للمشكلات، وبه أيضاً يكون الداعية قادراً على الإقناع وتفنيد الشبهات، ومتقناً في العرض، ومبدعاً في التوعية والتوجيه، وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، فالخوض في غمار الدعوة وميادينها لابد له من علم، وإلا ترتب على ذلك آثار وخيمة؛ لأن العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، وربما كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، ولابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي.

قال معاذ بن جبل ﷺ: «العلم إمام العمل والعمل تابعه»[1]؛ لأن القصد والعمل إن لم يكن بعلم كان جهلاً وضلالاً واتباعاً للهوى.

إن التميز الإيماني لابد أن يعضده الجانب العلمي الذي فيه يفهم الداعيةُ الإسلامَ بشموله ويقف على حقائقه وأحكامه، ويعتني بقواعده وأصوله، ويتدارسه من مصدريه -

---

١- مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣٦/٢٨.

الكتاب والسنة- فالإسلام له خصائص تميزه عن غيره، فينبغي للمؤمن الداعية أن يتعرف عليها، ويستشعرها في نفسه شعوراً بعظمة دينه وزيف ما سواه؛ ليتحرك من أجله ويكون الدين كله لله، فإذا توفر للداعية رصيد علمي مناسب، وزاد ثقافي جيد، كان ذلك عوناً له في دعوته، ورافداً من روافد نجاحه ومبادرته الذاتية.

٩- استشعار الأجر، وأن الجنة محفوفة بالمكاره، وهذه مسألة ضرورية وعامل رئيس في الاندفاع نحو العمل والدعوة الذاتية، وهو فقه الاستشعار الذي يغفل عنه الكثير، ولعل هذا الفقه هو السر في بيان أجر بعض العبادات؛ حتى يكون دافعاً للعمل والعطاء، فإذا عرف صاحب الذاتية أن كل حركة وسكنة يتحركها المهتدي، وكل تسبيحة أو ركعة أو سجدة يفعلها، وكل إحسان يجريه الله على يديه، فإنما يكون في ميزان أعماله، وأن له مثل أجره؛ للحديث الذي رواه أبو مسعود الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِه"**[1] فإنه لا شك سيتحرك الحركة الذاتية التي تجلب له هذا الخير الذي يتنامى يوماً بعد يوم.

واستشعاره بأن الجنة محفوفة بالمكاره يتطلب منه طاقة وهمة عالية تتناسب مع ذلك المطلب العالي وهو الجنة، فإذا عرف المسلم هذا سوف يجعله يتحرك التحرك الذاتي للوصول إلى الهدف.

١٠- أن يجتهد في الاتصاف بالصفات المثالية للداعية، والتي منها: إخلاص العمل لله تعالى، وصحة العقيدة، ذو فكر مثقف، قوي الجسم، منظم في شؤونه، مع الحرص على وقته، والنفع لغيره، والنشاط في الدعوة، وحمل هموم الأمة بين جوانحه، لا يهدأ من التفكير في مشاريع الخير والدعوة، غدوه ورواحه وحديثه وكلامه لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له، ويشغل الناس بهموم دعوته، ونصرة دين الله، له زادة اليومي من القرآن والذكر لله في

١- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره... ١٥٠٦/٣ برقم: ١٨٩٣.

كل أحيانه، يسخر نفسه ووقته وبيته وأهله لخدمة الإسلام وأهله، ينفق في وجوه الخير والبر، ويحب القراءة والمطالعة، له في كل سهم غنيمة، ومشاركة فعالة مع مؤسسات الإسلام، مع الاهتمام بأهله إيمانياً ودعوياً وثقافياً، يعيش عيشاً جماعياً مع إخوانه المؤمنين من كل شرائح المجتمع، بعيداً عن التعصب، يتثبت في الأمور قبل الإقدام عليها ولا يتعجل، ولاءه وبراءة لله ولرسوله ولجميع المسلمين، يسعى جاهداً للم الشمل وتوحيد الصف وجمع الكلمة ورفع الفرقة والنزاع، بعيداً عن الكذب والغش والنميمة والحسد ورذائل الأخلاق وسفسافها، يعطي الأمور حقها ومستحقها من غير تهويل ولا تحقير، والفهم الصحيح للأمور بالرجوع إلى أهل المعرفة والاختصاص بها، حياته لله وبالله ومع الله.

١١- الجرأة في قول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح بالحق، ولا يخشى أحداً إلا الله ﷻ، ولا يسكت عن حق وجب إذاعته، سواء أكان متعلقاً بشؤون الأمة أم بعلاقات الدولة- ومباشرة مهمة التوجه والإرشاد، ومعالجة الأمور.

قال الإمام النووي: « فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله ﷻ أن يعتني بهذا الباب، فان نفعه عظيم لا سيما وقد ذهب معظمه، ويخلص نيته، ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[الحج:٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩] وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[العنكبوت:٢، ٣]، واعلم أن الأجر على قدر النصب»[١].

١- شرح صحيح مسلم ٢/٢٤.

١٢- أن تعرف الدول دور الدعاة وأهميته ومكانته، وتعمل على إتاحة الفرصة لهم للتوجيه والوعظ والإرشاد.

١٣- التحصن من الشبهات المعضلة الوافدة بالرجوع إلى العلماء، والحذر من الاغترار بها أو بالشعارات الظاهرة البراقة؛ لأن شريحة من هذه الفئة من الغير الضالعين في العلم تتأثر بهذه الشعارات الظاهرة البراقة في إثارة حماسها وحميتها فتَضل وتُضِل.

١٤- توجبه الإعلام لخدمة الأمة، ومناصرة قضاياه، والتعريف بعقيدة الأمة ومبادئها وقيمها وأخلاقها.

١٥- الحذر من اتباع أهواء السلاطين أو العامة.

١٦- ترسيخ مبدأ الأخوة والتعاون على ا لبر والتقوى.

١٧- التحلي بالصبر وإحسان التوكل على الله، مع التماس الحفظ والأمان منه ﷻ: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٦٤].

١٨- أن يستعين الدعاة إلى الله تعالى بأساليب الدعوة الإسلامية، وهي:

* الحكمة.

* الوعظ عن طريق الترغيب والترهيب.

* القدوة.

* الجدل والحوار بالحسنى وإقامة الحجة.

* الجهاد والبذل والتضحية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩].

* التربية والتعليم.

* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* استخدام العلم ونظرياته واكتشافاته.
* الاهتمام بالعقل.
* الإعلام من صحافة وراديو وتلفاز وانترنت...
* التأليف والكتابة والتحقيق والتخريج.
* دروس المساجد.
* الخروج إلى القرى والمساجد والمدن.
* الاهتمام بالروح وتزكية النفس وأعمال البر[١].

١٩- إدراك أبعاد المؤامرة على الإسلام وبلاد المسلمين.

٢٠- وضع قضية المسلمين الأولى في بؤرة وجدانه وشعوره[٢].

٢١- التحلي بصفة الإنصاف، وسلوك درب المنصفين، ولزوم آدابهم، وقد سبق ذكرها في دور العلماء، فتراجع في موطنها من هذا البحث.

١- انظر: موسوعة نضرة النعيم ٥/ ١٩٤٦.

٢- انظر: فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٣٩٩، ولكي تكون داعية ص ٥١-٥٤.

الوسائل العلمية والعملية لوحدة العلماء والدعاة[١]

إن على الدعاة والعلماء بل على العقلاء والمصلحين وقادة الرأي والفكر في الأمة النظر إلى وسائل وأسباب جمع الكلمة، ووحدة الصف، ولم الشمل، وصنع القرار المؤثر في نهضة الأمة وإحيائها من جديد وفق خطط وبرامج علمية وعملية تكفل سير الأمة نحو الالتئام والوحدة والتكافل والتكامل، وثمة أسباب كثيرة لوحدة العلماء والدعاة ينبغي عليهم أن يسلكوها لتحقيق الوحدة المرجوة، ومن أهم هذه الأسباب ما يلي:

١- القناعة بمبدأ وحدة الجماعات الإسلامية:

إن البعض ينظر إلى مسألة وحدة العاملين للإسلام أنها من الأمور التي لا ينبغي طرقها؛ لأنه يرى أن بقية الجماعات سواه هامشية لا تمثل تياراً مؤثراً في الأمة، أو لكون جماعته هي الجماعة الوحيدة القادرة على النهوض بمشروع الأمة بمفردها لسبب أو لآخر، وهذا مع أنه تفكير غير سليم وسطحي يمجه العقلاء فضلاً عن الحكماء، فإنه يخالف النصوص والتوجيهات الشرعية المتواترة التي تخاطب الأمة جمعاء بالوحدة والاجتماع، حتى صارت مما يعلم من الدين بالضرورة، ومثل هذا القول كمثل من يقول: نحن لا نحتاج إلى أصابع اليدين فهي هامشية بل نحتاج إلى القلب والأمعاء لأنها أجزاء لا يمكن للجسم العيش بدونها بخلاف ما عداها من الأعضاء، وينسى هذا القائل بأنه لا يستطيع القبض والبسط إلا بالأصابع والعضلات فهي أجزاء أصيلة وضرورية في جزء ضروري وهام، ولهذا ما أصدق الصادق المصدوق ﷺ حين شبه أعضاء الجسم الإسلامي بأعضاء الجسم الإنساني فقال ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى

١- انظر لما أوردته هنا: الوسائل العلمية والعملية لوحدة الدعاة والعلماء، بحث قدمه الأستاذ الدكتور صالح بن عبد الله الضبياني إلى إحدى ندوات تقوية الإيمان التي تقام سنوياً في جامعة الإيمان في شهر ربيع ثاني أو جمادى الأولى، نقلاً عن صحيفة صوت الإيمان العدد: (٢٠٤) ص ٧، لشهر محرم ١٤٣١هـ، مع شيء من التصرف.

مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[١]، قال القاضي عياض: «فتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية، وفيه تعظيم حقوق المسلمين والحض على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضا»[٢].

ألا فليعلم الدعاة إلى الله تعالى أن العمل الإسلامي عمل متكامل كالبناء، وأنه لابد من التعاون والاستعانة فيه، وأن يشارك الجميع في هذا البناء الهائل والضخم، وأن الإسلام لابد وأن يحمله جميع أبنائه، فالخطوة الأولى نحو الوحدة والتوحد هي القناعة والاستعداد الذهني والنفسي لهذه الحقيقة.

٢- ضرورة الحوار الإسلامي الإسلامي؛ لأن الإسلام يأمر بالتحاور مع الأديان والعقائد المختلفة كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٦].

إن الحوار مبدأ إسلامي دعا إليه الإسلام، وأرسى أصوله وقواعده منذ بزغ فجر الرسالة حتى مع الكافرين والمعاندين، فما بالنا اليوم لا نعتمده لبنا العلاقات بين الأخوة والأحباب الذين تجمعهم رابطة الأخوة، وتوحدهم هموم الدعوة، بينما يفتح الباب على مصراعيه للحوار الأمريكي الإسلامي بلا قيد ولا شرط، والحوار الإسلامي الأوروبي، والحوار حتى مع الفاتيكان والباباوات والأحبار والقسس والرهبان، ونغلق أبواب الحوار مع بعضنا البعض فيا سبحان الله !!!

١- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤/ ١٩٩٩ برقم: ٢٥٨٦، من حديث النعمان بن بشير.

٢- فتح الباري ١٠/٤٣٩.

إنه لا عيب ولا عتب أن نفتح الحوار مع كل أحد كائنا من كان، لكن العتب والعيب أن نفهم أن الحوار لا يكون إلا مع الأعداء فقط دون الأخوة والأخلاء، ومع المحتلين دون أبناء الدين الخالد والبلد الواحد، فلماذا لا نرسخ مبدأ الحوار مع بعضنا الحكومات والشعوب والهيئات والمنظمات والأحزاب والجماعات؟! ولماذا نتحاور مع الغزاة والمحتلين بوجوه ملؤها البشاشة والبهجة والسرور وتعلوها الابتسامات البريئة والضحكات اللطيفة، بينما نتحاور مع بعضنا بلغة الرصاص وأفواه المدافع ووجوه عابسة وقلوب يملؤها الغيظ.

إنها مشكلة فهم ووعي في البلاد الإسلامية والعربية أكثر من عويصة تئن منها أمتنا على مدى قرون طوال ولم نستطع بعد تجاوزها، بينما تجاوزها العقلاء من غيرنا من عقود من الزمان، فنرى العالم من أقصاه إلى أقصاه بمختلف فئاته وثقافاته ودياناته ولغاته وأعراقه وأعرافه وأوضاعه قد سلم بالحوار والنقاش وسيلة وحلاً لفض الخصومات والنزاعات.

إن الواجب على كل علماء ودعاة الإسلام فتح كل أبواب الحوار واللقاءات والمنتديات الفكرية فيما بينهم، وتوسيع دائرة الحب والإخاء، وفتح آفاق التعاون والتآزر بين كل فصائل العلماء والدعاة إلى الله تعالى، وقد اقترح العلماء والعقلاء من الدعاة إنشاء منتدى للعلماء والدعاة من مختلف فصائل التيارات الإسلامية للقاء والحوار يكون تحت إشراف علماء وهيئات علمية متجردة وبعيدة عن الميل والخضوع.

٣- الاجتماع على محكمات الشريعة التي أجمع عليها السلف الصالح، فنتفق ونجمع على ما أجمعوا عليه من محكمات الشريعة، ونقبل الخلاف فيما اختلفوا فيه؛ لأنه قد ثبت أن الصحابة-رضي الله عنهم أجمعين- وكذلك الأئمة من السلف الصالح قد اختلفوا، فلا غرابة أن يقع هذا الاختلاف فيمن بعدهم، إلا أن هناك أشياء لا تتفق مع هذا المعنى بل تناقضه وهي كثيرة، أهمها تنزيل النصوص على غير وجهها، كاعتبار أن الأحاديث الواردة بلزوم الجماعة تنطبق على جماعة معينة، أو تنظيم معين، أو طائفة، أو حزب، ومن يرى

خصوص ذلك فيه وبالتالي يلزم الناس بالاتفاق عليه وطاعته وبيعته، ويعتبر أن من خرج عن ذلك فقد نزع يداً من طاعة، وخلع ربقة الإسلام من عنقه، وإن مات فميتته جاهلية، ويلقى الله يوم القيامة ولا حجة له، إلى غير ذلك مما يقع للناس كثيرا، وما هذا إلا لجهلهم بمراد رسول الله ﷺ، فأصبحت كثير من الطوائف والجماعات ترى أنها واجبة اللزوم والاتباع، ولا ترى ذلك لغيرها، فصدق في هذه الطوائف والجماعات قول الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[الروم:٣٢].

قال الإمام السندي: «"فَارَقَ الْجَمَاعَةَ"[١] أي: خالف ما اتفق عليه المسلمون تفريقاً بين المسلمين وإيقاعاً للخلاف بينهم، أو يريد يفرق كلمة أو للشك»[٢].

إنه لا يكفي أن يعتقد هذا دعاة الإسلام ويكتبوه في كتبهم وبرامجهم، بل لابد أن يظهر هذا في مواقفهم المعلنة –قولاً وعملاً– إزاء الحوادث العامة المتجددة يومياً، وأن يظهر اتفاقهم هذا إزاء قطعيات الإسلام ومحكمات الدين والملة، وألا تتباين رؤاهم حول هذه القطعيات والمحكمات الإسلامية.

إن المرحلة الحالية الصعبة التي تمر بها الأمة الإسلامية تقتضي أن تجتمع كلمة العلماء والدعاة من كافة الجهات والفصائل الإسلامية على كلمة سواء تجاه القضايا المصيرية الكبرى للأمة، كقضية فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وقضايا الأسرى المسلمين في

١- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة ٣/ ١٤٧٦ برقم: ١٨٤٨، والحديث عن أبي هريرة عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلاَ يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ". قلت: الله أكبر انظر إلى قوله ﷺ: "وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ...". إنه يصف الواقع اليوم، والعجيب من الذي يصنع هذا ثم يدعي الانتساب إلى النبي ﷺ.

٢- حاشية السندي على سنن النسائي ٧/٩٢.

سجون المحتلين والعلوج الأمريكان، وقضايا الإصلاح في الوطن العربي والإسلامي، والعدالة الدولية في الإسلام، وقضايا العولمة وتأثيرها على الأمة الإسلامية، وبحث السبل والوسائل والطرق الكفيلة لمواجهة أمواج العولمة العاتية التي تستهدف قيم الدين وأركانه وقواعده وأصوله المحكمة، وأن تتأخر القضايا الجزئية والتفصيلية؛ لتجتمع الكلمة وتتوج الجهود لخدمة الشريعة وإيصالها إلى حيز التطبيق والتنفيذ في سدة الحكم، كما حصل في اليمن عندما اجتمعت جميع الجماعات الإسلامية عام ١٩٩٠م على معارضة ومقاطعة الدستور العلماني الأمر الذي أفلحت فيه هذه المقاطعة الموحدة فتمكن الإسلاميون والقوى الخيرة في البلاد من تعديل الدستور وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية الغراء، وكما حدث في السودان من توحد للإخوان وأنصار السنة والمتصوفة وكل الإسلاميين من أجل إقرار الدستور الإسلامي.

٤- التأسيس لوحدة الصف، إذ لابد أن تتبع القناعة بوحدة الصف الإسلامي خطوات عملية مدروسة لتحقيق هذه الوحدة، ومن هذه الخطوات:

أ- إيقاف جميع أنواع وأشكال المهاترات بين صفوف العلماء والدعاة، ونشر ثقافة الحوار، والصبر على المسلمين، وتعليم جاهلهم، وتوقير عالمهم، وأن السباب والمهاترات ليست من الإسلام في شيء وليست هي الحل، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **"الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ"**[1].

١- رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ١٣/١ برقم: ١٠، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل ٦٥/١ برقم: ٤٠.

ب- تبادل الكوادر والمؤهلات العلمية والمنح والمقاعد الدراسية وتبادل الدعاة والمحاضرين وأساتذة الجامعات بناء على أساس الأخوة الإسلامية، وألا تظل المؤسسات الدعوية أو التعليمية حكراً على جهة أو اتجاه معين.

ج- إنشاء مجلس أعلى للتنسيق والمتابعة بين العلماء والدعاة، يبحث القضايا والمستجدات على الساحة المحلية والدولية، وتحديد المواقف الإسلامية إزاءها، كما يتولى فض الخلافات والنزاعات إن وجدت، يشرف عليه نخبة من العلماء الأتقياء يمثلون رضا وقبول كل التيارات والأطياف الإسلامية، على أن تنظم اللائحة الداخلية حدود واختصاصات ومهام وأعمال هذا المجلس.

د- إنشاء صحيفة أو موقع إلكتروني يهتم بوحدة العلماء والدعاة والتأليف بينهم وتجميع رؤاهم، والدعوة إلى الأخوة الإسلامية، يمثل الملتقى والنادي والحديقة الفكرية التي يلتقي فيها الدعاة إلى الله تعالى

هـ- تبادل الزيارات بين الدعاة، وأن تنسق الدورات التعليمية والمخيمات التربوية لكافة الفصائل الإسلامية، يتولى تمويلها والإشراف عليها المجلس الأعلى المشار إليه.

و- تبادل الكتابات والأقلام الدعوية وذلك بأن تخصص الصحف الإسلامية حيزاً منها للأقلام الأخرى التي ليست من نفس الاتجاه والفصيل، لغرض نشر معاني الإخاء والحوار الإسلامي المنشود.

ز- إنشاء الجمعيات الخيرية التعاونية المشتركة.

ح- الاجتماع حول بعض الشخصيات التي يجمع عليها الإسلاميون بمختلف اتجاهاتهم الفكرية، وهي بذلك تساهم في وحدة العمل الإسلامي بملاحظاتها وفتاواها، ويلزم تكوين مجلس يضم هذه الشخصيات الإسلامية وغيرها يهتم بقضايا العمل الإسلامي، ومعالجة مشكلاته بتقديم الفتوى والنصيحة والمشورة.

ط- عقد مؤتمر سنوي يجمع فصائل العمل الإسلامي، ويتم فيه الاتفاق على المهمات والسياسات للسير، ويوقع عليها قادة هذه الجماعات أو نوابهم.

ي- انتداب طائفة من العاملين في حقل الدعوة لبذل الجهد للإصلاح بين الفصائل الإسلامية، وليس كما يظن البعض كتابة على الرمال أو مناطحة للجبال، فهذا من تسويلات الشيطان وتحريشاته العنيدة؛ لأن جهود المصالحة لا بد أن تعود بخير؛ لأن الله تعالى يقول في شأن الصلح بين الزوجين: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾[النساء:١٢٨] فكيف بخيرية الصلح بين جماعتين أو اتجاهين أو أكثر أو أقل؟! والله تعالى يقول: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[النساء:١١٤].

قال الإمام السعدي: «والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[الحجرات:٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾[النساء:١٢٨]، والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله، كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله ولا يتم له

مقصوده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس:٨١] فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير كما دل على ذلك الاستثناء، ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص»[١].

إن إصلاح ذات البين لا بد أن تكون له آثاره وثماره، وقد يكون نصيب المصلحين ما يعود على أشخاصهم هم من نفع وبر فضلاً عن دفع الشر والضر فالله تعالى يقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١١٤]، فهل يُزهد في هذا الأجر العظيم؟! وهل يفرط حريص على الخير في تلك الفضيلة الكبرى التي جاء الخبر المعصوم بأنها الأفضل بين الأفضل من الأعمال، قال ﷺ: "أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ؛ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ"[٢].

قوله ﷺ: "الحَالِقَةُ" أي: الخصلة التي شأنها أن تحلق أي: تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر، والمراد المزيلة لمن وقع فيها؛ لما يترتب عليها من الفساد والضغائن فلا تبقي شيئا من الحسنات حتى تذهب بها كما يذهب الحلق بشعر الرأس ويتركه عاريا[٣].

١- تفسير السعدي ص٢٠٢.

٢- رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ ٦٦٣/٤ برقم: ٢٥٠٩، وقال: «هذا حديث صحيح» ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: "هِيَ الحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ".

٣- شرح الزرقاني ٣٢١/٤، والنهاية في غريب الأثر ٤٢٨/١.

قال ابن عبد البر: «وفيه مع خبر هذا الباب أوضح حجة في تحريم العداوة، وفضل المؤاخاة وسلامة الصدر من الغل»[١].

وقال سعيد النورسي-رحمه الله-: «كلمة التوحيد تجمعنا، ودار الإسلام تأوينا، ولن تزيد المذاهب الفقهية والآراء المحكومة بضوابطها الشرعية عن أن تكون حُجرات في بيت الإسلام الكبير»[٢].

١- التمهيد لابن عبد البر ٢٣/١٤٦.

٢- الوسائل العلمية والعملية لوحدة الدعاة والعلماء، نقلاً عن صحيفة صوت الإيمان، عدد: (٢٠٤) ص ٧، محرم ١٤٣١هـ.

القطب الأعظم في الدين وأثره

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، ودليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، وهو سر أفضلية هذه الأمة؛ لقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠]، وصمام أمن الحياة، وضمان سعادة الفرد والمجتمع، يثبت معاني الخير والصلاح في الأمة، ويزيل عوامل الشر والفساد من حياتها، ويقضي عليها أولاً بأول؛ حتى تسلم الأمة وتسعد، ويهيأ الجو الصالح الذي تنمو فيه الآداب والفضائل، وتختفي فيه المنكرات والرذائل، ويتربى في ظله الضمير العفيف، والوجدان اليقظ، ويكون الرأي العام المسلم الحر الذي يحرس آداب الأمة وفضائلها، وأخلاقها وحقوقها، ويجعل لها شخصية وسلطاناً هو أقوى من القوة، وأنفذ من القانون، ويبعث الإحساس بمعنى الأخوة والتكافل والتعاون على البر والتقوى، واهتمام المسلمين بعضهم ببعض، وهو سبب النصر والتمكين في الدنيا، وسبب النجاة في الدنيا والآخرة[١].

قال الإمام الغزالي: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم،

١- موسوعة نضرة النعيم ٣/٥٣٩.

وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلاً بعملها أو متقلداً لتنفيذها مجدداً لهذه السنة الداثرة ناهضاً بأعبائها ومتشمراً في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها»[١].

الحذر من تضييع الدعوة والتقصير في تغيير المنكر

لقد حذر الله تعالى في كتابه ورسوله ﷺ في سنته من ترك الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن النكر؛ لأن هذا الترك أو التضييع يوجب ما يلي:

١- اللعن والطرد من رحمة الله تعالى القائل عن بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨-٧٩] ، فقد خص من معاصيهم التي أحلت بهم المثلات وأوقعت بهم العقوبات أنهم كانوا يفعلون المنكر ولا ينهى بعضهم بعضاً، فيشترك بذلك المباشر وغيره الذي سكت عن النهي عن المنكر مع القدرة، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر مع القدرة موجباً للعقوبة لما فيه من المفاسد العظيمة[٢].

١- إحياء علوم الدين ٢/٣٠٦.

٢- تفسير السعدي ص٢٤١.

٢- نزول العذاب ورفع إجابة الدعاء، فعن حذيفة عن اليمان ﷺ عن النبي ﷺ قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ، فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ"[١].

٣- عموم الهلاك للجميع؛ فعن النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً"[٢]، وهكذا إذا أقيمت الحدود وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر تحصل النجاة للكل، وإلا هلك العاصي بالمعصية، وغيرهم بترك الإقامة[٣].

لقد دل هذا التمثيل الذي في هذا الحديث النبوي الشريف على أن كل مسلم في هذا الوجود له وظيفة اجتماعية في الأخذ على يد العابثين المفسدين، والوقوف في وجه الظالمين المارقين؛ حتى تسلم لأمة الإسلام عقيدتها وأخلاقها، ويتحقق لها كيانها وعزتها، وإنها إذ تساهلت في ذلك أصابها الله تعالى بالذل والهون والتمزق[٤].

ولا يرفع نزول الهلاك وجود الصالحين، بل ولا كثرتهم؛ لأن ترك تغير المنكر يؤدي إلى كثرته وشيوعه، وذلك قد يسبب الهلاك، فعن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت

١- رواه أحمد، تتمة مسند الأنصار، حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ ٣٣٢/٣٨ برقم: ٢٣٣٠١، والترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٦٨/٤ برقم: ٢١٦٩، وقال: «هذا حديث حسن»، قال الألباني: «حسن لغيره» صحيح الترغيب والترهيب ٢٨٦/٢ برقم: ٢٣١٣.

٢- رواه البخاري، كتابة الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه ٨٨٢/٢ برقم: ٢٣٦١.

٣- عمدة القاري ٥٧/١٣.

٤- الرائد دروس في التربية والدعوة ١٢٩/٣، نقلاً عن وجوب تبليغ الدعوة ص ١٧، ١٨.

جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: "لاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ؛ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ؛ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ: زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ إِذَا كَثُرَ الْخبثُ"[١]، قال النووي: «الخبث: هو بفتح الخاء والباء وفسره الجمهور بالفسوق والفجور، وقيل: المراد الزنا خاصة، وقيل: أولاد الزنا، والظاهر أنه المعاصي مطلقاً... ومعنى الحديث: أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام وإن كان هناك صالحون»[٢].

الغاية لا تبرر الوسيلة

إن حديث النعمان بن بشير دليل لمبدأ (الغاية لا تبرر الوسيلة) أي: أن الإسلام لا يقبل الوصول إلى الغايات الطيبة بالوسائل الخبيثة، إنه يرفض الفلسفة (الميكافيلية) التي ترى أن الغاية تبرر الوسيلة، بل يؤكد كل التأكيد أنه لا بد من اجتماع الأمرين: **الغاية الشريفة، والوسيلة النظيفة**، ولهذا رفض جمع المال من طرق الحرام لينفق في الخيرات وأوجه الصدقات، وقد فسر السلف العمل الصالح المقبول بأنه ما اجتمع فيه أمران: **الخلوص، والصواب**، فلا يقبل العمل عند الله إلا إذا كان خالصاً صواباً، وخلوصه أن يكون لله تعالى، وصوابه أن يكون على السنة، أي: على ما شرعه المنهج النبوي الذي يمثل الصراط المستقيم[٣]، ونرى مصداق ذلك في نص هذا الحديث الذي خرج من مشكاة النبوة الصادقة فلم يشفع لركاب السفينة الغاية الحسنة التي أرادوا بسببها خرق السفينة والتي هي عدم أذية وإزعاج إخوانهم في الطابق الأعلى للسفينة طالما أن الوسيلة خاطئة بل مهلكة.

١- رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج ٣/ ١٢٢١ برقم: ٣١٦٨، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ٤/ ٢٢٠٧ برقم: ٢٨٨٠.

٢- شرح صحيح مسلم ١٨/ ٣، ٤.

٣- فتاوى معاصرة للقرضاوي ٢ /٤٧٥.

واليوم نجد كثيراً من الحكومات العربية والإسلامية ترفض المبدأ الإسلامي، وتعمل بالفلسفة الميكافيلية، فيسعون إلى المقاصد التي يزعمون أنها حسنة -والله وحده هو الأعلم بمرادهم- بالوسائل الخبيثة والممنوعة، كرفع الأسعار هذه الوسيلة الخبيثة التي أفقرت الشعوب ودمرت الاقتصاد ويزعمون أن المقصد من ذلك السعي إلى إصلاح وتطوير الاقتصاد، فلو كان مقصدهم الذي ظاهره حسن وجميل صادقاً فإنه لا يبرر الوسائل الخبيثة التي يسلكونها، فلابد أن تكون الوسيلة صحيحة حسنة، فمن أراد إصلاح الاقتصاد والتخلص من الغلاء فعليه بالوسائل المشروعة لا الممنوعة، والحسنة لا الخبيثة، والوسائل الحقيقة لا الموهومة المكذوبة، الوسائل التي تجتث الفساد والمفسدين من الجذور، خصوصاً وأن الحكومات تملك زمام الأمور، لكن للأسف فقد استشرى الفساد ونخر في هذه الحكومات حتى ارتقى مرتقاً صعباً بسبب التهاون فيه وفي إزالته والمتسببين فيه، وهكذا الكثير من السياسات الفاسدة المعوجة التي يزعمون لها الدوافع الخيرة والبواعث النبيلة من زعم بأنهم يهدفون إلى إنقاذ الشعوب، فلو افترضنا صحة هذه الدعوى - على ما فيها من شطط وتجاوز- ما جاز لهم بحال أن يصلوا إلى غاياتهم التي يزعمون شرفها ونبلها ورفعتها بهذه الوسائل القذرة التي تقوم على مخالفة مبادئ الإسلام، والاستهانة بالشعوب واحتقارها وتجويعها وإذلالها إلى حد يصل إلى الاستهانة بسفك الدم بغير حق، فعلى الحكومات العربية والإسلامية التنبه لهذا الأمر فالمقاصد الحسنة لا تبرر الوسائل الممنوعة، والحذر الحذر الحذر من الاغترار بتلاعب وأكاذيب اليهود والنصارى وبنكهم الدولي الذي لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة، بل يحارب الله ورسوله بقروضه الربوية المنتنة، والحذر الحذر أثناء التعامل مع شركاتهم بحيث يوكل أمر التعامل معها إلى أهل الخبرة والمعرفة والاختصاص والأمانة، فبخبرتهم ومعرفتهم واختصاصهم لا يخدعون في صفقات زائفة أو خاسرة، ولأمانتهم ودينهم لا يقدمون مصالحهم الشخصية على مصالح شعوبهم؛ لأن في

تقديم المصالح الشخصية إنهاك للدول والشعوب في صفقات كاسدة خاسرة مقابل عطايا ومغريات تعطيها الشركات للقائمين على إبرام الاتفاقيات لنهب خيرات البلاد والعباد.

من أضرار ومفاسد تضييع الدعوة وترك تغيير المنكر

إن التفريط في القيام بتغيير المنكر، والتفريط في الدعوة والقعود عنها وتضييعها والتكاسل في القيام بها يترتب عليه مفاسد كثيرة، وشرور عظيمة، نراها ونشاهدها في أحوال المجتمعات التي قل فيها الدعاة، وتقاعس الناس عموماً والصالحون خصوصاً عن القيام بتغيير المنكر، ومن هذه الأضرار والمفاسد: جرأة أهل الفجور والفسق على ارتكاب المعاصي والإعلان عنها والمجاهرة بها والتهاون بشأنها والإكثار منها، وكثرة الجهل ورؤية الباطل حقا، والاغترار بالمعاصي وتزيينها للناس[١]، بل الوقوع في المعصية؛ لأن مجرد السكوت فعل معصية وإن لم يباشرها الساكت[٢]، وانتشار الظلم وتنافر القلوب والتباغض، فالمعصية ظلم وبانتشارها وكثرتها ينتشر الظلم ويستفحل، وتنتشر الفواحش، وتنتهك الأعراض، وتؤكل الأموال بالباطل، وتسفك الدماء، ويستهان بالحقوق، وتضيع الأمانات، وتكثر الخيانات، وتتدابر الوجوه، وتتنافر القلوب، وينتشر الحقد والحسد، والكذب والتزوير، فيحل الهلاك بالعباد، ويحصل خراب الديار والبلاد، فإن ما يشاهد هذه الأيام من اقتتال بين المسلمين وإراقة للدماء كما هو الحال في الصومال وجنوب السودان وشمال اليمن والباكستان وغيرها من الدول لمما يؤكد على غياب العلم والرسوخ فيه، وتصدر الجهل المزين للمناطقية، وغياب النهي عن المنكر.

إن على الحكام والعلماء والدعاة بل المجتمع بأسره المبادرة إلى إنكار المنكر وتغييره وإخماد الأسباب الحقيقة للفتن والتمزق بالتي هي أحسن؛ لأن في ذلك النجاة للجميع،

١- انظر: من ١-٣: تفسير السعدي ص٢٤١، والرائد دروس في التربية والدعوة ٣/١٣٠، ١٣١.

٢- تفسير السعدي ص٢٤١.

وفي ترك أسبابها الحقيقة أو اللجوء إلى معالجة غيرها أو معالجتها بالفتنة لمما يؤدي إلى نزول الهلاك بالجميع فعن النعمان بن بشير –رضي الله عنهما– عن النبي ﷺ قال: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا".

إن تمزيق الصفوف والدعوة إليه أو القيام بأي عمل يكون سبباً في ذلك وما ينتج عنه من اقتتال وإراقة للدماء ونهب للأموال وهتك للحرمات لمن أعظم المنكرات التي يجب الحذر والتحذير منها، وكيف لا يكون ذلك من أعظم الجرائم والمنكرات وقد حذر منه النبي ﷺ أشد التحذير في يوم الحج الأكبر في خير البلاد وخير الأجيال وأمر الحاضرين ببيان ذلك وتبليغه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ –قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا "فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ– فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"[1]، وفي رواية: "فَلاَ تَرْجِعُنَّ بَعْدِى كُفَّارًا –أَوْ ضُلاَّلاً– يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ"[2].

١– رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى ٦١٩/٢ برقم: ١٦٥٢.

٢– رواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ١٣٠٥/٣برقم: ١٦٧٩.

إنها وصية من النبي ﷺ لجميع أمته يبين فيها عظم الدماء والأموال والأعراض، وحرمة الاعتداء عليها.

الجهل وآفة العجب

إن من المخاطر التي تنتج عن الجهل ويحصل بها التفرق والتمزق في المجتمعات والدول آفة العجب بالنفس، أو الرأي، أو القوة، أو السلطان والسيادة، أو العمل، والذي يمهد للحرب التي ينتظرها الكثير من خصوم هذه الأمة، ويسعدهم أن تقع بأيدينا لا بأيديهم[١]، وما أكثر العُجب هذه الأيام في الحكام والمحكومين، وفي الأفراد والمجتمعات، وفي الأحزاب والجماعات، فكان لا بد من وقفة مع آفاته.

إن العجب له آفات مباشرة وغير مباشرة: فأما غير المباشرة فإنه يدعو إلى الكبر، والكبر يتولد عنه، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، وإذا اجتمعا -الكبر والعجب- فإنهما يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل، وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح، ولا قبول لتأديب.

وأما الآفات المباشرة فإنه يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، ويستعظم صاحبه العبادات والأعمال ويتبجح بها، ويمن على الله بفعلها، وربما منعه عجبه من الازدياد في الطاعات، ثم إذا أعجب بها نسي آفاتها، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها، ويمنعه ذلك من الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ويكتفي برأيه، وربما أعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره، ويصر عليه، وربما أودى ذلك به وبغيره إلى الهلاك خاصة لو كان هذا الرأي يتعلق بأمر من أمور الدين أو

١- وهذا هو الحاصل اليوم؛ فإنها قد وقعت، ونارها مستعرة، يمولها الأعداء، ويشعلها العملاء، ووقودها الجهلاء، وضحاياها المساكين والضعفاء، نسأل الله أن يهلك كل سفاح مبير، وإن يحقن دماء المسلمين، ويحفظ العباد والبلاد.

أمر من أمور الرعية والمحكومين وسياستهم، ولذلك عد العجب من المهلكات للأفراد والشعوب والجماعات، ومن أعظم آفاته فتور سعي المعجب؛ لظنه أنه قد فاز واستغنى، وهذا هو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه[١].

منشأ العجب وعلاجه

أما منشأ العجب وعلته فالجهل المحض، والعجب بالفعل الداخل تحت اختيار العبد كالعبادة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره.

وأما علاجه فمجمل، ومفصل:

أما المجمل فبالمعرفة المضادة لذلك الجهل فيقابل سببه بضده أي: بمعرفة أن ذلك الذي أثار إعجابه نعمة من الله عليه، من غير حق سبق له، ومن غير وسيلة يدلي بها، ومن ثم ينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، وإذا تم علم الإنسان لم يرَ لنفسه عملاً ولم يعجب به؛ لأن الله هو الذي وفقه إليه، وإذا قيس بالنعم لم يفِ بمعشار عشرها، هذا إذا سلم من شائبة وسلم من غفلة، فأما والغفلات تحيط به، فينبغي أن يغلب الحذر من رده ويخاف العقاب على التقصير فيه، هذا علاجه إجمالاً.

أما علاج حالاته تفصيلاً، فإن ذلك يختلف باختلاف ما يحدث به العجب وينشأ عنه وذلك أمور:

الأول: العجب بحالة البدن وما يتمتع به صاحبه من الجمال والقوة والبطش ونحوهما، فعلاجه التفكر في أقذار باطنه، وفي أول أمره وآخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة، كيف تمرغت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع:

١- انظر: إحياء علوم الدين ٣/٣٧٠، ونضرة النعيم ١١/ ٥٣٥٦، ٥٣٥٧، والغارة على العالم الإسلامي وصدام الحضارات ص١٥٣.

يا مظهر الكبر إعجابا بصورته ... أبصر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكر الناس فيما في بطونهم ما ... استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمةٌ ... وهو بخمس من الأقذار مضروبُ
أنف يسيل وأذن ريحها سَهِكٌ ... والعين مُرْمَصَةٌ والثغر ملعوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا ... أبصر فإنك مأكول ومشروب[١]

الثاني: العجب بالبطش والقوة الذي يؤدي بصاحبة إلى السطو على حقوق الآخرين وابتزازها بغير حق، وعلاجه أن يتذكر يوم تضعف قوته، وأنها ربما سلبت منه بأدنى آفة يسلطها الله عليه.

الثالث: العجب بالنسب الشريف، فعلاجه أن يعلم أنه إن خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بهم فما كان العجب من أخلاقهم، وأنهم شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة، لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به، فإن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣]، وقال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ ،وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلاَنِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ"[٢].

١- المجالسة وجواهر العلم ٢٧٤/١.

٢- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ ٣٤٩/١٤ برقم: ٨٧٣٦، أبو داود، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب ٧٥٢/٢ برقم: ٥١١٦، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ٧٩/٣ برقم: ٢٩٦٥.، قوله: "عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ" بضم العين المهملة وكسرها وكسر الموحدة وفتح التحتية المشددتين أي: نخوتها وكبرها، "وَفَخْرَهَا" وتعاظمها أي: تفاخرها. انظر: تحفة الأحوذي ١١٠/٩.

الرابع: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم، فعلاجه أن يتفكر في مخازيهم، وأنهم ممقوتون عند الله تعالى، فكيف لو انكشف له ذلهم يوم القيامة!!

الخامس: العجب بكثرة الأموال والأولاد والخدم والأقارب والأنصار، فعلاجه أن يعلم ضعفه وضعفهم، وأن للمال آفات كثيرة، وأنه غاد ورائح ولا أصل له.

السادس: العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم؛ إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل، واستحقاراً لهم وإهانة، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه، فلا يأمن من أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى، وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم، فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري، فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد عجبا، وكم زل في هذا النوع من خلق وأشده خطراً على أهل القيادة من العلماء والدعاة والحكام، فكم استغنى بعض هؤلاء بالرأي الذي مزق وفرق، وأشد هؤلاء خطراً الحاكم المعجب بعقله وكياسته وفطنته وحنكته التي قادته إلى الاستبداد برأيه وترك المشورة واستجهال المخالفين، والإعراض عن الإصغاء إلى أهل العلم؛ إعراضاً مزقت به البلاد، وسفكت به الدماء، فالحذر الحذر من هذه الآفة والطامة الكبرى.

السابع: العجب بالرأي الخطأ، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

﴿صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٤]، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة، فيظهر الشح المطاع، والهوى المتبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه[١]، وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقاً، فكل معجب برأيه، وكل حزب بما لديهم فرحون، وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها؛ لعجبهم بآرائهم.

واليوم يعيد التاريخ نفسه، ويظهر الإعجاب بالنفس والرأي الذي يؤدي إلى الإصرار على الخطأ، والبعد عن الإفادة من مشورة المخلصين، والعلماء الناصحين، واستجهال المخالفين له ولرأيه، مما ينذر بوقوع الفرقة والتمزق المؤدي إلى الهلاك، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره؛ لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جداً؛ لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إلا إذا كان معجباً برأيه أو جهله مصراً عليه معتقداً أنه الحق الذي لا يجوز مخالفته، فإنه لا يصغي إلى العارف بل يتهمه، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة، فكيف يمكن علاجه، وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده، وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبداً لا يغتر به، وإلا كان مدعياً؛ لأن علم البشر محدود[٢].

١- حديث أبي ثعلبة الخشني: "ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ..." رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ٢/٥٢٦ برقم: ٤٣٤١، والترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة ٥/٢٥٧ برقم: ٣٠٥٨، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾[المائدة:١٠٥] ٢/١٣٣٠ برقم: ٤٠١٤، ضعفه الألباني في ضعيف أبي داود ١/٤٣١ برقم: ٩٣٤.

وأما حديث أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: "ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ"، فرواه الطبراني في المعجم الأوسط ٥/ ٣٢٨ برقم: ٥٤٥٢، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٤٧١ برقم: ٧٤٥، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤ /٤١٢ برقم: ١٨٠٢، وصحيح الترغيب والترهيب ١/١٠٨ برقم: ٤٥٣.

٢- انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٣/٣٧١-٣٧٨، ونضرة النعيم ١١/ ٥٣٥٧، ٥٣٥٨

المبحث الثالث: الظلم

إن الظلم من أقبح الخصال التي لا تصدر إلا من نفس متجبرة متكبرة، ناسية عظمة الله وشدة عقابه، أو جاهلة لها، أو غافله أو متغافلة عنها، حرمه الله ﷻ -لتمام عدله- على نفسه، وجعله محرماً بين عباده؛ لأنه وضع للشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو زيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، وإما بمجاوزة الحق والتعدي عنه إلى الباطل وهو الجور، والتصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد والميل عن القصد، ويقال في الكثير والقليل، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير والذنب الصغير[١]، فعن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا"[٢]، وعن ابن عمر-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "[٣]، فقوله ﷺ: "لا يَظْلِمُهُ" نفي بمعنى الأمر، وهو من باب التوكيد؛ لأن ظلم المسلم للمسلم حرام[٤].

وقد وعد الله تعالى عليه بالعذاب الشديد[٥] قال ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[غافر:٥٢]، وحذر رسوله ﷺ منه، فعن أبي هريرة ﷺ

١- لسان العرب ٣٧٣/١٢، والقاموس المحيط ١٤٦٤/١، والمصباح المنير ٣٨٦/٢، وتاج العروس ٣٣/٣٣، والتعاريف للمناوي ص٤٩٢، والتعريفات للجرجاني ص١٨٦، ودستور العلماء ٢٠٨/٢، وبصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ص١٠٧٢.

٢- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤ برقم: ٢٥٧٧.

٣- رواه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ٨٦٢/٢ برقم: ٢٣١٠، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ١٩٩٦/٤ برقم: ٢٥٨٠.

٤- عمدة القاري ٢٨٩/١٢.

٥- الدروس اليومية من السنن والأحكام الشرعية ٣٩٩/١.

قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ، أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ؛ قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ، وَلاَ دِرْهَمٌ ،إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ"[١].

إن كل من خرج عن تعاطي العدل بالطبع وبالخلق والتخلق والتصنع والرياء والرغبة والرهبة فقد انسلخ عن الإنسانية، ومتى صار أهل كل صقع على ذلك فتهارشوا وتغالبوا وأكل قويهم ضعيفهم، ولم يبق فيهم أثر قبول لمن يمنعهم ويصدهم عن الفساد فقد جرت عادة الله ﷻ في أمثالهم بإهلاكهم واستئصالهم عن آخرهم[٢]، قال الله ﷻ: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الأنفال:٢٥]، وقال ﷻ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠١-١٠٢]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[يونس:١٣]، وقال: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[الأعراف:٤-٥]، وقد أمرنا النبي ﷺ بالأخذ على يد الظالم، ومنعه من ظلمه، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا،

١- رواه البخاري، كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته ٢/٨٦٥ برقم: ٢٣١٧.

٢- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ١٠/٤٨٧٣.

فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ –أَوْ تَمْنَعُهُ– مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ"[١].

أنواع الظلم

الظلم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣] وهو المقصود بقوله ﷻ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود:١٨]، فالظالم الأعظم هو الذي لا يدخل تحت شريعة الله تعالى، وهو المقصود بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ويدخل فيهم كل من عمد إلى إقصاء الشريعة عن منصة الحكم، أو قدم عليها القوانين الوضعية والحكم بالهوى، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ * هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[الجاثية:١٨-٢٢].

النوع الثاني: ظلم بين الإنسان وبين الناس، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الشورى:٤٠]،

١- رواه البخاري، كتاب الإكراه، يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه ٦/٢٥٥٠ برقم: ٦٥٥٢.

وفي قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورى:٤٢]، وظلمهم بوضع الشيء في غير موضعه المختص به، وبمجاوزة الحق والحد، والميل عن القصد، والتعدي عنه إلى الباطل والجور، والتصرف في ملك الغير بغير وجه حق، ومن ظلمهم أن يتعطل عن المكاسب والأعمال، فيأخذ منافع الناس، ولا يعطيهم منفعة، وإن من الظلم الواقع بين الإنسان وبين الناس عدم التزام أحكام الجهات المختصة فيما تضعه من أنظمة لتسيير الحياة فيما لا نص فيه، بشرط ألا يتعارض ذلك مع نصوص وأحكام الشرع؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"[(١)].

النوع الثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وهو المذكور في قوله ﷻ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[فاطر: ٣٢]، وقوله ﷻ: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾[القصص:١٦].

وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس، فإن الإنسان أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه[(٢)].

١- رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٦/٢٦١٢ برقم: ٦٧٢٥.

٢- تاج العروس ٣٣/٣٣، والمفردات في غريب القرآن ١/ ٣١٥، ٣١٦، ونضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ١٠/٤٨٧٣، بتصرف.

دواوين الظلمة يوم القيامة

لما كان الظلم أنواعا ثلاثة، كانت دواوينه يوم القيامة ثلاثة؛ لأن كل ديوان يقابله نوع، وهذه الدواوين هي:

١- ديوان لا يغفر الله منه شيئا، وهو الشرك به، فان الله لا يغفر أن يشرك به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ١١٦].

٢- ديوان لا يترك الله تعالى منه شيئا، وهو ظلم العباد بعضهم بعضا، فان الله تعالى يستوفيه كله، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا"[(١)].

٣- ديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه ﷻ، فان هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محواً؛ فانه يمحي بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ونحو ذلك، بخلاف ديوان الشرك فإنه لا يمحي إلا بالتوحيد، وديوان المظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أهلها واستحلالهم منها[(٢)].

١- رواه البخاري، كتاب المظالم، باب قصاص المظالم ٢/٨٦١ برقم: ٢٣٠٨.

٢- الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٣٣.

من مضار الظلم

للظلم أضرار وخيمة، أذكر منها ما يلي:

١- الظلم يجلب غضب الله تعالى وسخطه، ويتسلط على الظالم بشتى أنواع العذاب، وكيف لا يجلب غضب الله وسخطه وهو الذي حرمه على نفسه وجعله محرماً بين عباده ونهاهم عنه، ومن أشد الظلم الجالب لغضب الله تعالى على العبد ظلم الولاة والسلاطين، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أَرْبَعَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللهُ: الْبَيَّاعُ الْحَلَّافُ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ، وَالشَّيْخُ الزَّانِي، وَالْإِمَامُ الْجَائِرُ"[١]، وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ أَشَدَّ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا، أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، وَإِمَامٌ جَائِرٌ"[٢]، وفي رواية: "أشد الناس عذابا يوم القيامة: رجل قتله نبي، أو قتل نبيا، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين[٣]"[٤].

٢- قبول دعاء المظلوم فيه، فقد حذر النبي ﷺ من دعوة المظلوم؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فقال: "...وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ

١- رواه النسائي، كتاب الزكاة، الفقير المختال ٥/٨٦ برقم: ٢٥٧٦، وابن حبان، كتاب الحظر والإباحة، ذكر وصف أقوام يبغضهم الله جل وعلا من أجل أعمال ارتكبوها ١٢/٣٦٨ برقم: ٥٥٥٨، وصححه الألباني في الصحيحة ١/٧٠٤ برقم: ٣٦٣.

٢- رواه الطبراني في الكبير ١٠/ ٢١٦ برقم: ١٠٥١٥، قال الهيثمي: «رواه الطبراني وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس وبقية رجاله ثقات، ورواه البزار إلا أنه قال: "وإِمَامُ ضَلَالَة"، ورجاله ثقات، وكذلك رواه أحمد» مجمع الزوائد ٥/٤٢٥ برقم: ٩١٩٨، قال الألباني: «رواه الطبراني ورواته ثقات إلا ليث بن أبي سليم وفي الصحيح بعضه ورواه البزار بإسناد جيد إلا أنه قال: "وإِمَامُ ضَلَالَة"» صحيح الترغيب والترهيب،٢/ ٢٥٦ برقم: ٢١٨٥.

٣- أي مصور، يقال مثلت بالتثقيل والتخفيف إذا صورت مثالا، والتمثال الاسم منه، وظل كل شيء تمثاله، ومثل الشيء بالشيء سواه وشبهه به وجعله مثله وعلى مثاله. النهاية في غريب الأثر ٤/٢٩٥، وانظر: فتح الباري ١٠/٣٨٣.

٤- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ ٦/٤١٣ برقم: ٣٨٦٨، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٥٦٩ برقم: ٢٨١.

بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ"[١]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "اتَّقُوا دَعَوَاتِ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا شَرَارٌ"[٢]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالإِمَامُ العَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الغَمَامِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ"[٣].

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم آخره يأتيك بالندم

تنام عيناك والمظلوم منتصب يدعو عليك وعين الله لم تنم[٤]

٣- يخرب الديار، وبسببه تنهار الدول، ويُرفع النصر والتمكين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[البقرة:٢٧٠]، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما مر بالحجر قال: "لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ"[٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ويروى [بأن] الله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة»[٦].

١- رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا ٢/٥٤٤ برقم: ١٤٢٥، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/٥٠ برقم: ١٩.

٢- رواه الحاكم، كتاب الإيمان ١/٨٣ برقم: ٨١، وقال: «قد احتج مسلم بعاصم بن كليب والباقون من رواة هذا الحديث متفق على الاحتجاج بهم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/٢٦٥برقم: ٢٢٢٨.

٣- رواه الترمذي، كتاب لدعوات، باب في العفو والعافية ٥/٥٧٨ برقم: ٣٥٩٨، وقال: «هذا حديث حسن»

٤- التبصرة لابن الجوزي ١/٨٥، والكبائر للذهبي ١/١٠٥.

٥- رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[هود:٦١] ٣/١٢٣٧ رقم: ٣٢٠٠، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق،باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ٤/٢٢٨٥ رقم: ٢٩٨٠.

٦- مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦٢، ٦٣.

٤- تحاشي الخلق عن الظالم وبعدهم منه؛ لخوفهم من بطشه، قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ"[١].

٥، ٦- معصيته متعدية للغير، وهو دليل على ظلمة القلب وقسوته، قال ابن الجوزي: «الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة والمعصية فيه أشد من غيرها؛ لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب؛ لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئا»[٢]، وقال يحيى بن أبي كثير: « أمر رجل بالمعروف ونهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال أبو هريرة: كذبت والله الذي لا إله إلا هو، ثم قال: والذي نفسي بيده إن الحباري[٣] لتموت هزلاً في وكرها بظلم الظالم»[٤].

٧- عدم الأخذ على يد الظالم يفسد الأمة؛ لأن الظلم من أعظم المنكرات، وبسببه ترفع إجابة الدعوات، ويُختم على القلوب، والنبي ﷺ يقول: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ، فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ"[٥]، وقال: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ

١- رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ٥/ ٢٢٤٤ برقم: ٥٦٨٥.

٢- فتح الباري ٥/١٠٠.

٣- الحُبَارَى: طائرٌ طويل العنق، رمادي اللون، على شكل الإوزة، في منقاره طول، تاج العروس ١٠/٥٠٩.

٤- تفسير القرطبي ١٤/٣٦١.

٥- رواه أحمد، تتمة مسند الأنصار، حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ ٣٨/٣٣٢ برقم: ٢٣٣٠١، والترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤/٤٦٨ برقم: ٢١٦٩، وقال: «هذا حديث حسن»، قال الألباني: «حسن لغيره» صحيح الترغيب والترهيب ٢/٢٨٦ برقم: ٢٣١٣.

لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ" قال خلف: «تأطرونه: تقهرونه»[١]، وقد أمرنا النبي ﷺ أن نأخذ على يد الظلم ونمنعه عن ظلمه فقال: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ -أَوْ تَمْنَعُهُ- مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ"[٢]، وفي رواية: قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالما؟ قال: "تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ"[٣].

٨- يجلب كره الرسول ﷺ، والخروج عن طريقته، فعن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة: "أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ، قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟، قَالَ: أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي، لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَالصَّلَاةُ قُرْبَانٌ -أَوْ قَالَ: بُرْهَانٌ-، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ: فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا"[٤].

١- رواه الطبراني في الكبير ١٠/ ١٤٦ برقم: ١٠٢٦٨، قال الهيثمي: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد ٥٣١/٧ برقم: ١٢١٥٣.

٢- رواه البخاري، كتاب الإكراه، يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه ٢٥٥٠/٦ برقم: ٦٥٥٢.

٣- رواه البخاري، كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما ٨٦٣/٢ برقم: ٢٣١٢.

٤- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله ﷺ ٣٣٢/٢٢ برقم: ١٤٤٤١، قال الألباني: «صحيح لغيره» انظر: صحيح الترغيب والترهيب ٢٦٨/٢ برقم: ٢٢٤٢.

٩- صَغَار الظالم عند الله وذلته، قال الله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾[الأنعام:١٢٤]، قال الإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي: «وإنما قدم ذكر الصغار على ذكر الضرر؛ لأن القوم إنما تمردوا عن طاعة محمد عليه الصلاة والسلام طلباً للعز والكرامة، فالله تعالى بين أنه يقابلهم بضد مطلوبهم، فأول ما يوصل إليهم إنما يوصل الصغار والذل والهوان»[1]، وكذلك الظالم إنما تجاوز الحق والحد، وتعدى عنه إلى الباطل، وصار جائراً، وتصرف في ملك الغير، ومال عن القصد؛ طلباً للعز والكرامة، فسنة الله تعالى تقتضي أن يقابله بضد مطلوبه، فأول ما يوصل إليه الصغار والذل والهوان.

١٠- الظلم يؤدي بصاحبه إلى الشقاء، ويعمل على تمكين الشر والفساد في النفوس؛ فلذلك تجد أن الظلمة شرار الخلق، لأن الظالم يجاوز الحق والحد ويتعداه إلى الباطل، ويميل عن القصد ويتصرف في ملك غيره، فلا يقبل هدى الله ولا يرفع به رأسا، فبظلمهم يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا هم لأحدهم إلا تحقيق شهوات بطنه وفرجه بأي طريق وأي ثمن، فإن ترقت همته كان همه مع ذلك لباسه وزينته، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الغضبية، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الغضبية كان همه في نصرة النفس الكلبية، فإن لم يعطها انتقل إلى نصرة النفس السبعية، فلا يعطيها إلا واحدة من هؤلاء.

قال ابن القيم وهو يتحدث عن أصناف الناس: «وأما الطائفة الثالثة وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأساً، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية... ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان:٤٤] فهم الذين يضيقون

١- التفسير (مفاتيح الغيب) الكبير ١٣/١٤٤.

الديار، ويغلون الأسعار، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقت همته كان همه مع ذلك لباسه وزينته، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الغضبية، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الغضبية كان همه في نصرة النفس الكلبية، فلم يعطها إلى نصرة النفس السبعية، فلم يعطها أحد من هؤلاء، فان النفوس كلبية وسبعية وملكية، فالكلبية تقنع بالعظم والكسرة والجيفة والقذرة، والسبعية لا تقنع بذلك بل تقهر النفوس تريد الاستيلاء عليها بالحق والباطل، وأما الملكية فقد ارتفعت عن ذلك وشمرت إلى الرفيق الأعلى فهمتها العلم والإيمان ومحبة الله»[١].

١١- الظالم يحرم شفاعة رسول الله ﷺ ، فعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: "صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي: سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وغَالٍ فِي الدِّينِ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ فَيَتَبَرَّأُ مِنْهُم"[٢].

١٢- الظلم سبب للضلال وعدم الفلاح في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الأنعام: ١٣٥]، وقال ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[إبراهيم:٢٧]، فالظلمة لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا ولا في الآخرة، بل يبقون في الحرمان والخذلان[٣]، فلا يفوزون بمطلوب، ولا ينجون من محذور[٤].

١- الوابل الصيب ١/٨٥.، وانظر: منطلقات طالب العلم ١/٩٥.

٢- رواه الطبراني في الكبير٢٠/٢١٣ برقم: ٤٩٥، والأوسط ١/٢٠٠ برقم: ٦٤٠، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجال الكبير ثقات» مجمع الزوائد، ٥/٤٢٣ برقم: ٩١٩٥، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/٢٦٣برقم: ٢٢١٨.

٣- التفسير الكبير ١٢/١٥٠.

٤- تفسير أبي السعود ١/٧.

١٣- يسلط على الظلم أمثاله، فتجد أعوانه وحاشيته من جنسه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[الأنعام:١٢٩]، أي: نجعل بعضهم ولياً لبعض، وقيل يتبع بعضهم بعضاً في دخول النار، وقيل يسلط بعضهم على بعض[١]، قال الإمام السعدي: «أي: وكما ولينا الجن المردة، وسلطانهم على إضلال أوليائهم من الإنس، وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة بسبب كسبهم وسعيهم بذلك، كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله؛ يؤزه إلى الشر، ويحثه عليه، ويزهده في الخير، وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة، الشنيع أثرها، البليغ خطرها، والذنب ذنب الظالم؛ فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦] ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنعهم الحقوق الواجبة، ولى عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين»[٢]، وفي بعض الآثار: «إذا كان يوم القيامة يجتمع الظلمة وأعوانهم [و] من ألاق لهم دواةً وبرى لهم قلما، فيُجعلون في تابوت ويُلقَون في جهنم»[٣].

إنْ كُنْتَ تحفظ ما يليكَ فإنّما عمالُ أَرْضِكَ بالبلادِ ذئابُ
لن يستجيبوا للذي تدعو له حتى تُجلَّدّ بالسيوفِ رقابُ
بأكفّ منصلتين أهل بصائرٍ في وقعهن مزاجرٌ وعقابُ[٤]

١- التسهيل لعلوم التنزيل ٢/٢١.

٢- تفسير السعدي ص٢٧٣، ٢٧٤.

٣- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١/١٠٧٤، ونضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ١٠/٤٩٢٦، قوله: «ألاق لهم دواة» أي: أمسكها، غريب الحديث لابن الجوزي ١/٣٦.

٤- الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام ١/ ٢٢٦، نقلاً عن: البيان والتبيين ٣/ ٣٥٨.

١٤- الظلم ظلمات على صاحبه يوم القيامة فعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ"(١).

ظلم الولاة والسلاطين

الظلم قبيح وهو من كبائر الذنوب؛ لتعدي معصيته للغير بأخذ حقوقهم بغير حق، وهو من السلطان أقبح وأفظع؛ لأن المتضرر من ظلم الولاة جماعة كبيرة من الناس، فإذا كان الله تعالى حرم الظلم بين آحاد الناس، فكيف بحاكم يحكم آلاف أو مئات الآلاف أو الملايين يتضررون جميعاً من ظلمه وجوره وحيفه.

لقد ضاعت حقوق شعوب بأسرها، ونهبت خيرات البلدان العامة والخاصة، ولهذا خاف النبي ﷺ على هذه الأمة من ظلم الولاة والسلاطين، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "ثَلاَثٌ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي: الاِسْتِسْقَاءُ بِالأَنْوَاءِ، وَحَيْفُ السُّلْطَانِ، وَتَكْذِيبٌ بِالْقَدَرِ"(٢).

إن ما يترتب على ظلم الحاكم من فساد وفتنة جعل الحاكم الظالم الجائر أبغض الخلق إلى الله تعالى، وأشدهم الناس عذاباً يوم القيامة فعن أبي هريرة ﷺ أن ﷺ قال: "أَرْبَعَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللهُ: الْبَيَّاعُ الْحَلَّافُ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ، وَالشَّيْخُ الزَّانِي، وَالْإِمَامُ الْجَائِرُ"(٣)،

١- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ١٩٩٦/٤برقم: ٢٥٧٨.

٢- رواه أحمد، مسند البصريين، حديث جابر بن سمرة السوائي ٤٢٣/٣٤ برقم: ٢٠٨٣٣، قال الألباني: «صحيح بشواهده الكثيرة» انظر: السلسلة الصحيحة، ١١٨/٣ برقم: ١١٢٧

٣- رواه النسائي، كتاب الزكاة، الفقير المختال ٨٦/٥ برقم: ٢٥٧٦، وابن حبان، كتاب الحظر والإباحة، ذكر وصف أقوام يبغضهم الله جل وعلا من أجل أعمال ارتكبوها ٣٦٨/١٢ برقم: ٥٥٥٨، وصححه الألباني في الصحيحة ٧٠٤/١ برقم: ٣٦٣.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **إِنَّ أَشَدَّ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا، أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، وَإِمَامٌ جَائِرٌ**"[١].

إن الضرر المترتب على ظلم الولاة والسلاطين لا يقتصر على البشر فقط، بل يتعداهم إلى الحيوانات والنبات، وكل ما في الأرض، قال مجاهد: «إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد، فيحبس بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد»[٢].

إن السبب الأكبر لظلم الولاة والسلاطين هو أنهم تركوا المنهج الصحيح والمنهل العذب كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واتخذوا من الكذب تحت مسمى السياسة شعاراً لهم يغرون به الناس في خطاباتهم، فهلكوا وأهلكوا من صدقهم وأعانهم، وصدق وصف النبي ﷺ لهم بالسفهاء إذ يقول ﷺ لكعب بن عجرة ﷺ: "**أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ، قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟، قَالَ: أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي، لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي**"[٣].

وصدق القائل إذ يقول:

وهل أهلك الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

وباعوا النفوس فلم يزرعوا ... ولم تغل بالبيع أثمانها

لقد وقع القوم في جيفة ... يبين للعاقل إنتانها[٤]

١- رواه الطبراني في الكبير ١٠/ ٢١٦ برقم: ١٠٥١٥، قال الهيثمي: «وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس وبقية رجاله ثقات».

٢- الجواب الكافي ١/ ٤٢.

٣- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله ﷺ ٢٢/ ٣٣٢ برقم: ١٤٤٤١، حديث صحيح لغيره.

٤- المجالسة وجواهر العلم ١/ ٣٦، وديوان عبد الله بن المبارك ١/ ٢٧.

إن الناظر والمتأمل في التاريخ يجد أن معظم القلاقل والفتن والاضطرابات والبلايا التي ظهرت ووقعت على الناس عبره فعصفت بالمجتمعات إنما كان سببها جور السلاطين، وما كان فيه من أمن ورخاء واستقرار فبالعدل.

إن أعداء الإسلام يدركون خطر ظلم الحكام، وما ينتج عنه من فوضى وبلاء وقلاقل وفتن، ولذا فإن من مشروعهم لتمزيق المسلمين إيجاد الفجوة بين الحاكم والمحكوم، ولذا فإنهم يفرضون على الحكومات أنظمة سياسية واقتصادية مدروسة قد خطط لها؛ تعمل على تدمير اقتصاد البلدان، وإثارة القلاقل والفتن، وبغض الناس والشعوب لحكامهم، ويزينونها بمسميات براقة خادعة، كتسميتهم لسياسة التجويع إصلاحات اقتصادية، والعجيب تبجح العملاء والجهال الذين لا يعرفون خطرها، حتى إذا ما تحقق ذلك الهدف المنشود لهذه السياسات دسوا لهم عملاء يدعون إلى تفريق وتمزيق البلاد بدعوى التخلص من ظلم الحاكم الظالم، وبهذه الدعوى المبهرجة-دعوى التخلص من الظلم- ينخدع الكثير من الناس خصوصاً أصحاب المظالم -وقد أصبح جميع الشعب مظلوماً إذ لا قضاء مستقل ينصفهم- فيجد هؤلاء لهم قاعدة شعبية صلبة ومتينة تقف معهم ضد الطواغيت والظلمة، فهل يعقل هؤلاء الحكام ويعملون على تصحيح المسار، أم ماذا؟!! ولماذا؟!!

يسوسون الأنام بغير لب فينفذ أمرهم ويقال ساسة[1]

١- جهود العلماء والأدباء في استنقاذ القدس من الصليبيين ص٣.

أخيراً أيها الحكام والولاة والسلاطين إذا أردتم أن تعتقوا رقابكم من النار، فإياكم والظلم، وتأملوا إلى ما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ حين قال: قال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا، لَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ، أَوْ يُوبِقُهُ الْجَوْرُ"[١]، فكيف بظلم الملايين! وعن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: "مِنْ ضَرَبَ مَمْلُوكَهُ ظُلْمَاً أُقِيدَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[٢]، فكيف بمن ظلم شعباً بأكمله! كيف تراه يوم القيامة حين يقف أمام الجميع ليأخذ كل ذي حق بحقه! وكفى مراوغة وتلاعباً وإلقاء باللوم على الآخرين، والتنصل عن المسؤولية؛ لأن الرأس إذا صلح ففي صلاحه الصلاح لسائر الجسد، وفي فساده الفساد له، وكفى استغلالاً للأوضاع لإفشاء الظلم والفقر والجوع وإعلاء الأسعار ونشر الجرعات الاقتصادية والتذرع بالارتفاع العالمي للأسعار كل ذلك سيسأل عنه الحاكم بين يدي الله تعالى -إي وربي، فإن توفير الأمن الغذائي للمحكومين من واجب الحاكم تجاه من يحكمهم، ومن القواعد المقررة في الاقتصاد الإسلامي توفير حد الكفاية لكل مواطن لا حد الكفاف، فكيف بمن يدمرون اقتصاد بلدانهم، وينشرون الفقر فيها، ومع هذا يتغنون بأمن يكاد يكون مفقودا، مع أن الله تعالى أمتن على قريش بتوفير الأمنين: الأمن من الخوف، والأمن من الجوع، وبدأ بالأمن الغذائي لخطر غيابه فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[قريش:٤].

١- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ ١٥/ ٣٥١ برقم: ٩٥٧٣، قال الألباني: «رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح» انظر: صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٢٥٨ برقم: ٢١٩٨.

٢- ذكره المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه الطبراني ورواته ثقات ٣/ ٢١١، قال الألباني: «صحيح لغيره» صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٢٧٨ برقم: ٢٢٨٠.

عن الحسن قال أتينا معقل بن يسار نعوده فدخل علينا عبيد الله فقال له معقل: أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال: "مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"[١]، قال ابن بطال: «هذا وعيد شديد على أئمة الجور فمن ضيع من استرعاه الله، أو خانهم، أو ظلمهم، فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة، فكيف يقدر على التحلل من ظلم أمة عظيمة»[٢].

إن سياسة التجويع التي يمارسها مجموعة من الحكام ما هي إلا لتنفيذ المخطط الرأسمالي الساعي إلى نزع الأموال من الشعوب وجعلها في يد ثلة من الناس لا تزيد عن٢٠% هي الثلة الرأسمالية اليهودية؛ يهدفون من وراء ذلك إلى إذلال الشعوب وإهانتها وعولمتها؛ لتكون لهم السيادة والكلمة، وشعارهم في ذلك جوع كلبك يتبعك، ومن لا يملك قوته لا يملك قراره، وما ارتفاع المحروقات من بترول وديزل وغاز إلا لتحقيق ذلك؛ إذ بارتفاعها خصوصاً الديزل يكثر الفقر، وتنتشر البطالة، وترتفع السلع، وتقل الزراعة الداخلية وتتحجم وتكاد تختفي، ويصبح قوت الشعوب المسلمة يأتيها من الغرب، فإذا ما رفضت هذه الشعوب أن تستجيب للمقررات الرأسمالية العالمية، فرض عليها الحضر الاقتصادي الذي يركعها ويذلها، والأدهى والأمر في هذا أن معظم هؤلاء الحكام يدركون هذا تماماً، ويعلمون يقيناً أن هذه الجرعات تهلك البلاد والعباد وتنفذ مخططات اليهود والنصارى، ولكن لا هم لهم إلا تثبيت العروش-كراسي الحكم- والخوف عليها من الاهتزاز حتى لو هلكت كل أمة محمد، فأصبح المكر والخديعة والأكاذيب الفظيعة سياسات حكيمة وحكوماتها رشيدة: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال:٣٠].

١- رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح ٦/٢٦١٤ برقم: ٦٧٣٢.

٢- فتح الباري ١٣/١٢٨.

جاء بلال إلى عمر رضي الله عنهما وهو بالشام وحوله أمراء الأجناد جلوس فقال: يا عمر، فقال: ها أنا عمر، فقال بلال: إنك بين الله وبين هؤلاء، وليس بينك وبين الله أحد، فانظر عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك؛ إن هؤلاء الذين حولك إن يأكلون إلا لحوم الطير، فقال: صدقت والله، لا أقوم من مجلسي هذا حتى تكلفون- وفي نسخ حتى تكفلوا- لكل رجل من المسلمين طعامه وحظه من الزيت والخل، فقالوا: هذا إليك يا أمير المؤمنين فقد أوسع الله علينا في الرزق وأكثر من الخير[١].

أيها الحكام إن الظلم مهما طال فليله سينجلي، فانتبهوا من الغفلة قبل أن لا ينفع الانتباه، وبادروا إلى الإصلاح قبل فوات الأوان، ومن صدق النية وأوجد العزيمة وفقه الله تعالى وسدد خطاه وأخذ بيده إلى ما فيه صلاحه وصلاح شعبه في الدنيا والآخرة، وإلا فالهلاك في الدنيا والآخرة، وإن لم تقنعوا فانظروا وامنعوا النظر إلى ما جاء في أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **"وَيْلٌ لِلْأُمَرَاءِ، وَيْلٌ لِلْعُرَفَاءِ، وَيْلٌ لِلْأُمَنَاءِ، لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ ذَوَائِبَهُمْ كَانَتْ مُعَلَّقَةً بِالثُّرَيَّا، يَتَذَبْذَبُونَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَكُونُوا عَمِلُوا عَلَى شَيْءٍ"**[٢]، قال الطيبي: «فينبغي للعاقل أن يكون على حذر منها؛ لئلا يتورط فيما يؤديه إلى النار» [٣]، وقال ابن حجر: «فدل على أن المراد بذلك الإشارة إلى أن كل من يدخل في ذلك لا يسلم، وأن الكل على خطر»[٤].

١- رواه الطبراني في المعجم الكبير ٣٣٧/١ برقم: ١٠١١، قال الهيثمي: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، خلا عبد اللّه بن الإمام أحمد وهو ثقة مأمون» مجمع الزوائد ٣٨٤/٥ برقم: ٩٠٧٨.

٢- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ ٢٧٥/١٤ برقم: ٨٦٢٧، وابن حبان، كتابا لسير، باب في الخلافة والإمارة ١٠/ ٣٣٥ برقم: ٤٤٨٣، والحاكم في المستدرك، كتاب الأحكام ٤/ ١٠٢ برقم: ٧٠١٦، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه»، قال الألباني: «صحيح لغيره»، صحيح الترغيب والترهيب ١٩٣/١ برقم: ٧٨٨.

٣- فتح الباري ١٦٩/١٣.

٤- نفس المرجع.

قال ابن خلدون: «ولما ولى عبيد الله بن الحبحاب على أفريقية من قبل هشام بن عبد الملك، وأمره أن يمضي إليها من مصر، فقدمها سنة أربع عشرة ومائة، واستعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، وابنه إسماعيل على السوس وما وراءه، واتصل أمر ولائهم، وساءت سيرتهم في البربر، ونقموا عليهم أحوالهم، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات والأردية العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب، فكانوا يتغالبون في جمعهم ذلك وانتحاله حتى كانت الصِّرْمَة[١] من الغنم تهلك بالذبح؛ لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه، فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم، وامتعض لذلك ميسرة الحسن زعيم مضغرة الحسن، وحمل البرابرة على الفتك بعمر بن عبد الله عامل طنجة، فقتلوه سنة خمس وعشرين ومائة»[٢].

أمـــا والله إن الظلـــم لـــؤوم ... ومـــا زال المســـيء هـــو الظلـــوم
إلى ديـــان يـــوم الـــدين نمضـــي ... وعنـــد الله تجتمـــع الخصـــوم
ســـتعلم في الحســـاب إذا التقينـــا ... غـــدا عنـــد الإلـــه مـــن الملـــوم[٣]

الحذر من الاغترار بالإمهال

إن ما يرى من تنعم الظلمة وأعوانهم إنما هو استدراج، وموعدهم الهلاك في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنعام:٤٤، ٤٥]، وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

١- الصِّرْمَة: وهي القطيع من الإبل والغنم، النهاية في غريب الأثر ٣/ ٢٧، ولسان العرب ٣٣٨/١٢.
٢- تاريخ ابن خلدون ١٥٦/٦.
٣- من شعر أبي العتاهية، انظر: الآداب الشرعية ٢٠٤/١.

"إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ قَالَ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود:١٠٢]"[(١)]، فإذا نعموا طوال أعمارهم وسلموا في الدنيا، فلهم الهلاك الأكبر يوم القيامة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ * وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[إبراهيم:٤٢-٤٥]، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[النحل:٢٨-٢٩]، يومئذ يتنكر لهم رفيقهم الأكبر في الدنيا: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[إبراهيم:٢٢].

١- رواه البخاري، كتاب التفسير، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود:١٠٢] ١٧٢٦/٤ برقم: ٤٤٠٩، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ برقم: ٢٥٨٣.

الحذر الحذر من بطانة السوء

عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: "مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ"[١]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ وَالٍ إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا، فَمَنْ وُقِيَ شَرَّهَا فَقَدْ وُقِيَ، وَهُوَ مِنَ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا"[٢]، قال الحافظ ابن حجر: «قال ابن التين: يحتمل أن يكون المراد بالبطانتين الوزيرين، ويحتمل أن يكون الملك والشيطان، وقال الكرماني: يحتمل أن يكون المراد بالبطانتين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة المحرضة على الخير إذ لكل منهما قوة ملكية وقوة حيوانية انتهى، **والحمل على الجميع أولى إلا أنه جائز أن لا يكون لبعضهم إلا البعض**، وقال المحب الطبري: البطانة الأولياء والأصفياء»[٣]، وقال المهلب: «غرضه إثبات الأمور لله تعالى فهو الذي يعصم من نزغات الشياطين، والمعصوم من عصمه الله، لا من عصم نفسه»[٤]، وقال أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي: «قال الزجاج: البطانة الدخلاء الذين يستبطنون وينبسط إليهم يقال فلان بطانة لفلان أي مداخل له مؤانس، وقوله: "لَا تَأْلُوهُ" تألو بمعنى تقصر والخبال الشر، والمعنى لا تبقي تلك البطانة غاية في إلقائه في الشر؛ وهذا لأن أهل الخير يدعون إلى مرادهم وأهل الشر يحثون على محبوبهم والوالي مائل بالعقل والدين إلى أهل الخير وبالطبع

١- رواه البخاري، كتاب القدر، باب المعصوم من عصم الله ٦/٢٤٣٨ برقم: ٦٢٣٧.

٢- رواه النسائي، كتاب البيعة، بطانة الإمام ٧/ ١٥٨ برقم: ٤٢٠١، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/٣٤١ برقم: ٢٢٧٠.

٣- فتح الباري ١٣/١٩١.

٤- عمدة القاري ٢٤/٢٦٩.

إلى أهل الشر، إلا أن الأنبياء يُعصمون بطهارة الوضع بالنبوة والوحي[١] وغيرهم يفتقر إلى قوة مجاهدة؛ لأنه يتفق ميل الطبع وحث من يحث على ما مال الطبع إليه، فمن وفقه الله تعالى لتأمل العواقب وإيثار التقوى أبعد أهل الشر، وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول لبعض أصحابه: إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي [ثم] هزني ثم قل: يا عمر ما تصنع»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **"إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالأَمِيرِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ؛ إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ؛ إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ، وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ"**[٣].

وعن القاسم بن محمد قال سمعت عمتي تقول قال رسول الله ﷺ: **"مَنْ وَلِيَ مِنْكُم عَمَلاً فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا؛ إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ"**[٤].

قال ابن الأزرق: «المسألة [السادسة]: إن سعادة السلطان متوقفة على وزارة الوزير الصالح...

المسألة السابعة: صلاح السلطان وفساده لازم عن صلاح الوزير وفساده، قالوا: موقع الوزير من الملك موقع الملك من العامة، وكما أن السلطان إذا صلح صلحت الرعية وإذا فسدت فسدت الرعية، فكذلك الوزير إذا صلح صلح الملك وإذا فسد فسد الملك، وإذا

١- يريد بهذا الكلام حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى"** رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته ٦/٢٦٣٢برقم: ٦٧٧٣.

٢- كشف المشكل ٢/٩١.

٣- رواه أبو داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في اتخاذ الوزير ٢/١٤٦ برقم: ٢٩٣٢، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢/٥٦٦ برقم: ٢٥٤٤.

٤- رواه النسائي، كتاب البيعة، وزير الإمام ٧/١٥٩ برقم: ٤٢٠٤، وصححه الألباني في الصحيحة ١/٨٨١ برقم: ٤٨٩.

كان صلاح الرعية بصلاح السلطان وصلاح السلطان بصلاح الوزير، فصلاح الرعية بصلاح الوزير ضرورة، وكذا في العسكر، ومن ثم قال أفلاطون: طاعة الرعية بسداد وزير الوزراء.

المسألة الثامنة: أن من صلاح الوزير صلاح بطانته وأعوانه ضرورة أن كل ذي بطانة صلاحه متوقف على صلاحها... قال الطرطوشي: شر الأمراء من كان له الشرار وزراء وبطانة وأخلاء»[١].

وقال شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الأبشيهي: «بصحبة العلماء والصالحين أهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة... وقال وهب بن منبه: قال موسى لفرعون: آمن ولك الجنة ولك ملكك، قال: حتى أشاور هامان، فشاوره في ذلك فقال له هامان: بينما أنت إله تُعْبَد إذ صرت تَعْبُد، فأنف واستكبر وكان من أمره ما كان، وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالا، ولبئس القرناء شر قرين لشر خدين»[٢].

وقال: «وأولى ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله في: انتخاب الوزراء، واستنقاء الجلساء، ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله وبهذه الخلال يجمل في الخلق ذكره وترسخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينة، وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم... وقال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف وفي كل صحيفة أرحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه»[٣].

وقال: «ومثل الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافي فيه التمساح فلا يستطيع المرء دخوله وإن كان سابحاً وإلى الماء محتاجا.

١- بدائع السلك في طبائع الملك ص١٧٨، ١٧٩.

٢- المستطرف في كل فن مستظرف ص٢٠٦.

٣- المصدر السابق ص٢٠٧.

ومثل السلطان كمثل الطبيب، ومثل الرعية كمثل المرضى، ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير، وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحد من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فإذا سقاه كمثل الطبيب على صفة السفير هلك العليل، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك، **فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون: صدوقاً في لسانه، عدلاً في دينه، مأموناً في أخلاقه، بصيراً بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضاً من أهل الأمانة والبصيرة**، وليحذر الملك أن يولي الوزارة لئيماً؛ فاللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر على ذوي الفضل... وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع وقال لوزيره: إذا رأيتني غضبان فادفع إلي رقعة بعد رقعة، **وكان في الأولى**: إنك لست بإله وإنك ستموت وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضا، **وفي الثانية**: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، **وفي الثالثة**: اقض بين الناس بحكم الله فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك... **ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤوفاً بهم**»[1].

قال عبد الرحمن الشيزري: « واعلم أنه لا بد أن يعتبر في الوزير عشرة أوصاف:

أحدها: العلم؛ لأن تدبير الجاهل يقع مخالفاً للشرع، فيكون وبالاً.

الثاني: السن؛ لأن الشيخ حَنَكَته التجارب، وعَرَكَته النوائب، وشَاهَد من اختلاف الدول، ونزول الحوادث، ما أوضح لعقله صواب الرأي في التدبير.

الثالث: الأمانة؛ حتى لا يخون فيما ائتمن عليه، ولا يغش فيما استنصح فيه.

الرابع: صدق اللهجة؛ حتى يوثق بخبره فيما يؤديه، ويعمل بقوله فيما ينهيه.

الخامس: قلة الطمع؛ حتى لا يرتشي، ولا ينخدع.

١- المصدر السابق ص٢٠٧، ٢٠٨.

السادس: أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة أو شحنا؛ لأن العداوة تصد عن التناصف، وتمنع من التعاطف.

السابع: أن يكون ذكوراً لما يؤديه إلى الملك أو ينقله عنه؛ لأنه شاهد له وعليه.

الثامن: الذكاء والفطنة؛ لئلا تدلس عليه الأمور فتشتبه، ولا تموه عليه الأحوال فتلتبس؛ لأن الأمور لا يصح مع اشتباهها عزم، ولا يتم مع التباسها حزم.

التاسع: أن لا يكون من أهل الأهواء؛ فيخرجه الهوى من الحق [إلى] الباطل، ويتدلس عليه المحق من المبطل؛ لأن الهوى خادع الألباب، وصارف عن الصواب.

العاشر: أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج، خبيراً بهما، عارفاً بتفصيلهما؛ لأنه يكون مباشراً لهما تارة، ومستنيباً فيهما تارة أخرى، وعلى هذا الوصف مدار الوزارة وبه ينتظم[١] أمور السياسة، ومتى لم تجتمع في الوزير هذه الأوصاف العشرة كان تدبيره ناقصاً بقدر ما نقض منها.

حكي أن المأمون كتب في اختيار وزير إني التمست لنفسي وتدبير أموري رجلاً جامعاً لخصال الخير، ذا عفة في خلائقه، قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب، إن ائتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة، وتغنيه اللمحة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أُحسن إليه شكر، وإن ابتلي بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه، قال عبد الرحمن: وهذه الأوصاف إن كملت في الوزير –وقل ما تكمل– فالصلاح بنظره عام، وبتدبيره تام، وإن اختلت فالصلاح بحسب نقصها مختل، والتدبير على قدرها معتل، وقد كان الفضل بن سهل وزير المأمون يبعث

١– هكذا في الأصل المنقول عنه، ولعل الصواب تنتظم.

أصحابه إلى البلاد عيوناً؛ ليسمعوا ما تقول الناس فيه من خير أو شر، فيطالعونه بذلك، فما سمع من خير ازداد منه، وما سمع من عيب فيه أزاله»[١].

خير من تشاورون العالم العامل الورع التقي

إن خير من يشاور الحكام من ملوك وزعماء وأصحاب الولايات من أمراء ووزراء وصاحب سلطة ونفوذ العالِم العامل الورع التقي، الذي يحمله علمه وورعه وتقواه على قول الحق، وعدم المداهنة، أو الميل للدنيا وحطامها، وهذه وقفه مع الإمام الشوكاني تبين ذلك، يقول –رحمه الله–: «ومن غريب ما أحكيه لك من تأثر هوى الملوك والميل إلى ما يوافق ما ينفق عندهم، واقعة معي مشاهدة لي... وذلك أنه عقد خليفة العصر حفظه الله مجلساً جمع فيه وزراءه وأكابر أولاده وكثيراً من خواصه، وحضر هذا المجلس من أهل العلم ثلاثة، أنا أحدهم، وكان عقد هذا المجلس لطلب المشورة في فتنة حدثت بسبب بعض الملوك ووصول جيوشه إلى بعض الأقطار الإمامية، وتخاذل كثير من الرعايا واضطرابهم، وارتجاف اليمن بأسره بذلك السبب، **فأشرت إلى الخليفة بأن أعظم ما يتوصل به إلى دفع هذه النازلة هو العدل في الرعية، والاقتصار في المأخوذ منهم على ما ورد به الشرع، وعدم مجاوزته في شيء، وإخلاص النية في ذلك**، وإشعار الرعية في جميع الأقطار، والعزم عليه على الاستمرار؛ فإن ذلك من الأسباب التي تدفع كل الدفع، وتنجع أبلغ النجع، فإن اضطراب الرعايا، ورفع رؤوسهم إلى الواصلين ليس إلا لما يبلغهم من اقتصارهم على الحقوق الواجبة، وليس ذلك لرغبة في شيء آخر، فلما فرغت من أداء النصيحة انبرى أحد الرجلين الآخرين، وهو ممن حظي من العلم بنصيب وافر، ومن الشرف بمرتبة علية، ومن السن بنحو ثمانين سنة، وقال: إن الدولة لا تقوم بذلك، ولا تتم إلا بما جرت

١- المنهج المسلوك في سياسة الملوك ص٢٠٩- ٢١٤.

به العادة من الجبايات ونحوها، ثم أطال في هذا بما يتحير عنده السامع ويشترك في العلم بمخالفته للشريعة العالم والجاهل والمقصر والكامل، وذكر أنه قد أخذ الجباية ونحوها من الرعية فلان وفلان وعدد جماعة من أئمة العلم ممن لهم شهرة وللناس فيهم اعتقاد، وهذا مع كونه عناداً للشريعة وخلافاً لما جاءت به وجرأة على الله نصباً للخلاف بينه وبين من عصاه وخالف ما شرعه، هو أيضاً مجازفة بحتة في الرواية عن الذين سماهم، بل هو محض الكذب، وإنما يروى على بعض المتأخرين ممن لم يمسه ذلك القائل، وهذا البعض الذي يروى عنه ذلك إنما فعله أياماً يسيرة ثم طوي بساطه، وعلم أنه خلاف ما شرعه الله فتركه، وإنما حمله على ذلك رأي رآه وتدبير دبره، ثم تبين له فساده، فانظر أرشدك الله ما مقدار ما قاله هذا القائل في ذلك الجمع الحافل الذي شمل الإمام وجميع المباشرين للأعمال الدولية والناظرين في أمر الرعية، ولم ينتفع هذا القائل بمقالته لا من زيادة جاه ولا مال، بل غاية ما استفاده ونهاية ما وصل إليه اجتماع الألسن على ذمة واستعظام الناس لما صدر منه، وهكذا جرت عادة الله في عباده فإنه لا ينال من أراد الدنيا بالدين إلا وبالاً وخسراناً عاجلاً أم آجلاً، خصوصاً من كان من الحاملين لحجة الله، المأمورين بإبلاغها إلى العباد؛ فإن خيره في الدنيا والآخرة مربوط بوقوفه على حدود الشريعة، فإن زاغ عنها زاغ عنه، وقد صرح الله سبحانه بما يفيد هذا في غير موضع من كتابه العزيز»[1].

دواء الداء بالعدل وإعادة الحقوق والمظالم إلى أهلها

أولاً: الْعَدْلُ مصدر عدل يعدل عدلاً، وهو مأخوذ من مادة (ع د ل) التي تدل- كما يقول ابن فارس- على معنيين متقابلين: أحدهما يدل على الاستواء، والآخر على اعوجاج، ويرجع لفظ العدل هنا إلى المعنى الأول، وإذا كان العدل مصدراً فمعناه: خلاف الجور وهو ما قام في النفوس أنه مستقيم، والعدل من الناس المرضي قوله وحكمه والمستقيم

١- أدب الطلب ومنتهى الأرب ص٥٦- ٥٨.

الطريقة، والعدل الحكم بالاستواء والحق، والعدل الإنصاف وهو إعطاء المرء ما له وأخذ ما عليه[١].

والعدل في الاصطلاح: بذل الحقوق الواجبة، وتسوية المستحقين في حقوقهم[٢].

قال الإمام الشوكاني: «والعدل هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، لا الحكم بالرأي المجرد؛ فإن ذلك ليس من الحق في شيء، إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله، فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله ﷻ وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله ولا بما هو أقرب إليهما فهو لا يدري ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فضلاً عن أن يحكم بها بين عباد الله»[٣].

ثانياً: إن مبدأ العدالة في الإسلام مبدأ بارز، ويظهر هذا البروز في الأمر به، والحكم بين الناس بموجبه، والالتزام بمقتضاه بالنسبة للقريب والبعيد، والعدو والصديق، وفي المحكمة وفي السوق، وفي إدارة شؤون الدولة، وفي البيت، وحتى فيما يعطيه الأب لأولاده.

إن روح العدل وجوهره إعطاء كل ذي حق حقه، واستعمال كل شيء في موضعه، وهذا المعنى الواسع للعدل يحكم جميع تصرفات الإنسان وعلاقاته بغيره وواجباته نحو غيره من بني الإنسان، ولا شك أن هذا المبدأ يضمن مصالح الناس، ويتسع لكل تنظيم صحيح يحقق معنى العدالة والمقصود منها[٤]، والعدل في الإسلام يعم حتى إنه ليشمل الأبعدين فضلاً عن الأقربين والكافرين مع المسلمين، ويعمل على جلب المصالح وتحصيلها ودرء

١- انظر: معجم مقاييس اللغة ٢٤٦/٤، ولسان العرب ٤٣٠/١١، وتاج العروس ٤٤٣/٢٩، والمعجم الوسيط ٥٨٨/٢، وموسوعة نضرة النعيم ٢٧٩٠/٧.

٢- موسوعة نضرة النعيم ٢٧٩٢/٧

٣- فتح القدير ٤٨٠/١.

٤- أصول الدعوة للدكتور زيدان ص٦٠، ٦١.

المفاسد وتعطيلها، فالعدل أصل كل خير وأساسه كما قال ابن القيم: «فأصل كل خير هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم»[١]، وهو جماع صفات الكمال[٢]، وهو الدواء النافع والبلسم الشافي؛ إذ به يسود الحق، ويزول الظلم، وترد الحقوق، ويحصل الأمن والاستقرار، والرخاء والقوة، وتُعمر به الديار وتُحصن، فقد كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: أما بعد فإن مدينتنا قد خربت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لها مالاً يرمها به فعل، فكتب إليه عمر: أما بعد فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا، فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم؛ فإنه مرمتها، والسلام[٣].

قال الإمام الماوردي: «اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة، وأمورها ملتئمة ستة أشياء –هي قواعدها وإن تفرعت– وهي: دين متبع، وسلطان قاهر[٤]، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح... وأما القاعدة الثالثة: فهي عدل شامل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النسل، ويأمن به السلطان... وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل... ونقل عن بعض البلغاء قوله: إن العدل ميزان

١- إغاثة اللهفان ١٣٧/٢.

٢- مدارج السالكين ٤٥٥/٣.

٣- حلية الأولياء ٣٠٥/٥.

٤- يريد به أن يكون للسلطان قوة وهيبة، ولأمرة نفاذ، لا أن يقهر الناس ويستبدهم؛ لأن ذلك ليس من شيم أهل العدل؛ لأنه متى ضاعت هيبة السلطان فسدت أحوال الرعية بجرأة أهل الفساد والأهواء والبطالة، وخربت البلاد بانتشار الفتن والحروب التي يثيرها الطامعون بشهوة الحكم، فمتى كان للسلطان قوة وهيبة، ولأمره نفوذ تألفت من رهبته الأهواء المختلفة، وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة، وتكف بسطوته الأيدي المتغالبة، وتمتنع من خوفه النفوس العادية؛ لأن في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه، ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي، ورادع ملي. أدب الدنيا والدين ص١٣٤.

الله الذي وضعه للخلق، ونصبه للحق، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، **واستعن على العدل بخلتين: قلة الطمع، وكثرة الورع**»[١].

فالعدل إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه، وقد أمر الله تعالى بإقامته في أكثر من موضع في كتابه الكريم من ذلك ما يلي:

١- قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠]، قال الإمام النسفي: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بالتسوية في الحقوق فيما بينكم، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق إلى حقه، ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ إلى من أساء إليكم»[٢].

وقال الإمام السعدي: «فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفورة، بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى وولاية القضاء ونواب الخليفة ونواب القاضي، والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا تخدعهم وتظلمهم، فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحبة، وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره»[٣].

١- أدب الدنيا والدين ص١٦١- ١٧٠.

٢- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ٢/٢٦٨.

٣- تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص٤٤٧.

قرأ الحسن البصري يوماً هذه الآية ثم وقف فقال: «إن الله عز و جل جمع لكم الخير كله و الشر كله في آية واحدة، فو الله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئا إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئا إلا جمعه»[١].

٢- قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨]، قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس، ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء يعني الحكام بين الناس»[٢].

وقال الإمام السعدي: «وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والفاجر والولي والعدو، والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به: هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه؛ لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما؛ لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون»[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ

١- شعب الإيمان ١٦١/١ برقم: ١٤٠، وحلية الأولياء ١٥٨/٢.

٢- تفسير ابن كثير ٥١٧/١.

٣- تفسير السعدي (تيسير الكريم المنان في تفير كلام الرحمن) ص١٨٣.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[المائدة: ٨]، قال الإمام ابن كثير: «أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل؛ فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد، في كل حال، وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل من تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض»[١].

أقسام العدل

القسم الأول: عدل الإنسان في نفسه؛ بحملها على المصالح، وكفها عن القبائح، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقصير؛ فإن التجاوز فيها جور، والتقصير فيها ظلم، ومن ظلم نفسه فهو لغيرها أظلم، ومن جار عليها فهو على غيرها أجور.

القسم الثاني: عدل الإنسان مع غيره، وله ثلاث حالات:

الحالة الأولى: عدل الإنسان فيمن دونه، كالسلطان في رعيته، والرئيس مع صحابته، فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء: باتباع الميسور، وحذف المعسور، وترك التسلط بالقوة، وابتغاء الحق في السيرة، فإن اتباع الميسور أدوم، وحذف المعسور أسلم، وترك التسلط أعطف على المحبة، وابتغاء الحق أبعث على النصرة.

الحالة الثانية: عدل الإنسان مع من فوقه، كالرعية مع سلطانها، والصحابة مع رئيسها، ويكون ذلك بثلاثة أشياء: بإخلاص الطاعة، وبذل النصرة، وصدق الولاء؛ فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل، وبذل النصرة أدفع للوهن، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن.

وهذه أمور إن لم تجتمع في المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه، واضطر إلى اتقاء من كان يقيه، وفي استمرار هذا حل نظام شامل، وفساد صلاح شامل.

١- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن لعظيم) ٢/٦، ٧.

الحالة الثالثة: عدل الإنسان مع أكفائه، ويكون **بثلاثة أشياء:** بترك الاستطالة، ومجانبة الإدلال، وكف الأذى؛ لأن ترك الاستطالة آلف، ومجانبة الإدلال أعطف، وكف الأذى أنصف، وهذه أمور إن لم تخلص في الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الأعداء، ففسدوا وأفسدوا.

وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف؛ لأن العدل مأخوذ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل، وإذا كان الأمر كذلك فإن كل ما خرج عن الأولى إلى ما ليس بأولى خروج عن العدل إلى ما ليس بالعدل.

ولست تجد فساداً إلا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل إلى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان، وإذن لا شيء أنفع من العدل كما أنه لا شيء أضر مما ليس بعدل[1].

أئمة العدل أمان وتوحد واستقرار

ذكر الإمام ابن القيم مراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها، وهي ثمان عشرة طبقة، الطبقة الخامسة: أئمة العدل وولاته الذين تؤمن بهم السبل، ويستقيم بهم العالم، ويستنصر بهم الضعيف، ويذل بهم الظالم، ويأمن بهم الخائف، وتقام بهم الحدود، ويدفع بهم الفساد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقام بهم حكم الكتاب والسنة، وتطفأ بهم نيران البدع والضلالة، وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن عز وجل يوم القيامة فيكونون عليها، والولاة الظلمة قد صهرهم حر الشمس وقد بلغ منهم العرق مبلغه، وهم يحملون أثقال مظالمهم العظيمة على ظهورهم الضعيفة في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيل أحدهم إما إلى الجنة وإما إلى النار، قال النبي ﷺ:

١- انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي ص١٧٠- ١٧٤، ونضرة النعيم ٧/ ٢٧٩٣.

"إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ -وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ- الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا"[١]، و عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِساً إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللهِ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ"[٢]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فِي خَلاَءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا قَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُه"[٣]، فيظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله كما كان الناس في ظل عدلهم في الدنيا ظلاً بظل جزاء وفاقا، ولو لم يكن من فضلهم وشرفهم إلا أن أهل السموات والأرض والطير في الهواء يصلون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم، وولاة الظلم يلعنهم من بين السموات والأرض حتى الدواب والطير، كما أن معلم الناس الخير يصلي عليه الله وملائكته، وكاتم العلم والهدى الذي أنزله الله وحامل أهله على كتمانه يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون، فيا لها من منقبة ومرتبة ما أجلها وأشرفها أن يكون الوالي والإمام على فراشه ويعمل بالخير وتكتب الحسنات في صحائفه فهي متزايدة ما دام يعمل بعدله، فأين هذا من الغاش لرعيته الظالم لهم قد حرم الله عليه الجنة وأوجب

١- رواه مسلم، كتاب الإمارة، فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية... ٣/١٤٥٨ رقم: ١٨٢٧.

٢- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري ١٧/٢٦٤ برقم: ١١١٧٤، والترمذي، كتاب الأحكام، الإمام العادل ٣/٦١٧ برقم: ١٣٢٩، وقال: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي ١/١٥٤ برقم: ٢٢٥.

٣- رواه البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب فضل من ترك الفواحش ٦/ ٢٤٩٦ برقم: ٦٤٢١، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة ٢/٧١٥ برقم: ١٠٣١.

له النار، وأين من هو نائم وأعين العباد ساهرة تدعو الله له من آخر أعينهم ساهرة تدعو عليه[١]، والإمام العادل مستجاب الدعوة فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "الْإِمَامُ الْعَادِلُ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُ"[٢]، وأصحاب العدل هم أهل للولاية والحكم والتقدم والرفعة، والعدل يسد مسد كثير من أعمال البر والطاعة، ويحقق الأمن والطمأنينة لهم ولرعيتهم في الدنيا والآخرة، ويدوم ملكهم ولا يزول:

به فتحوا الممالك ثم سادوا كذاك العدل صاحبه يسود[٣]

وهو طريق يوصلهم إلى الجنة، وينجي من النار؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا، لَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ، أَوْ يُوبِقُهُ الْجَوْرُ"[٤] أي: يفكه عدله إن كان عادلاً، أو يهلكه ظلمه إن كان ظالماً[٥].

يذكر أن حاكماً صينياً كان يعيش في غابر الأزمان قد أصيب بالصمم، وكان عادلاً في رعيته، فأصدر أمراً للشعب يقول فيه: على كل مظلوم أن يلبس ثوبا أحمر؛ حتى أراه بعيني بعد أن فقدت سمعي، فأصبح المظلوم يلبس ثوباً أحمر، فيراه الحاكم العادل فيناديه؛ وذلك تحقيقاً للعدل[٦].

ثالثاً: المساواة من مبادئ الإسلام العظيمة، ولها مظاهر كثيرة في جميع جوانب التشريع الإسلامي، منها المساواة أمام القانون، وفي تطبيق الأحكام، وفي المراكز القانونية

١- طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٥٢٤، ٥٢٥.

٢- رواه أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ ١٥/٤٥١ برقم: ٩٧٢٤، قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «حسن».

٣- ديوان أحمد محرم ١/٣٧٥.

٤- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ ١٥/٣٥١ برقم: ٩٥٧٣، قال الألباني: «رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح» انظر: صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٢٥٨ برقم: ٢١٩٨.

٥- مرقاة المفاتيح ٧/٢٥٢.

٦- موعظة المتقين ص ١٣٥.

إذا ما تساوى الأشخاص في الشروط التي يشترطها التشريع الإسلامي، ومساواة في التكاليف إذا تساوى الأفراد في أسبابها الموجبة، فلا تمايز بين الناس بسبب الأجناس أو الألوان أو الأحساب والأنساب أو الغنى والفقر أو القوة والضعف أو الجاه والسلطان، وإنما الكل أمام الله تعالى وفي المنزلة الاجتماعية سواء، الأفراد والجماعات والأجناس والحاكمين والمحكومين، فالناس جميعاً في الشريعة متساوون على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، كما هم متساوون في وحدة الأصل البشري، ولا فضل لرجل على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح، بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[الحجرات:١٣].

قال الإمام الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾: «فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفرُ الشريفَ أبا لهب

وقد ذكروا أن سلمان ﷺ كان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن دين الإسلام سماوي صحيح، لا نظر فيه إلى الألوان، ولا إلى العناصر، ولا إلى الجهات، وإنما المعتبر فيه تقوى الله جل وعلا وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي، ولو كان رفيع النسب»[1]

وهذا المفهوم أكده الرسول ﷺ في قوله: "أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ

١- أضواء البيان ٤١٧/٧، ٤١٨.

عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى"[١]، وقوله ﷺ: "كَرَمُ الرَّجُلِ دِينُهُ، وَمُرُوءَتُهُ عَقْلُهُ، وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ"[٢]، وقوله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ"[٣]، وحينئذ فلا يسمح الإسلام بوجود طبقات اجتماعية تتفاوت في الدرجة الاجتماعية، وإن كان هناك تفاوت مادي بين غني وفقير، في حدود كفاية الفقير، وعدم اكتناز المال لدى الغني، والتفاوت المادي لا عيب فيه؛ لأنه يتمشى مع الفطرة الإنسانية في حب التملك والاقتناء، ويولد عنصر المنافسة الحرة الشريفة، وتقتضيه طبيعة الناس بحسب تفاوتهم في العلم والعمل والقدرة على الكفاح والإنتاج، والتفاوت في المقدرة والنشاط، والعلم لا يولد طبقية اجتماعية لها امتياز أو استعلاء، وإنما هو مسؤولية أمام الله، ومسؤولية أمام المجتمع[٤]، فعن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ"[٥].

إن هذا المبدأ طبق فعلاً في واقع الحياة، وحرص النبي الكريم ﷺ على تطبيقه[٦]، فقد جاء في السنة من حديث عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت

١- رواه أحمد، تتمة منسد الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ ٤٧٤/٣٨ برقم: ٢٣٤٨٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٨٩/٤ برقم: ٥١٣٧، قال الإمام الألباني: «صحيح لغيره»، صحيح الترغيب والترهيب ٧٩/٣ برقم: ٢٩٦٣.

٢- رواه أحمد في المسند ٣٨١/١٤ برقم: ٨٧٧٣ ، قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «إسناده ضعيف»، وفي الباب عن عمر موقوفاً عند البيهقي ١٩٥/١٠ بلفظ: «حسب المرء دينه ومروءته خلقه وأصله عقله»، قال البيهقي: «هذا الموقوف إسناده صحيح».

٣- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ١٩٨٦/٤رقم: ٢٥٦٤.

٤- انظر: الفقه الإسلامي وأدلته (٤٧/٧، ٤٨)، (٣٢٩/٨)، (٥١٩/٨، ٥٢٠)، بتصرف.

٥- رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ ٦١٢/٤ برقم: ٢٤١٧، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٢٢٧ برقم: ٣٥٩٢.

٦- أصول الدعوة ص٦٠.

فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ، فكلم رسول الله ﷺ فقال: "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا"[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فبين النبي ﷺ أن هلاك بني إسرائيل إنما كان في تخصيص رؤساء الناس بالعفو عن العقوبات، وأخبر أن فاطمة ابنته التي هي أشرف النساء لو سرقت -وقد أعاذها الله من ذلك- لقطع يدها ليبين أن وجوب العدل والتعميم في الحدود لا يستثنى منه بنت الرسول فضلاً عن بنت غيره»[٢]، وقال: «ومن ذلك أنه ﷺ حذرنا عن مشابهة من قبلنا في أنهم كانوا يفرقون في الحدود بين الأشراف والضعفاء وأمر أن يسوى بين الناس في ذلك وأن كثيراً من ذوي الرأي والسياسة قد يظن أن إعفاء الرؤساء أجود في السياسة»[٣].

وجاء في حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أَقِيمُوا حُدُودَ الله في القَرِيبِ و البَعِيد، ولا تأْخُذْكُم في الله لَومَةَ لائِم"[٤].

قال أبو بكر الصديق ﷺ: «ألا وإن القوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق، والضعيف عندي قوي حتى آخذ له الحق»[٥].

١- رواه البخاري، كتاب الحدود، كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان ٦/٢٤٩١ برقم: ٦٤٠٦، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود ٣/١٣١١ برقم: ١٦٨٨.

٢- اقتضاء الصراط ص١٠٧.

٣- المصدر نفسه ص١٠٦.

٤- رواه ابن ماجه، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود ٢/٨٤٩ برقم: ٢٥٤٠، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢/٧٨ برقم: ٢٠٥٨.

٥- رواه عبد الرزاق ١١/٣٣٦ برقم: ٢٠٧٠٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/٣٥٣ برقم: ١٢٧٨٨.

وفي رسالة عمر ﷺ المشهورة لأبي موسى الأشعري ﷺ: «وآس بين الناس في وجهك، ومجلسك، وعدلك؛ حتى لا ييأس الضعيف من عدلك، ولا يطمع الشريف في حيفك»[١].

فالمساواة في المعاملة والقضاء تحقق الاستقرار والطمأنينة في المجتمع المسلم؛ لما يشعر به كل فرد من أنه ليس أقل من غيره، وأنه سيحصل على حقه في التعليم والوظائف العامة ونحوها، والشعور بالمساواة يقضي على الفتن الطائفية؛ نظراً لشعور الجميع بتساويهم في الحقوق في ظل المساواة، ويقضي على كل بواعث الفتن التي يدفع إليها وجود الامتياز، وروح المساواة تقضي على الغرور عند من يظنون أنفسهم فوق الناس، كما يقضي على الوهن والضعف وخور العزيمة عند من يظنون أنفسهم دونهم، وبالمساواة يطمئن كل فرد إلى عدالة الحكم، وأن السياسة التي تقوم على ذلك هي سياسة عادلة؛ لا تفرق بين الناس تبعاً لأعراقهم ووضعهم الاجتماعي، أو موقعهم من السلطة[٢].

الفرق بين العدالة والمساواة

المساواة هي الغاية التي تسعى العدالة إلى تحقيقها، وهي الغاية المرجوة منها، والعادل- في مجال الحكم- هو الحاكم بالسوية؛ لأنه يخلف صاحب الشريعة في حفظ المساواة، ومن هنا فقد جاء في تعريف العدل أنه القسط اللازم للاستواء أي: لتحقيق المساواة بين الطرفين دون زيادة أو نقصان، وإذا كانت العدالة خُلقاً فإن المساواة قيمة وهدف.

ولما كانت العدالة خُلقا أو هيئة نفسانية تصدر عنها المساواة فقد اقترن الأمران وارتبطا ارتباطاً وثيقاً؛ لأن العادل من شأنه أن يساوي بين الأشياء التي هي غير متساوية، لما كان الأمر كذلك فإن كليهما قد يستعمل استعمال الآخر تسامحاً، ولكنهما غالباً ما يستعملان معا[٣].

١- رواه الدارقطني في السنن، ٢٠٦/٤ برقم: ١٥.

٢- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ٢٨١٨/٧.

٣- موسوعة نضر ة النعيم ٢٧٩٥/٧.

الحذر من مساواة الخديعة التي لا توافق الشريعة

لا يدخل في هذه المساواة التي هي من مبادئ الإسلام العظيمة المساواة بين الرجال والنساء المستوردة من الغرب، والغرض الحقيقي منها إفساد المرأة؛ لأن الله تعالى يقول ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:٢]، فقدر بُنيَة الرجل مع ما يتناسب من الأعمال والأشغال التي من أجلها خلق، بينما قدر بنية المرأة بتركيب يناسب الوظيفة التي أوكلت إليها، فالعجيب من دعاة التسوية هؤلاء كيف يقحمون المرأة فيما لا يناسب فطرتها وخلقتها، وتحقيق المساواة التامة بين الرجال والنساء غير ممكنة شرعاً ولا عقلا، أما شرعاً فلأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢٢٨]، فمن رام التسوية في كل شيء فهو ينازع الله الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها ﷻ، وأما عقلاً فإن التركيب الجسدي للمرأة يقتضي عدم المساواة المستوردة في الأعمال والوظائف؛ لأن المرأة تحيض وتحمل وتلد وترضع، فهي ذات رسالة سامية تصنع فيها الأجيال وتربيهم، ومن أراد المساواة المزعومة فعليه أن يقبل بأن يحيض هو شهرا والمرأة شهرا، ويحمل بطنا والمرأة بطنا، ويرضع ضرعا والمرأة ضرعا، فلما كانت التسوية هنا مستحيلة دل ذلك على أن سعيهم في ظلال وإنما يريدون من المرأة شيئا آخر يلبسونه زي المساواة المكذوب، وإلا فأي عمل ومهنة أعظم مما تقوم به المرأة من صناعة وإعداد وتربية الأجيال، فلماذا يرهقونها بالأعمال التي لا طاقة لها بها؟!.

قالت سلمى الحفار الكزبري -إحدى زعيمات الحركة النسائية المعاصرة-: «عُدْتُ من رحلتي للولايات المتحدة منذ خمسة أعوام وأنا أرثي لحال المرأة التي جرفها تيار المساواة الأعمى فأصْبَحَتْ شَقِيّة في كفاحها لكسب العيش، وفَقَدَتْ حتى حُرِيّتها».

وقال (ساموِيل سمايلس) -وهو أحد أركان النهضة الإنجليزية-: «إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل-مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد- فإن النتيجة كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية؛ لأنه هاجم هيكل المنزل، وقوض أركان الأسرة، ومزق الروابط الاجتماعية».

لما قام إمبراطور ألمانيا (غليوم) بزيارة تركيا، أحب أعضاء جمعية الاتحاد والترقي التركية أن يُظهروا له تمدنهم! فأخرجوا بعض بنات المدارس وهنّ متبرجات لاستقباله، واستغرب الإمبراطور، وقال للمسؤولين: إني كنت آمل أن أشاهد في تركيا الحشمة والحجاب بحكم دينكم الإسلامي، وإذا بي أشاهد التبرج الذي نشكو منه في أوربا، ويقودنا إلى ضياع الأسرة، وخراب الأوطان، وتشريد الأطفال!!.

استقلالية القضاء

إن العلاج والحل لرفع الظلم لا يتحقق في إلا في ظل العدل والمساواة بين الرعية، وهما لا يتحققان إلا في ظل قضاء مستقل يحقق رسالته السامية التي تنصب ميزان العدل والمساواة، وتصون حقوق الخلق، وتسدد الواقع بإلزامات الوحي وتعاليمه الراشدة، قضاء له حريته المتحررة من رق التبعية والعبودية والخضوع والخنوع، وكلمته القوية النافذة الشجاعة التي لا يردها أمر أمير ولا وساطة مدير ولا زعامة زعيم ولا صاحب وجاهة على القانون الحق يستدير، ولا يقف أمام سلطانه الخوف من نذير، أو المداهنة لبشير، قضاء ليس عليه سلطان إلا سلطان الشريعة الإسلامية، قضاء مستقل من جهة القاضي نفسه إذ يتمتع فيه القاضي بحصانة تحفظ له مقامه وكرامته؛ ليحقق الاستقلالية في شخصيته ليكون مستقلاً في الرأي والحيدة والتجرد في أحكامه وعدم التبعية أو التحيز، قضاء يحمي للقاضي استقلاله الوظيفي حتى يُحسن أداء وظيفته ويتمكن من مواجهة أية ضغوط أو مؤثرات قد يتعرض لها ،فلا يخضع لهوى، أو يذل لسلطان، أو يخشى في الحق أحداً، ومستقل من جهة كل ذي سلطة ليتحرر في سلطته من أي تدخل من جانب السلطات التشريعية أو التنفيذية، فلا يخضع القضاة لغير القانون الإلهي؛ ليكون القاضي في ظله متجرداً نزيهاً لا يخضع لأي تأثير، فليس لأحد الهيمنة والتسلط على رجال القضاء أو التدخل في قضائهم سواء كان المتدخل فرداً أو جهة حكومية.

إن استقلالية القضاء مبدأ هام من مبادئ ضمان نزاهة وشرف القضاء والقضاة، وقد تفطن العقلاء من جميع الأمم إلى أهمية استقلال القضاء لضمان سير العدالة ولحفظ الحقوق وتحقيق الأمن في المجتمع، فضمنوا دساتيرهم ذلك الأمر، بل إنهم ذكروا بأن فصل السلطة القضائية عن السلطتين التنفيذية والتشريعية لازم لتحقيق الاستقلالية، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك بقول أحد منظريهم: «لا وجود للحرية دون فصل السلطة القضائية عن

السلطتين التشريعية والتنفيذية، وما على الحرية أن تخشى أي أمر يتعلق بالنظام القضائي بمفرده، لكن عليها أن تخشى كل أمر إذا ما اتحد القضاء مع أي من السلطتين الأخريين»، ومما تضمنه إعلان القاهرة حول استقلال القضاء الصادر عن المؤتمر الثاني للعدالة العربية: (أن النظام القضائي المستقل يشكل الدعامة الرئيسة لدعم الحريات المدنية، وحقوق الإنسان، وعمليات التطوير الشاملة، والإصلاحات في أنظمة التجارة والاستثمار، والتعاون الاقتصادي الإقليمي والدولي)، وأشارت الكندري إلى أن استقلال القضاء هو أداة تحقيق العدالة في المجتمع، وترسيخ قواعدها، وضبط مسارها، وهو ضمان أساسي لاحترام مبدأ المشروعية وسمو مكانته وتحقيق سيادة القانون وعلو كلمته، وهو أيضاً ضمان جوهري لا غنى عنه لكفالة حقوق المواطنين وصون حرماتهم وحماية حرياتهم، وهو قبل كل ذلك أمر تفرضه طبيعة القضاء ويمليه سمو رسالته، وإذا كان العدل أساس الملك فإن استقلال القضاء هو أساس العدل، وبغير العدل يضطرب الطريق وتصبح الحركة فيه ضرباً من ضروب التخبط في المجهول، كما أن لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان ولجنة الأمم المتحدة لمنع الجريمة، قامتا بجهود توجت بالإعلان العالمي لاستقلال القضاء الصادر عن مؤتمر مونتريال كندا المنعقد سنة ١٩٨٣م وقد اعتمد مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد في ميلانو سنة ١٩٨٥م هذا الإعلان وأقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني من نفس السنة، وقد تضمن هذا الإعلان في شكل أساسي مقدمة وستة فصول: الفصل الأول يعنى باستقلال القضاء حيث أوجب على كل دولة ضمان استقلال القضاء في الدستور أو القانون الوطني وعلى كل المؤسسات الوطنية احترام ذلك، وأوجب على القضاء أن يحقق في الدعاوى المعروضة أمامه بحياد وفقاً للوقائع والقانون بدون أي تقييد أو تأثير أو تدخل أو ضغط بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وينعقد للقضاء الاختصاص حول القضايا ذات الطبيعة القانونية وله حصراً سلطة التقرير فيما إذا كانت القضية تدخل ضمن

اختصاصه أم لا، كما ويحظر التدخل في مسار الدعوى ولكل فرد الحق في المحاكمة أمام محاكم عادية مكونة تكويناً قانونياً، أما الفصل الثاني فيكرس حرية التعبير والاجتماع للقضاة، بينما يشير الفصل الثالث إلى الصفات التي يجب أن يتحلى بها القاضي وطريقة اختياره وتدريبه، بينما أشار الفصل الرابع إلى شروط عمل القاضي والضمانات المعطاة له وهو يؤدي عمله، وتناول الفصل الخامس سرية المهنة والحصانة، ونص الفصل السادس على أصول تأديب القضاة وتوقيفهم عن العمل وعزلهم، وقد كفلت الشريعة الإسلامية في النظام الإسلامي كل ذلك وبينته أتم البيان وأكمله، ولا ينقص إلا ترجمة ذلك في أرض الواقع.

لقد طبق النظام الإسلامي الاستقلالية القضائية بأبهى صورها؛ حتى بلغت شأواً حظي فيه القضاة بسلطان عظيم هيأ لهم تحقيق العدالة وإرساء قواعد الحق على صعيد الأمة بأكملها، ولذا فإن تحقق معاني الاستقلالية في شخصية القضاة يعني تحقيق رقي المجتمعات وسعادتها، فقد جعل سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ القاضي غير الوالي في بعض الولايات؛ لظروف وأحوال معينة، فولى أبا الدرداء ﷺ معه بالمدينة قاضياً، وولى شريحاً وقيل كعب بن سورة قضاء البصرة، وكان أبو موسى الأشعري ﷺ واليها، وولى أبا موسى الأشعري ﷺ وقيل شريحاً قضاء الكوفة وكان واليها المغيرة بن شعبة، وكانت أحكام هؤلاء القضاة ملزمة ونهائية وواجبة التنفيذ من قبل الولاة، مما يؤكد استقلالية القضاء في تلك البلدان، ولم يكن الفصل للسلطة القضائية شاملاً لجميع الولايات؛ لأن فصل السلطة القضائية عن التنفيذية لم يكن معروفاً بعد؛ لعدم بروز الحاجة إليه، وعندما رأى سيدنا عمر ﷺ الحاجة في بعض الولايات لذلك جعل القاضي غير الوالي، ويعتبر ذلك بداية لفصل السلطة القضائية عن التنفيذية في الدولة الإسلامية، واستمر الأمر على ذلك إلى أن تم الدمج بين السلطتين أو العمل على تعطيل ذلك بفعل خطط وضغوط الأعداء وأعوانهم العملاء أو من قبل

المتنفذين الذين يدركون دور القضاء المستقل في إرساء العدل والمساواة وتدعيم الأمن والاستقرار ورفع الظلم، لذلك بذلوا ويبذلون قصار جهدهم لربط القضاء بالسلطة، والعمل على منع استقلاله؛ للفرار من الوقوف أمام عدالة القضاء المستقل الذي لا يُفرق بين حاكم –سواءً كان ملكاً أو رئيساً أو أميراً أو وزيراً– وبين محكوم، ولا بين رفيع ولا وضيع، ولا بين قائد ولا مقود، ولا بين راعي ولا رعية، فكلهم بين يدي القاضي القوي الأمين النزيه كأسنان المشط الواحد، وكلهم في ظل القضاء المستقل عرضة للوقوف أمام القاضي والمثول في مجلس القضاء.

إن القضاء المستقل هو الذي جعل الملوك والأمراء وأصحاب النفوذ يقفون بين يدي القاضي القوي الأمين النزيه لسماع الدعوى المرفوعة ضدهم؛ لينفوها بقوة الدليل والبرهان لا بقوة الجاه والسلطان، أو أن يقروا بها ومن ثم يلزمهم القاضي برفع الظلم الواقع منهم وإعادة الحقوق إلى أهلها.

قصة المرأة الجريرية مع القاضي شريك

أتت امرأة يوماً إلى القاضي شريكاً وهو في مجلس الحكم فقالت: إنا بالله ثم بالقاضي، امرأة من ولد جرير بن عبد الله صاحب النبي ﷺ، ورددت الكلام، فقال: إيها عنك الآن من ظلمك؟ فقالت: الأمير موسى بن عيسى، كان لي بستان على شاطئ الفرات لي فيه نخل ورثته عن آبائي، فقاسمت أخوتي وبنيت بيني وبينهم حائطاً وجعلت فيه فارسياً في بيت يحفظ النخل ويقوم ببستاني، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من أخوتي جميعاً وساومني وأرغبني فلم أبعه، فلما كان في هذه الليلة بعث بخمسمائة فاعل فاقتلعوا الحائط فأصبحت لا أعرف من نخلي شيئا واختلط بنخل أخوتي، فقال: يا غلام طينه بختم، ثم قال لها: امضي إلى بابه حتى يحضر معك، فجاءت المرأة بالطينة فأخذها الحاجب ودخل بها إلى موسى، فقال: أعدى شريك عليك، فقال: ادع لي صاحب الشرط، فدعا به

فقال: امض إلى شريك فقل: يا سبحان الله! ما رأيت أعجب من أمرك!! امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها علي، قال: يقول له صاحب الشرط إن رأى الأمير أن يعفيني فليفعل، فقال: امض ويلك فخرج فأمر غلمانه أن يتقدموا إلى الحبس بفراش وغيره من آلة الحبس، فلما جاء وقف بين يدي شريك فأدى الرسالة، قال: خذ بيده فضعه في الحبس، قال: قد عرفت والله إنك تفعل بي هذا فقدمت ما يصلحني إلى الحبس، وبلغ موسى بن عيسى الخبر فوجه الحاجب إليه فقال: هذا رسول، أي شيء عليه؟ فلما وقف بين يديه وأدى الرسالة قال: ألحقه بصاحبه فحبس، فلما صلى الأمير العصر بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي وجماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شريك فقال: امضوا إليه وأبلغوه سلامي وأعلموه أنه قد استخف بي وإني لست كالعامة، فمضوا وهو جالس في مسجده بعد العصر فدخلوا عليه فأبلغوه الرسالة فلما انقضى كلامهم قال لهم: ما لي لا أراكم جئتم في غيره من الناس فكلمتموني من ها هنا من فتيان الحي، فليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس لا ينم والله إلا فيه، قالوا: أجاد أنت؟ قال: حقاً حتى لا تعودوا برسالة ظالم، فحبسهم، فركب موسى بن عيسى في الليل إلى باب الحبس فأطلقهم جميعا، فلما كان من الغد وجلس شريك للقضاء جاء السجان فأخبره فدعا بالقمطر فختمه ووجه به إلى منزله ثم قال لغلامه: ألحقني بثقلي إلى بغداد فوالله ما طلبنا هذا الأمر منهم ولكن أكرهونا عليه ولقد ضمنوا لنا الإعزاز فيه إذ قد تقلدناه لهم ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد، وبلغ موسى بن عيسى الخبر فركب في موكبه فلحقه وجعل يناشده الله ويقول: يا أبا عبد الله تثبت انظر إخوانك تحبسهم دع أعواني، قال: نعم لأنهم مشوا لك في أمر لم يجب عليهم المشي فيه ولست ببارح أو يردوا جميعاً إلى الحبس وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين فاستعفيته مما قلدني، فأمر بردهم جميعاً إلى الحبس وهو والله واقف مكانه حتى جاءه السجان فقال له: قد رجعوا إلى الحبس فقال لأعوانه: خذوا بلجامه فردوه بين يدي

إلى مجلس الحكم فمروا به بين يديه حتى أدخل المسجد وجلس مجلس القضاء ثم قال: عليَّ بالجويرية المتظلمة من هذا، فجاءت فقال: هذا خصمك قد حضر وهو جالس معها بين يديه، فقال: أولئك يخرجون من الحبس قبل كل شيء، قال أما الآن فنعم أخرجوهم، ثم قال له: ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة ؟ قال: صدقت، قال: فرد جميع ما أخذ منها وتبني حائطها في وقت واحد سريعاً كما هدم، قال: أفعل، قال بقي لك شيء؟ قال: تقول المرأة بيت الفارسي ومتاعه، قال: يقول موسى بن عيسى ونرد ذلك جميعه، بقي لك شيء تدعينه؟ قالت: لا وجزاك الله خيراً، قال: قومي، ثم وثب من مجلسه فأخذ بيد موسى بن عيسى فأجلسه في مجلسه ثم قال: السلام عليك أيها الأمير تأمر بشيء، قال: أي شيء آمر وضحك[١].

فانظر إلى قوة القضاء واستقلاله الذي جعل الأمير يخضع لسلطة القاضي ويسرع في مراجعته لما أراد التوجه نحو دار الخلافة لتمام علمه أن الأمر لو بلغ الخليفة فإن كفة القاضي سترجح عنده على كفة الأمير؛ لعلم الخليفة بنزاهة القاضي أولاً إذ أن اختياره كان مبنياً على هذا الأساس الذي يحقق المصلحة العامة، ولعدله وإنصافه ثانياً، ولعدم تدخل الخليفة في شأن القضاء ثالثاً، فلا وساطة ولا محاباة للظلمة والفاسدين، فالقوة والغلبة لأهل الحق وإن كانوا من الضعفاء، فتحقق العدل والمساواة، واستقر الأمر، وأمن الناس، وقويت الدولة، وانظر إلى استقلال القاضي وتجرده وعدم تبعيته أو تحيزه؛ لعلمه باستقلاله الوظيفي الذي أكسبه قوة المنطق والحكم والتنفيذ.

القاضي شمس الدين الفناري والسلطان بايزيد العثماني

إن القضاء المستقل قد جعل القاضي يرد شهادة السلطان إن لم يكن أهلاً لها، فقد روي عن السلطان بايزيد العثماني، وهو الذي كان يلقب بالصاعقة -لسرعة حركته في

١- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٣٢/٩-٣٤، وأخبار القضاة ١٧٠/٣.

مواجهة الأعداء- أنه مثل أمام القاضي شمس الدين محمد حمزة الفناري ليشهد في إحدى القضايا، فما كان من القاضي إلا أن رد شهادته ولم يقبلها، ولما سأل السلطان عن وجه ردها؟ جاء الجواب الحاسم من القاضي الذي لا يرهبه سلطان: إنك تارك للصلاة مع الجماعة، وكان جواب السلطان أنه بنى جامعاً أمام قصره وعين لنفسه موضعاً فيه، ولم يترك صلاة الجماعة بعدها أبدا[١].

من وسائل تحقيق القضاء العادل المستقل

هناك عدة وسائل تعين على تحقيق وجود القضاء المستقل العادل من جهتيه: من جهة القاضي نفسه ليكون مستقلاً في الرأي والحيدة والعدل بعيداً عن التحيز والخضوع والتبعية لأي تأثير أو ضغوط ليتمتع بنزاهة ورقابة ذاتية ويكون متجرداً عن الأهواء وحظوظ النفس، فلا يخضع لتحقيق الأهواء والشهوات والمصالح الشخصية أو يذل لسلطان أو يخشى في الحق أحداً، ومن جهة كل ذي سلطة بحيث لا تخضع السلطة القضائية لأي سلطة أجنبية بل تتحرر في سلطتها من أي تدخل من جانب السلطات التشريعية أو التنفيذية، فليس لأحد الهيمنة والتسلط على السلطة القضائية ولا التدخل في عمل القضاة، فيتكون قضاء مستقل يحقق العدل والمساواة والمصالح العامة للمجتمعات، فهو قضاء مستقل عادل يمنع استغلاله وتوظيفه في تحقيق المصالح الشخصية من جهة السلطة القضائية نفسها، ومن جهة السلطات الأخرى، من هذه الوسائل ما يلي:

١- وضع ضوابط دقيقة لتعيين القضاة ونقلهم أو ترقيتهم؛ بحيث يكون اختيارهم اختياراً يحقق المصلحة للمجتمع، يقوم على مبدأ النزاهة والعفاف والاستقامة والكفاءة العلمية والرقابة الذاتية التي يبعثها الخوف من الله إن حاد عن طريق الحق، والرجاء فيما

١- انهيار الدولة العثمانية ص٧٠، ٧١.

عند الله إن قضى بالعدل؛ ولو على ذي سلطان؛ لأن جهل القاضي بقانون الشريعة وبمبادئها العامة وما يوافقها من الجهة القانونية أو يضادها، وعدم نزاهته وخوفه من الله تعالى مدعاة للظلم وإضاعة الشريعة وتضييع الحقوق.

قال علي ﷺ: «لا ينبغي أن يكون القاضي قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوي الألباب، لا يخاف في الله لومة لائم»[١]، وقال عمر بن عبد العزيز: «ينبغي للقاضي أن تجتمع فيه سبع خلال إن فاتته واحدة كانت فيه وصمة: العقل، والفقه، والورع، والنزاهة، والصرامة، والعلم بالسنن، والحكم»[٢].

إن عدم وجود الضوابط المطلوبة، وكون مبعث القرارات مصلحة القاضي أو مصلحة جهة الاختيار هو الخلل بعينه الذي ينخر في جهاز القضاء، ويزلزل أركان عدالة وحيادية القاضي وتجرده واستقلاله، ويحقق تبعيته وتحيزه وانقياده لمن ظنه قد أحسن إليه؛ ما دامت المصالح الذاتية القاصرة هي مبعث القرارات المصيرية المتعدية إلى جميع أفراد ومصالح المجتمع، فقديماً قيل: لطالما استعبد الإنسان إحسان.

٢- أمن القاضي على وظيفته بحيث لا يخشى الفصل أو النقل التعسفي، وأمنه على نفسه؛ لأن شعوره بعدم الأمن على نفسه حال نظره الدعوى- متى رفض وساطةً أو توجيهاً يحرف مسار الحكم الذي كان سيصدره في القضية- كل ذلك يجعله ضعيفاً وإن تمالك نفسه وتحامل عليها وطلب المثالية ما دامت الجهات المتدخلة في عمله تجترئ على مخالفة الأنظمة، الأمر الذي يجعلها تجترئ على الإضرار به بأي وجهٍ من وجوه الإضرار التي يمكن ابتكارها، فلابد للنظام أن يكفل هذا المبدأ، وعلى جهات الاختصاص حسن التطبيق، كما يلزم تدقيقُ ذلك التطبيق من جهة اعتماده؛ حرصاً على تحقيق العدالة لأهل العدل، كما نحرص على تحقيقها منهم سواءً بسواءٍ.

١- المغني لابن قدامة ٩٥/١٠.

٢- المصدر نفسه.

٣- قطع كل الميزات التي لا يتساوى فيها القضاة مع بعضهم من أي جهة في الدولة؛ حتى لا تكون سبباً في ضعف تجرد وعدالة وحيادية القاضي، فتؤثر على نزاهته وسلامة أحكامه، كانتقاء أعقد القضايا لإحالتها إليه من بين زملائه، أو تقويض مكانته بين زملائه ومراجعيه باستهداف أحكامه بالملحوظات الهامشية، أو بتكثيف حملات التفتيش عليه لأدنى عارض، ونحو ذلك.

٤- تمكين القاضي من الاتصال المباشر بأولي الأمر عند التعرض لما يخل باستقلاله، ويمكن تأكيد هذا الحق بتكرار إعلانه كل عام؛ حتى يكون أبلغ في الردع والزجر.

٥- تحديد العقوبات اللازمة لكل من يخل باستقلال القضاء سواء من القضاة أنفسهم أو من غيرهم؛ ليكون الجميع على بينةٍ من أمرهم.

٦- النهوض بالاجتهاد القضائي، وهذه المقاصد من الأهمية والخطورة والشأن بالدرجة التي تستدعي تقليب الرأي ومعاناة النظر في شأن القضاء الشرعي تجاوزاً لمعضلاته، واستشرافاً لآفاق تطويره، ذلك أن جهاز القضاء الشرعي يعتريه في كل عصر ما يعتري غيره من الأجهزة من أدواء توهن القوى وتقعد عن الحركة، لكن الخلل في القضاء أشد مضاضة على النفس من الخلل في غيره بوصفه ميزاناً للحق والقسط -لما يتعلق به، وإتقان الصنعة فيه ينبغي أن يبلغ أقصى غاياته.

٧- إنشاء مجلس للقضاء يتولى إدارة شؤون العدالة وشؤون القضاة من حيث التعيين والنقل والعزل دون تدخل من السلطات الأخرى، ويُصطفى أعضاؤه من خيرة العلماء العاملين الصادقين.

٨- إنشاء هيئة عليا للرقابة القضائية يُصطفى أعضاؤها من خيرة علماء كل بلد، ويناط بها دور تعقب المسيرة القضائية لا سيما في بعدها العلمي وصنيعها الاجتهادي، كمراجعة الأحكام القضائية الشرعية على نحو يعين على تقييم المستوى العلمي، وفحص

المنهج المختار في المعالجة الشرعية، وكاقتراح الوسائل الكفيلة بتحسين الأداء العلمي للقاضي الشرعي، وتهذيب أدواته الاجتهادية، وكتمكين الهيئة من اصطفاء بعض الكفاءات العلمية المؤهلة لتقلد منصب القضاء، وكالإشراف على تطوير التكوين العلمي للقاضي الشرعي عن طريق إرشاده إلى إتقان مبادئ العلوم العصرية مع الشرعية، والتعامل مع معطيات التكنولوجيا الحديثة، ومن ثم فإن تَفَقد الجهاز القضائي الشرعي يحفز القضاة على الرقي بمداركهم العلمية ومؤهلاتهم الاجتهادية، فيستفرغون الوسع في إثراء المهارات وتنقيح الأدوات؛ حسبة لله أولاً، واحتساباً من نقد الرقابة ثانياً.

وفي كل الأحوال تكتسب القدرات البشرية مهارات أكبر كلما أتيحت لها فُرص الاستقلالية في الأداء، فكيف بها وهي من صلب العمل القضائي؛ فما دام تنصيب القضاة يهدف إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل؛ فذلك مما تنبغي له الاستقلالية التي لا تنفك عنه في أي حال من الأحوال.

وما إنشاء هذه الهيئة إلا لأن التجويد في الأداء القضائي رهين بالمستوى العلمي للقاضي ومكانته الاجتهادية ومنهجه في المعالجة الشرعية.

٨- تحقيق مبدأ السيادة، بإيجاد سلطة قضائية مستقلة في عملها عن السلطتين التنفيذية والتشريعية، بحيث يكون القاضي في ممارسته لوظيفة القضاء حراً وعدلاً ومحايداً في اتخاذه لقراره؛ لأن القاضي لا يمكنه أن يكون كذلك إلا إذا كان مستقلاً في عمله، وهكذا يمكن القول إن الاستقلال والحياد صفتان متلازمتان، فالاستقلال سبيل الحياد، والحياد سبيل تحقيق العدالة وإحقاق الحق ورد المظالم.

٩- شمول مبدأ استقلالية القضاء أدارياً ومالياً وفي سلطة اتخاذ القرار.

أما إدارياً فينبغي أن تكون الصلاحيات الإدارية كاملة بيد الهيئة المستقلة من دون تدخل غير مبرر من أية سلطة أخرى؛ لأن إعطاء أية صلاحيات إدارية لسلطات أخرى في

مواجهة الهيئة المستقلة هو انتقاص من استقلاليتها وتحول من الاستقلال الكامل إلى الاستقلال الجزئي في حقيقته ومعناه، وعلى هذا الأساس تنفرد كل سلطة من السلطات المستقلة بتنظيم شؤونها الإدارية من دون تدخل إداري من السلطات الأخرى.

وأما الاستقلال المالي: وهذا من أهم مظاهر الاستقلال وبدونه لا يعد هناك استقلال حقيقي؛ إذ يتيح هذا الاستقلال للهيئة حرية التصرف القانوني ودعم تنفيذ القرارات من دون إعاقة تفرضها طبيعة العلاقات الإدارية السائدة في الدولة، فإذا لم يكن بيد الهيئة الأموال الكافية المخصصة سلفاً فأن قدرتها على اتخاذ القرارات وتنفيذ مشاريعها ستكون محدودة ومرتبطة بموافقات وسلسلة مراجع قد تؤدي في كثير من الأحيان إلى التردد في اتخاذها، وهكذا يحبط الروتين الإداري الكثير من الأفكار والخطط.

إن الاستقلال المالي يتيح حرية الحركة والتصرف بسرعة لسد النواقص والثغرات والتحديد الملائم للحاجات؛ ذلك أن من أهم صور الضغط الذي يمكن أن تمارسه السلطة التنفيذية على الهيئات المستقلة هو الضغط المالي وعدم إعطاء الموافقات اللازمة على الطلبات وشحة التخصيصات وغير ذلك من وسائل وأساليب، والاستقلال المالي من أهم مظاهر الاستقلال الجزئي أيضاً، وهكذا تتمتع بعض الهيئات بالاستقلال المالي وإن كانت جزءا من السلطة التنفيذية كما هو حال الجامعات والكليات في معظم دول العالم؛ لإتاحة قدر من حرية البحث العلمي والتطوير.

ويدخل في الاستقلال المالي استقلال الجهة المانحة لمرتبات القضاة كأن تخصص لهم أوقاف تفي بتوفير كل ما يكفيهم وليس لأي سلطة مهما كانت أن تتدخل في شؤون هذا الوقف الخاص بالقضاة حتى لا يشكل الجانب المالي (المتمثل في المرتبات) أي ضغوط على القضاة في القيام بأعمالهم على أتم وجه وأكمله وأشرفه، ولابد أن تكون مرتبات القضاة كافية تحقق لهم وجود ما هو ضروري وحاجي وتحسيني بحيث يشعر كل القضاة بالاستغناء

به تماماً عن الحاجة إلى الخوض في طرق كسب المال التي تشغلهم عن الالتفات إلى الدقة في أعمال القضاء.

أما الاستقلال في اتخاذ القرار فمن الأهمية بمكان أن يكون للهيئات المستقلة استقلالاً تاماً سلطة اتخاذ القرار النهائي في حدود صلاحياتها القانونية من دون تعقيب من جهة إدارية أخرى موازية لها أو أعلى منها، وهذا هو جوهر الاستقلال ومضمونه، إلا أن قراراتها تخضع لرقابة القضاء، وله إلغائها إذا صدرت خلافاً لقانون الشريعة، أما إذا كان الاستقلال جزئياً فأن للجهة الإدارية الأعلى التعقيب على قراراتها.

١٠- كفاءة مؤسسة العدالة في المجتمع، فإن القاضي وإن كان هو العنصر الجوهري في نظام العدالة إلا أن كفاءة وفعالية نظام العدالة لا تقوم على جهوده بمفرده؛ إذ تكمل جهوده بجهود الادعاء العام وفقهاء القانون وشراحه والمحامين والمحققين والكتبة والخبراء.

إن الادعاء العام عنصر جوهري في نظام العدالة، وترتبط وظيفته بتحقيق العدالة وترسيخ قيمها في المجتمع ووضع دعوى الحق العام في مسارها الصحيح، وكفالة سلامة إجراءات العدالة في مرحلة التحقيق والمحاكمة ومرحلة تنفيذ الأحكام، وتتطلب مهمته الاتصاف بالإنصاف والمرونة والذكاء.

ولترسيخ تقاليد عدالة وحيادية واستقلال القضاء في العراق فقد نصت المادة (٩٨) من الدستور على أنه يحظر على القاضي وعضو الادعاء العام الجمع بين الوظيفة القضائية والوظيفتين التشريعية والتنفيذية أو أي عمل آخر، والانتماء إلى أي حزب أو منظمة سياسية، أو العمل في أي نشاط سياسي.

١١- بما أن استقلال القضاء شرط لضمان تحقق العدالة وليس أمراً مقصوداً لذاته، لزم الأمر وجود ضمانات إجرائية ومبادئ موضوعية يُنص عليها في صلب الدستور، تضمن استقلال القضاء والتطبيق الكامل لأحكام الشريعة الإسلامية التي بدورها ستؤدي إلى

تحقيق العدالة، والنص في صلب الدستور على عقوبات صارمة تنفذ على المتلاعبين والحائلين دون تطبيق هذه الأحكام أو هذا الاستقلال، وعلى هذا جاء القول المأثور بأن استقلال القضاء لم يشرع لينعم به القضاة وإنما لينعم به المتقاضون.

١٢- إزالة جميع الثغرات القانونية التي تعرقل استقلال القضاء.

١٣- إنهاء كافة أنواع هيمنة وزراء العدل القانونية على وضيفة وعمل القضاة ونقلها إلى جهاز محايد مستقل تمام الاستقلال عن السلطة التنفيذية، ولا يمكن أن يكون هذا الجهاز إلا المجلس الأعلى للقضاء مع التشديد في الشروط الواجب توفرها في المرشح للعضوية في هذا المجلس على مستوى الكفاءة والفعالية والسلوك، وسيترتب على إنهاء هيمنة وزير العدل أن يصبح هذا الأخير مجرد منفذ لقرارات المجلس الأعلى للقضاء.

١٤- إلغاء كافة محاكم الجماعات والمقاطعات والمحاكم الاستثنائية التي لا توفر شروط الاستقلال إزاء السلطة التنفيذية أو لا توفر القانون المنظم لها بالضمانات والشروط التي تسمح بصدور أحكام عادلة عنها.

١٥- يجب على القضاة تبليغ المجلس الأعلى للقضاء بكافة أنواع التدخلات في اختصاصاتهم القضائية كيفما كان مصدرها، وخاصة تلك الصادرة عن السلطة التنفيذية، وعلى المجلس الأعلى للقضاء اتخاذ ما يجب لمتابعة المتدخلين جنائياً وإدارياً.

١٦- على القضاة أن يكونوا هيئة تدافع عن مصالحهم المادية والمعنوية، وتحمي استقلالهم، وتنظف صفهم من المنحرفين.

١٧- يجب على الدول السعي باستمرار إلى الرفع من مكانة القضاء والقضاة، وذلك سواء على مستوى التكوين المستمر أو على مستوى الزيادة في الأجور والتعويضات للقضاة ولكتاب الضبط، وفي الإمكانيات البشرية والمادية، سواء من ناحية الكم أو النوع.

١٨- على ممثلي مختلف مكونات المجتمع سواء السياسية أو النقابية أو الحقوقية أو الاجتماعية العمل باستمرار على الدفاع عن استقلال القضاء وحمايته والتصدي بكل حزم ضد كل من يمس بهذا الاستقلال أو يحاول المساس به.

وقد يُستشكل هنا سؤال: ألا يعد مبدأ استقلالية القضاء مانعاً من تفقد صنيع القضاة، وتصفح أحكامهم، وتوجيه الإرشاد إليهم من قبل الحاكم أو غيره ؟

والجواب: بأن تفقد أحوال القضاة واجب يضطلع به الحاكم، وقد يوكل هذه المهمة إلى من يراه صالحاً لذلك دون التدخل في إصدار الأحكام والبت في الخصومات، والاستقلالية في القضاء تستقيم بتجرد القاضي عن الأهواء، وتنزهه عن الشبهات، وميله عن محاباة الحاكم، ونصرته للحق ولو عانى في سبيل ذلك العنت والإرهاق، وهذه المعاني مصانة عن الإهدار في عملية التفقد والرقابة؛ لأن القصد منها بذل النصح وإصلاح الأحوال ترقياً إلى الأفضل والأكمل.

ولنا أسوة حسنة في رسالة سيدنا عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما، فإنها معالم نيرة على الدرب، يسترشد بها كل راغب في الإحسان إلى دين الله، ومهتم بنشر رسالة العدل الفضلى، ولم يقل أحد من أهل العلم: إن عمر بن الخطاب ﷺ جار-من الجور- على استقلالية القضاء، أو ضيق الخناق على القضاة!

نص رسالة سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما

وهاك نص هذه الرسالة العمرية: كتب أمير المؤمنين الفارق عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما:

«أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك بحجة، وأنفذ الحق إذا وضح؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآس بين الناس[١] في وجهك ومجلسك وعدلك؛ حتى لا ييأس الضعيف من عدلك، ولا يطمع الشريف في حيفك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا، لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق؛ فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك مما لم يبلغك في الكتاب أو السنة، اعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبها عند الله وأشبهها بالحق فيما ترى، وأجعل لمن ادعى بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا وجهت القضاء عليه؛ فإن ذلك أجلى للعمى، وأبلغ في العذر، المسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجلود في حد، أو مجرب في شهادة زور، أو ظنين[٢] في ولاء أو قرابة، إن الله تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات، وإياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر؛ فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفه الله

١- أي: سو بينهم، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٨/١، ولسان العرب ٣٥/١٤.

٢- أي: متهم، النهاية في غريب الأثر ١٦٣/٣، والمصباح المنير ٣٨٧/٢، ولسان العرب ٢٧٣/١٣.

ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك يُشِنْهُ الله[١]، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام عليك»[٢].

إن الوضع العام الفاسد في كثير من البلدان والذي يعمل القضاء في ظله متأثراً به، وعدم احترام السلطة التنفيذية لمبدأ سيادة الشريعة والقانون واحترامه بالتطبيق له وعدم خرقه -كما هو المشاهد من بعض رموزها ومسئوليها النافذين الذين يتدخلون بكيفية مباشرة وغير مباشرة في أعمال السلطة القضائية مع أن القانون يعاقب على هذا التدخل- والمحسوبية والحسابات المصلحية في تعيين القضاة وفي ترقيتهم بالرغم من عدم توفر الشروط والمقاييس الشرعية والقانونية، الأمر الذي يسمح بالتسرب لمؤسسة القضاء وتحمل المسؤولية فيها لنوع من القضاة لا تتوفر فيهم الكفاءة والنزاهة والجرأة الأدبية والشعور بالمسؤولية وبالأمانة المفروض توفرها في القضاة والتي من شانها أن تؤهلهم لمقاومة أي تدخل قد يمس باستقلالهم وبكرامتهم، بل إن بعض هذا النوع من القضاة يستجيبون بصفة تلقائية لتوجهات الدول وحتى في الحالات التي لا يتلقون فيها تعليمات بشأن ما يجب عليهم عمله، وتعمد الحكام عدم توفير الإمكانيات المادية الكافية والبشرية المكونة التي من شأنها أن ترفع من مكانة وشأن القضاء وفعاليته وإنتاجه الكمي والنوعي ومن مناعته وحصانته وبالتالي من قدرته على مقاومة كافة الضغوطات والإغراءات، كل ذلك وغيره يعد من الأسباب التي تساهم في عرقلة استقلال القضاء، وعندما تنعدم استقلالية القضاء تنعدم مصداقيته وتنعدم شرعيته وتتقوض العدالة، وكثيراً ما يُطلق العنان في وضع كهذا لأجهزة الأمن لكي تمارس القمع كما يحلو لها، وقد تلجأ السلطات عند القيام بحملات اعتقال إلى إصدار القوانين الاستثنائية والمراسيم التي تجرد القضاء من جميع المبادئ القانونية

١- الشين العيب، والشن الصب، لسان العرب ١٣/٢٤٢، ٢٤٤.

٢- أخرجه الدارقطني في السنن، كتاب عمر ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ٤/٢٠٦ برقم: ١٥.

الموجودة من قبل لتحل محلها إجراءات لا هدف لها سوى الانتقام من المناوئين والتغطية على عملياتها وممارستها الممنوعة واللا قانونية، ثم تقوم المحاكمات فتدور إما بصفة سرية أو أمام المحاكم الخاصة، وفي كلتا الحالتين لا تُعد محاكمات عادلة، وعادة ما تكون الأحكام الصادرة قاسية جداً[١].

وأفظع من كل ذلك العمل على إقصاء الشريعة الإسلامية عن منصة القضاء بمحاربة حملتها وإبعادهم، أو العمل على تعطيل أحكامها والتي تحقق العدالة والمساواة، أو تهميش الأحكام الجارية وفقها، أو القضاة العاملين بأحكامها[٢]، والسعي في تحقيق الفصل بين الدين والسلطة -المعروف بالعلمانية-، وبعد ذلك نبحث عن عدل ووحدة، وأمن واستقرار، ورخاء ونعمة، وقوة وعزة، هيهات هيهات.

إن الدواء النافع والبلسم الشافي لا ولن يوجد إلا في ظلال ورحاب الشريعة الإسلامية الربانية في مصدرها والتي يحقق تطبيقها العدل والوحدة والأمن والاستقرار.

١- انظر لموضوع استقلال القضاء: الإسلام والدستور ص١٧١، وبحوث ندوة القضاء الشرعي في العصر الحاضر ٦/٤٤، ٤٥، ٣٧/٢١، ٢٢، واستقلال السلطة القضائية وتوازن السلطات داخل الدولة للعجرش نقلاً عن موقع: (http://www.iraqja.org/researches/faris%20esteqlal%20wa%20tawazn.htm)، ومقال لناصر بن زيد بن داود نشر في مجلة اليمامة العدد ١٩١٨ - وصحيفة اليوم العدد ١٢٣٢٤، نقلاً عن موقع: مركز الدراسات القضائية التخصصي.(http://www.cojss.com/article، وانظر موقع: (ezgh001@googlemail.com)، وموقع: ويكيديا الموسوعة الحرة: (http://www.arrouiah.com)، وموقع: (http://ar.wikipedia.org/wiki)، وموقع: (http://www.ahewar.org)، وموقع: (http://www.iraqja.org).

٢- بل أصبحت معاهد القضاء وللأسف ترفض قبول من يظهر عليهم سيما الخير والصلاح... فأصبح القضاء في بعض دول الإسلام للقضاء على العدالة لا القضاء على الظلم...

المبحث الرابع: التفرق والعصبية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول:

وفيه السبب الخامس وهو التنازع وتفرق جماعة المسلمين

المطلب الثاني:

وفيه السبب السادس وهو إثارة العصبية

المطلب الأول: التنازع وتفرق جماعة المسلمين

التفرق: تشتيت الشمل والكلمة، وإيقاع التباين بين أمرين من نوع واحد[١].

قال ابن فارس: «فرَّق: الفاء والراء والقاف أصيل [أصل] صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين، من ذلك الفرق فرق الشعر، يقال فرقته فرقاً، والفرق القطيع من الغنم، والفرق الفلق من الشيء إذا انفلق، قال الله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الشعراء:٦٣]»[٢]، وقال الراغب: «وفرقت بين الشيئين فصلت بينهما، سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة... والتفريق أصله للتكثير، ويقال ذلك في تشتيت الشمل والكلمة نحو: ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة:١٠٢]، ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[طه:٩٤]»[٣].

أما التنازع فيقول ابن فارس: «النون والزاي والعين أصل صحيح يدل على قلع شيء»[٤]، والمنازعة تطلق على الخصومة[٥]، وأصل النزع الجذب والقلع[٦].

قال الإمام المناوي: «والمنازعة والتنازع: المجاذبة،ويعبر بها عن المخاصمة والمجادلة»[٧].

وقال: «النازع: الشيطان؛ لأنه ينزغ بين القوم أي يفرق ويفسد»[٨].

١- التعاريف للمناوي ص١٩٢، ومعجم مقاليد العلوم للسيوطي ص١٠٢.

٢- معجم مقاييس اللغة ٤/٤٩٣، ٤٩٤.

٣- المفردات في غريب القرآن ص٦٣٣.

٤- معجم مقاييس اللغة ٥/٤١٥.

٥- المحكم والمحيط الأعظم ١/٥٢٦.

٦- لسان العرب ٨/٣٥٠، وتاج العروس ٢٢/٢٤٠.

٧- التعاريف ص٦٩٥.

٨- المصدر نفسه.

الفرق بين التفرق والتنازع

التفرق والتفريق خاص بالأعيان، أما التنازع فيكون في الأعيان والمعاني على سواء، وأيضاً فإن التنازع لا بد وأن يصحبه اجتماع، أما التفرق فقد يكون بعد الاجتماع وقد يكون بدونه أي أنه يحصل ابتداء، ومن وجوه الفرق أيضاً أن ضد التفرق الاجتماع، وضد التنازع الاتحاد –وخاصة في مجال الرأي–، وإذا اجتمع الأمران فإن التنازع يكون سبباً للفرقة، بحيث تكون كالنتيجة له[١].

ذم التفرق والتنازع المفضي إليه

لقد نهى الله ﷻ في كتابه ورسوله ﷺ في سنته عن التفرق في كل صوره، وعن التنازع والاختلاف المفضي إليه؛ وبينا أن ذلك سبيل الشيطان وأعوانه وأتباعه من الجن والإنس، وأنه يشل حركة المجتمع المسلم، ويمزق صفه، ويشتت جمعه، ويسبب الفشل، وذهاب الدولة والقوة والغلبة، فيحصل للمجتمع المسلم الوهن والضعف الذي يرفع النصر والتمكين، ويسبب تسلط الأعداء وأعوانهم، والأدلة على ذلك كثيرة في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، منها:

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم

١– قول الله ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٣]، فالآية فيها أمر ونهي، أمر بالاجتماع والأمر للوجوب، ونهي عن الافتراق والنهي للتحريم، والنهي عن التفرق مطلق فيشمل ويعم كل أنواع التفرق الذي يمزق الأمة وما يؤدي إليه،

١– موسوعة نضرة النعيم ٩/٤٢٦٦.

قال الإمام ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أمرهم بالجماعة، ونهاهم عن التفرقة»[١]، وقال الإمام الزمخشري « ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويحاربه، أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام، كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام، وقذف فيها المحبة، فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخواناً متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف وهو الأخوة في الله»[٢]، وقال الإمام الثعالبي: «﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ يريد التفرق الذي لا يتأتى معه الائتلاف، كالتفرق بالفتن والافتراق في العقائد»[٣].

وقال الإمام الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ولا تتفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتابه من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله والانتهاء إلى أمره»[٤]، وقال الإمام القرطبي: «ويجوز أن يكون معناه ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخوانا، فيكون ذلك منعاً لهم عن التقاطع والتدابر، ودل عليه ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾»[٥].

١- تفسير القرآن العظيم ١/٣٩٠.

٢- الكشاف ١/٤٢٣، ٤٢٤.

٣- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ١/٢٩٥.

٤- جامع البيان في تأويل القرآن ٤/٣٢.

٥- تفسير القرطبي ٤/١٥٩.

وقال الإمام الألوسي: «وقيل المعنى لا يقع بينكم شقاق وحروب كما هو مراد المذكرين لكم بأيام الجاهلية الماكرين بكم، وقيل: المعنى لا تتفرقوا عن رسول الله ﷺ»[١].

وقال الإمام السعدي: «ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى: وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه ولو أدى إلى الضرر العام»[٢].

فالواجب على الأمة جمعاء من علماء وحكام ودعاة وشعوب الوقوف عند هذا الأمر والنهي، ونقله إلى حيز التنفيذ والتطبيق العملي، وتذكر نعمة الله تعالى، وإن تقاعست الأمة عن ذلك فقد خالفت أمر الله تعالى القائل: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣].

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا منه بعروته الوثقى لمن دانا[٣]

٢- قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورى:١٣]، قال قتادة: «قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ ألا تعلمون أن الفرقة هلكة، وأن الجماعة ثقة»[٤].

١- روح المعاني ١٩/٤.

٢- تفسير السعدي ص١٤٢.

٣- قاله ابن المبارك، انظر: تفسير القرطبي ١٥٩/٤.

٤- تفسير الطبري ١٥/٢٥، وفتح القدير ٥٣٢/٤.

وقال علي ﷺ: «لا تتفرقوا فالجماعة رحمة والفرقة عذاب»[١]، وقال ابن كثير: «أي وصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف»[٢]، وقال البغوي: «بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة، وترك الفرقة والمخالفة»[٣]، وقال الشوكاني: «﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: لا تختلفوا في التوحيد والإيمان بالله وطاعة رسله وقبول شرائعه؛ فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع وتوافقت فيها الأديان، فلا ينبغي الخلاف في مثلها، وليس من هذا فروع المسائل التي تختلف فيها الأدلة وتتعارض فيها الأمارات وتتباين فيها الأفهام؛ فإنها من مطارح الاجتهاد ومواطن الخلاف»[٤]، وهذا الاختلاف في الفروع لا يعد مذموما إذا كان الرد فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله، ولم يؤدي إلى الافتراق في أصول الدين، والتعصب والهوى، وإلا فإنه في جملة المنهيات على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وقال الإمام السعدي: «﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: ليحصل منكم اتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا علي أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً وشيعاً يعادي بعضكم بعضاً مع اتفاقكم على أصل دينكم، ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة: كاجتماع الحج، والأعياد، والجمع، والصلوات الخمس، والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق»[٥].

١- تفسير النسفي ٤/٩٨.

٢- تفسير ابن كثير ٤/١١٠.

٣- تفسير البغوي ٤/١٢٢.

٤- فتح القدير ٤/٥٣٠.

٥- تفسير السعدي ص٧٥٤.

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الأنفال:٤٦]، قال الشنقيطي: «نهى الله جل وعلا المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن التنازع مبيناً أنه سبب الفشل وذهاب القوة، ونهى عن الفرقة أيضاً في مواضع أخر»[١]، وقال الرازي: «بين تعالى أن النزاع يوجب أمرين: **أحدهما**: أنه يوجب حصول الفشل والضعف، **والثاني**: قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، وفيه قولان: **الأول**: المراد بالريح الدولة، شبهت الدولة وقت نفاذها وتمشية أمرها بالريح وهبوبها، يقال: هبت رياح فلان إذا دانت له الدولة ونفد أمره، **الثاني**: أنه لم يكن قط نصر إلا بريح يبعثها الله، وفي الحديث: "نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ"[٢]، والقول الأول أقوى[٣]؛ لأنه تعالى جعل تنازعهم مؤثراً في ذهاب الريح، ومعلوم أن اختلافهم لا يؤثر في هبوب الصبا، قال مجاهد: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: نصرتكم، وذهبت ريح أصحاب محمد حين تنازعوا يوم أحد»[٤].

قال البغوي: «﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ لا تختلفوا، ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ أي: تجبنوا أو تضعفوا، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قال مجاهد: نصرتكم، وقال السدي: جرأتكم وجدكم، وقال مقاتل بن حيان: حدتكم، وقال النضر بن شميل: قوتكم، وقال الأخفش: دولتكم، والريح ها هنا كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب: هبت ريح

١- أضواء البيان ١٠٢/٢.

٢- رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: "نُصِرْتُ بِالصَّبَا" ٣٥٠/١ برقم: ٩٨٨، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور ٦١٧/٢ برقم: ٩٠٠، عن ابن عباس.

٣- وواقع الأمة الإسلامية اليوم خير شاهد ودليل على رجحان هذا القول، فدولة المسلمين قد ذهبت، ولم تعد لهم قيمة بين الأمم، ولم يعد للدم المسلم قيمة أو حرمة.

٤- التفسير الكبير ١٣٨/١٥، وانظر: تفسير أبي السعود ٢٥/٤.

فلان إذا أقبل أمره على ما يريد، قال قتادة وابن زيد: هو ريح النصر لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله عز وجل تضرب وجوه العدو، ومنه قول النبي ﷺ: "نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ"، وعن النعمان بن مقرن قال شهدت مع رسول الله ﷺ "فَكَانَ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ، أَخَّرَ الْقِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، وَتَهُبَّ الرِّيَاحُ، وَيَنْزِلَ النَّصْرُ"[١]»[٢].

قال السعدي: «فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم»[٣]، **وقال**: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في استعمال ما أمروا به، والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ تنازعاً يوجب تشتيت القلوب وتفرقها، ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ أي: تجبنوا، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: وتنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله»[٤].

قال قتادة: «لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم»[٥]، وقال ابن زيد بن أسلم: «الفشل الضعف عن جهاد عدوه، والانكسار لهم، فذلك الفشل»[٦].

١- رواه أحمد، تتمة مسند الأنصار، حديث النعمان بن مقرن ١٥٣/٣٩ برقم: ٢٣٧٤٤، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب في أي وقت يستحب فيه اللقاء ٥٦/٢ رقم: ٢٦٥٥، والترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في الساعة التي يستحب فيها القتال ١٦٠/٤ رقم: ١٦١٣، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٢/ ٥٠٤ رقم: ٢٣١٣.

٢- تفسير البغوي ٢٥٣/٢.

٣- تفسير السعدي ص١٢٧.

٤- المصدر نفسه ص٣٢٢، ٣٢٣.

٥- تفسير ابن أبي حاتم ١٧١٢/٥.

٦- تفسير الطبري ١٦/١٠، وتفسير ابن أبي حاتم ١٧١٢/٥.

٤- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٥٢]، إن المقصود بهذه الآية الرماة وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع يوم أحد وقال: "احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ، فَلا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلا تُشْرِكُونَا"[(١)]، فلما غنم النبي ﷺ تنازعوا في البقاء أو الذهاب لجمع الغنائم، ثم انطلقوا لجمع الغنائم، ولم يبق إلا القليل[(٢)]، قال الرازي: «والتقدير حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منعكم الله نصره، وإنما حسن حذف هذا الجواب؛ لدلالة قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ عليه»[(٣)]، وقال الشنقيطي: «ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح لأن سبب تسليط الكفار على المسلمين هو فشل المسلمين، وتنازعهم في الأمر، وعصيانهم أمره ﷺ، وإرادة بعضهم الدنيا مقدماً لها على أمر الرسول ﷺ، وقد أوضحنا هذا في سورة آل عمران، ومن عرف أصل الداء عرف الدواء كما لا يخفى»[(٤)].

١- رواه أحمد في المسند، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس ٣٦٩/٤ برقم: ٢٦٠٩، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران ٢/ ٣٢٤ برقم: ٣١٦٣، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه »، والطبراني في الكبير ٣٠١/١٠ برقم: ١٠٧٣١، قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «إسناده حسن».

٢- تفسير ابن كثير ٤١٣/١.

٣- التفسير الكبير ٣٠/٩.

٤- أضواء البيان ٥٣/٣.

فالآية تدل على أن التنازع يفضي إلى التفرق الذي يسبب الوهن والضعف والاضطراب والفتنة الممزقة، ومع كل هذا فإنه يرفع النصر والتمكين.

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[الأنعام: ١٥٩]، إن هذه الآية تحذر من الافتراق في الدين والذي يعد من أشد أنواع الفرقة وأخطرها؛ لأن الافتراق فيه طريق الشيطان وأتباعه من اليهود والنصارى، وسبيل أهل الزيغ والضلال وأصحاب الأهواء والبدع، ففي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالأَهْوَاءِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ"[١]، فإما مبتدع جاهل بالدين يحسب أن صنيعه حسن، وإما صاحب هوى لا يألو جهداً في تحقيق هواه حتى لو مزق الأمة وشتتها وفرق جمعها، قال الرازي: «واعلم أن المراد من الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة، وأن لا يتفرقوا في الدين، ولا يبتدعوا البدع» [٢]، وقال السعدي: «ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين»[٣].

وذكر الإمام الشاطبي في الآية عن أهل العلم: «فكل مسألة حدثت في الإسلام فاختلف الناس فيها ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء ولا فرقة علمنا أنها من مسائل الإسلام، وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنافر والتنابز والقطيعة علمنا

١- رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٢٠٧/١ برقم: ٦٦٤، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن سفيان إلا موسى تفرد به معلل»، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير معلل بن نفيل وهو ثقة» مجمع الزوائد ٩٢/٧ برقم: ١١٠٠٩.

٢- التفسير الكبير ٨/١٤.

٣- تفسير السعدي ص٢٨٢.

أنها ليست من أمر الدين في شيء وأنها التي عنى رسول الله ﷺ بتفسير الآية وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ وقد تقدمت فيجب على كل ذي دين وعقل أن يجتنبها ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾[آل عمران:١٠٣]، فإذا اختلفوا وتقاطعوا كان ذلك لحدث أحدثوه من اتباع الهوى، هذا ما قالوه وهو ظاهر في أن الإسلام يدعو إلى الألفة والتحاب والتراحم والتعاطف، فكل رأي أدى إلى خلاف ذلك فخارج عن الدين»[(١)].

ثانيا: الأدلة من السنة النبوية

١- حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ"[(٢)].

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: "وَلاَ تَفَرَّقُوا" فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين، وتألف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام»[(٣)]، وقال المناوي: «وعماد ذلك وأساسه السلامة من الأدواء القلبية كالتحاسد»[(٤)].

٢- حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: خطبنا عمر بالجابية[(٥)] فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال: "أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلاَ يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ

١- الموافقات ١٨٦/٤، ١٨٧.

٢- رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة... ١٣٤٠/٣ برقم: ١٧١٥.

٣- شرح صحيح مسلم ١١/١٢.

٤- فيض القدير ٤٤٢/٦.

٥- مدينة بالشام، تحفة الأحوذي ٣١٤/٥.

الشَّاهِدُ وَلاَ يُسْتَشْهَدُ، أَلاَ لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمُ الجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ"[١]، وفي رواية: "أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ، ثَلَاثَ مِرَارٍ"[٢]، أي: الزموا الجماعة واحذروا الفرقة، والأمر للوجوب والتحذير فيه معنى النهي الذي يقتضي التحريم، قال ابن بطال: «مراد الباب الحض على الاعتصام بالجماعة»[٣]، وقال المناوي: «عليكم بالجماعة الخ يحتمل ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنه يعني به في الدين والحكم؛ إذ لا تجتمع الأمة على ضلالة، فخلف الإجماع والحكم بخلاف ما عليه جمهور الأمة والشذوذ عنهم ضلال وليس منه من يعتزل عنهم لصلاح دينه، **الثاني**: عليكم بالجماعة بأن لا تنقطعوا عنهم في نحو الجُمع والجماعات؛ فإن فيها جمال الإسلام وقوة الدين وغيظ الكفار والملحدين، **الثالث**: أن ذلك في زمن الفتنة للرجل الضعيف في أمر الدين»[٤].

قال ابن تيمية: «فالله الله عليكم بالجماعة والائتلاف على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، يجمع الله قلوبكم، ويكفر عنكم، سيئاتكم ويحصل لكم خير الدنيا والآخرة»[٥].

١- رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة ٤/٤٦٥ برقم: ٢١٦٥، قال الشيخ الألباني: «صحيح» انظر حديث رقم : ٢٥٤٦ في صحيح الجامع، والجامع الصغير وزيادته ١/٤٣٢ برقم: ٤٣١١.

٢- رواه أحمد في المسند، تتمة مسند الأنصار، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ ٣٨/٢٢٠ برقم: ٢٣١٤٥، قال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «حسن لغيره».

٣- فتح الباري ١٣/٣١٦.

٤- فيض القدير ٣/٧٩.

٥- مجموع الفتاوى ٢٨/٤٢٣.

٣- حديث النعمان بن بشير ﷺ قال: قال النبي ﷺ على المنبر: "مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ، لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ"[١]، قال المناوي: «"الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ" أي: لزوم جماعة المؤمنين موصل إلى الرحمة ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران:١٠٣]، "وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ"؛ لأنه تعالى جمع المؤمنين على معرفة واحدة، وشريعة واحدة؛ ليألف بعضهم بعضاً بالله وفي الله فيكونون كرجل واحد على عدوهم، فمن انفرد عن حزب الرحمن انفرد به الشيطان وأوقعه فيما يؤديه إلى عذاب النيران، قال العامري في شرح الشهاب: لفظ الجماعة ينصرف لجماعة المسلمين؛ لما اجتمع فيهم من جميل خصال الإسلام، ومكارم الأخلاق، وترقي السابقين منهم إلى درجة الإحسان وإن قل عددهم، حتى لو اجتمع التقوى والإحسان اللذان معهما الرحمة في واحد كان هو الجماعة، فالرحمة في متابعته، والعذاب في مخالفته»[٢].

٤- حديث جابر بن سمرة ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: "مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ، اسْكُنُوا فِي الصَّلاَةِ، قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَآنَا حَلَقًا، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ، قَالَ ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ"[٣]، قال الخطابي: «يريد فرقا

١- رواه أحمد، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير ﷺ ٣٠/٣٩٠ برقم: ١٨٤٤٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/٥١٦ برقم: ٩١١٩، حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٣٦ برقم: ٩٧٦.

٢- فيض القدير ٣/٣٥٧.

٣- رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها والأمر بالاجتماع ١/٣٢٢ برقم: ٤٣٠.

مختلفين لا يجمعكم مجلس واحد»[١]، وقال النووي: «"مَا لي أَرَاكُمْ عِزِينَ" أي: متفرقين جماعة جماعة، وهو بتخفيف الزاي، الواحدة عزة، معناه النهي عن التفرق والأمر بالاجتماع»[٢]، وقال المناوي: «"مَا لي أَرَاكُمْ عِزِينَ" بتخفيف الزاي مكسورة متحلقين حلقة حلقة جماعة جماعة، جمع عزة وهي الجماعة المتفرقة، والهاء عوض عن الياء أي: ما لي أراكم أشتاتاً متفرقين، قال الطيبي: هذا إنكار منه على رؤية أصحابه متفرقين أشتاتاً، والمقصود الإنكار عليهم كائنين على تلك الحالة، يعني لا ينبغي أن تتفرقوا ولا تكونوا مجتمعين بعد توصيتي إياكم بذلك، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران:١٠٣]، ولو قال: ما لكم متفرقون لم يفد المبالغة»[٣].

٥- حديث جرير بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع: "اسْتَنْصِتِ النَّاسَ، فَقَالَ: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"[٤]، فالحديث معناه: لا ترجعوا بعدي فرقاً مختلفين يضرب بعضكم رقاب بعض، فتكونوا في ذلك مضاهين للكفار؛ فإن الكفار متعادون يضرب بعضهم رقاب بعض، وإن المسلمين متآخون يحقن بعضهم دم بعض[٥]، فالفرقة والاختلاف والتنازع والتقاطع والتشاحن هو طريق الكفار وسبيلهم وإن أظهروا التوحد والاتفاق قال الله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[الحشر:١٤]،

١- عون المعبود ١٣/١١٩.

٢- شرح صحيح مسلم ٤/١٥٣.

٣- فيض القدير ٥/٤٦٤.

٤- رواه البخاري كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء ١/ ٥٦ برقم: ١٢١، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ١/٨١ برقم: ٦٥

٥- عون المعبود ١٢/٢٨٨.

أي: تظن أنهم مجتمعون بالألفة والمودة وقلوبهم متفرقة بالمخالفة والشحناء[١]، فاختلاف وتنازع وتفرق المسلمين كفر منهم وجحود لنعمة الأخوة وحق الإسلام، وهذا الفعل وإن لم يكن كفراً مخرجاً من الملة فإنه من الكبائر التي تقرب من الكفر وتؤدي إليه؛ لأنه فعل كفعل الكفار[٢].

٦- حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: "هَذَا سَبِيلُ اللهِ"، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: "هَذِهِ سُبُلٌ – قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ– عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣]"[٣]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورى:١٣]، قال: «أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله»[٤].

إن التنازع والتفرق هو من مكر وكيد الشيطان وسبله الذي يضل ويغوي به بني آدم هو وسراياه، فسبيل الله واحد من اتبعه هدي في الدنيا والآخرة ونعم فيهما بالأمن والاستقرار

١- التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١١٠.

٢- شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٥٥.

٣- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ ٧/٢٠٧ برقم: ٤١٤٢، وابن حبان، المقدمة، باب الاعتصام بالسنة وما يتعلق بها نقلا وأمرا وزجرا ١/١٨٠ برقم: ٦، قال شعيب الأرنؤوط: «إسناده حسن»، ونقل عن الشيخ أحمد شاكر تصحيحه (٤١٤٢، ٤٤٣٧).

٤- تفسير ابن كثير ٢/١٩١.

والطمأنينة والسلامة والهداية والرشاد والقوة والمتانة والفوز، وسبل الشيطان متفرقة من تبعها فقد ضل وغوى ولم يفارقه الوهن والضعف والخوف والاضطراب والتخبط والفتنة والعذاب.

وفي حديث جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ -قَالَ- فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نِعْمَ أَنْتَ"[١]، فانظر إلى حرص الشيطان على الفتنة وتفريق القلوب؛ إذ يدني منه عظيم الفتنة الذي لا يدع الزوجين حتى يفرق بينهما؛ لأن في التفريق بينهما ضياع للأسرة وتمزيق لها، فكيف بتفريق الملايين والدول والشعوب، لا شك بأن فاعله من شياطين الجن والإنس لمن أدناهم وأحظاهم منزلة عنده.

٧- حديث جابر ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ"[٢]، قال النووي: «هذا الحديث من معجزات النبوة... ومعناه: أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب[٣] والفتن ونحوها»[٤]، وقال القاري: «أي: في إغراء بعضهم على بعض، والتحريض بالشر بين الناس من قتل وخصومة، والمعنى لكن الشيطان غير آيس من إغراء المؤمنين وحملهم على الفتن، بل له مطمع في ذلك»[٥]، وقال القاضي: «والتحريش: الإغراء على الشيء بنوع من الخداع من حرش الضب الصياد خدعه، وله

١- رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا ٤/٢١٦٧، برقم: ٢٨١٣.

٢- رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه... ٤/٢١٦٦ برقم: ٢٨١٢.

٣- انظر رعاك الله إلى الواقع المستعر بالحروب، لترى خطر هذا التحريش، اللهم اكفنا شر الشيطان وأعوانه.

٤- شرح صحيح مسلم ١٧/١٥٦.

٥- مرقاة المفاتيح ١/٢٣٤.

من دقائق الوسواس ما لا يفهمه إلا البصراء بالمعارف الإلهية»[١]، وقال المناوي: «قال الحجة: وقد انتشر الآن تلبيسه[أي الشيطان] في البلاد والعباد والمذاهب والأعمال، فحق العبد أن يقف عند كل هم يخطر له؛ ليعلم أنه لمة ملك أو لمة شيطان، وأن يمضي النظر فيه بنور البصيرة لا بهوى من الطبع بل بنور اليقين[٢]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١]»[٣].

٨- حديث جبير بن مُطْعِمٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَصِيحةُ لِوُلَاةِ الْمُسلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِم، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ"[٤]، قال القاري: «"ثَلَاثٌ" أي: ثلاث خصال، "لا يَغِل" بفتح الياء وضمها وبكسر الغين، فالأول من الغل: الحقد، والثاني من الإغلال: الخيانة، "عَلَيْهِنَّ" أي: على تلك الخصال، "قَلْبُ مُسْلِمٍ" أي: كامل، والمعنى أن المؤمن لا يخون في هذه الثلاثة الأشياء، ولا يدخله ضغن يزيله عن الحق حين يفعل شيئاً من ذلك، قاله التوربشتي، وقال الزمخشري-في الفائق-: إن هذه الخلال يستصلح بها القلوب فمن تمسك بها طهر قلبه من الغل والفساد..."فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ" أي: تدور، "مِنْ وَرَائِهِمْ"... والمعنى أن دعوة المسلمين قد أحاطت بهم فتحرسهم عن كيد الشيطان وعن الضلالة، وفيه تنبيه على أن من خرج عن جماعتهم لم ينل بركتهم وبركة دعائهم؛ لأنه خارج عما أحاطت بهم من ورائهم»[٥].

١- فيض القدير ٢/٣٥٦ .

٢- وهذا الذي قاله رحمه الله أشد تأكيداً هذه الأيام التي تفنن فيها شياطين الجن والإنس في عرض الباطل والتزيين له.

٣- فيض القدير ٢/٣٥٧.

٤- رواه أحمد، مسند الأنصار، حديث زيد بن ثابت ٣٥/٤٦٧ برقم: ٢١٥٩٠، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب الخطبة يوم النحر ٢/١٠١٥ برقم: ٣٠٥٦، صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، ٢/ ١٨٢ برقم: ٢٤٨٠.

٥- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢/١٤٠.

٩- حديث عرفجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهْيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ"[١]، قال النووي: «قوله ﷺ: "سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ" الهنات جمع هنة وتطلق على كل شيء، والمراد بها هنا الفتن والأمور الحادثة، قوله ﷺ: "فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهْيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ" فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام أو أراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك، وينهى عن ذلك، فإن لم ينته قوتل، وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل كان هدراً، فقوله ﷺ: "فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ"، وفي الرواية الأخرى: "فَاقْتُلُوهُ"[٢] معناه إذا لم يندفع إلا بذلك، وقوله ﷺ: "يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ" معناه يفرق جماعتكم كما تفرق العصاة المشقوقة، وهو عبارة عن اختلاف الكلمة وتنافر النفوس»[٣].

وفي رواية عن عرفجة ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر يخطب الناس فقال: "إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَائِنًا مَنْ كَانَ، فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّ يَدَ اللهِ ﷻ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ يَرْكُضُ"[٤]، قال المناوي: «"تَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ " شدائد وعظائم، وأشياء قبيحة منكرة، وخصلات سوء، جمع هنة وهي كناية عما لا يراد التصريح به لشناعته، "فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ" الصحابة ومن بعدهم من السلف، "أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَائِنًا مَنْ كَانَ" أي: سواء كان من أقاربي أو غيرهم، قال

١- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع ١٤٧٩/٣ برقم: ١٨٥٢.

٢- عن عرفجة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ" رواه مسلم كتاب الإمارة، حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع ١٤٧٩/٣ برقم: ١٨٥٢.

٣- شرح صحيح مسلم ٢٤١/١٢، ٢٤٢.

٤- رواه النسائي، كتاب تحريم الدم، قتل من فارق الجماعة وذكر الاختلاف على زياد بن علاقة عن عرفجة فيه ٩٢/٧ برقم: ٤٠٢٠، صحح الألباني إسناده، انظر حديث رقم: ٣٦٢١ في صحيح الجامع.

الطيبي: وهذا فيه معنى الشرط "فَاقْتُلُوهُ" [و]في رواية: "فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ"؛ "فَإِنَّ يَدَ اللهِ ﷻ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ يَرْكُضُ"، فإن الله تعالى جمع المؤمنين على معرفة واحدة وشريعة واحدة ألا تراه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠]، فمن فارقهم خالف أمر الرحمن فلزم الشيطان، قال أبو شامة: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف كثيراً، أي: الحق هو ما كان عليه الصحابة الأول من الصحب ولا نظر لكثرة أهل الباطل بعدهم، قال البيهقي إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانوا عليه من قبل، وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ»[(١)]، وقال المباركفوري: «قال في النهاية أي أن الجماعة المتفقة من أهل الإسلام في كنف الله، ووقايته فوقهم، وهم بعيد من الأذى والخوف، والأذى والاضطراب، فإذا تفرقوا زالت السكينة، وأوقع بأسهم بينهم، وفسدت الأحوال»[(٢)].

١٠- حديث: "الْمُؤْمِنُ مَأْلَفَةٌ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ"[(٣)].

قال القاري: «لأن التألف سبب الاعتصام بالله وبحبله، وبه يحصل الاجتماع بين المسلمين، وبضده يحصل التفرقة بهم وهو بتوفيق الله وتأليفه وإليه أشار تعالى بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران:١٠٣]»[(٤)]، فالمؤمن مألفة لحسن أخلاقه، وسهولة طباعه، ولين جانبه، فيألف الخير وأهله ويألفونه بمناسبة الإيمان.

١- فيض القدير ٤/٩٩.

٢- تحفة الأحوذي ٦/٣٢٣.

٣- رواه أحمد، تتمة مسند الأنصار، حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي ٣٧/٤٩٢ برقم: ٢٢٨٤٠، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/٧٨٤ برقم: ٤٢٥.

٤- مرقاة المفاتيح ٩/٢٠٤.

قال الطيبي في قوله ﷺ: "وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ": «لضعف إيمانه وعسر أخلاقه وسوء طباعه، والألفة سبب للاعتصام بالله وبحبله، وبه يحصل الإجماع بين المسلمين، وبضده تحصل النفرة بينهم، وإنما تحصل الألفة بتوفيق إلهي؛ لقوله ﷻ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾، ومن التآلف ترك المداعاة[١]، والاعتذار عند توهم شيء في النفس، وترك الجدال والمراء، وكثرة المزاح»[٢].

١١- حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ والذي حذر فيه النبي ﷺ أمته من التفرق في أمر الدين، قال معاوية ﷺ: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: "أَلاَ إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، قال أبو داوود: زاد ابن يحي وعمرو في حديثهما: "إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ[٣] لِصَاحِبِهِ"، وقال عمرو: "الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لاَ يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلاَ مَفْصِلٌ إِلاَّ دَخَلَهُ"[٤]، وفي رواية: "افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ

١- المداعاة: المحاجاة، لسان العرب ٢٦٢/١٤.

٢- فيض القدير ٢٥٣/٦.

٣- داء يعرض للإنسان من عض الكلب فيصيبه شبه الجنون فلا يعض أحدا إلا كلب، وتعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا، وأجمعت العرب على أن دواءه قطرة من دم ملك تخلط بماء فيسقاه، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١٩٥/٤، ولسان العرب ٧٢٣/١.

٤- رواه أبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة ٦٠٨/٢ برقم: ٤٥٩٧، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٢/١برقم: ٥١.

وَسَبْعِينَ فِرْقَةً"[١]، قال الألباني: «وهذا الحديث يؤكد أن النجاة لا تكون بالتفرق والتحزب إلى أحزاب وشيع وطرق شتى، وإنما بالانتماء إلى طريق واحدة وبسلوك طريق واحدة ألا وهو طريق محمد ﷺ»[٢].

فالحديث فيه النهي عن الافتراق لبيانه أن ذلك هو شأن أهل الأهواء والزيغ والضلال، ويشهد له حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٥٩] قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالأَهْوَاءِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ"[٣]؛ فصاحب الهوى لا يألو جهداً في تحقيق هواه حتى لو مزق الأمة وشتتها وفرق جمعها، وأصحاب الأهواء إذا تمكنت منهم وملكتهم وانقادوا لها كانوا بالبهائم أشبه؛ لأن أغراضهم ومطلوباتهم وهمتهم تصير أبداً مصروفة إلى الأهواء فقط، ومن يكون بهذه الصفة يقل حياؤه، ويكثر خرقه، ويستوحش من أهل الفضل، ويبغض أهل العلم، وقد يصرفه هواه عن قبول الحجة والنصيحة، ويود من تماشى معه في أهوائه، ويستحب القبائح، ويسر بمعاشرة السخفاء، وربما دعاه هواه إلى اكتساب المصالح من أقبح الوجوه، وربما حمله على الدس والطعن والتشويه والتزوير والتلفيق والكذب والخيانة وأخذ ما ليس له بحق؛ فإن الأهواء لا تنتهي، فأصحاب الأهواء إذا تعذرت عليهم مصالحهم من وجوهها قادتهم أهواؤهم إلى اكتسابها من غير وجهها، حتى يصبح من الأشرار الذين يُخاف خبثهم.

١- رواه أبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة ٦٠٨/٢ برقم: ٤٥٩٦، حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٢/١برقم: ٥١.

٢- انظر: التعصب المذهبي في التاريخ ص٢٧٤، ٢٧٥ نقلاً عن سلسلة الهدى والنور للألباني.

٣- رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٢٠٧/١ برقم: ٦٦٤، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن سفيان إلا موسى تفرد به معلل»، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير معلل بن نفيل وهو ثقة» مجمع الزوائد ٩٢/٧ برقم: ١١٠٠٩.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك معه شبهة دين أن الذي يرضى له ويغضب له أنه السنة وهو الحق وهو الدين، فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض -دين الإسلام- لم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه، أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مجاهداً في سبيل الله، فكيف إذا كان الذي يدعي الحق والسنة هو كنظيره معه حق وباطل وسنة وبدعة، ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة، وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وكفر بعضهم بعضا وفسق بعضهم بعضا»[١].

وقال: «بل يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم وإن كان جاهلاً سيء القصد ليس له علم ولا حسن قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله، وهذا حال الكفار الذين لا يطلبون إلا أهواءهم ويقولون هذا صديقنا وهذا عدونا، وبلغة المغل[٢] هذا بالٍ هذا باغي، لا ينظرون إلى موالاة الله ورسوله ومعاداة الله ورسوله، ومن هنا تنشأ الفتن بين الناس»[٣].

١- منهاج السنة النبوية ٥/٢٥٧.

٢- المغل: أي المغول، انظر: البلاغ المبين للشاذلي ١/٤٢٦.

٣- منهاج السنة النبوية ٥/٢٥٥.

قال العلقمي: «قال شيخنا ألف الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي في شرح هذا الحديث كتاباً قال فيه: قد علم أصحاب المقاولات أنه ﷺ لم يرد بالفرق المذمومة المختلفين في فروع الفقه من أبواب الحلال والحرام، وإنما قصد بالذم من خالف أهل الحق في أصول التوحيد، وفي تقدير الخير والشر، وفي شروط النبوة والرسالة، وفي موالاة الصحابة، وما جرى مجرى هذه الأبواب؛ لأن المختلفين فيها قد كفر بعضهم بعضا، بخلاف النوع الأول فإنهم اختلفوا فيه من غير تكفير ولا تفسيق للمخالف فيه، فيرجع تأويل الحديث في افتراق الأمة إلى هذا النوع من الاختلاف»[١].

حرمـــوا هدايـــة ديـــنهم وعقـــولهم هـــــذا وربـــــك غايـــــة الخســـــران
تركـــوا هدايـــة ربهـــم فـــإذا بهـــم غرقـــــى مـــــن الآراء في طوفـــــان
وتفرقـــوا شـــيعاً بهـــا نهجهـــم مـــن أجلهـــا صـــاروا إلى شـــنآن[٢]

والحاصل أن الإسلام يأمر بالاجتماع والألفة وما من شأنه أن يؤدي إليهما، لهذا علمنا السلام وطيب الكلام والصدق فيه، وصلة الأرحام والصبر والصفح ومساعدة الأنام، وطلاقة الوجه والبشاشة والإيثار، وحسن العشرة وحسن الظن والمعاملة، والرأفة والرحمة والرفق، والستر والشفقة والشهامة، والنظام والنزاهة والزهد والورع، وعد حسن الخلق أثقل ما يكون في الميزان، ونهانا عن الاختلاف والتنازع والفرقة وكل من شأنه إن يؤدي إليهما في جميع شؤون الحياة العامة والخاصة، فنهى عن الاستهزاء والإساءة، والبخل والشح والبغي، والجدال والمراء، والقسوة والجفاء، والحقد والحسد، والخيانة والخداع، والطمع والطغيان والطيش والغرور، والظلم والعدوان، والغش والغصب، والفجور والفحش،

١- عون المعبود ٢٢٢/١٢.

٢- موسوعة الشعر الإسلامي ١٦٢ /١.

والفساد والفتنة، والقسوة والكبر، والعجب والكذب، واللؤم والمكر، والكيد ونكران الجميل، ونهى الرجل أن يبيع على بيع أخيه أو يخطب على خطبته، وأن يبيع الحاضر للباد وعن التناجش[١]، والتباغض والتدابر والهجر فوق ثلاث أيام[٢].

قال الطيبي: «واعلم أنه جعل إفشاء السلام سبباً للمحبة، والمحبة سبباً لكمال الإيمان وإعلاء كلمة الإسلام، وفي التهاجر والتقاطع والشحناء تفرقة بين المسلمين، وهي سبب لانثلام الدين والوهن في الإسلام»[٣].

وقال القاري: «ولا شك أن التحابب سبب الاجتماع، والتباغض موجب الافتراق»[٤].

الزموا الاجتماع وانبذوا الفُرقة

إن مما يدخل الحزن على القلوب ما يشاهد في الواقع من التنازع والتشاحن والتقاطع والتدابر والتفرق بين المسلمين[٥]، على الرغم من الضربات الموجعة، والتخلف في كثير من المجالات، وتكالب العدو للقضاء على المسلمين حتى وصل الوضع -أحياناً- إلى مسألة

١- حديث أبي هريرة ﷺ قال: "نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا يَبِيعُ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَلَا يَخْطُبُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ، وَلَا تَسْأَلُ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِتَكْفَأَ مَا فِي إِنَائِهَا" رواه البخاري ٢/٧٥٢ برقم: ٢٠٣٣، ومسلم ٢/١٠٣٣ برقم ١٤١٣، وحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "لاَ يَبِعِ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَلاَ يَخْطُبْ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ إِلاَّ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ"، رواه مسلم ٢/١٠٣٢ برقم: ١٤١٢.

قال النووي: «التناجش المذكور في البيع وهو أن يزيد في السلعة ولا رغبة له في شرائها بل ليغر غيرة في شرائها»، شرح صحيح مسلم ١٦/١٢٠.

٢- حديث أنس بن مالك ﷺ قال رسول الله ﷺ: "لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ"، رواه البخاري ٥/٢٢٥٣ برقم: ٥٧١٨، ومسلم ٤/١٩٨٢ برقم: ٢٥٥٨.

٣- مرقاة المفاتيح ٨/٤٥٧.

٤- المصدر نفسه ٩/٢٣٢.

٥- بل والتقاتل بينهم كما هو الحال هذه الإيام نسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين في كل مكان.

التصفية الجسدية للمسلمين، والقضاء عليهم، على رغم ذلك كله فإن الكثير من المسلمين لا يزالون يدندنون حول الاختلاف، فإن وجدوا سبباً للاختلاف اختلفوا، وإن لم يجدوا سبباً للاختلاف وجدت البعض منهم يبحثون ويفتعلون أسباباً وهمية؛ لمزيد من الخلافات فيما بينهم، حتى ساد الخلاف بشتى أنواعه: فاختلافات بين الشعوب، وبين القبائل، وبين الجماعات الإسلامية، فتجدها تتناحر فيما بينها، وتتهارش، وتتحارب، على الرغم أن العدو يسعى للقضاء عليها، بل على المسلمين جميعاً، وهذا الخلاف يجعل الأعداء في كثير من الأحيان لا يحتاجون إلى التدخل بين المسلمين[١]، فالمسلم نفسه يقوم بمهمة القضاء على أخيه المسلم أو مقاومة جهده، وربما يحتاج العدو أحياناً إلى أن يُساعد المسلم الضعيف، حتى يكون هناك نوع من التكافؤ لتطول مدة الحرب فيما بيننا[٢].

أما كفانا تمزيق العدو المستعمر لنا إلى أكثر من عشرين دولة لإضعافنا!! فلماذا التفرق والخصومات، ألا نعلم أن هذه التحزبات قد فرضت علينا من قبل أعدائنا بخطط مدروسة لإكمال تمزيق الأمة؛ لتزداد ضعفاً إلى ضعفها ووهناً إلى وهنها!! حتى أن كثيراً من العلماء صاروا أتباعا بدل أن يكونوا متبوعين، فضعفت كلمتهم ودورهم؛ لما حصروا أنفسهم في إطار ضيق لا يستطيع أحدهم البيان إلا من خلاله وإلا كان لجماعته عليه وجهة نظر، بل حتى المساجد حجم دورها؛ لأن لكلٍ مسجده الخاص به فلا يحق للآخر فيه إلا مجرد الصلاة.

إن على جميع العاملين في الساحة -وقد بلينا بالتشتت- أن يعملوا على لم الشمل، وجمع الكلمة، وتوحيد الصف، والتعاون على البر والتقوى، والمحافظة على الأخوة العامة

١- وإعلان الحرب عليهم صراحة، إذ كانوا يحاربون الإسلام وأهله سراً، أما اليوم فقد أعلنوها صراحة، ويمارسون ذلك واقعاً، وانظروا ماذا فعل المجتمع الدولي تجاه ما يجري للمسلمين في أرض سوريا، وفي بورما، وما يجري في البلاد العربية والإسلامية، يناصرون -سياسياً وعسكرياً- الجلاد والقاتل، لتمزيق المسلمين، وإذهاب ريحهم، وليستمر نزف الدم المسلم.

٢- دروس للشيخ سلمان العودة مصدرها الشاملة الإصدار الثالث ٢٥/١٣.

بين المسلمين، وعدم حصر الأخوة في أفراد الحزب أو الجماعة، وعدم حصر الولاء والبراء في أفراد الحزب أو الجماعة، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، ولينبذوا الفرقة والخلاف المذموم الذي يؤدي إلى نشوء العصبية بين المختلفين، وتراشقهم بسهام اللجاج والجدل، حتى ينتهي بهم إلى التفرق والتناحر، وليكن شعارهم: ما اتفقنا عليه يعين بعضنا بعضا عليه، وما اختلفنا فيه يعذر بعضنا بعضاً فيه ما لم يكن فيه معارضة ظاهرة وواضحة لنصوص الشريعة بحيث لا يحتمل وجها مقبولا، وإلا فالنصح والبيان بالتي هي أحسن؛ فليس أخي المسلم بأبعد عني من الكتابي، ومع هذا فقد أمرنا الله تعالى عند مجادلة أهل الكتاب أن نجادلهم بحسن خلق ولطف ولين كلام ودعوة إلى الحق وتحسينه ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ثم استثنى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٦] بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة والإثارة، فهذا لا فائدة في جداله؛ لأن المقصود منها ضائع[١]، فهل الكتابي أولى بالإحسان إليه من أخي المسلم؟!!.

إن أي جماعة إسلامية عاملة في الساحة قد جعلت من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ دستوراً لها وإماماً وقائداً ومرشداً وهادياً في جميع شؤون حياتها قولاً وعملاً، وعلى ذلك يتربى أفرادها، ومنهاج السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين ومن تبعهم بإحسان

١- تفسير السعدي ص٦٣٢.

إلى يوم الدين منهجاً لها تسير عليه، تثني على الصحابة الكرام وعلى القرآن كلام الله تعالى العلام الذي لا يتطرق إليه نقص ولا خلل: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت: ٤٢] -لأن الطعن في القرآن أو في الصحابة الكرام طعن في الدين من أساسه؛ لأن القرآن هو كلام الله ودستوره إلى خلقه، والصحابة هم الذين نقلوا إلينا الدين عن رسول الله ﷺ- وتقر بأركان الإسلام الخمسة والإيمان الستة اعتقاداً وقولاً وعملاً، وتهجر الابتداع في الدين وتنبذ سبيل القبوريين، وتوالي في الله وتعادي فيه هي على خير، وما يحصل من خلاف في الفروع فالرد فيه إلى الله تعالى -أي: إلى كتابه- وإلى رسوله ﷺ- أي: إلى سنته- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء:٥٩]، فأين ظهر الحق وجب اتباعه والمسير إليه، وليس الاختلاف في فروع الفقه مذموم بل المذموم الخلاف الذي يمزق ويفرق المسلمين أو في أصل من أصول الدين، قال ابن عطية في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[آل عمران:١٠٣]: «يريد التفرق الذي لا يتأتى معه الائتلاف على الجهاد وحماية الدين وكلمة الله تعالى، وهذا هو الافتراق بالفتن والافتراق في العقائد، وأما الافتراق في مسائل الفروع والفقه فليس يدخل في هذه الآية»[١]، ومثل ذلك قال الإمام الثعالبي[٢].

إذن فالخلاف في الفروع يكون الرد فيه إلى الدليل من الكتاب والسنة والمصادر المشهود لها بالاعتبار، فحيث ظهر الحق جلياً وجب الذهاب إليه -لا إلى الهوى والتعصب- ونبذ

١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/٤٨٤.

٢- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ١/٢٩٥.

ما سواه، ما لم تكن مسألة اجتهادية وللاجتهاد فيها وجه معتبر لا يخالف دليلاً صريحاً واضحاً من كتاب أو سنة أو إجماع ثابت، فحينئذ يقال: لا إنكار في مسائل الاجتهاد أي: ليس لأحد أن ينكر على مجتهد أو مقلد فيما يسوغ فيه الاجتهاد، أما الاستدلال بهذه القاعدة على ترك الإنكار مطلقاً فلا يصح؛ لأن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول والفتوى أو العمل، فأما الأول فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعاً شائعاً وجب إنكاره اتفاقا، وإن لم يكن كذلك فإن بيان ضعفه ومخالفته للدليل إنكار مثله، وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره بحسب درجات الإنكار، وكيف يقول فقيه لا إنكار في المسائل المختلف فيها والفقهاء من سائر الطوائف قد صرحوا بنقض حكم الحاكم إذا خالف كتاباً أو سنة وإن كان قد وافق فيه بعض العلماء، وما زال الصحابة ومن بعدهم ينكرون على من خالف أو أخطأ كائناً من كان ولو كان أعلم الناس وأتقاهم، وإذا كان الله قد بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق وأمرنا باتباعه وترك ما خالفه، فمن تمام ذلك أن من خالفه من العلماء مخطئا نبه على خطئه وأنكر عليه، وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم تنكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً، وإنما دخل اللبس في هذه القاعدة من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك جماعة، فصاروا إلى الأخذ بالشواذ مستدلين بهذه القاعدة، يقول ابن القيم: «والصواب ما عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوباً ظاهراً مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ فيها إذا عدم فيها الدليل الظاهر الذي يجب العمل به الاجتهاد لتعارض الأدلة أو لخفاء الأدلة فيها، وليس في قول العالم إن هذه المسألة قطعية أو يقينية ولا يسوغ فيها الاجتهاد طعن على من خالفها ولا نسبة له إلى تعمد خلاف الصواب، والمسائل التي اختلف فيها السلف والخلف وقد تيقنا صحة أحد القولين فيها كثير مثل: كون الحامل

تعتد بوضع الحمل، وأن إصابة الزوج الثاني شرط في حلها للأول، وأن الغسل يجب بمجرد الإيلاج وإن لم ينزل، وأن ربا الفضل حرام، وأن المتعة حرام، وأن النبيذ المسكر حرام، وأن المسلم لا يقتل بكافر، وأن المسح على الخفين جائز حضراً وسفراً...» [١].

فلو حصل الرد في المختلف فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ونُبِذ التعصب، ووجد النصح والإرشاد، ومراعاة أدب الخلاف لتحققت الأخوة ورد كيد الشيطان وأعوانه في نحورهم:

كل يرى رأياً وينصر قوله ... وله يعادي سائر الإخوان
ولو أنهم عند التنازع وفقوا ... لتحاكموا لله دون توان
ولأصبحوا بعد الخصام أحبة ... غيظ العدا ومذلة الشيطان[٢]

أيها المسلمون، عليكم بالوحدة والتزام المنهج الصحيح، منهج القرآن والسنة، منهج السلف الصالح، ونبذ التفرق والتعصب الضيق الذي يفرق المسلمين؛ فإن من السهولة أن تؤكل الأمة عندما تكون شيعاً وأحزاباً، فيضرب بعضها ببعض، ولكن لا يمكن أن تصبح الأمة لقمة سائغة إذا اتحدت في جسد إسلامي واحد، قال أحدهم يوصي أولاده:

كونوا جميعا يا بني إذا اعترى ... خطب ولا تتفرقوا آحادا
تأبى العصي إذا اجتمعن تكسرا ... وإذا افترقن تكسرت أفرادا[٣]

وقال الآخر:

ألم ترَ أن جَمْعَ القومِ يخشى ... وأن حريمَ واحدِهم مباحُ
وأن القِدحَ حين يكون فرداً ... فيهصرَ لا يكون له اقتداحُ [٤]

١- إعلام الموقعين ٢٨٨/٣، وانظر: الفتاوى لمحمد بن عبد الوهاب ٣٣/١.
٢- زاد المسلم والداعية من الشعر والبيان ص ١٤٢، ١٤٣.
٣- لآلىء اللآلىء ص٨، والاختلاف في العمل الإسلامي الأسباب والآثار ص٧٠.
٤- الأغاني للأصبهاني ٢٠٤/١٣.

وقال الآخر:

إن التفرقَ داءٌ معضلٌ أبداً في العربِ أعيا على الدهرِ المداوينا[١]

قال الرازي: «إن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعته من وجوه:

الأول: أن للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد قوي التأثير.

الثاني: أنها إذا توافقت صار كل واحد منها معيناً للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود. أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود.

الثالث: أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم؛ لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج والقتل والنهب، فلهذا السبب أمر الله تعالى بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق»[٢].

من مضار التنازع والتفرق

١- يؤدي إلى الفشل، ويضعف قوة الأمة، ويذهب دولتها، ويسبب لها الهزيمة، ويمكن منها أعداءها.

٢- يؤدي إلى الكره والبغضاء بين الناس، والخسارة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

٣- يؤدي إلى سخط الرب عز وجل.

٤- يؤدي إلى إراقة الدماء.

٥- التنازع على المناصب وأمور الدنيا يؤدي إلى الفتن وإشعال الحروب الأهلية.

٦- التنازع يشغل أصحابه عما يفيدهم في دنياهم وآخرتهم.

٧- تفتيت قوة المجتمع وتفريقه.

٨- مدخل واسع من مداخل الشيطان التي يتمكن بها من إفساد العقيدة وإشاعة البغضاء[٣].

١- مجمع الحكم والأمثال، لأحمد قبش نقلاً عن الشاملة الإصدار الثالث.

٢- التفسير الكبير ١٣٥/٢٧.

٣- انظر: موسوعة نضرة النعيم ٤٢٧٩/٩.

دواء الداء بتحقيق الأخوة والاجتماع والتوحد والتخلص من الافتراق والتنازع

ينبغي على الأمة عموماً والقادة خصوصاً الترفع عن الصغائر، وإدراك المخاطر، والسعي لرأب الصدع ولم الشمل، وتوحيد الكلمة، ونبذ التنازع والفرقة، قبل فوات الأوان، وحلول الندامة والخسران، فما لا يدرك كله لا يترك جله؛ لأن المسلمين إذا لم يجتمعوا هذه الأيام على عدوهم المدجج بالعدد والعدة والأموال الطائلة والأسلحة النووية والكيماوية يسعى إلى قتلهم، ونهب خيراتهم، واستعمار بلادهم، ويسعى إلى تنصيرهم وتكفيرهم، فإن عجز سعى لتصفيتهم والقضاء عليهم، فإذا لم يجتمعوا في ظل هذه الظروف، فمتى يتفقون؟! ومتى يعقلون؟!

إن مما يعين الأمة والمجتمعات على تحقيق الاتفاق والوحدة والتخلص من خطر التنازع والافتراق ما يلي:

١- تحقيق سر اتحاد المسلمين والتئامهم وعدم فرقتهم، وهو إيمانهم الذي يدعوهم إلى ذلك؛ فإن الله ﷻ جعل المبدأ العقدي أساساً للعمل كله، وجعل الاتحاد والالتئام جارياً على هذا المبدأ، فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورى:١٣]، فالمبدأ الأول: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾، والمبدأ الثاني: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[١].

٢- الاجتماع على الأصول العامة المستقرة الناصعة الواضحة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والتي اتفق عليها المسلمون من فجر التاريخ، لا الاجتهادات الفردية التي لا تتوقف ولا تنتهي.

١- دروس للشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي مصدرها الشاملة الإصدار الثالث ٢/٢٤.

٣- اتباع سبيل الصحابة وأتباعهم من الأئمة المهديين بإحسان، وما أحسن ما قاله الإمام مالك: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»[١]، والذي أصلح أمر أول هذه الأمة هو اتباع الكتاب والسنة وترك الابتداع، ونبذ التنازع والفرقة.

٤- سعة القلوب بحيث لا تحمل حقداً أو كراهيةً أو بغضاء لمسلم، ولا تتهم مسلماً بسوء ظن وهي تجد له من الخير محملاً، وعقول واسعة تُقدر اجتهادات الآخرين وتفهم دوافعهم وآرائهم وحججهم في كل أمر، وتجعل ميداناً واضحاً في الأمور التي يمكن الخلاف فيها، وميداناً أيضاً واضحاً للتعاون حتى مع الذين يختلفون معهم[٢].

٥- تحسين الظن بالآخرين؛ لأن كثيراً من أسباب الفرقة مردها إلى سوء الظن، وانعدام الثقة، فإذا حَسَّنَ أحدنا ظنه بأخيه المسلم، وحكم عليه بما ظهر منه، زالت كثير من تلك الأسباب، وصفت القلوب، واطمأنت النفوس، وتحققت الألفة والمحبة، ولهذا نهى النبي ﷺ عن سوء الظن فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ"[٣]، قال النووي: «المراد النهي عن ظن السوء»[٤].

٦- إجابة الدعوات والإكثار من الزيارات في جميع المناسبات تذيب كثيراً من تلك الأوهام.

٧- اللقاءات الدورية والندوات المشتركة والاجتماعات تقرب من وجهات النظر.

٨- التثبت من أي كلام يسمع امتثالاً لقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات:٦]،

١- مجموع الفتاوى ١/٢٤١.

٢- دروس للشيخ سلمان العودة مصدرها الشاملة الإصدار الثالث ١٣/٢٥.

٣- رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ٥/٢٢٥٣ برقم: ٥٧١٧، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها ٤/١٩٨٥ برقم: ٢٥٦٣.

٤- شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/١١٨.

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقد أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق من خزاعة ليأتيه بصدقات أموالهم، فلما سمعوا به تلقوه فرحاً به، فخاف منهم وظن أنهم يريدون قتله، فرجع إلى نبي ﷺ، وزعم له أنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتله، فقدم وفد منهم إلى النبي ﷺ فأخبروه بكذب الوليد، فأنزل الله هذه الآية[١]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق؛ ليأخذ منهم الصدقات، وأنه لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا ليتلقوا رسول رسول الله ﷺ، وأنه لما حُدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه رجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة، فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضباً شديداً، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم، إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إنا حُدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن يكون إنما رده كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، وإن رسول الله ﷺ استعتبهم وهم بهم، فأنزل الله ﷻ عذرهم في الكتاب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾"[٢].

فكثير من الأحداث والقضايا يحصل فيها ملابسات كما حصل في قصة الوليد بن عقبة، حيث ظن أن القوم خرجوا لقتله، فرجع إلى النبي ﷺ وأخبره بأن القوم منعوا الصدقة؛ لأنه لما ظن في نفسه بأن القوم خرجوا لقتله استنتج من هذا الظن بأنهم قد عزموا على منع الصدقة وبالتالي أخبر النبي ﷺ بمنعهم الصدقة، وما أكثر ما يحصل في الأمور من هذا القبيل في الواقع، فتجد شخصاً يسمع جزء من كلام إنسان، أو يسمع

١- أضواء البيان ٧/٤١٠.

٢- رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب قسمة الغنيمة في دار الحرب ٩/٥٤ برقم: ١٧٧٥٤، وانظر: السلسلة الصحيحة للإمام الألباني ٨/٩٥ برقم: ٣٠٨٨.

كلامه بتمامه ولا يستوعبه، فينقل ما فهم، وتجد طرفاً صاحب أغراض وأهواء يعمد إلى الدس في أقوال الناس وأفعالهم، ولا حل مع أمثال هؤلاء جميعاً إلا بالتثبت من كل ما يسمعه الإنسان ويُنقل إليه، وما المقصود منه عند القائل أو الفاعل، ولهذا تجد أن أعقل الناس المشهود لهم بالحكمة والرأي والسداد هم من يتثبتون في كل ما يسمعون ويقال لهم، وهذه قاعدة إلهية سماوية عظيمة غفل الناس عنها أعظم غفلة، فتمكن الشيطان وأعوانه من التوغل بينهم لدس وساوسهم، بل الأدهى والأمر في غفلة الدعاة وبعض العلماء عن هذه القاعدة العظيمة التي حوتها هذه الآية التي تكفل لجميع البشرية الأخوة والمحبة والأمن والاستقرار والود والرحمة، ولو أن الناس طبقوها في بيوتهم ومجتمعاتهم لسعدت البيوت والأسر والمجتمعات والدول والأمة بأسرها.

وأزيد مثالاً يبين أهمية هذا الأمر، هذا المثال في حديث ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه غنم له، فسلم عليهم، قالوا: ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم، فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾[النساء:٩٤]"[1].

١- رواه أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس ٤/٢٧١ برقم: ٢٤٦٢، والترمذي، تفسير القرآن، سورة النساء ٥/٢٤٠ برقم:٣٠٣٠، وقال: «هذا حديث حسن»، وهو في صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾[النساء:٩٤] ٤/١٦٧٧ برقم: ٤٣١٥، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾: قال: قال ابن عباس: كان رجل في غنيمة له، فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: ﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[النساء: ٩٤] تلك الغنيمة.

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أن رجلاً سعى إليه برجل فقال له: يا هذا، نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين[١].

فلو تثبت جميع الناس من كل ما يسمعون ولم يتكلموا إلا بما ثبت لديهم لزال سبب من أهم أسباب النزاع والفرقة في الأمة، ولما تجرأ أحد من نقل الكلام دون تثبت؛ لأنه سيعمل أن من ينقل إليه الكلام سيتثبت ويبحث ولو لم يكن صادقاً فإنه في زمرة الفاسقين، ولهذا حذر النبي ﷺ من الكلام بكل ما يسمع الإنسان، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال **"كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ"**[٢]، وفي رواية: **"كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ"**[٣]، قال مالك: «اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع»[٤]، وقال النووي: «وأما معنى الحديث... الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان؛ فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع، فقد كذب؛ لإخباره بما لم يكن... وأما قوله: (ولا يكون أماما وهو يحدث بكل ما سمع) فمعناه: أنه حدث بكل ما سمع كثر الخطأ في روايته، فترك الاعتماد عليه والأخذ عنه»[٥].

فالتثبت يجمع ولا يفرق، ويحفظ الأرواح وبه صيانة الدماء، وهو دليل رجاحة العقل وسلامة التفكير، ويقي المجتمع من مخاطر القرارات السريعة غير المدروسة، ويثمر الثقة

١- إحياء علوم الدين ١٥٧/٣.

٢- رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب ٧١٦/٢ برقم: ٤٩٩٢.

٣- رواه مسلم، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١٠/١ برقم: ٥.

٤- صحيح مسلم، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١٠/١ في الحديث رقم: ٥.

٥- شرح صحيح مسلم ٧٥/١.

بالنفس، والبعد عن الشك وهواجس الشيطان، ويحفظ حقوق الأفراد والجماعات ولا يجعلها عرضة للظن[١].

٩- ما صح من المنقول إلينا علينا أن نحمله على أحسن وجه، عملاً بما ذكره سعيد بن المسيب قال: «كتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه، ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد له في الخير محملا، و من عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه»[٢]، وقال جعفر بن محمد: «إذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره فالتمس له عذراً واحداً إلى سبعين عذرا، فإن أصبته و إلا قل لعل له عذراً لا أعرفه»[٣].

١٠- العفو والصفح عن الزلات؛ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **"أَقِيلُوا ذَوِى الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلاَّ الْحُدُودَ"**[٤]، قوله: **"أقيلوا"** أمر من الإقالة أي: اعفوا، **"ذوي الهيئات"** أي: أصحاب المروءات والخصال الحميدة[٥].

١١- الحذر من الغيبة -آفة المجالس- فهي مرض خطير، وداء فتاك، ومعولٌ هدام، وسلوك يفرق بين الأحباب، ويمزق الجماعات، وبهتان يغطي على محاسن الآخرين، وبذرة تنبت شروراً بين المجتمع المسلم، وتقلب موازين العدالة والإنصاف إلى الكذب والجور، وقد عدها الإمام ابن حجر الهيثمي من الكبائر حين قال: «فظهر أن الذي دلت عليه الدلائل الكثيرة الصحيحة الظاهرة أنها كبيرة، لكنها تختلف عظماً وضده بحسب اختلاف

١- موسوعة نضرة النعيم ٣/ ٩٠٨.

٢- رواه البيهقي في شعب الإيمان ٦/٣٢٣ برقم: ٨٣٤٥.

٣- رواه البيهقي في شعب الإيمان ٦/٣٢٣ برقم: ٨٣٤٤.

٤- رواه أحمد، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها ٤٢/٣٠٠ برقم: ٢٥٤٧٤، وأبو داوود، كتاب الحدود، باب في الحد يشفع ٢/٥٣٨ برقم: ٤٣٧٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/٢٣١ برقم: ٦٣٨.

٥- عون المعبود ١٢/٢٥.

مفسدتها كما مر في كلام الأذرعي، وظهر أيضاً أنها الداء العضال والسم الذي في الألسن أحلى من الزلال، وقد جعلها من أوتي جوامع الكلم عديلة غصب المال وقتل النفس بقوله: "كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ"[١]»[٢]، وقد عرفها النبي ﷺ بقوله: "أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ"[٣].

إن علاج هذا المرض لا يكون إلا بالعلم والعمل، فإذا عرف المغتاب أنه يتعرض لسخط الله يوم القيامة بإحباط عمله وإعطاء حسناته من يغتابه أو يحمل عنه أوزاره، وأنه يتعرض لهجوم من يغتابه في الدنيا، وقد يسلطه الله عليه، ويعذب في النار بأكل النتن القذر، وينال عقاب الله في قبره، وتذهب أنوار إيمانه وآثار إسلامه، ولا يغفر له حتى يعفو عنه المغتاب، وأنها معولٌ هدام وشر مستطير، وتؤذي وتضر، وتجلب الخصام والنفور، وأنها مرض اجتماعي يقطع أواصر المحبة بين المسلمين، وهي دليل على خسة المغتاب ودناءة نفسه، فإذا علم هذا وعمل بمقتضاه من الخير فقد وفق للعلاج[٤].

١٢- منع الأتباع من نقل الأخبار عن الغير -إلا من أهل البدع الداعين إليها وعلى سبيل النصح والإرشاد- فكثير من الجفاء وتوغير الصدور مرده إلى تلك النقول، ولا تقل أخي الكريم: أخبرني الثقة؛ لأن الثقة لا يبلِّغ كما قال الأحنف بن قيس لمصعب بن الزبير لما عاتبه مصعب في شيء فأنكره الأحنف، فقال مصعب: أخبرَني الثقة، فقال له الأحنف: كلا إنّ الثقة لا يُبَلِّغ[٥].

١- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ١٩٨٦/٤برقم: ٢٥٦٤.

٢- الزواجر ٥٥٥/٢.

٣- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة ٢٠٠١/٤ برقم: ٢٥٨٩.

٤- موسوعة نضرة النعيم ٥١٦٣/١١، ٥١٦٤، ٥١٧٧.

٥- العقد الفريد ١٧٠/٢، والأمالي في لغة العرب ٣٠٦/٢.

والعلم بأن هذه النقول هي بعينها النميمة التي الحذر منها النبي ﷺ ، فعن حذيفة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ"[١]، وفي رواية: "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ"[٢]، والقتات هو النمام، والنميمة هي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم[٣]، قال الغزالي: «اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول: فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا، وليست النميمة مختصة به، بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أبو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر، فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة، فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل»[٤].

التعامل مع النمام: والواجب على كل إنسان تجاه النمام ستة أمور:

الأول: ألا يصدقه؛ لأن النمام فاسق، وهو مردود الشهادة، لقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات:٦].

١- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة ١٠١/١ برقم: ١٠٥.

٢- رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة ٢٢٥٠/٥ برقم: ٥٧٠٩، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة ١٠١/١ برقم: ١٠٥.

٣- شرح صحيح مسلم للنووي ١١٢/٢.

٤- إحياء علوم الدين ١٥٦/٣.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله.

الثالث: أن يبغضه في الله ﷻ؛ فإنه بغيض عند الله ﷻ ويجب بغض من يبغضه الله ﷻ.

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات:١٢].

الخامس: أن لا يحملك ما حُكي لك على التجسس والبحث للتحقق؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكي نميمته فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا؛ فتكون به نماماً ومغتاباً، وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾[القلم:١١]، وإن شئت عفونا عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدا[1].

وتعالج النميمة بما تعالج به الغيبة، وهو إما إجمالي بأن يعلم النمام أنه قد تعرض بها لسخط الله تعالى وعقوبته، وأنها تحبط حسناته، وتذكي نار العداوة بين المتآلفين، وتؤذي وتضر وتؤلم، وتجلب الخصام والنفور، وتزيل كل محبة وتبعد كل مودة وتآلف وتآخ، وبأن يتدبر المرء في عيوبه ويجتهد في التطهر منها، وأن يعلم أن تأذي غيره بالغيبة أو بالنميمة كتأذيه بها، فكيف يرضى لغيره ما يتأذى به؟! وأما التفصيلي فيتلخص في النظر في

١- المصدر السابق.

بواعثها فيقطعها من الأصل؛ إذ علاج العلة إنما يكون بقطع سببها، وألا يعتقد المرء في أخيه سوءا، وأن يبادر إلى التوبة بشروطها[١].

١٣- عدم الخوض في الجدل والمنازعات والخصومات، والذي علينا هو بيان الحق وتجلية السنة.

١٤- لا نقصر حقوق المسلم على أفراد جماعتنا، فهي حقوق عامة لكل المسلمين، عصاة كانوا أم طائعين.

١٥- المحافظة على الأخوة العامة بين المسلمين وعدم حصر ها في أفراد الحزب أو الجماعة، وكذلك الولاء والبراء.

١٦- أن يشتغل كل منا بعيوبه وسلبياته، فما أكثر عيوبنا وما أخطر سلبياتنا.

١٧- الصبر والمداراة لإخوة العقيدة ورفقاء الدرب.

١٨- تذكر البشرية وأن كل إنسان يخطئ ويصيب، ولا عصمة لأحد من البشر كائناً من كان، حتى العلماء والدعاة والقادة والأمراء.

١٩- أن يكون بغضك وحبك في الله ولله، وأن لا يكون مبنياً على الموافقة والمخالفة، مع الاعتدال في الحب والبغض لحديث: **"أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا؛ عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا؛ عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا"**[٢]، قال المناوي: «أي ربما انقلب ذلك بتغيير الزمان والأحوال بغضاً فلا تكون قد أسرفت في حبه فتندم عليه إذا أبغضته، أو حباً فلا تكون قد أسرفت في بغضه فتستحي منه إذا أحببته، ذكره ابن الأثير»[٣].

٢٠- أن تكون الموالاة على أساس أخوة الإسلام وبقدر ما فيه من خير وإيمان.

١- موسوعة نضرة النعيم ١١/ ٥٦٧١.

٢- رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض ٤/٣٦٠ برقم: ١٩٩٧، وصححه الألباني انظر: الجامع الصغير وزيادته ١/١٨ برقم: ١٧٨.

٣- فيض القدير ١/١٧٦.

٢١- تبرَّأ من الأعمال والأقوال السيئة، ولا تتبرأ من فاعلها، فقد قال ﷺ عندما قتل خالد متأولاً بني جذيمة: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ"[١]، ولم يتبرأ من خالد.

٢٢- لا نحاسب على ما مضى فالتوبة كالإسلام تجبان ما قبلهما.

٢٣- نعمل على أن لا تفترق صفوفنا وإن لم تتوحد آراؤنا[٢].

أكلت يوم أكل الثور الأبيض

عن عمير بن زوذى أبي كبير قال: خطبنا علي ﷺ يوماً، فقام الخوارج فقطعوا عليه كلامه، قال: فنزل، ودخل ودخلنا معه، فقال: ألا أني إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض، ثم قال مثلي مثل ثلاثة أثوار وأسد اجتمعن في أَجَمَةٍ أبيض وأحمر وأسود، فكان إذا أراد شيئا منهن اجتمعن فامتنعن منه، فقال للأحمر والأسود إنه لا يفضحنا في أجمتنا هذه إلا مكان هذا الأبيض، فخليا بيني وبينه حتى آكله ثم أخلو أنا وأنتما في هذه الأجمة؛

١- رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد ٢٦٢٨/٦ برقم: ٦٧٦٦، والحديث عن الزهري عن سالم عن أبيه قال: "بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا، فَقَالُوا: صَبَأْنَا صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، فَأَمَرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَسِيرَهُ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مَرَّتَيْنِ".

٢- موسوعة الدين النصيحة ٢٨٦/١، وموسوعة البحوث والمقالات العلمية ٢٤٧/٢.

يقول ابن عثيمين: «ويؤسفنا كثيراً؛ أن نجد في الأمة الإسلامية فئةً تختلف في أمورٍ يسوغ فيها الخلاف، فتجعل الخلاف فيها سبباً لاختلاف القلوب، فالخلاف في الأمة موجودٌ في عهد الصَّحابة، ومع ذلك بقيت قلوبهم متفقة، فالواجب على الشباب خاصة، وعلى كل المستقيمين أن يكونوا يداً واحدة، ومظهراً واحداً؛ لأن لهم أعداء يتربصون بهم الدَّوائر.

ونعلم جميعاً أنَّ التفرُّقَ أعظم سلاحٍ يفتِّت الأمة ويفرِّق كلمتها، ومن القواعد المشهورة عند الناس: أنك إذا أردت أن تنتصر على جماعة فاحرص على التفرقة بينهم؛ لأنَّهم إذا اختلفوا صاروا سلاحاً لك على أنفسهم، وليس أحدٌ بمعصوم، لكن إذا خالفك شخصٌ في الرَّأي في آية أو حديث مما يسوغ فيه الاجتهاد؛ فالواجب عليك أن تتحمل هذا الخلاف، بل أنا أرى أنَّ الرَّجُلَ إذا خالفَكَ بمقتضى الدليل عنده لا بمقتضى العناد أنه ينبغي أن تزداد محبَّةً له؛ لأنَّ الذي يخالفُكَ بمقتضى الدَّليل لم يصانعْك ولم يحابك، بل صار صريحاً مثلما أنك صريحٌ، أما الرَّجُلُ المعاندُ فإنه لم يرد الحقَّ. الشرح الممتع ١٥٩/٤.

فلونكما على لوني ولوني على لونكما، قال: ففعلا، قال: فوثب عليه فلم يلبثه أن قتله، قال: فكان إذا أراد أحدهما اجتمعا فامتنعا منه، وقال للأحمر يا أحمر إنه لا يشهرنا في أجمتنا هذه إلا مكان هذا الأسود فخل بيني وبينه حتى آكله ثم أخلو أنا وأنت فلوني على لونك ولونك على لوني، قال: فأمسك عنه فوثب عليه فلم يلبثه أن قتله، ثم لبث ما شاء الله ثم قال للأحمر: يا أحمر إني آكلك، قال: تأكلني، قال: نعم، قال: أما لا فدعني حتى أصوت ثلاثة أصوات ثم شأنك بي، قال: فقال: ألا إني إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض[١]، قال: ثم قال علي ﷺ: ألا وإني إنما رُهِبْت يوم قتل عثمان[٢].

والله أسأل أن يؤلف بين قلوب المسلمين، ويهديهم سبل السلام، وأن يجنبهم الفتن والآثام، وأن ينصرهم على أنفسهم وأعدائهم والشيطان، وصلى الله وسلم وبارك على محمد خير الأنام.

١- وانظر إلى حالنا اليوم، ينفرد بنا العدو واحدا تلو الآخر، ويلبس علينا بشأن ذلك الآخر تحت أي ستار أو مسمى؛ حتى يحملنا على السكوت تجاه صنيعه به، والعجيب أن الحيلة انطلت علينا حتى حمل العدو فريقاً منا على مساعدته، والهدف الحقيقي للعدو هو أن يصل إلى الجميع.

وانظروا إلى عبث الغرب -وحلفائهم- بالبلاد الإسلامية، والآخرون يتفرجون ويتقاعسون عن النصرة، بل ربما يدعمون تحت أي مبرر أو شعار، وبهدف التخلص من الآخر لينفرد الداعم بما يريد من أمور الحكم والسياسة، ولا يدركون أنهم يمهدون للعدو الطريق للوصول إليهم والتهامهم، وسيدركون لكن تكاليف دفع العدو ستكون باهضة الثمن من الدماء والأموال...، هذا إن أدركوا وفي الوقت متسع، حقاً أكلت يوم أكل الثور الأبيض، فإلى الله المشتكى، وعليه الاعتماد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٢- رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٥٦٢/٧ برقم: ٣٧٩٣٣.

والأجمة: منبت الشجر كالغيضة وهي الآجام، والأجم القَصر والحصن بلغة أهل الحجاز وفي الحديث: "حَتَّى دَخَلَتْ فِي آجَامِ الْمَدِينَةِ" أي: حصونها، والأجمة الشجر الكثير الملتف، والأجمة الغابة، والأجمة مأوى الأسد، وتأجم الأسد دخل في أجمته. لسان العرب ٢٣/١.

المطلب الثاني: إثارة العصبية

العصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين، وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا، فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل تعصبوا.

والتعصب: المحاماة والمدافعة، وتعصبنا له ومعه: نصرناه.

والعصبي: من يعين قومه على الظلم أو يغضب لعصبته ويحامي عنهم.

والعُصبة: الجماعة من الناس أو الخيل أو الطير، وعصَبة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه أو قومه الذين يتعصبون له وينصرونه، وفي الفرائض: من ليست له فريضة مسماة في الميراث وإنما يأخذ ما أبقى ذوو الفروض[١].

إن التعصب يشكل عائقاً أساسياً أمام كل أشكال التقارب بين الأفراد والجماعات والشعوب والمؤسسات؛ وذلك لأنه يكرس أسباب الفرقة، ويهدم ما هو موجود من أركان اللقاء والوحدة والتعاون[٢].

إن الرابطة التي تربط بين أفراد المجتمع ويجب أن ينادى بالارتباط بها دون غيرها إنما هي دين الإسلام؛ لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فربط الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمعصمك ورجلك بساقك، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: **"مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"**[٣]، ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيهاً على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم

١- لسان العرب ٦٠٧/١، والمعجم الوسيط ٦٠٤/٢.

٢- التعصب للدكتور عبد الكريم بكار، انظر: مقالات وبحوث الدكتور عبد الكريم بكار للشحود ١٨٩/١.

٣- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ١٩٩٩/٤ برقم: ٢٥٨٦.

كنفسه كقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾[البقرة:٨٤] أي: لا تخرجون إخوانكم، وقوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[النور:١٢] أي: بإخوانهم على أحد التفسيرين وصححه الشنقيطي، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[الحجرات:١١] أي: إخوانكم على أحد التفسيرين وصححه الشنقيطي[١]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾[البقرة:١٨٨] أي: لا يأكل أحدكم مال أخيه، إلى غير ذلك من الآيات، ولذلك ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"[٢].

إن كثيراً من آيات القرآن الكريم دالة على أن الرابطة الحقيقية هي الدين، وأن هذه الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصبية، ومنها: قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة:٢٢]، إذ لا رابطة نسبية أقرب من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ﴾[التوبة:٧١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات:١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

١- أضواء البيان ٤٢/٣.

٢- رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١٤/١ برقم: ١٤، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ٦٧/١ برقم: ٤٥.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[المائدة:٥٥]، فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن النداء برابطة أخرى غير الإسلام كالعصبية المعروفة بالقومية والمناطقية لا يجوز، ولا شك أنه ممنوع بإجماع المسلمين، ومن أصرح الأدلة في ذلك ما رواه جابر ﷺ إذ يقول: غزونا مع رسول الله ﷺ، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب[١]، فكسع[٢] أنصارياً، فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي ﷺ فقال: "مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ"[٣]، فقول هذا الأنصاري: يا للأنصار، والمهاجري: يا للمهاجرين، هو النداء بالقومية العصبية بعينه، واليوم ينادى يا للجنوب ويا للشمال، ويا للشرق ويا للغرب، ويا لبني فلان وبني فلان، وما شابه ذلك من النداءات العصبية المقيتة البغيضة.

إن قول النبي ﷺ: "دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ"، وفي رواية: "مُنْتِنَةٌ"[٤] يقتضي وجوب ترك النداء بها؛ لأن قوله: "دَعُوهَا" أمر صريح بتركها، والأمر المطلق يقتضي الوجوب؛ لأن الله

١- قيل معناه مطال، وقيل كان يلعب بالحراب كما تصنع الحبشة، وقيل مزاح واسمه جهجاه بن قيس الغفاري، وكان أجير عمر بن الخطاب ﷺ، عمدة القاري ٨٨/١٦

٢- بفتح الكاف والسين والعين من الكسع وهو أن تضرب بيدك أو برجلك دبر إنسان، ويقال هو أن تضرب عجز إنسان بقدمك، وقيل هو ضربك بالسيف على مؤخره، وقيل كسعته بما ساءه إذا تكلم فرميته على إثر قوله بكلمة تسوؤه، انظر: عمدة القاري ٨٨/١٦، ولسان العرب ٣٠٩/٨.

٣- رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية ١٢٩٦/٣ برقم: ٣٣٣٠، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما ١٩٩٨/٤برقم: ٢٥٨٤.

٤- رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[المنافقون:٦] ١٨٦١/٤ برقم: ٤٦٢٢، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما ١٩٩٨/٤ برقم: ٢٥٨٤.

يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣] فدل على أن مخالفة الأمر معصية، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦] فدلت الآية على أن أمر الرسول ﷺ مانع من الاختيار موجب للامتثال، لا سيما وقد أكد النبي ﷺ هذا الأمر بالترك بقوله: "فإنها خبيثة" أو: "منتنة"، وحسبك بالنتن موجباً للتباعد؛ لدلالته على الخبث البالغ، فدل هذا الحديث الصحيح على أن النداء برابطة القومية مخالف لما أمر به النبي ﷺ، وأن فاعله يتعاطى المنتن ولا شك أن المنتن خبيث والله تعالى يقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف:١٥٧][1]، قال الحافظ ابن حجر: «و"منتنة" بضم الميم وسكون النون وكسر المثناة من النتن أي: أنها كلمة قبيحة خبيثة»[2].

وعن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ"[3][4]، والحديث فيه أن من قاتل تعصباً، لا لإظهار دين، ولا لإعلاء كلمة الله، كان على الباطل وإن كان المتعصَب له حقاً والمغضوب له محقاً؛ لأن ذلك صنيع أهل الجاهلية والكفر[5]، إذ كان أحدهم ينتصر لأخيه

١- أضواء البيان ٣/٤٣.

٢- فتح الباري ٨/٦٤٩.

٣- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة ٣/١٤٧٨ برقم: ١٨٥٠.

٤- وفي رواية: "مَنْ قَاتَلَ". رواه النسائي، كتاب تحريم الدم، التغليظ فيمن قاتل تحت راية عميه ٧/١٢٣ برقم: ٤١١٥، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب العصبية ٢/١٣٠٢ برقم: ٣٩٤٨.

٥- حاشية السندي على سنن النسائي ٧/١٢٣، وشرح سنن ابن ماجه ١/٢٨٣، ومرقاة المفاتيح ٧/٢٢٩، ٢٣٠.

وقبيلته سواء كان على حق أو باطل، فإذا ناداه المنادي هب لنجدته دون أن يسأل عن الذي حصل، وهل هو محق أم مبطل، حتى قال قائلهم:

لاَ يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُم فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا[١]

قال الإمام النووي: «"مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ" هي بضم العين وكسرها لغتان مشهورتان والميم مكسورة مشددة والياء مشددة، أيضاً قالوا: هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور، قال إسحاق بن راهوية: هذا كتقاتل القوم للعصبية... ويؤيد الرواية الأولى الحديث المذكور بعدها "يَغْضَبُ لِلْعَصَبَةِ وَيُقَاتِلُ لِلْعَصَبَةِ"[٢]، ومعناه إنما يقاتل عصبية لقومه وهواه»[٣].

قال الطيبي: «قوله: "تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ" كناية عن جماعة مجتمعين على أمر مجهول لا يعرف أنه حق أو باطل، فيدعون الناس إليه، ويقاتلون له»[٤].

وعن جبير بن مطعم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ"[٥]، فهذا الحديث

١- هذا البيت لقريط بن أنيف العنبري، انظر: خزانة الأدب ٤١٣/٧.

٢- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة ١٤٧٦/٣ برقم: ١٨٤٨. والحديث بتمامه: "مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، ثُمَّ مَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِلْعَصَبَةِ، وَيُقَاتِلُ لِلْعَصَبَةِ، فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِي، وَمَنْ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، لاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلاَ يَفِي بِذِي عَهْدِهَا فَلَيْسَ مِنِّي".

٣- شرح النووي على صحيح مسلم ٢٣٨/١٢، ٢٣٩.

٤- مرقاة المفاتيح ٢٢٩/٧.

٥- رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في العصبية ٧٥٣/٢ برقم: ٥١٢١، الحديث ضعفه الألباني ثم قال: « غير أن الحديث صحيح المعنى فقد أخرج مسلم وغيره من حديث أبي هريرة قال النبي ﷺ: "من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتلته جاهلية..."، وفي رواية: "فليس من أمتي"» انظر: غاية المرام ١٨٦/١ برقم: ٣٠٤.

يبين أن تعصب الرجل لطائفة مطلقاً فعل أهل الجاهلية محذور مذموم، بخلاف منع الظالم وإعانة المظلوم من غير عدوان؛ فإنه حسن، بل واجب[١].

قال محمد شمس الحق العظيم آبادي: «"لَيْسَ مِنَّا" أي ليس من أهل ملتنا، "مَنْ دَعَا" أي: الناس، "إِلَى عَصَبِيَّةٍ " قال المناوي: أي: من يدعو الناس إلى الاجتماع على عصبية وهي معاونة الظالم، وقال القارئ: أي: إلى اجتماع عصبية في معاونة ظالم، وفي الحديث: "مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ"[٢]، قال صاحب النهاية هو قولهم يا آل فلان كانوا يدعون بعضهم بعضاً عند الأمر الحادث، "مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ" أي: على باطل وليس في بعض النسخ لفظ على، "مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ" أي: على طريقتهم من حمية الجاهلي»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «بين بهذا الحديث أن تعصب الرجل لطائفة مطلقاً فعل أهل الجاهلية محذور مذموم، بخلاف منع الظالم وإعانة المظلوم من غير عدوان؛ فإنه حسن، بل واجب، فلا منافاة بين هذا وبين خبر: "انْصُرْ أَخَاكَ"[٤]»[٥].

إن المتعصب لغيره ومع غيره يخسر آخرته بدنيا غيره، ولهذا كان شر الناس كما في حديث أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَبْد أَذْهَبَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ"[٦]، قال الإمام المناوي: «لأن من أذهب آخرته بدنيا غيره

١- فيض القدير ٣٨٦/٥.

٢- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما ١٩٩٨/٤برقم: ٢٥٨٤.

٣- عون المعبود ١٩/١٤.

٤- رواه البخاري، كتاب الإكراه، يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه ٢٥٥٠/٦ برقم: ٦٥٥٢.

٥- فيض القدير ٣٨٦/٥.

٦- رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب إذا التقى بسيفهما ١٣١٢/٢برقم: ٣٩٦٦، في الزوائد هذا إسناد حسن؛ سويد بن سعيد مختلف فيه، قال السندي: «قلت: وكذا شهر بن حوشب».

غيره يكون ذا فحش أشد، فمن أقدم عليه أقدم على أي شيء فيتركه الناس اتقاء فحشه»[١]، وقال: «إذ هو أخس الاخساء، وأخسر الناس صفقة، وأطولهم ندامة يوم القيامة »[٢]، وقال: «أي استبدل بحظه الأخروي حصول حظ غيره الدنيوي وآثره عليه، فأعظم بذلك من سفاهة»[٣].

إن رؤساء الدعاة إلى نحو هذه القومية العربية والمناطقية أبو جهل وأبو لهب والوليد بن المغيرة ونظراؤهم من رؤوس الكفر، وقد بين تعالى تعصبهم لقوميتهم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[المائدة:١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[البقرة:١٧٠] وأمثال ذلك من الآيات، فلا خلاف بين العلماء في منع النداء برابطة غير الإسلام كالقوميات والعصبيات النسبية، ولا سيما إذا كان النداء بالقومية يقصد من ورائه القضاء على رابطة الإسلام وإزالتها بالكلية، فإن النداء بها حينئذ معناه الحقيقي أنه نداء إلى التخلي عن دين الإسلام ورفض الرابطة السماوية رفضاً باتاً على أن يعتاض من ذلك روابط عصبية قومية مناطقية-مدارها على أن هذا من العرب ومن بني فلان وهذا منهم وهذا ليس منهم-، ولهذا كان من يدعو إلى هذه القوميات والمناطقية من الفساق.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «من أظهر العصبية بالكلام فدعا إليها وتألف عليها وإن لم يكن يشهر نفسه بقتال فيها فهو مردود الشهادة؛ لأنه أتى محرماً لا اختلاف بين علماء المسلمين علمته فيه... وقد جمع الله تعالى الناس بالإسلام ونسبهم إليه فهو أشرف أنسابهم... فإن قال قائل ما الحجة في هذا؟ قيل له قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

١- فيض القدير ٢/٥٣٩.

٢- فيض القدير ٣/١١٥.

٣- فيض القدير ٥/٣٨٦.

﴿إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠]، وقال رسول الله ﷺ: "وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا"[١] فإذا صار رجل إلى خلاف أمر الله تبارك وتعالى اسمه وأمر رسول الله ﷺ بلا سبب يعذر به يخرج به من العصبية كان مقيماً على معصية لا تأويل فيها ولا اختلاف بين المسلمين فيها، ومن أقام على مثل هذا كان حقيقاً أن يكون مردود الشهادة»[٢]، وهو في الآخرة من جماعات جهنم[٣] فقد قال رسول الله ﷺ: "وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللَّهِ"[٤]، وفي رواية: "وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِمَا سَمَّاهُمُ اللهُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ"[٥].

ودعوى الجاهلية الدعاء والنداء وكذلك سننها على الإطلاق، والمعنى من نادى في الإسلام بنداء الجاهلية وهو أن الرجل منهم إذا غلب عليه خصمه نادى قومه بأعلى صوته: يا آل فلان، فيبتدرون إلى نصرته ظالماً كان أو مظلوماً؛ جهلاً منهم وعصبيةً، و"جُثَا جَهَنَّمَ" أي: من جماعاتهم جمع جثوة بالحركات الثلاث وهي الحجارة. المجموعة[٦].

١- رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ٥/٢٢٥٣ برقم: ٥٧١٧، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها ٤/١٩٨٥ برقم: ٢٥٦٣.

٢- الأم ٦/٢٠٧.

٣- مرقاة المفاتيح ٧/٢٤٩.

٤- رواه الترمذي، كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ٥/١٤٨ برقم: ٢٨٦٣، انظر: صحيح الترغيب والترهيب ١/١٣٣.

٥- رواه أحمد، مسند الشاميين، حديث الحارث الأشعري ٢٩/٣٣٥ برقم: ١٧٨٠٠، قال شعيب الأرنؤوط: «حديث صحيح وهذا إسناد حسن».

٦- مرقاة المفاتيح ٧/٢٤٩.

إن العروبة والمناطقية العصبية لا يمكن أن تكون خلفاً عن الإسلام، واستبدالها به صفقة خاسرة، وقد علم في التاريخ حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده، قال الراجز:

بدلت بالجمة رأساً أزعرا وبالثنايا الواضحات الدردرا[١]

لقد بين الله جل وعلا في محكم كتابه أن الحكمة في جعله بني آدم شعوباً وقبائل هي التعارف فيما بينهم، وليست أن يتعصب كل شعب على غيره، وكل قبيلة على غيرها[٢]، وكل منطقة على غيرها، وكل مذهب على غيره، وكل جماعة على غيرها، قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣] فاللام في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ لام التعليل، فالتعارف هو العلة المشتملة على الحكمة لقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾.

قال الإمام الشوكاني -في قوله تعالى ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾-: «والمقصود من هذا أن الله ﷻ خلقهم كذلك لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا

١- أضواء البيان ٣/٤٥.

الزعر: قلة الشعر، وزعر الشعر و الريش و الوبر زعراً قل و تفرق حتى يبدو الجلد، ويقال زعر المكان كان قليل النبات متفرقه، مختار الصحاح ١/١١٤، والمعجم الوسيط ١/٣٩٣.

والجُمة من الإنسان مجتمع شعر ناصيته، وما ترامى من شعر الرأس على المنكبين، وقيل: الجُمَّةُ هو الشَّعَر الكَثِير، المعجم الوسيط ١/١٣٧، وتاج العروس ٣١/٤٢١.

والدردر: منبت الأسنان عامة وقيل منبتها قبل نباتها وبعد سقوطها وقيل هي مغارزها من الصبي والجمع الدرادر، لسان العرب، ٤/٢٨٣

والثَّنِيَّة من الأضراس تشبيها بالثنية من الجبل في الهيئة والصلابة وهي الأربع التي في مُقَدم الفم ثنتان من فوق وثنتان من أسفل، تاج العروس، ٣٧/٢٩٥، ٢٩٦.

معنى البيت: بدلت بالشعر الكثيف المترامي على المنكبين رأساً قليل الشعر قد ظهر جلده، وبثنايا الأسنان الواضحة الجميلة منبتتها وذلك بإزالتها، فهذا قد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، حاله كحال بني إسرائيل.

٢- أضواء البيان ٣/٤٥.

الشعب، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة، وهذا البطن أشرف من هذا البطن، ثم علل ﷻ ما يدل عليه الكلام من النهي عن التفاخر فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي: أن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى، فمن تلبس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها وأشرف وأفضل، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب؛ فإن ذلك لا يوجب كرماً ولا يثبت شرفاً ولا يقتضي فضلا»[١].

إن علماء الإسلام حين يصرحون بمنع النداء بالروابط العصبية والأواصر النسبية، ويقيمون الأدلة على منع ذلك، لا ينكرون أن المسلم ربما انتفع بروابط نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما نفع الله نبيه ﷺ بعمه أبي طالب، وقد بين الله جل وعلا أن عطف ذلك العم الكافر على نبيه ﷺ من منن الله عليه قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[الضحى:٦] أي: آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب، ومن آثار هذه العصبية النسبية قول أبي طالب فيه ﷺ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة أبشر بذاك وقر منه عيونا[٢]

إن الناظر في هذه المسألة يفرق بين الأمرين، ويعلم أن النداء بروابط القوميات والمناطقية والعصبية لا يجوز على كل حال، ولا سيما إذا كان القصد بذلك القضاء على رابطة الإسلام وإزالتها بالكلية بدعوى أنه يساير التطور الجديد، أو أنه جمود وتأخر عن مسايرة ركب الحضارة -نعوذ بالله من طمس البصيرة-، فمنع النداء بالروابط القومية والمناطقية لا ينافي أنه ربما انتفع المسلم بنصرة قريبه الكافر بسبب العواطف النسبية

١- فتح القدير ٥/٦٧.

٢- ديوان أبي طالب ص٨٦، وسيرة ابن إسحاق ٢/١٣٦.

والأواصر العصبية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما وقع من أبي طالب للنبي ﷺ، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "وَإِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ"[١]، ولكن تلك القرابات النسبية لا يجوز أن تجعل هي الرابطة بين المجتمع؛ لأنها تشمل المسلم والكافر، والتقي والفاجر، ومعلوم أن المسلم عدو الكافر كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة:٢٢]، وليس التقي كالفاجر كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨] فمن ظن بالله الحكيم الخبير أنه يساوي بين الصالح المصلح والمفسد الفاجر فقد ظن ظناً قبيحاً جديراً بالإنكار[٢]، فكيف بمن يقدم الكافر والفاسد الفاجر على المسلم والتقي الصالح!!

والحاصل أن الرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق وتؤلف المختلف هي رابطة: (لا إله إلا الله).

إن هذه الرابطة التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشد بعضه بعضاً، عطفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً

١- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ١/ ١٠٥ برقم: ١١١.

٢- أضواء البيان ٦/٣٤٣.

﴿وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[غافر:٧-٩]، فقد أشار تعالى إلى أن الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومن حوله وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم إنما هي الإيمان بالله جل وعلا؛ لأنه قال عن الملائكة: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فوصفهم بالإيمان، وقال عن بني آدم في استغفار الملائكة لهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، فوصفهم أيضاً بالإيمان، فدل ذلك على أن الرابطة بينهم هي الإيمان وهو أعظم رابطة.

إن مما يوضح لنا أن الرابطة الحقيقية هي دين الإسلام قوله تعالى في أبي لهب عم النبي ﷺ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[المسد:٣]، ويقابل ذلك بما لسلمان الفارسي من الفضل والمكانة عند النبي ﷺ والمسلمين[١]، فقد جاء عنه ﷺ أنه قال فيه: "سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ"[٢]، وقد أجاد من قال:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالاً على الحسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد هجن الشركُ الشريفَ أبا لهب[٣]

١- انظر: أضواء البيان ٣/٤١- ٤٧.

٢- رواه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ذكر سلمان الفارسي ﷺ ٣/٦٩١ برقم: ٦٥٣٩، والطبراني في الكبير ٦/٢١٢ برقم: ٦٠٤٠، قال الهيثمي: «رواه الطبراني، وفيه كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات» مجمع الزوائد ٦/١٨٩ برقم: ١٠١٣٧.

٣- تاريخ مدينة دمشق ٢١/٤٢٦.

لقد خطب رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: "يَا أَيُّهَا النَاس أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى"[1].

النعرات القومية والطائفية

إن من أهم مشاكل الوحدة الإسلامية حسب ما بينه القادة والمفكرون الإسلاميون أو ما هو واضح للمهتمين بها يتمثل في: النعرات القومية، والنعرات الطائفية، والحكومات المهزومة.

إن النعرات القومية والتعصب القومي والعنصري ظاهرة تسود المجتمعات الجاهلية، فالمجتمع الجاهلي ينتقد القيم الإنسانية، ويفتقد التربية الإنسانية، ولذلك يعيش أفراده في مستوى منحط من التصورات والأفكار والقيم، وتصبح مظاهر اللغة أو اللون أو النسب هي معايير التمييز والتفضيل بين أبناء البشر، وتهبط قيمة كل المعايير الإنسانية الصحيحة، فالرسالة الإسلامية (الإلهية) فيما تستهدفه طرح معايير وتصورات إنسانية في المجتمع؛ كي يتجاوز الكائن البشري الأُطر الضيقة التي تحبس فكر الإنسان الجاهلي مثل المرعى والقطيع، فالإسلام واجه في الجزيرة العربية مجتمعاً فرقته العصبيات القبلية واستفحلت فيه العداءات النسبية والعرقية، من هنا كانت عملية القضاء على هذه النعرات والعصبيات من أصعب مهام القائد الأعظم والرسول الأكرم ﷺ على طريق إنشاء المجتمع الموحد، وعانى القائد ﷺ ما عانى لاستتباب معيار التقوى في المجتمع الإسلامي بدل المعايير الجاهلية، لكن الجاهلية الحديثة أعادت لنا تلك النعرات والتعصبات بأسلوب جديد ومسميات جديدة معقدة محاطة بأطر ونظريات علماء الاجتماع الأوربيين واليهود والأمريكان، ومحملة بكل الوسائل الرخيصة للقضاء على الإسلام، فسببت الفرقة وروح العداء بين أبناء الأمة الإسلامية.

١- رواه أحمد، تتمة منسد الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ ٣٨/٤٧٤ برقم: ٢٣٤٨٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٨٩ برقم: ٥١٣٧، قال الإمام الألباني: «صحيح لغيره»، صحيح الترغيب والترهيب ٣/٧٩ برقم: ٢٩٦٣.

أما النعرات الطائفية والاتجاهات الفكرية والاجتهادية المختلفة فظاهرة شهدها العالم الإسلامي منذ زمن بعيد بعضها طبيعي يعود إلى طبيعة المجتمع البشري نظراً لاختلاف الناس في أفكارهم وأفهامهم واجتهاداتهم، وبعضها الآخر مفتعل استحدثه المغرضون لأهدافهم الخاصة، وخلال عصور تاريخية مختلفة استغلت هذه الاختلافات لأغراض شخصية، ولعبت السياسة على مر التاريخ الإسلامي دوراً كبيراً في بروز الاتجاهات الفكرية والفقهية أو ضمورها، وهذه المسألة واضحة لكل باحث في التاريخ الإسلامي، والجانب الكبير من تفشي هذه النعرات المفرقة يعود إلى جهل المسلمين، فعامة الناس كانوا ولا يزالون وقود النزاعات الطائفية وأداة بيد المغرضين يستغلون تعصبهم الأعمى إلى هذه الجهة أو تلك، فيثيرون المعارك والاشتباكات، فلكي نخطو للأمام لابد أن تزول هذه النعرات الطائفية بين المسلمين[١].

إن ما يشاهد اليوم من سعي قوى التفرق والانفصال في الخارج والداخل إلى تعميق روح المناطقية والعصبية بين أبناء البلاد الإسلامية الواحدة شمالها وجنوبها وشرقها وغربها، وإثارة النعرات المذهبية والإقليمية والطائفية والقبلية والتحزبية، وإثبات أن أبناء هذه الفئة يريدون إلغاء الوجود البارز لأبناء الفئة الأخرى، وأنهم يعاملونهم كمواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة، مع اتخاذ الواقع المتردي وظلم بعض الحكومات -الذي لا ينكره إلا أعمى أو جاهل- أو غفلتها أو تساهلها أو عجزها مظلة من أجل كسب تعاطف الناس معهم[٢]، هو أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى توتر الأوضاع على الساحات واشتعال فتيل الفتن مما تسبب في إفساد القلوب وتغير النفوس، وإشعال الحروب، وهذا لا بد من الحذر منه

١- أسباب التمزق وعقبات الوحدة نقلاً عن موقع: http://annabaa.org/nba45/wahdaislamya.htm، بتصرف.

٢- بعد الحرب: اليمن يمر بأخطر مرحلة، لأيمن بن سعيد، نقلاً عن مجلة البيان، العدد٧٩، ص٧١.

والتنبه له؛ لأن أبناء الإسلام في كل بقاع الأرض وكل أقطار البلاد شمالها وجنوبها وشرقها وغربها من أي طائفة أو قبيلة أو عرق أو تربة سواء في اليمن أو السودان أو الصومال أو العراق أو أفغانستان أو باكستان أو لبنان أو سوريا أو أي دولة في أصقاع الأرض قلوبهم واحدة، وصفهم واحد، وهم شعب واحد، وليست المشكلة بين أبناء البلد الواحد إنما هي في الأطراف الفاسدة المفسدة سواءً كانت من جهة الحكومات أو غيرها، كما في بعض الدول ذات الحكومات الفاسدة المفسدة التي نهبت الخيرات والثروات، وظلمت وتسلطت وسطت على حقوق الناس فنهبوها، وشجعهم على ذلك غياب العدالة، وضعف القضاء، وفساد السلطات، وكل ذلك لأن أكثر هؤلاء المتسلطين من المسئولين فضاعت الحقوق، أو حتى من الأطراف الأخرى الداعية إلى أمثال هذه الفتن والاضطرابات لسبب أو لآخر، وربما كان عن تأويل، أو بدفع من الغير، أو تهويل.

إن ما يحصل في بعض البلدان ذات الحكومات الفاسدة من نهب وسلب للأراضي وحقوق الآخرين موجود في جميع أرجاء البلاد، إذاً فلماذا العصبيات والمناطقية البغيضة التي رأينا بالدليل من الكتاب والسنة حرمتها، فكيف نسير وراءها ونخدع بها؟!!، ومن المستفيد من إشعالها؟!!، ولا يعني هذا السكوت عن الظلم والرضوخ للظالم، بل نطالب برفع الظلم، وإعادة المظالم إلى أهلها، وإلا فإقصاء الظلمة-لا بخروج مسلح، ولا بقتل، ولا نهب، ولا سلب- مع المحافظة على الأخوة والوحدة وصفاء القلوب، دون التعرض لموضوع وحدة البلاد وتماسكها في جسد واحد؛ إذ ليست حقاً لأحد، ولا حِكراً عليه إنما الوحدة وحدة الأمة، وليست المطالبة برفع الظلم ورد المظالم والحقوق إلى أهلها ونصرة المظلوم والوقوف معه حتى يسترد حقه ليس ذلك من العصبية الممقوتة؛ لما رواه أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **"انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمَاً أَوْ مَظْلُومَاً، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومَاً، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمَاً، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ -أَوْ تَمْنَعُهُ- مِنَ الظُّلْمِ،**

فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ"[١]، وعن سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: "خَيْرُكُمُ الْمُدَافِعُ عَنْ عَشِيرَتِهِ مَا لَمْ يَأْثَمْ"[٢]، قال الإمام المناوي: «"خَيْرُكُمُ الْمُدَافِعُ عَنْ عَشِيرَتِهِ"، فيرد عنهم من ظلمهم في مال أو عرض وبدن، "مَا لَمْ يَأْثَمْ" ما لم يظلم الدافع في دفعه؛ بأن تعدى الحد الواجب في الدفع»[٣]، وقال «"خَيْرُكُمُ الْمُدَافِعُ عَنْ عَشِيرَتِهِ" في المهمات في حضورهم وغيبتهم، ويرد عنهم من ظلمهم في مال أو عرض أو بدن، ويكون الدفع بالأخف فالأخف، "مَا لَمْ يَأْثَمْ" أي: ما لم يظلم الدافع في دفعه؛ بأن تعدى الحد الواجب في الدفع، كأن يتحامل على المدفوع لنحو عصبية أو ضغينة، قال في الإتحاف: الخيرية هنا باعتبار إضافي وما ذاك إلا أن من المدافعين من يدافع عن نفسه، ومن يدافع عن أصدقائه، ومن يدافع عن عشيرته، وخير هؤلاء المدافع عن عشيرته، وقوله: "مَا لَمْ يَأْثَمْ" زجر عن المبالغة في المدافعة حتى ينتهي المدافع إلى الإثم، ونص عليه وإن كان معلوماً؛ ليكون مستحضراً في الذهن؛ إذ الحمية قد تذهل عنه»[٤].

وقد سئل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: "لاَ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يَنْصُرَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ"[٥].

قال الإمام القاري: «أي: على ظلمهم، أو مع ظلمهم، أو على وجه الظلم»[٦].

١- رواه البخاري، كتاب الإكراه، يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه ٦/٢٥٥٠ برقم: ٦٥٥٢.

٢- رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في العصبية ٢/٧٥٣ برقم: ٥١٢٠، قال أبو داود: « أيوب بن سويد ضعيف».

٣- التيسير بشرح الجامع الصغير ١/٥٣٤.

٤- فيض القدير ٣/٤٩٨.

٥- رواه أحمد، مسند الشاميين، حديث واثلة بن الأسقع ٢٨/١٩٦ برقم: ١٦٩٨٩، قال الهيثمي: «رواه أحمد وفيه عباد بن كثير الشامي وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره»، مجمع الزوائد ٦/ ٣٦٥ برقم: ١٠٤٥٩.

٦- مرقاة المفاتيح ٩/١٣٠.

أضرار ومخاطر العصبية

هـــذا ومـــن أضـــرارها في العاجـــل ... إشـــــاعة الخـــــلاف والتخـــــاذل
كـــــذلك التنـــــازع المـــــؤدي ... لفشـــــل وضـــــعفنا عـــــن ضـــــد
فســـاد ذات البـــين وهـــي الحالقـــة ... للـــدين نصـــاً قـــد أتـــى فحققـــه
فالاجتمـــــاع ســـــبب أي ســـــبب ... في نصـــر مـــن قـــد طبقـــوه والغلـــب
وخـــذ علـــى ذاك مثـــالاً العـــرب ... إذ جُمعـــوا علـــى النـــبي المنتخـــب
فحققـــــوا بقـــــوة الإيمـــــان ... ووحـــــدة الإســـــلام لا الأوطـــــان
فتحـــاً عظيمـــاً لم يكـــن معهـــودا ... ثم علـــى العـــدل بنـــوا بنـــودا
كـــذاك مـــن أضـــرارها جعـــل الـــولا ... لمـــن يعـــادي الله جـــل وعـــلا
وذاك مـــن لازمـــه تقـــديم مـــا ... لـــيس بـــأولى نعمـــة وأقـــدما
فـــإن تكـــن للنفـــع قـــد واليتـــه ... أو خشـــية للضـــر إن عاديتـــه
فـــاعلم بـــأن النفـــع والضـــر معـــا ... في يـــد بـــارئ الخلائـــق أجمعـــا
فـــإن يـــردك الله خـــيرا لـــن يُـــرد ... أو غـــيره مـــارده عنـــك أحـــد [1]

قال الإمام الشوكاني: «واعلم أنه كما يتسبب عن التعصب محق بركة العلم وذهاب رونقه وزوال ما يترتب عليه من الثواب، **كذلك يترتب عليه من الفتن المفضية إلى سفك الدماء وهتك الحرم وتمزيق الأعراض واستحلال ما هو في عصمة الشرع ما لا يخفى على عاقل**، وقد لا يخلو عصر من العصور ولا قطر من الأقطار من وقوع ذلك، لا سيما إذا اجتمع في المدينة والقرية مذهبان أو أكثر، وقد يقع من ذلك ما يفضي إلى إحراق

١-أبيات من رسالة الشيخ أحمد بن يحيى النجمي، نقلاً عن موقع: http://www.sahab.net/forums/showthread .

الديار، وقتل النساء والصبيان، كمثل ما كان يقع بين السنية والشيعة ببغداد، فإنهم كانوا يفعلون في كل عام فتناً ويهرقون الدماء ويستحلون من بعضهم البعض ما لا يستحلونه من أهل الذمة، بل قد لا يستحلونه من الكفار الذين لا ذمة لهم ولا عهد[١]»[٢].

فأضرارا ومخاطر العصبية هي:

١- إشاعة الخلاف والتنازع والشقاق، الذي حرص الإسلام على سلامة أمته وحفظ كيانها منها، فهو لذلك يطفئ بقوةٍ بوادر الخلاف والنزاع والشقاق، ويهيب بالأفراد كافة أن يتكاتفوا على إخراج الأمة من ورطات الشقاق، بينما يحرص أعداء الإسلام على وقوع ذلك في أمة الإسلام، ويودون أن يضعوا أيديهم ولو على شخص واحد ليكون طرفاً ناتئاً يستمسكون به، ويجذبون الأمة كلها عن طريقه[٣].

٢- وقوع التخاذل -ترك الإعانة والنصرة- والتحاسد والتدابر والتقاطع والاحتقار المنهي عنها، والتي تفكك عرى المجتمع وتهدم بنيانه، وبها يترك نصرة الحق، والأخذ على يد الظالم ونصرة المظلوم، فإذا استعان به في دفع ظالم ونحوه يجعله التعصب يتقاعس عن إعانته مع كونه واجباً عليه إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي[٤]، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ"**[٥].

١- وانظر إلى واقعنا اليوم تجد مصداق هذا الكلام.

٢- أدب الطلب ص٩٢.

٣- موسوعة نضرة النعيم ٤٢٦٧/٩، بتصرف.

٤- انظر: لسان العرب ١١/ ٢٠٢، وشرح النووي على صحيح مسلم، ١٢٠/١٦، وموسوعة نضرة النعيم ٩/ ٤١٤٤، بتصرف.

٥- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره... ١٩٨٦/٤، برقم: ٢٥٦٤.

٣- فساد ذات البين وهي الحالقة كما في حديث أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ""أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ؛ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ"[١]، قال الإمام الترمذي: «ويروى عن النبي ﷺ: "هِيَ الحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ"»[٢].

قال الإمام المناوي: «أي: الخصلة التي شأنها أن تحلق أي: تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر، أو المراد المزيلة لمن وقع فيها لما يترتب عليه من الفساد والضغائن، وذلك لما فيه[٣] من عموم المنافع الدينية والدنيوية من التعاون والتناصر والألفة والاجتماع على الخير حتى أبيح فيه الكذب وكثرة ما يندفع من المضرة في الدنيا والدين بتشتت القلوب ووهن الأديان من العداوات وتسليط الأعداء وشماتة الحساد فلذلك صارت أفضل الصدقات»[٤].

وقال الإمام القاري: «أي: الماحية والمزيلة للمثوبات والخيرات»[٥].

وقيل: هي قطيعة الرحم والتظلم[٦].

٤- جعل الولاء والبراء لغير الله وسوله والمؤمنين، بل لما يتعصب له، والله تعالى يقول: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ٧١].

١- رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ ٦٦٣/٤ برقم: ٢٥٠٩، وقال: «هذا حديث صحيح».

٢- سنن الترمذي ٦٦٣/٤، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (٤٤/٣) برقم: ٢٨١٤، و(٤٨/٣) برقم: ٢٨٢٧.

٣- يريد إصلاح ذات البين.

٤- فيض القدير ١٠٦/٣، وانظر: شرح الزرقاني ٣٢١/٤.

٥- مرقاة المفاتيح ٢٤١/٩.

٦- النهاية في غريب الأثر ٤٢٨/١، وتحفة الأحوذي ١٧٩/٧.

٥- التعاون على الإثم والعدوان الذي يقلب نظام المجتمع ويساعد على فساد الذمم، ويفتح أبواب الشر، ويطمس معالم الحق، ليرتع الباطل، ويساعد على الطغيان والظلم، ويسبب خراب المجتمع، وتضيع الحقوق، وتصل لغير أهلها ومستحقيها[١].

٦- الظلم، فالمتعصب يظلم نفسه، ويظلم من يتعصب له أو عليه.

٧- محق البركة. ٨- وقوع الفتن والتمزق. ٩- الضعف والفشل.

١٠- سفك الدماء وهتك الحرمات. ١١- تسلط الأعداء.

أسباب التعصب

من الأسباب التي تدفع في اتجاه التعصب الآتي:

١- تغلب سلطان النفس على سلطان الشريعة.

٢- الجهل؛ إذ إن الشخص أو الجماعة أو القبيلة أو الحزب حين يجهل حقيقة ما عليه الآخرون، فإنه يقع بسهولة فريسة لأحاديث المجالس غير الموثوقة والمتحاملة، كما يقع فريسة للدعاية المضادة، وتدل بعض الدراسات على أن الناس كلما عرفوا أكثر وأكثر عن بعضهم خفت حدة التعصب لديهم، وذلك لأن تلك المعرفة تظهر لهم زيف الشائعات المغرضة التي يتداولونها عن بعضهم من غير أي تثبت؛ وفي هذا الإطار نفهم حكمة العديد من التشريعات والعبادات الإسلامية ذات الصبغة الاجتماعية، مثل: الحج، وصلاة العيدين، والجمعة، والجماعة، والحث على التزاور، وعيادة المريض، وصلة الأرحام، والتعاون على البر والتقوى، والتعارف والتواصل...

٣- تشتد حدة التعصب في المجتمعات التي فيها قوانين غير منصفة، وذلك كأن تنال طبقة أو فئة أو مجموعة امتيازات خاصة، دون بقية الناس؛ فهذه القوانين تعمل على توليد

١- انظر: موسوعة نضرة النعيم ٤٢٠٧/٩، بتصرف.

ثقافة التعصب من أجل إيجاد منطلق لإقناع المحظوظين باستحقاقهم للامتياز، وإقناع المظلومين بأن ما يجري لهم هو شيء طبيعي، ومن هنا فإن الشريعة شددت كثيراً على مسألة العدل ومقاومة الظلم، والحقيقة أن الفئة التي تنال ما ليس لها تُصاب بنوع من التشوه في أرواحها وعقولها وأخلاقها.

٤- أحياناً تتعصب جماعة أو قبيلة ضد أخرى من أجل تقوية نسيجها وتقوية صفوفها، في حين أن اللجوء إلى التعصب يدل على انحطاط أخلاقي، وفساد في الأسس التي قام عليها الكيان.

٥- النشوء في بلد ومدينة تتمذهب بمذهب معين، وهو أكثرها وقوعاً وأشدها بلاء، وهذا الداء قد كثر في بلاد الإسلام وعم في أكثر أهلها ولم يخرج عنه إلا أفراد قد يوجد الواحد منهم في المدينة الكبيرة وقد لا يوجد؛ لأن هؤلاء الذين ألفوا هذه الجماعات والطوائف والمذاهب قد صاروا يعتقدون أنها هي الشريعة وأن ما خرج عنها خارج عن الدين مباين لسبيل المؤمنين، والسبب أنهم نشأوا فوجدوا آباءهم وسائر قراباتهم على ذلك، وورثة الخلف عن السلف والآخر عن الأول، وانضم إلى ذلك قصورهم عن إدراك الحقائق؛ بسبب التغيير الذي ورد عليهم ممن وجدوه قبلهم.

٦- حب الشرف والمال مع أنهما أعدى على الإنسان من ذئبين ضاريين[1]، فإن هذا هو السبب الذي بقي به من بقي على الكفر من العرب وغيرهم بعد قيام الحجة عليهم وظهور الحق لهم، وبه نافق من نافق، وقد وضع جماعة مناقب لقوم وآخرون مثالب لآخرين.

١- فعن ابن كعب بن مالك الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ". رواه أحمد، مسند المكيين، بقية حديث كعب بن مالك الأنصاري ٦١/٢٥ برقم: ١٥٧٨٤، والترمذي، كتاب الزهد ٥٨٨/٤ برقم: ٢٣٧٦، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٤٦/٢.
ومقصود الحديث أن الحرص على المال والشرف أكثر إفساداً للدين من إفساد الذئبين للغنم؛ لأن ذلك الأشر والبطر يستفز صاحبه ويأخذ به إلى ما يضره، وذلك مذموم؛ لاستدعائه العلو في الأرض والفساد المذمومين شرعاً. انظر: مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير للألباني ٣٨/١.

٧- الجدال والمراء وحب الانتصار والظهور، فإن الرجل قد يكون له بصيرة وحسن إدراك ومعرفة بالحق ورغوب إليه، فيخطئ في المناظرة ويحمله الهوى ومحبة الغلب وطلب الظهور على التصميم على مقاله وتصحيح خطأه وتقويم معوجه بالجدال والمراء، وهذه الذريعة الإبليسية والدسيسة الشيطانية قد وقع بها من وقع في مهاوي من التعصبات ومزالق من التعسفات عظيمة الخطر مخوفة العاقبة.

٨- انتشار الذرية وتنوع الانتماء القبلي من الأمور التي قد تبعث على الفرقة والتناحر والتعصب، لكن القرآن الكريم يذكرنا بثلاثة أمور أساسية:

أ — الناس مهما اختلفوا وتباعدوا، فإن عليهم أن يتذكروا أنهم جميعاً من أب واحد وأم واحدة، فهناك دائما شيء مشترك.

ب- هذا التنوع قد يُستغل للعداء والتجافي، لكن الله —تعالى- يريد من عباده أن يتخذوا منه أداة للتواصل والتآلف والتعارف على قاعدة (نختلف لنأتلف).

ج- لا ينبغي لهذا التنوع أن يُتخذ طريقًا للكبر وهضم الحقوق والشقاق، فالإنسان يكون أفضل من غيره بشيء من واحد هو (التقوى)، ومن التقوى رحمةُ العباد والرفق بهم وجلب النفع لهم.

٩- كثرة المجالسة والمؤالفة والمعاملة، كتلميذ في مقتبل العمر عند شيخه، يسمع منه فيرى في هذا الشيخ الفضل والنبل والعلم، والوقوف عند الكتاب وعند السنة والعمل بهما والدعوة إليهما، وأنه لا يتكلم إلا بالحجة، وإلا بالدليل، فيترتب على ذلك ثقة مطلقة، فإذا سمع منه قولاً أو سمع عنه قولاً، لم يحمله إلا على أحسن محمل، وهذا حق لاشك في ذلك، ولكن قد يترتب على ذلك أن يتعصب له ويوالي فيه ويعادي وينصر فيه، والبعض قد يتعصب حتى لمشايخ ماتوا، وقد يوجد من يلقي باللائمة على آخرين، وينسى أنه قد يكون واقعاً في ما لامه عليهم، من حيث لا يدري ولا يشعر.

١٠- المنافسة على طلب الرزق تذكي نار التعصب، فحين يجد السكان الأصليون أن الوافدين إلى بلادهم صاروا يزاحمونهم على الأعمال والوظائف، فإنهم يسعون إلى إيجاد آلية لكسر حدة منافستهم، ويجدون في التعصب وسيلة جيدة لذلك، والمفروض لحل مثل هذه المشكلات النظر بعين الإنصاف للإيجابيات والسلبيات التي تترتب على وجود أولئك المنافسين، والسعي إلى إيجاد نظم وقوانين عادلة ومريحة تحكم وتنظم العلاقات بين الجميع.

١١- الأعداء والعملاء والعنصريون والأنانيون ومحدودو الأفق الذين يجعلون من التباين الفكري والثقافي والعرقي... مرتعاً خصباً لإنعاش التعصب وزيادة حدة الاختلاف.

١٢- انعدام النقد الذاتي الذي يخفف من حدة التعصب، ويقلل من إمكانية استغلال العواطف المتاجرة بها، واشتغال مفكري ومدرسي كل طائفة ومذهب باستمرار بيان فضائل مذاهبهم وطوائفهم والدفاع عن أصولها وفروعها دون ممارسة شيء ذي قيمة من النقد والمراجعة والتمحيص، ووقع في مثل هذا جماعات وأحزاب وتيارات عديدة[1].

من لوازم التعصب

١- الجمود؛ إذ أن المتعصب يلازم الأفكار الموروثة حول ما يتعصب له، فإذا كان يتعصب لبلده، فإنه يحفظ كل ما قيل في فضائله بقطع النظر عن صحته، ولا يفتح عقله للتعامل مع المقولات الجديدة حول ذلك البلد؛ فهو بلد الصدق والأمانة والشهامة والكرم... وإن كان الناس من حوله يلاحظون أن وجود هذه الفضائل نسبي، وأن بين أبناء بلده من ليس صادقاً ولا أميناً ولا كريماً.

٢- التفكير غير المنطقي إذ تنطمس الأسباب عند الحديث عن المشكلات، ويختل الربط بين المقدمات والنتائج، فإذا حدثت محنة عظيمة لجماعة المتعصب فإن تلك المحنة

١- انظر: أدب الطلب للشوكاني ص٤٠ -٥٩، والتعصب د. عبد الكريم بكار ١٤٢٧/٥/٥، نقلاً عن موسوعة البحوث والمقالات العلمية، ودروس للشيخ سلمان العودة ٢٦/٢٣٣ من الشاملة الإصدار الثالث.

ليست بسبب سوء تقديرها للأمور، أو بسبب أخطاء تربوية أو تنظيمية أو بسبب أخطاء استراتيجية.

إن كل هذه الأخطاء لا يستطيع المتعصب رؤيتها، ولهذا فالمحنة التي وقعت هي بسبب مؤامرة كبرى تعرضت لها الجماعة، أو بسبب وشاية من جماعة منافسة، أو بسبب عدم التزام بعض أبنائها بالتعليمات.. وحين يُنبَّه المتعصب إلى أن السلوك الفلاني سيؤدي إلى كذا وكذا، فإن المتعصب يفسر ذلك بالحسد والحقد والجهل؛ وذلك لأن في سلسلة المعقولات لديه حلقات مفقودة، لهذا فإنه لا يستطيع رؤية التداعيات المنطقية بين الأشياء.

٣- داء التعميم المفرط، فأي فضيلة تثبت لواحد من أفراد قبيلته أو جماعته يعممها على باقي أبناء القبيلة أو الجماعة، وإن أي رذيلة تثبت عن قبيلة منافسة يقوم بتعميمها على جميع أبناء كل تلك القبيلة، وفي هذا من الظلم ما لا يخفى.

٤- المحاباة والتحامل، وهما صفتان أساسيتان لدى الإنسان المتعصب، وهاتان الصفتان توجدان خللاً كبيراً في الشخصية، ولهذا فإن المتعصب يكون في الغالب محروماً من التوازن العقلي والانفعالي الذي يتمتع به الأسوياء.

٥- التأثير البالغ في الشخصية إذا طال أمده، إذ يصبح عبارة عن مصنع للنظارات التي يرى المتعصب الأشياء من خلالها، فهو في كل موقف يتعلق بمن يوجه التعصب ضدهم، يفكر ويفهم ويدرك ويعي ويشعر ويسلك ويتصرف ويحكم وفقاً للصورة الذهنية التي شكلها عنهم؛ وعلى سبيل المثال فإن المتعصب حين يعتقد أن القبيلة الفلانية أو الجماعة قبيلة أو جماعة منحطة في نسبها أو سجلها التاريخي أو مكانتها الاجتماعية الحاضرة، فإن نظرته إلى تصرفات أفرادها وأحكامه عليهم ومشاعره نحوهم، تتجسد في النظرة الدونية، فهم غير جديرين بالتفوق الظاهر، وإذا نال أحدهم منصباً كبيراً نظر إليه على أنه أصغر

من أن ينال ذلك المنصب، وإذا طالب بحق ثابت له، رأى أنه يبالغ في طلب ذلك الحق، وإذا حدثت سرقة أو جناية أو وقعت فعلة شنيعة ولم يُعرف مرتكبها فإن المتعصب يتهم واحداً من أبناء تلك القبيلة –لا على التعيين– بفعل ذلك، ويبعد التهمة عن أبناء القبائل الشريفة والرفيعة، وحين يقع ظلم على رجل ينتمي إلى قبيلة وضيعة فإن المتعصب لا يجد في نفسه الحماسة للدفاع عنه ومناصرته، ربما لأنه يعتقد أنه لا يُعقل أن يكون مظلوماً، أو يعتقد أن من المؤكد أنه هو الذي تسبب في إيقاع الظلم على نفسه، ويحاول المتعصب الابتعاد في معاملاته وعلاقاته الاجتماعية عن أفراد القبيلة المنحطة وذلك خوفاً من العار أو الأذى أو الخيانة، وينظر إلى ابن القبيلة المنحطة على أنه غير موثوق في كلامه، ويفسر الغامض منه تفسيراً سيئا، كل ذلك يتم من خلال الرؤية الإجمالية، ومن غير أدلة وبراهين يمكن الاعتماد عليها، وهذا يشكل في الحقيقة نوعاً من التمييز الشبيه بالتمييز العنصري، فالتعصب يقسِّم أبناء الملة الواحدة إلى طبقتين متمايزتين: طبقة القبائل النبيلة ذات الحسب والنسب والتفوق والشرف، وطبقة القبائل الدنيئة الوضيعة التي لا تمت إلى المكرمات بأي صلة! وهذا من الحيف والظلم والبخس الذي تمقته الشريعة الغراء، وللأسف أصبح هذا حال مجموعة من الجماعات العاملة في حقل الدعوة تجاه الجماعات الأخرى[1].

إن المتعصب لشيء أو ضده يتسم بالعاطفة الشديدة والميل القوي، فهو في حالة التعصب لقومه أو منطقته أو جماعته أو وطنه أو أفكاره.. لا يرى فيما يتعصب له إلا الإيجابيات والمحاسن، وفي حالة التعصب ضد أي شيء فإنه لا يرى إلا المعايب والسلبيات، وهذا يعني أن المتعصب مصاب بعمى عن الحقيقة، وهو إنسان غارق في أهوائه وعواطفه، على مقدار ضعفه في استخدام عقله، ولا يعني ذلك أنه لا يفكر، إنه

١– التعصب للدكتور عبد الكريم بكار، نقلاً عن موسوعة البحوث والمقالات العلمية، وانظر: مقالات وبحوث الدكتور عبد الكريم بكار للشحود ١/١٩٠.

يفكر، ولكن الأفكار التي تتمخض عن تشغيل عقله يتم إنتاجها في إطار العواطف الجامحة التي لديه، وتكون مهمتها الأساسية ليس ترسيخ الاعتدال والإنصاف، وإنما التسويغ للميول والعواطف العمياء التي تغلي في صدر الإنسان المتعصب!

والإنسان المتعصب بعد هذا وذاك إنسان عجول، يُصدر الأحكام على الناس من غير فحص للأدلة والبراهين والأسس التي تقوم عليها تلك الأحكام، إنه مع قومه فيما يحبون ويكرهون، ومع جماعته فيما تقدم عليه، وفيما تحجم عنه، وهم في كل ذلك على صواب، ولا يحتاج ذلك إلى أدلة[1].

علاج التعصب

١- التعصب ليس شيئاً وراثياً، لكنه يُكتسب، ويُتعلم من البيئة المحيطة، وهذا يعني أن الإنسان كما يتعلم التعصب، يمكنه أن يتعلم التساهل والتسامح، وقد دلت الكثير من البحوث والدراسات على أن الشعوب والجماعات تتغير اتجاهاتها عبر الأجيال، كما تتغير أنماط التفكير لديها، فالإنسان كائن يتعلم باستمرار، لكن الخلاص من العيوب لا يتم عن طريق المصادفة، وإنما عن طريق القصد والتخطيط والمجاهدة.

٢- للتخلص من أي ظاهرة نحتاج إلى تركيز الضوء عليها، بل نحتاج في الحقيقة إلى تشريحها، وظاهرة التعصب من الظواهر الشديدة التعقيد؛ لأنها تقوم على عقائد وأفكار ومفاهيم راسخة ومترابطة، وذات مسحة منطقية أو نصف منطقية، ومن الواضح أن التعصب يشكل نوعاً من حب الذات، ويشتمل على درجة كبيرة من الأنانية والتمحور حول النفس، وذلك لأن المرء يحب الذين يشبهونه، وينفر من الذين يتبين له أنهم مغايرون له، وهذا ينم عن غفلة شديدة أو وعي زائف، أو نفس مريضة!

١- المصدر السابق ١/١٨٩، ١٩٠.

٣- العودة إلى المعيار الإسلامي في التفاضل، وهو الاستقامة والنفع العام والتفوق في الأداء، ونشر هذا المعنى على أوسع نطاق.

٤- تقوية الوازع الديني، والذي يدعو إلى التوقي من ظلم الناس، وإلى تدعيم التفكير الموضوعي والمحاكمة العقلية العادلة لدى الناشئة، وهذا من مسؤوليات الأسر في البيوت، ومن مسؤوليات المدارس والجامعات وكل المرافق التربوية ووسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية.

٥- تحقيق الوسائل التي تساعد على الاتصال الفعال ومنها:

أ- الحوار وتبادل الأفكار، ومناقشة القضايا والمشكلات التي تثير التعصب، والحوار وإن كان أشبه بفتح جرح التأم على فساد، وفتح الجرح مؤلم، ولكن حتى نطهره لا بد من تحمل الألم.

ب- تبادل الأنشطة ويتم اختيار الأكفأ للتمثيل بقطع النظر عن لونه وعرقه.

ج- التعليم الذي له دور أساسي في التخفيف من مشاعر التعصب عن طريق الاتصال الفعال، وقد قامت بعض الدول التي تعاني من العنصرية باتباع سياسات تعليمية بناءة في هذا المجال، وعلى سبيل المثال فقد كُلف الطلاب بإجراء بحوث متنوعة على أن يقوم بعض الطلاب السود بكتابة جزء من البحث، ويقوم الطلاب البيض بإكماله أي لا يكتمل البحث إلا من خلال تبادل المعلومات والتحدث حول منهج البحث بين الطرفين.

د- عدالة القوانين؛ لأن التمييز الأجوف يأتي من وراء القوانين الظالمة التي تمنح فئة أو فئات من الشعب امتيازات دون غيرهم، فتحقيق العدل يدفع في اتجاه الإخاء، والظلم يدفع في اتجاه التعصب والتنابذ والعدوان، وهذه حقيقة راسخة يجب أخذها بعين الاعتبار.

٦- تسليط وعي الناس على التناقضات الأخلاقية التي سببها لهم التعصب؛ إذ أن كثيراً من الذين يتعصبون ضد غيرهم يؤمنون بالعدل والمساواة وكرامة الإنسان، ويحفظون الآيات

والأحاديث والأقوال التي تدل على ذلك، لكن الكثير منهم لا يستفيدون منها شيئاً، وهم من وجه آخر يحبون من غيرهم أن يعاملهم على أنهم بشر أسوياء محترمون، لكنهم لا يفعلون ذلك مع الآخرين، فتوعية الناس بهذه المعاني على نحو مستمر، قد تساعد فعلاً في تخفيف حدة التعصب.

٧- نشر الروح الإيجابية والتفكير الإيجابي، إذ أن على المسلم أن يركز على رؤية الإيجابيات، وعلى ما لدى الناس من فضل وخير، ويتعلم غض الطرف عن النقائص والهفوات، فذلك أسلم لقلبه وأفضل لدينه، وأعون له على مواجهة مشاق الحياة.

إن التعصب مرض عُضال مزمن، عانت منه البشرية على امتداد تاريخها الطويل، وما زالت تعاني، وستظل تعاني، ولهذا فإن طلب استئصال شأفته قد يكون من الصعوبة بمكان، ولذا كان من اللازم العمل على التخفيف من لأوائه، وهذا يحتاج إلى علاجات مركبة وعلى النفس الطويل[١].

التعصب والعمل الإسلامي[٢]

من أخطر الأمراض التي تهدد الدعوة الإسلامية وتعوق مسيرتها: مرض التعصب، الذي يسبب في الأخير تأخير امتداد صحوة الإسلام، وتزهيد الناس في الالتزام، فيكون بذلك الحالقة التي تحلق العلاقات والأواصر بين المسلمين العاملين في هذا السبيل المبارك، وربما تحلق الدين، وهذا يستوجب وقفة متأنية أمام هذا المرض الخطير لرصد مظاهره، وبيان آثاره وأسبابه، ورسم الطريق لعلاجه.

١- التعصب لعبد الكريم بكار، انظر: موسوعة البحوث والمقالات العلمية، ومقالات وبحوث عبد الكريم بكار ١٩٢/١، ١٩٣.

٢- انظر للموضوع: التعصب الممقوت وآثاره على العمل الإسلامي لوصفي عاشور أبو زيد مجلة البيان ٨/٢٢٣، والتعصب المذهبي في التاريخ ص٢٧٤، ٢٧٥ نقلاً عن سلسلة الهدى والنور للألباني ٣٢٢/١، ٣٢٠، وأدب الطلب ص٩١.

أولاً: مظاهر التعصب في العمل الإسلامي:

للتعصب الممقوت الذي ابتلي به بعض العاملين في ساحة العمل الإسلامي مظاهر متعددة منها:

١- أن الذي يعمل في دعوة أو مع حزب أو جماعة يرى أنه هو الذي على الحق، وأن غيره على الباطل، مهما كان بينهم من كثرة في نقاط الاتفاق، ومهما كان بينهم من قلة في نقاط الاختلاف قال الإمام ابن القيم في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣]: «جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون، ورؤوس أموالهم التي بها يتاجرون»(١).

٢- أن الذي يسلك سبيل الدعوة الفردية مع آحاد المسلمين يفاجئه أصحاب اتجاهات أخرى يخطفون منه هذا المدعو، ويتقاتلون عليه بحجة أن الطرف الآخر سوف يضله ويغويه بما عليه هو من غواية وضلال، وتكون النتيجة أن يترك المدعو هذا الميدان تماماً؛ لما يراه من فرقة واختلاف بين هؤلاء الدعاة.

٣- تحويل المساجد -بيوت الله- التي بنيت للتوحيد والعبادة وذكر الله تعالى والتجمع والتصافي والتوحُّد بين المسلمين إلى ساحات شجار وتراشق بسبب قضايا فرعية خلافية، لم ينته الخلاف فيها سابقاً، ولن ينتهي الخلاف فيها لاحقاً، والله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾[الجن:١٨]، فأضاف ﷻ المساجد إلى ذاته إضافة تشريف وتكريم، وذلك يلزم الاختصاص، ثم أكد ذلك الاختصاص بقوله: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾(٢).

١- إعلام الموقعين ١/٧.

٢- انظر: التفسير الكبير ٤/١١، وأضواء البيان ٨/٣٢١، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/٣٢٠، وتفسير القرطبي ١٩/٢٠.

٤- أن ينتصر المسلم لجماعته أو حزبه أو دعوته أو مذهبه أو مدرسته بالحق والباطل؛ فهي الحق على طول الخط حتى لو فعلت المنكرات البينات، وينتصر من غيرها دائماً حتى لو نصرت المحكمات الواضحات.

٥- أن بعض المسلمين يرى مدرسته التي ينتمي إليها مقدسة، ورجالها ملائكة معصومين، وتاريخها كله خالياً من الأخطاء مبرأً من العيوب، ولا يذكر لها إلا الحسنات والميزات حتى لو أتت أفعالاً تسببت في تأخر الإسلام وصحوته حيناً من الدهر، في حين يرى غيرها من المدارس والجماعات مدخول العقيدة، سيئ المنهج، مُجرَّح الرجال، أسود التاريخ، ضيق الأفق، مضمحل الفهم، متحلل الفكر، ولا يذكر لها إلا السيئات والعيوب حتى لو كان لها في انتشار الإسلام أيادٍ بيضاء.

وما أحسن ما قاله الإمام الشوكاني في تفسيره عن المتعصب: «والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً فبصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق؛ غفلةً منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقِّي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم، وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع؛ فإنه صار بها باب الحق مرتجّاً، وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله ﷻ والهداية منه.

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح»[1].

٦- أن هذا الفريق لا يعجبه علماء الفريق الآخر حتى لو صدع بالحق؛ بينما إذا تبين خطأ علمائه هو التمس لهم العذر وهوَّن من ضلالهم في القول والفتوى؛ فعلماؤه مبرؤون حتى لو ضلوا وأضلوا، وعلماء غيره مدانون حتى لو كان لهم الفضل في رفع كلمة الإسلام

١- فتح القدير ٢/٢٤٣.

زمناً ما، ونسي هؤلاء وأولئك هيبة العلماء، وأن القضايا العلمية الكبيرة لا شأن للصغار بها، وأن لحوم العلماء مسمومة، وهذا المظهر للأسف ربما وجدناه عند بعض العلماء أصحاب الاتجاهات والانتماءات المختلفة.

٧- ربما تعاون أبناء فصيل معين من الدعاة وتحالفوا مع عدو خارجي من أعداء الإسلام لضرب فصيل آخر مسلم عامل في الساحة، ليعملوا سوياً على إذهاب ريحه، وإنهاء وجوده؛ حتى يخلو لهم الجو، وتفرغ لهم الساحة؛ ليمارسوا دعوتهم في جوٍّ آمن من التراشق والمضايقات، خالٍ من التنافس والمشاحنات[١].

ثانياً: أثر التعصب على العمل الإسلامي

من البديهي أن يكون لهذه المظاهر آثار مدمرة على كل المستويات سواء على مستوى الدعوة الخاص، أو مستوى الإسلام العام، ومن أبرز هذه الآثار ما يلي:

١- تأخر وتخلف الحركات بهذا التعصب؛ لأنه -وقد رآها أصحابها معصومة فوق النقد والمراجعة- سوف يقفز الزمان عليها ويتخطاها بأزمان ليرتاد آفاقاً غيرها بما مات فيها من نقد ذاتي يحيي الحركات والدعوات، ويقوي ضعفها ويشد على أيديها.

٢- الكراهية والتدابر والتحاسد والتباغض الذي سيسري بين أبناء الدعوة الإسلامية من جراء هذه المراشقات، ونتيجة تلك الاختلافات الفرعية، وهو أمر يوقع في مخالفة نصوص متفق عليها مثل حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا"**[٢]، وحديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول

١- والذي يمعن النظر في الواقع لا يستغرب هذا الكلام.

٢- رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ٥/٢٢٥٣ برقم: ٥٧١٧، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها ٤/١٩٨٥ برقم: ٢٥٦٣

الله ﷺ: "لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ"[١].

٣- إيقاع الوهن والتفكك في جسد الدعوة الإسلامية، وربما تعدى ذلك إلى عموم المسلمين، وهو ما يوقع أيضاً في مخالفة نصوص صريحة متفق عليها أبرزها حديث النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[٢]، وما رواه جابر ﷺ عندما قال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي ﷺ فقال: "مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ"[٣].

٤- تزهيد الناس في الالتزام بالإسلام، أو الالتزام مع هذه المدارس والمذاهب للعمل للإسلام؛ لما يرونه من تراشق وتشاحن، هذا يحارب ذاك وينشر عنه الافتراءات والأكاذيب ويكيد له، وذاك يتهم هذا ويتمنى له الخطأ ويُسمِّع به، فيقف الجمهور المسلم في حيرة: أيهم على صواب، وأيهم على خطأ، ولماذا كل هذا، وفي صالح من هذا؟ وربما تعدى هذا التزهيد إلى الإسلام ذاته فيتشكك الناس في الإسلام؛ فهل منهج الإسلام السمح وشريعته الغراء وتشريعه الوسطي يفرِّخ هذا التعادي والتحاقد، ويولِّد هذا التنافر والتباغض؟

٥- الانكفاء على قضايا الداخل الذاتية الصغرى، وإهمال القضايا المصيرية الكبرى التي تتعلق بواقع الأمة ومستقبلها؛ لأن جميع الفصائل مشغولة بكيفية انتصار بعضها على

١- رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ٥/٢٢٥٣ برقم: ٥٧١٨، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر ٤/١٩٨٢ برقم: ٢٥٥٨.

٢- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٤/ ١٩٩٩ برقم: ٢٥٨٦.

٣- رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية ٣/١٢٩٦ برقم: ٣٣٣٠، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما ٤/١٩٩٨برقم: ٢٥٨٤.

بعض، ناسين أو متناسين الأخطار المحدقة بالأمة التي توجب عليهم أن يتكاتفوا لينتصروا عليها وما أكثرها[١].

٦- طمع الأمم في أمة الإسلام؛ لأنها أصبحت أمة ضعيفة الجسد، مترهلة البنيان، ليست جسداً قوياً، ولا بنياناً مرصوصاً، ومن ثَم فالدائرة تدور عليها؛ لأن السنن الإلهية الجارية لا تحابي أحداً، فالأمة القوية التي تأخذ بأسباب القوة والنصر والوحدة ينصرها الله ولو كانت كافرة فاجرة، والأمة الضعيفة التي تهمل أسباب القوة والنصر يخذلها الله ولو كانت مؤمنة تقية.

٧- ومن الآثار الخطيرة التي تدخل على آخرة المسلم بالخراب والبوار هو كسب السيئات التي يجنيها المسلم من وقوعه في عرض أخيه الذي ينتمي إلى غير مذهبه وجماعته بالهمز واللمز، والغيبة والنميمة، والسخرية والاستهزاء، وأكله للحوم العلماء في الطوائف الأخرى، وغير ذلك من أبواب السيئات.

٨- معاداة من لا ينتمي إلى نفس التوجه والتكتل، فيعادون من لم يكن في تكتلهم وفي منهجهم، ولو كان أخاً مسلماً صالحاً، فهم يعادونه؛ لأنه لم ينضم لهذا التكتل.

٩- الهيمنة الفكرية وعدم إعطاء الحرية للأفراد: إذ يفرض على كل فرد من الأفراد أن يتبنوا أي رأي تتبناه الحركات مهما كان هذا الرأي، وإذا لم يقتنع ذلك الفرد بذلك الرأي فهو بين تهميش وتحذير منه وإقصاء وطرد ولعن وغضب.

ثالثاً: أسباب التعصب في العمل الإسلامي

لا شك أن خلف كل دخان ناراً، ولكل داء دواء؛ فإذا تم تشخيص الداء والوقوف على أسبابه سهل علينا وصف الدواء، فوضع اليد على الأسباب هو نصف طريق العلاج كما يقولون، ومن أهم أسباب هذا التعصب الممقوت ما يلي:

١- فإذا ما وقع الخطر كان الجميع لقمة سائغة؛ فلا عدة لهم ولا عتاد؛ لأنهم لم يستعدوا لذلك بالإعداد الذي ينجيهم.

١- اتباع الهوى والإعجاب بالرأي: وهو من أسباب التعصب القوية؛ فمن لم يتبع الكتاب والسنة، وأُعجب برأيه، فلن يتبع الحق مهما ظهر بدليله؛ لأن طبيعة متبع هواه والمعجب برأيه إذا علم أن رأيه خطأ ألا يتنازل عنه ولا يعترف بالحق، بل يتمسك بخطئه، ويزداد عناداً وإصراراً عليه، وإذا علم أن رأي غيره صواب فلا يعترف به حتى لو كان واضحاً وضوح الصبح لذي عينين.

٢- تحقيق مآرب شخصية ومصالح دنيوية، وهذا السبب يقتصر على الذين يلتحقون بالحركات العاملة لتحقيق مآرب شخصية، ومصالح نفعية، وأهداف دنيوية، كالطبيب الذي يريد أن يوسع دائرة مرضاه، والمحامي الذي يريد أن يكسب ثقة الناس حتى يتشاكوا إليه، والعالم الذي يريد أن يوسع دائرة شهرته ليجد لإنتاجه وكتبه وخطبه مريدين وقراءً ومستمعين وهكذا... فهذا الشخص لن ينظر إلى الحق والباطل، ولا إلى الخطأ والصواب، إنما هو ينصر الاتجاه الذي انتمى إليه ويتعصب له؛ من أجل تحقيق مآربه ومصالحه بصرف النظر عن قضية الحق والباطل، وبعيداً عن تصحيح المسار والنقد الذاتي والتقويم النفسي؛ لأن هذا ليس هو أكبر همه، وربما أبدى اهتمامه بذلك أحياناً ليبين مدى تفانيه في العمل، وإرادته الخير لما انتمى إليه من مذهب، ولكن هذا كله لا يلبث أن يظهر مع العقبات، وسرعان ما يزول مع الابتلاءات التي يمتحن بها أهل الدعوات: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الرعد:١٧].

٣- الجهل بمذاهب الفقهاء، وهذا سبب من أكبر أسباب التعصب الممقوت، وهو سبب رئيس من أسباب التناحر والتباغض والتنافر والتدابر بين أبناء الدعوة الإسلامية؛ إذ أن عدم الاطلاع على مذاهب الفقهاء وآرائهم في مسألةٍ ما يؤدي إلى التعصب لمذهب بعينه؛ لأنه لا يعلم سواه، ومن ثَم ينظر لمن يخالفه على أنه جاهلٌ لا علم له، وعلى أنه

مخالف للسنة والهدي النبوي، في حين أنه لو اطلع على المذاهب الأخرى لعلم أنها قضية خلافية يسعهم فيها ما وسع الأئمة الكبار من قبلهم، ولعل هذا النوع من الجهل هو أهم أسباب المشاحنات والمشادات في المساجد التي تمتلئ عند المسلمين بالاختلاف؛ نتيجة الجهل المطبق بالأحكام الفقهية الفرعية العملية، والحل لهذا هو الاطلاع الفقهي الواسع على مثل ذلك، مع الرد في المختلف فيه إلى الكتاب والسنة والإجماع الثابت، والإنكار يكون فيها بإبراز الحجج العلمية، والالتزام بأدب الخلاف، مع مراعاة الحال والواقع..

٤- اتباع الأشخاص والهيئات، وعدم الإذعان للحق بدليله؛ فمن يتبع شخصاً أو حزباً أو جماعة أو دعوة أو مؤسسة، ويرى أنها لا تخطئ في العمل أو تضل في الرأي، يتعصب لها تعصباً شديداً، ويحمل حملة لا هوادة فيها على من يحاول نقدها أو تصحيح وتقويم مسارها حتى لو كان من أبنائها، وكذلك إذا وثق في علم عالم، ورجاحة عقله وفقهه للنص الشرعي وإدراكه للواقع العملي، فإنه يرى أنه لا ينطق عن الهوى، ولا يفتي إلا بالحق، ولا يقول إلا الصدق، ولا يقع منه زلل في القول أو العمل، ولا يصدر عنه خطأ في الفتوى أو الحكم، ولا يُظن به خطأ في الرأي أو التصور، ومن ثم لا يجري عليه ما يجري على البشر، في حين أنه لم توجد -على امتداد التاريخ- هيئة أو مؤسسة أو جماعة إلا ولها أخطاؤها وإخفاقاتها، ولم ولن يوجد عالم إلا وله زلاته وكبواته، ويأبى الله إلا أن تكون العصمة له ولكتابه ورسوله، ولهذا وصف الإمام ابن القيم أهل العلم والعدل والقسط بكونهم: «زاهدين في التعصب للرجال، واقفين مع الحجة والاستدلال، يسيرون مع الحق أين سارت ركائبه، ويستقلون مع الصواب حيث استقلت مضاربه، إذا بدا لهم الدليل بِأُخْذَتِهِ طاروا إليه زَرَافَاتٍ ووحداناً، وإذا دعاهم الرسول إلى أمر انتدبوا إخراج المتعصب عن زمرة العلماء إليه، ولا يسألونه عما قال برهاناً»[1].

١- إعلام الموقعين ١/٦، ٧.

رابعاً: علاج التعصب في العمل الإسلامي

لم يَعُد خافياً على كل ذي نظر عميق وفهم دقيق، ملامح العلاج وأهم معالمه؛ فبالإضافة إلى تلافي الأسباب يكون العلاج بالآتي:

١- الفهم السليم لطبيعة العمل في فصائل الدعوة الإسلامية، وهو أن كل الفصائل والحركات -التي يجوز العمل من خلالها- مكملة لبعضها، ومتعاونة ومتضافرة فيما بينها، وليست متنافرة ولا مختلفة، الكل يبغي نصرة الإسلام، وإعلاء كلمته ورفع رايته، ومن ثَم فلا يضير أن تقوم دعوة من الدعوات أو حركة من الحركات تهتم بالعمل الخيري، وأخرى تهتم بجمع الناس في المساجد وحشدهم لفعل الخير، وأخرى تهتم بالعمل العام، وأخرى تُذكِّر بقضايا الأمة الكبرى، وأخرى تهتم بالعمل الاقتصادي أو السياسي، وهكذا... فلا تنكر هذه على تلك، ولا تنقم تلك من هذه،؛ لأنهم فهموا أنهم متعاونون على نصرة الإسلام وجمع كلمة المسلمين، فلن يعيب بعضهم على بعض التقصير في جانب دون جانب.

الفهم الصحيح نعمة

إن الفهم نعمة عظيمة بها تُحل كثير من المشكلات، وتزال العديد من العقبات، فلا غرو أن امتن الله بها على سليمان حين قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾[الأنبياء:٧٩].

وكان من وصية عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري -رضي الله عنهما-: «ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ليس في قرآن ولا سنة»[١].

قال الإمام ابن القيم في شرحه لوصيه عمر لأبي موسى رضي الله عنهما: «وَقَوْلُهُ: (فَافْهَمْ إِذَا أَدْلَى إِلَيْك) صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على

١- رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب لا يحيل حكم القاضي على المقضي له والمقضي عليه ولا يجعل الحلال على واحد منهما حراما ولا الحرام على واحد منهما حلالا ١٠/١٥٠ برقم: ٢٠٣٢٤.

عبده، بل ما أُعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أُمِرْنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة، وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد وتحري الحق وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادتَه اتباعُ الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى»[1].

٢- الخضوع التام لأحكام الشرع الحكيم، والتسليم المطلق له في كل ما يقرره.

٣- التزام جميع أبناء الجماعات والحركات بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وجعلهما الدستور والإمام والقائد والمرشد والهادي في جميع شؤون الحياة قولاً وعملاً، وتربية الأفراد عليهما.

٤- أن يكون الجميع مع الدليل في جميع موارده ومصادره، لا يثني عنه شيء، ولا يحول بينهم وبينه حائل.

٥- التزام منهج السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين والسير عليه.

٦- الرد في الخلاف الفروعي إلى الله تعالى -أي: إلى كتابه- وإلى رسوله ﷺ أي: إلى سنته؛ لأن الله تعالى لم يتعبدنا باتباع أحد من البشر، وإنما تعبدنا باتباع كتابه وسنة نبيه ﷺ، فإذا ما تعارضت أقوال البشر وأفعالهم مع الشرع رُفضت مهما كان قائلها، وإذا ساغ فيها الاجتهاد بأن كان الخلاف قوياً غير ضعيف ولا شاذ ولا زلل فيه ولم يخالف نصاً

١- إعلام الموقعين ١/٨٧.

واضحاً أو إجماعاً ثابتاً فلا إنكار بالقول الغليظ والخشن ولا باليد لما يراه كل واحد خلاف المترجح عنده، بل يبقى الإنكار بالحجج العلمية، وإقامة الأدلة والبراهين، مع احترام الاجتهاد الآخر.

٧- التزام الجميع بأصول الإسلام وفرائضه، والتفريق بين الأصول والفروع، والفرائض والنوافل، وفقه النسب بينها، واتفاقهم على معنى ومفهوم ذلك كله.

٨- التجرد في الوصول إلى الحق والعمل به، وإخلاص النية وضبطها ما أمكن، وهو ما سوف يقطع الطريق على الشيطان وأهواء النفس أن تضل أو أن تطغى، ما دام بغيتها الوصول إلى الحق بدليله، والانغماس في العمل بعيداً عن النقاشات الحادة والجدال الذي لا يأتي بخير.

وما دام العاملون يتميزون بالإخلاص والتجرد في طلب الحق فلن يتردد أحدهم في اتباعه متى ظهر حتى لو كان على لسان غيره من الاتجاهات أو الحركات.

٩- الحذر من الاستبداد بالرأي، وإتاحة الحرية للاجتهاد والتفكير، فقد كان الأئمة رحمهم الله يبذلون أقصى جهودهم للوصول إلى الحق في المسائل الاجتهادية، ومع هذا لم يكونوا يقطعون بأن اجتهادهم هو مسك الختام والأمر الذي لا يجوز خلافه قطعاً، بل كانوا يحتاطون احتياطاً لازماً عند إبداء آرائهم في المسائل، ويخافون في ذلك مخالفة النصوص الصريحة من الكتاب والسنة، ولأجل هذا نصوا على الرجوع إلى السنة عند ظهور مخالفتهم إياها، وأوصوا تلاميذهم وأصحابهم بترك أقوالهم المخالفة لها، وهي مستفيضة في مكانها، وكذلك لا يتصور أن إماماً من الأئمة الأعلام مهما بلغ من العلم والحفظ والضبط والإتقان والفضل والوجاهة يستقل بالحكم على الشيء ويستبد برأيه ويفرضه على الآخرين فرضا، والله عز وجل يقول: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ

عَلِيمٌ ﴾[يوسف:٧٦] وقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٨٥].

لقد كان الأئمة أبعد من أن يتصفوا بصفة الاستبداد بالرأي وفرضه على الآخرين، وكانوا يدورون حيث دار الحق بكل أمانة وإخلاص، فالحق ليس محصوراً في رأي أحد قطعاً إلا النبي المعصوم ﷺ، وما أحسن ما ورد عن الإمام أبي حنيفة من قوله عند الإفتاء: هذا رأي النعمان بن ثابت -يعني نفسه- وهو أحسن ما قدرت عليه، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب، ونقل عن الإمام الشافعي أنه قال: ما ناظرت أحداً إلا قلت: اللهم أجرِ الحق على قلبه ولسانه فإن كان الحق معي اتبعني وإن كان الحق معه اتبعته، وانطلاقاً من هذا المبدأ العادل من حرية التفكير وتقدير رأي الآخرين اختلف الأئمة فيما بينهم، واختلف أصحابهم معهم أيضاً، فقد اختلف أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني مع شيخهما الإمام أبي حنيفة حتى في الأصول-أصول المذهب-، قال السبكي: فإنهما يخالفان أصول صاحبهما، وقال ابن خلكان في ترجمة أبي يوسف: كان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة وخالفه في مواضع كثيرة، وقال إمام الحرمين الجويني: استنكف محمد بن الحسن وأبو يوسف عن متابعته في ثلثي مذهبه ووافقا الشافعي رحمهم الله في أكثر المسائل، وقال السيوطي: وكذلك ابن وهب وابن الماجشون والمغيرة بن أبي حازم ومطرف بن كنانة لم يقلدوا شيخهم مالكاً في كل ما قال بل خالفوه في مواضع واختاروا غير قوله، وكذلك القول في المزني وأبي عبيد بن حربويه وابن خزيمة وابن سريج فإن كلاً منهم خالف إمامه الشافعي في أشياء واختار فيها غير قوله، وهكذا أصحاب الإمام أحمد رحم الله الجميع.

قال الإمام محمد بن إسماعيل المعروف بالأمير الصنعاني بعد أن ذكر الكلام السابق في هذه الفقرة: «يتضح من هذا أن اجتهاد المجتهد ورأيه لا يمكن أن يكون بمثابة حكم الله عز وجل؛ ولو كان كذلك لما ساغ لأصحاب الأئمة أن يخالفوا آراء شيوخهم، وهكذا

كان الفقه الإسلامي في القرون المشهود لها بالخير في ازدهار مستمر ونمو متواصل وتقدم دائم، وكانت اجتهادات الأئمة بين الأخذ والعطاء والرد والقبول حتى في أوساط أصحابهم، إلى أن فشا التقليد في نصف القرن الرابع وبدأ التعصب المذهبي يبيض ويفرخ، ويصور الحكيم ولي الله الدهلوي ما حدث في الناس بعد المائة الرابعة قائلاً: ولم يأت قرن بعد ذلك إلا وهو أكثر فتنة وأوفر تقليداً وأشد انتزاعاً للأمانة من صدور الرجال، حتى اطمأنوا بترك الخوض في أمر الدين وبأن يقولوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٢]، وإلى الله المشتكى وهو المستعان وبه الثقة وعليه التكلان»[١].

وكان عبد الله بن أحمد بن حنبل يحكي عن أبيه أنه قال: «قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً؛ حتى أذهب إليه إذا كان صحيحا»[٢].

١٠- ضرورة الاطلاع على الخلاف الفقهي، وهي واحدة من أهم معالم طريق العلاج لهذه الآفة الخطيرة؛ فما أكثر المصارعات التي تحدث وسببها أن أحد الأطراف أو أغلبها لا يكون عالماً بأن القضية اجتهادية، وإنما كان الاطلاع على الخلاف الفقهي ضرورة؛ لأنه بدون هذا الاطلاع لن يكون هناك كبير اتفاق بين أبناء الدعوة، وسيظل العراك مشتعلاً، والشجار محتدماً، ووجه الصواب خافياً ما لم يتفقه العاملون في دينهم، ويتعمقوا في مصادر الشريعة ومواردها، وما لم يطلعوا على الخلاف الفقهي من مصادره المعتبرة بحججه وبراهينه، مثل كتب الفقه المقارن وكتب الأصول والقواعد، ولا يعني هذا أن الخلاف حجة

١- إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد لمحمد بن إسماعيل الصنعاني ص١٣- ١٦.

٢- تاريخ مدينة دمشق ٥١/٣٨٥.

في نفسه، إذ ليس وجود الخلاف في المسألة دليلاً على الجواز والمنع في حكم المسألة كما هو شأن البعض إذا ذكرت له حكم المسألة قال هي خلافية، وإنما يفيد عدم التعصب للرأي في المسألة؛ لأن وجود الخلاف فيها يُجري احتمال مرجوحية ما ذهبت إليه، وهذا ما جعل ابن القيم يقول: «ومن له قدم راسخ في الشريعة ومعرفة بمصادرها ومواردها، وكان الإنصاف أحب إليه من التعصب والهوى، والعلم والحجة آثر عنده من التقليد لم يكد يخفى عليه وجه الصواب»[1].

١١- الاحترام المتبادل ومراعاة أدب الخلاف، وهو مَعْلَم ينبثق عن سابقه مباشرة، ويترتب عليه؛ فإذا تم الاطلاع على الخلاف الفقهي، فينبغي الاطلاع على أدب الخلاف، وسيرة الفقهاء القدماء والمعاصرين الذين اختلفوا في الرأي مع بعضهم، وسيرة السلف الصالح، بل سيرة الصحابة أنفسهم، ولم يكن ذلك أبداً سبباً في إضعاف الحب بينهم، أو النيل من تقدير بعضهم لبعض، ولعلنا نحفظ العبارة التي رويت عن الأئمة: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، ومعنى «رأيي صواب»: أي لذلك قلت به وإلا فلا، ما دام يغلب عليه الظن بالصواب، ومعنى «ورأي غيري خطأ»، أي وإلا لقلت به ما دام يغلب عليه الظن بالخطأ؛ لأنه ليس هناك قطع بأفضلية أحد على أحد، وكل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا المعصوم ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولا أحد في الإسلام يجيب المسلمين كلهم بجواب عام أن فلاناً أفضل من فلان، فيقبل منه هذا الجواب؛ لأنه من المعلوم أن كل طائفة ترجح متبوعها، فلا تقبل جواب من يجيب بما يخالفها فيه، كما أن من يرجح قولاً أو عملاً لا يقبل قول من يفتي بخلاف ذلك، لكن إن كان الرجل مقلداً فليكن مقلداً لمن يترجح عنده أنه أوْلى بالحق، وإن كان مجتهداً اجتهد واتبع ما يترجح عنده أنه الحق، ولا يكلف

١- إعلام الموقعين ٤/٣٢.

الله نفساً إلا وسعها، وقد قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]، لكن عليه أن لا يتبع هواه، ولا يتكلم بغير علم، قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:٦٦]، وقال تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾[الأنفال: ٦]، وما من إمام إلا له مسائل يترجح فيها قوله على قول غيره، ولا يَعرف هذا التفاضل إلا من خاض في تفاصيل العلم»[1].

فانظر كيف كان عند كل واحد منهم احتمال وجود الخطأ في رأيه، وصواب رأي غيره، وهذا فيه من رحابة الصدر وسعة الأفق ما يمحو التعصب، ويهيئ المسلم لاتباع الحق والانصياع له متى ظهر بدليله، وهو من عظيم أخلاق العلماء وطلاب العلم، فضلاً عن العاملين في ساحة العمل الإسلامي.

١٢- أن يقوم على هذه التكتلات الدعوية مجموعة من العلماء العارفين العاملين المخلصين؛ لأن مشكلة الكثير من التكتلات الدعوية في العالم الإسلامي هي إما فقدها للعلماء الكثيرين إذ لا يكفي واحد أو اثنان أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة، وإما تهميشهم وإضعاف دورهم وكلمتهم.

١٣- إعطاء الحرية العلمية للأفراد: فينبغي على أي تكتل إسلامي صحيح أن يعطي للأفراد حريتهم العلمية.

١٤- أن يفهم أفراد كل التكتلات الإسلام فهماً صحيحاً في كل فروعه وأصوله، ويربون أنفسهم على ذلك.

١٥- الاهتمام الأكبر بالنوع لا بالعدد، فمن عيوب بعض التكتلات الدعوية الاهتمام الأكبر بالعدد لا بالنوع، فتجمع الغث والسمين، صحيح أن الجماعات الدعوة ليست

١- الفتاوى الكبرى ١/٤٨٢، ٤٨٣.

حكراً على أحد، لكن لابد أن يكون حملة هذه الرسالة ومن ينبري إلى ذلك على حظ وافر من الدين والخلق، بحيث يكون سلوكه وعمله وهيئته نموذجاً يُقتدى به، فيكون الشخص بذلك عضواً فعالاً ومؤثراً ومصلحا؛ لأن البعض ربما أفسد أكثر مما يصلح.

١٦- الحذر من الابتداع في الدين. ١٧- الموالاة في الله والمعاداة فيه.

١٨- التعامل الإيجابي مع تراثنا الإسلامي- على اختلافه وتنوعه- بأن ننظر إليه نظرة شمولية متوازنة نافعة، بلا إقصاء ولا إغماط، وبلا تقزيم ولا مبالغة، وبلا تعصب أعمى، فنستفيد من إيجابياته فنأخذ بها، ونعتبر بسلبياته فنتعلم منها ونتجنبها، بلا مخاصمات ولا مزايدات.

١٩- الحرص والسعي الجاد لإيجاد إرادة تغيير لدي السياسيين والعلماء والجماهير الإسلامية؛ لتقبل مشروع مقاومة التعصب الدعوي على مستوى الأفكار والمشاعر والأفعال، ويتم ذلك بناء على اتفاق مُسبق بين كل الأطراف المعنية.

٢٠- سؤال أهل العلم المنصفين عن دواء ما أصابه من التعصب؛ فإنه سيجد عندهم من الأدوية ما هو أسرع كشفاً وأقرب نفعاً وأنجع براً مما يجده العليل عند الأطباء.

٢١- تذكر البشرية وأن كل إنسان يخطئ ويصيب، ولا عصمة لأحد من البشر كائناً من كان، حتى العلماء والدعاة والقادة والأمراء؛ لأن كثيراً من الأتباع يعتقدون أن ما يقوله أميرهم وقائدهم وحزبهم وجماعتهم هو الحق الذي يجب اتباعه ولا يجوز الخروج عنه، ولو تيقنوا أن هذا القائد والأمير والعالم بشر يخطئ ويصيب لما سفه أحد غيره، وعظم صاحبه وحقر غيره، فهؤلاء الأئمة الأربعة أئمة الهدى ومصابيح الدجى أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد قد أرشدوا إلى اتباع الكتاب والسنة ورد ما وجد من أقوالهم يخالفهما مع تتبعهم الكبير للدليل وحرصهم على موافقته، ولم يأمروا بالتعصب لها؛ لعلمهم أن كل بشر يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم ﷺ.

قال الإمام محمد سعيد صفر المدني المحدث الحنفي في نظمه (رسالة الهدى):

وقول أعلام الهدى لا يعمل ... بقولنا بدون نص يقبل
فيه دليل الأخذ بالحديث ... وذاك في القديم والحديث
قال أبو حنيفة الإمامُ ... لا ينبغي لمن له إسلام
أخذ بأقوالي حتى تُعرَضَا ... على الكتاب والحديث المرتضى
ومالك إمام دار الهجرة ... قال وقد أشار نحو الحجرة
كل كلام منه ذو قبول ... ومنه مردود سوى الرسول
والشافعي قال إن رأيتم ... قولي مخالفاً لم رويتم
من الحديث فاضربوا الجدارا ... بقولي المخالف الأخبارا
وأحمد قال لهم لا تكتبوا ... ما قلته بل أصل ذلك فاطلبوا
فاسمع مقالات الهداة الأربعة ... واعمل بها فإن فيها منفعة
لقمعها لكل ذي تعصب ... والمنصوفون يكتفون بالنبي

إلى أن قال:

وقال بعض لو أتتني مائة ... من الأحاديث رواها الثقة
وجائني قول عن الإمام ... قدمته يا قبح ذا الكلام
من استخف عامدا بنص ما ... عن النبي جا كفرته العلما
فليحذر المغرور بالتعصب ... من فتنة برده قول النبي[1]

١- انظر: الإعلام بالكتب المؤلفة في أحاديث الأحكام ص٧٦، وجامع المقدمات العلمية لمهمات الكتب والمصنفات الشرعية ٨٣/٣.

فالعجب كل العجب ممن يغالون في أئمتهم ويعتقدون عصمتهم وهم بشر يتنخمون ويتعرقون ويخرج منهم الغائط الذي تأنف النفوس منه، ولقد أنكر الله تعالى على النصارى الغلو في عيسى بن مريم وأمه فقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المائدة:٧٥]، فقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ﴾ كناية عن قضاء الحاجة؛ لأن من يأكل الطعام يحتاج إلى التغوط، ومن كان كذلك فكيف يُجعل إله يعبد، فانظر إلى إنكار الله تعالى عليهم الغلو في البشر وتأليههم، وإنما عصم الأنبياء لا لعملهم الغيب، وإنما لتسديد الوحي لهم، وأما هؤلاء الأئمة من البشر فلا عصمة لأحد منهم؛ لأن الوحي، قد انقطع ومن ادعى أن أماماً معصوماً فقد أعظم على الله الفرية، وأتى بإفك عظيم.

٢٢- سعة القلوب والعقول وتقدير اجتهادات الآخرين، وأن يشتغل كل منا بعيوبه وسلبياته، وتحسين الظن بالآخرين؛ وإجابة الدعوات والإكثار من الزيارات، واللقاءات الدورية، والندوات المشتركة، والاجتماعات التي تقرب من وجهات النظر، والتثبت من أي كلام يسمع، وما صح من المنقول إلينا علينا أن نحمله على أحسن وجه، والعفو والصفح عن الزلات، والحذر من الغيبة، ومنع الأتباع من نقل الأخبار عن الغير، وكل ذلك سبق بيانه في علاج التفرق.

أخيراً: فإن التغلب على التعصب الممقوت وآثاره هو مسؤولية الجميع داخل وخارج تيارات أبناء الدعوة الإسلامية؛ فإن العلماء والفقهاء والدعاة المنتمين لهذه التيارات وغير المنتمين لها مدعوون لتفعيل القيم الإسلامية سالفة الذكر؛ لحماية الدعوة، وتحقيق أهدافها، إضافة إلى قيم الشورى، والعمل الجماعي، وأن يقتنعوا بأن تضمينها في المناهج التربوية يعد

من الوسائل الناجعة في مغالبة التخلف والجمود والظلم لأمتنا، وأن يحثوا الأمة على ذلك، وتجدر الإشارة إلى أن هناك الكثير من أبناء الدعوة الإسلامية في مختلف فصائلها يدركون أبعاد العمل الإسلامي ومراميه، ويفقهون القضايا الخلافية مطلعين على آراء الفقهاء، فاهمين طبيعة العمل ضمن فصائل الدعوة المتعددة، متخلقين بأخلاق الإسلام من آداب الخلاف، واحترام لآراء الغير، واستعداد لقبول الرأي الآخر متى كان حقاً[١]، لكن العمل العمل والتنفيذ التنفيذ، والحذر من الطرف الآخر لهذه التيارات.

فلابد من نبذ التعصب بكل أنواعه وطرقه ووسائله، والتمسك بأخوة الدين وحبل الله المتين، والحمد لله رب العالمين.

١- انظر للموضوع: وأدب الطلب للشوكاني ص٩١، والتعصب المذهبي في التاريخ ص٢٧٤، ٢٧٥ نقلاً عن سلسلة الهدى والنور للألباني، والتعصب الممقوت وآثاره على العمل الإسلامي لوصفي عاشور أبو زيد، مجلة البيان، العدد ٢٢٣، ربيع الأول، ١٤٢٧هـ.

المبحث الخامس: الخروج والإعراض

وفيه مطلبان:

المطلب الأول:

وفيه السبب السابع وهو الخروج بالسلاح.

المطلب الثاني:

وفيه السبب الثامن وهو الإعراض عن شكر النعمة.

المطلب الأول: الخروج بالسلاح

لقد شدد الرسول ﷺ في عدم الخروج بالسلاح؛ لأن الخروج بالسلاح يشعل ويثير فتيل الفتنة، والضرر المترتب على الفتنة كبير جداً، وذو مفسدة عظيمة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا"[١]، وفي رواية لأبي موسى: "مَنْ شَهَرَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ"[٢]، وفي رواية: "مَنْ سَلَّ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا"[٣] وعن أبي بكرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "إِذَا الْمُسْلِمَانِ حَمَلَ أَحَدُهُمَا عَلَى أَخِيهِ السِّلَاحَ فَهُمَا عَلَى جُرُفِ جَهَنَّمَ، فَإِذَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ دَخَلَاهَا جَمِيعًا"[٤]، وعن الأحنف بن قيس قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل-علي بن أبي طالب ﷺ- فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد؟ قلت: أنصر هذا الرجل، قال: ارجع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ"[٥]، وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ

١- رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا" ٦/٢٥٩١ برقم: ٦٦٥٩، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا" ١/٩٨ برقم: ٩٨.

٢- رواه ابن ماجه، كتاب الحدود، باب من شهر السلاح ٢/٨٦٠ برقم: ٢٥٧٧، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢/٨٥ برقم: ٢٠٩٠.

٣- رواه الدارمي، كتاب السير، باب من حمل علينا السلاح فليس منا ٢/٣١٥ برقم: ٢٥٢٠، قال حسين سليم أسد: «إسناده صحيح».

٤- رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ٤/٢٢١٣ برقم: ٢٨٨٨.

٥- رواه البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] ٦/٢٥٢٠ برقم: ٦٤٨١، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ٤/٢٢١٣ برقم: ٢٨٨٨.

بِالسِّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ"[١]، وفي رواية: "لَا يَمْشِيَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنْ نَارٍ"[٢]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو القاسم ﷺ: "مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ"[٣].

وقال ابن الزبير: «من رفع السلاح ثم وضعه فدمه هدر»[٤]، قال الإمام المناوي: «أي: من أخرجه من غمده للقتال، وأراد «بوضَعَه» ضَرَب به، ذكره الديلمي وابن الأثير»[٥]، وقال الفيروز أبادي: «أي: قاتل في الفتنة، وليس معنى قوله: (ثم وضعه) أنه وضعه من يده»[٦]، وتأوله الفضل بن موسى على وضعه إياه في الذي شهره عليه وصححه الطحاوي[٧].

فهذه الأحاديث تنهى عن حمل السلاح على المسلمين لقتالهم به بغير حق، كالقتال للعصبية، والقبيلة، والمناطقية، ونحو ذلك من أمور الدنيا؛ لما في ذلك من تخويفهم، وإدخال الرعب عليهم، ونزغ الشيطان بينهم، وكأنه كنى بالحمل عن المقاتلة أو القتل؛ للملازمة الغالبة.

١- رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا" ٦/٢٥٩٢ برقم: ٦٦٦١، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم ٤/٢٠٢٠ برقم: ٢٦١٧.

٢- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ ١٣/٥٢٧ برقم: ٨٢١٢، قال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

٣- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم ٤/٢٠٢٠ برقم: ٢٦١٦.

٤- رواه النسائي، كتاب تحريم الدم، من شهر سيفه ثم وضعه في الناس ٧/ ١١٧ برقم: ٤٠٩٩، قال الألباني: «صحيح موقوف».

٥- فيض القدير ٦/١٦٠.

٦- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ص١٥٧٩.

٧- شرح مشكل الآثار ٣/٣٢٦.

قال ابن دقيق العيد: «يحتمل أن يراد بالحمل ما يضاد الوضع ويكون كناية عن القتال به، ويحتمل أن يراد بالحمل حمله لإرادة القتال به؛ لقرينه قوله: "عَلَينَا"، ويحتمل أن يكون المراد حمله للضرب به، وعلى كل حال ففيه دلالة على تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه»[١]؛ لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ويقاتل دونه، لا أن يرعبه بحمل السلاح عليه لإرادة قتاله أو قتله.

قال ابن حجر: « وقد أخرج البزار في حديث القاتل والمقتول في النار زيادة تبين المراد وهي: "إِذَا اقْتَتَلْتُمْ عَلَى الدُنْيَا، فَالقَاتِلُ والمَقْتُولُ في النَارِ"، ويؤيده ما أخرجه مسلم بلفظ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لاَ يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ وَلاَ الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ، فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: الْهَرْجُ، الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ"[٢]، وقال القرطبي: فبين هذا الحديث أن القتال إذا كان على جهل من طلب الدنيا أو اتباع هوى، فهو الذي أريد بقوله: "الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ"»[٣].

إلا أنه ﷺ لم يأمر الناس أن يستنيموا للظلم الواقع عليهم، ويتركوا مجاهدة الظلم والظلمة والفساق بوسائل أخرى غير الخروج بالسلاح[٤]، فقد قال ﷺ: "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ"[٥].

١- فتح الباري ١٣/٢٤، وشرح النووي على صحيح مسلم ١١/١٧٤.

٢- رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٤/٢٢٣١ برقم: ٢٩٠٨.

٣- فتح الباري ١٣/٣٤.

٤- قضية التنوير ، لمحمد قطب، منشور في موقع الصحوة، على الرابط: (http://www.sahwah.net).

٥- رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ٤/٤٦٧ برقم: ٢١٦٨، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ٨٨ برقم: ١٥٦٤.

إن مسألة الخروج بالسلاح من الفقه السياسي، وهي من المسائل الشائكة إلى حد كبير، فقد كان لها دورها الخطير في انقسام الأمة الإسلامية وجماعتها، ونشأة الفرق والأحزاب، وهي في هذه الأيام بالذات أشد خطراً؛ لأن الأوضاع في مجموعة من الدول الإسلامية لا تحكمها الشريعة حكماً كاملاً، سواء أكان ذلك في طريقة تولى الإمامة، أم في الدستور الذي تحكم به، وبيان حكم الشرع في فرع يكون أصله الأساسي غير شرعي هو ترقيع، أو على الأقل لا يكون له أثر عملي في تغيير الواقع، ذلك أن القوانين المستمدة من دستور وضعي ترى ما يخالفها خروجاً على نظام الدولة، وفيه إخلال بالأمن أو خيانة للوطن، والعقوبة قد تكون الإعدام[1].

إفراط وتفريط

إن النظرات السياسية قديماً وحديثاً كان لها أثرها البارز في تأويل النصوص، وحملها على ما يؤيدها، بل كان لها أثرها أيضاً في وضع أحاديث وافترائها على النبي ﷺ، وبالأولى إلصاق أقوال وآراء بأئمة هم براء منها، وكذلك أنكر المختلفون أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ؛ لأنها تعارض رأيهم السياسي، وقبلوا أحاديث تؤيد مذاهبهم بغض النظر عن صدق نسبتها إلى الرسول ﷺ.

فالناس في معاملة الحكام الظلمة على طرفي نقيض:

الطرف الأول: يوافقهم على بعض ظلمهم، ويعاونهم على الإثم والعدوان، ويداهنهم في ظلمهم، بل ربما عملوا على تزيين ذلك لهم، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[هود:١١٣]، قال الإمام الرازي في هذه الآية: «قال المحققون: الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه

١- الشيخ صقر عطية، انظر: فتاوى الأزهر ١٠/١٨٧. بتصرف.

الظلمة من الظلم، وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم، ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب، فأما مداخلتهم لدفع ضرر، أو اجتلاب منفعة عاجلة، فغير داخل في الركون... واعلم أن الله تعالى حكم بأن من ركن إلى الظلمة لا بد وأن تمسه النار، وإذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم في نفسه»[١].

الطرف الثاني: يقابلون ظلمهم بظلم آخر، فيخرجون عليهم ويقاتلونهم بالسلاح وهو قتال الفتنة.

أهل الحق:

وإنما الحق في أن لا يُوافق المبطل على باطل أصلاً، ولا يُدفع باطله بباطل أصلاً، فيلزم المؤمن الحق وهو ما بعث الله به رسوله ﷺ، ولا يخرج عنه إلى باطل يخالفه، لا موافقة لمن قاله، ولا معارضة بالباطل لمن قال باطلا، وكلا الأمرين يستلزم معارضة نصوص الكتاب والسنة بما يناقض ذلك، وإن كان لا يظهر ذلك في بادئ الرأي[٢].

ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلم كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ ؛ لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما، ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته، والله تعالى لم يأمر بقتال كل ظالم وكل باغ كيفما كان، ولا أمر بقتال الباغين ابتداء بل قال ﷻ:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ

١- التفسير الكبير ٥٨/١٨.

٢- فتاوى الأزهر ١٨٧/١٠، ودرء التعارض بين العقل والنقل ٢٩٢/٧، ومفهوم أهل السنة والجماعة بين شيخ الإسلام ابن تيمية وأهل الإفراط والتفريط ص٣٧٨.

فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[الحجرات:٩]، فلم يأمر بقتال الباغية ابتداء، فكيف يأمر بقتال ولاة الأمر ابتداء![١].

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "سَتَكُونُ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ، قَالُوا: أَفَلاَ نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لاَ مَا صَلَّوْا"[٢][٣]، وفي حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ، قَالُوا: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ، لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ، أَلاَ مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلاَ يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ"[٤]، فنهى رسول الله ﷺ عن قتالهم والمنابذة لهم –العزل وطرح العهد والمحاربة لهم ونزع البيعة–، مع إخباره

١– منهاج السنة النبوية ٣/٣٩١.

٢– رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك ٣/١٤٨٠ برقم: ١٨٥٤.

٣– قال الإمام النووي: «وأما قوله ﷺ: "فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ"، وفي الرواية التي بعدها "فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ"[رواه مسلم ٣/١٤٨٠ برقم: ١٨٥٤]، فأما رواية من روى: "فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ" فظاهرة، ومعناه: من كره ذلك المنكر فقد برئ من إثمه وعقوبته، وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده ولا لسانه، فليكرهه بقلبه، وليبرأ، وأما من روى: "فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ"، فمعناه –والله أعلم–: فمن عرف المنكر ولم يشتبه عليه فقد صارت له طريق إلى البراءة من إثمه وعقوبته؛ بأن يغيره بيديه أو بلسانه، فإن عجز فليكرهه بقلبه، وقوله ﷺ: "وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ" معناه: ولكن الإثم والعقوبة على من رضي وتابع، وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت، بل إنما يأثم بالرضى به، أو بأن لا يكرهه بقلبه، أو بالمتابعة عليه». شرح النووي على مسلم ١٢/٢٤٣.

٤– رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم ٣/١٤٨١ برقم: ١٨٥٥.

أنهم يأتون أمورا منكرة، فدل على أنه لا يجوز الإنكار عليهم بالسيف كما يراه من يقاتل ولاة الأمر من الخوارج والزيدية والمعتزلة وطائفة من الفقهاء وغيرهم[١].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: "مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ، فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"[٢]، والمراد بالميتة الجاهلية حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال وليس له إمام مطاع؛ لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافراً، بل يموت عاصياً، ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره، ومعناه أنه يموت مثل موت الجاهلي، وإن لم يكن هو جاهلياً، أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير وظاهره غير مراد[٣].

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قلت: يا رسول الله، إنا كنا بشر، فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال: نَعَمْ، قُلْتُ: هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ، قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ"[٤].

١- منهاج السنة النبوية ٣/٣٩٢، وفتاوى الأزهر ١٠/١٨٧، ومرقاة المفاتيح ٧/٢٣٠، وآل رسول الله وأولياؤه ص١٢٧.

٢- رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: "سَتَرونَ بَعْدِي أُمُوراً تُنْكِرُونَهَا" ٦/٢٥٨٨ برقم: ٦٦٤٦، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة ٣/١٤٧٧ برقم: ١٨٤٩.

٣- فتح الباري ١٣/٧.

٤- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة ٣/ ١٤٧٥ برقم: ١٨٤٧.

إن هذا الحديث نص واضح في وجوب لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، ولا سيما وقت ظهور دعاة الفتن؛ فإن في الالتزام بذلك نجاة من هؤلاء الدعاة، حتى لو كان الأئمة عندهم نقص في التمسك بالدين[١]، وجور على عباد الله المؤمنين، وفيه أيضاً رد على من يزعم أن مفارقة جماعة المسلمين والخروج بالسلاح وقت الفتن وسيلة لإصلاح الأمة، وهذا فهم معكوس بعيد كل البعد عن مراد الله ورسوله من الحرص على جماعة المسلمين[٢][٣].

وعن عرفجة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ"[٤]، قال ابن الأمير بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره من الأحاديث التي تنهى عن تفريق أمر هذه الأمة: «دلت هذه الألفاظ على أن من خرج على إمام قد اجتمعت عليه كلمة المسلمين – والمراد أهل قطر كما قلناه– فإنه قد استحق القتل؛ لإدخاله الضرر على العباد، وظاهره سواء كان جائراً أو عادلاً، وقد جاء في أحاديث تقييد ذلك بما أقاموا الصلاة»[٥].

١– فعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال لنا رسول الله ﷺ: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً –أُثْرَةً–، وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا اللهَ حَقَّكُمْ" [البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: "سَتَرونَ بَعْدِي أُمُوراً تُنْكِرُونَهَا" ٢٥٨٨/٦ برقم: ٦٦٤٤]. قوله ﷺ: "أَثَرَةً" أي الاستئثار في الحظوظ الدنيوية والاختيار لنفسه والاختصاص، وقوله ﷺ: "وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا" يعني من أمور الدين، وقوله ﷺ: "وَسَلُوا اللهَ حَقَّكُمْ" أي بأن يلهمهم إنصافكم، أو يبدلكم خيراً منهم. انظر: فتح الباري ٦/١٣، وعمدة القاري ١٠٨/٣٥.

٢– الإلمام بمنهج السلف في التعامل مع الحكام ص٣١. بتصرف.

٣– قال الشوكاني: « قوله: "وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ" فيه دليل على وجوب طاعة الأمراء، وإن بلغوا في العسف والجور إلى ضرب الرعية وأخذ أموالهم، فيكون هذا مخصصاً لعموم قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾» نيل الأوطار ٣٦٠/٧. وقال ابن تيمية: «فتبين أن الإمام الذي يطاع هو من كان له سلطان، سواء كان عادلاً أو ظالماً» منهاج السنة النبوية ٥٦١/١.

فالحديث يحث على لزوم جماعة المسلمين، والصبر على جور وظلم الأئمة، لا طاعتهم في الظلم والجور أو عدم الإنكار عليهم.

٤– رواه مسلم، كتاب الإمارة، حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع ١٤٧٩/٣ برقم: ١٨٥٢.

٥– سبل السلام ٢٦١/٣.

وعنه ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهْيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ"[١]، قال النووي: «قوله ﷺ: "سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ" الهنات جمع هنة وتطلق على كل شيء، والمراد بها هنا الفتن والأمور الحادثة، قوله ﷺ: "فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهْيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ" فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام أو أراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك، وينهى عن ذلك، فإن لم ينته قوتل، وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل كان هدراً، فقوله ﷺ: "فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ" وفي الرواية الأخرى: "فَاقْتُلُوهُ"[٢] معناه إذا لم يندفع إلا بذلك وقوله ﷺ: "يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ" معناه يفرق جماعتكم كما تفرق العصاة المشقوقة، وهو عبارة عن اختلاف الكلمة، وتنافر النفوس»[٣].

وعنه ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر يخطب الناس فقال: "إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَائِنًا مَنْ كَانَ، فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّ يَدَ اللهِ ﷻ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ يَرْكُضُ"[٤]، قال الإمام المناوي: «"تَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ" شدائد وعظائم وأشياء قبيحة منكرة وخصلات سوء، جمع هنة وهي كناية عما لا يراد التصريح به لشناعته، "فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ" الصحابة ومن بعدهم من السلف، "أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَائِنًا مَنْ كَانَ" أي: سواء كان من أقاربي أو غيرهم، قال الطيبي: وهذا فيه معنى الشرط "فَاقْتُلُوهُ"، [و]في رواية: "فَاضْرِبُوه بِالسَيفِ"؛ "إِنَّ يَدَ اللهِ ﷻ مَعَ الْجَمَاعَةِ،

١- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع ١٤٧٩/٣ برقم: ١٨٥٢.

٢- حديث عرفجة المتقدم.

٣- شرح صحيح مسلم ٢٤١/١٢، ٢٤٢.

٤- رواه النسائي، كتاب تحريم الدم، قتل من فارق الجماعة وذكر الاختلاف على زياد بن علاقة عن عرفجة فيه ٩٢/٧ برقم: ٤٠٢٠، وصحح الألباني إسناده، انظر حديث رقم: ٣٦٢١ في صحيح الجامع.

وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ يَرْكُضُ" فإن الله تعالى جمع المؤمنين على معرفة واحدة وشريعة واحدة ألا تراه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠] فمن فارقهم خالف أمر الرحمن، فلزم الشيطان، قال أبو شامة: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف كثيراً أي: الحق هو ما كان عليه الصحابة الأول من الصحب، ولا نظر لكثرة أهل الباطل بعدهم، قال البيهقي إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانوا عليه من قبل، وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ»[١].

الخروج المشروع

إن النصوص السابق ذكرها تدل على منع الخروج بالسلاح على الحكام، ولو كان الحاكم مرتكباً لما لا يجوز، إلا إذا ارتكب الكفر الصريح الذي قام البرهان الشرعي من كتاب الله ﷻ ومن سنة رسوله ﷺ على أنه كفر بواح -أي: ظاهر صريح بين بادٍ لا لبس فيه، ولا يقبل التأويل-[٢]، فعن جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، قلنا أصلحك الله، حدث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي ﷺ قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه فقال فيما أخذ علينا: "أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"[٣]، ولقد استنتج العلماء من هذا الحديث أنه لا تجوز المنابذة إلا عند ظهور الكفر الواضح -في القول أو الفعل أو الاعتقاد- الذي ليس له فيه شبهة، مع قيام الحجة، كإنكار الألوهية، أو الطعن في أن القرآن من عند الله، أو أنه

١- فيض القدير ٤/٩٩.

٢- أضواء البيان ١/٢٩، ٣٠، ومرقاة المفاتيح ٧/٢٢٧.

٣- رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: "سَتَرونَ بَعْدِي أُمُوراً تُنْكِرُونَهَا" ٦/٢٥٨٨ برقم: ٦٦٤٧، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣/١٤٦٩ برقم: ١٧٠٩.

غير صالح للحكم، أو اعتقاد حل ما أجمع على تحريمه كالربا والزنا وشرب الخمر، فهو بهذا الاعتقاد يكون كافرا، أما ارتكاب المحرمات بغير اعتقاد حلها فهو عصيان لا يخرج به إلى الكفر، بل يكون فاسقاً، فالمبرر للخروج عليه هو الكفر لا العصيان المجرد، واستنتجوا من حديث أم سلمة: "أَفَلاَ نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لاَ مَا صَلَّوْا"[١]، وحديث عوف بن مالك: أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قَالَ: "لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ، لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ"[٢]، بأنه لا يجوز منابذة الأئمة والخروج عليهم ما داموا يقيمون الصلاة، **وليس المراد أنهم يصلون بالناس كما كان أئمة السلف، بل المراد أنهم يسمحون بإقامتها، ولا يضعون العراقيل في سبيلها**[٣]، ويفهم منه أنهم إن لم يصلوا قوتلوا؛ لأن قوله: "لاَ مَا صَلَّوْا" أي: لا تقاتلوهم مدة كونهم يصلون، فما مصدرية ظرفية مع أنه ﷺ قال في حديث عبادة: "إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"، فحديث أم سلمة وحديث عوف بن مالك يدلان على قتال من لم يصلِ[٤].

قال الإمام النووي: «قال القاضي عياض: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل، قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها، قال: وكذلك عند جمهورهم البدعة، قال: وقال بعض البصريين تنعقد له وتستدام له؛ لأنه متأول، قال القاضي: فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع، أو بدعة، خرج عن حكم

١- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك ١٤٨٠/٣ برقم: ١٨٥٤.

٢- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم ١٤٨١/٣ برقم: ١٨٥٥.

٣- الشيخ عطية صقر، انظر: فتاوى الأزهر ١٨٧/١٠.

٤- وهذه العبارة تبين أن الخروج حتى على الكافر مقيد بالقدرة على ذلك، قال ابن حجر: «وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب، والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين الدهماء... ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها». فتح الباري ٧/١٣.

الولاية وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب أمام عادل إن أمكنهم ذلك[١]، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر.

ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه، فإن تحققوا العجز لم يجب القيام، وليهاجر المسلم عن أرضه إلى غيرها ويفر بدينه.

قال: ولا تنعقد لفاسق ابتداء، فلو طرأ على الخليفة فسق، قال بعضهم: يجب خلعه إلا أن تترتب عليه فتنة وحرب، وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يخلع، ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه للأحاديث الواردة في ذلك»[٢].

إن ارتباط الخروج بالكفر يجب فيه الدقة في الحكم بالكفر على المسلم؛ لأن تكفير المسلم خطير؛ لأن رسول الله ﷺ يقول فيما رواه عنه أبو هريرة ﷺ: **"إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا"**[٣]، وفي رواية: **"أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ"**[٤]، فليس كل تصرف منه يبرر الحكم عليه بالكفر، فقد دعا المأمون والمعتصم والواثق إلى بدعة القول بخلق القرآن، وعاقبوا العلماء من أجلها بالقتل والضرب والحبس وأنواع الإهانة، ولم يقل أحد بوجوب الخروج عليهم بسبب ذلك، ودام الأمر بضع عشرة سنة حتى ولي المتوكل الخلافة، فأبطل المحنة وأمر بإظهار السنة[٥].

١- شرح صحيح مسلم ١٢/٢٢٩.

٢- شرح صحيح مسلم ١٢/٢٢٩.

٣- رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال ٥/٢٢٦٣ برقم: ٥٧٥٢.

٤- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر ١/ ٧٩ برقم: ٦٠.

٥- أضواء البيان ١/٣٠.

قد يعترض بأن النووي قال: «المراد بالكفر هنا المعصية»[١]، وقال غيره: المراد بالإثم في بعض الروايات ما يشمل المعصية والكفر، قال ابن حجر: «والذي يظهر حمل رواية الكفر على ما إذا كانت المنازعة في الولاية فلا ينازعه بما يقدح في الولاية إلا إذا ارتكب الكفر، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية، فإذا لم يقدح في الولاية نازعه في المعصية؛ بأن ينكر عليه برفق، ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف ومحل ذلك إذا كان قادرا»[٢]، وعلى ضوء ما قاله ابن حجر إن فسق الإمام ولم يكفر وجب نصحه بالأسلوب الذي يُرجى منه الخير ولا يؤدي إلى فتنة، كما قال ﷻ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[النحل:١٢٥]، ولتوضيح كلام النووي نسوق النص بتمامه، قال رحمه الله تعالى: «"إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ" هكذا هو لمعظم الرواة، وفي معظم النسخ "بَوَاحًا" بالواو، وفي بعضها "براحاً" والباء مفتوحة فيهما، ومعناهما كفراً ظاهراً، والمراد بالكفر هنا المعاصي، ومعنى: "عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ" أي: تعلمونه من دين الله تعالى، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم، إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق، وأما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل وحكي عن المعتزلة أيضاً فغلط من قائله مخالف للإجماع»[٣].

١- شرح صحيح مسلم ١٢/٢٢٩.

٢- فتح الباري ١٣/٨.

٣- شرح صحيح مسلم ١٢/ ٢٢٨،٢٢٩.

قال العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن، وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه[١][٢].

اعترض بخروج عبد الله بن الزبير، والحسن بن علي رضي الله عنهم جميعاً، وأهل المدينة وغيرهم من صالحي السلف على بني أمية، وقامت جماعة عظيمة من التابعين والصدر الأول على الحجاج مع ابن الأشعث، وتأول هذا القائل قوله: "أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ"[٣] في أئمة العدل.

فرد الجمهور بالآتي:

أولاً: بأن قيامهم على الحجاج ليس بمجرد الفسق، بل لما غير من الشرع وظاهر من الكفر.

ثانياً: بأن هذا الخلاف كان أولاً ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم[٤][٥].

ثالثاً: الحجة فيما قاله الله ورسوله ﷺ، وأما ما انفرد به بعض أهل العلم والفضل من الصحابة أو غيرهم لا يقبل منهم؛ لأن كلام الله وكلام رسوله ﷺ مقدم على كل قول، والصحابة أو غيرهم ليسوا بمعصومين من الخطأ.

١- المصدر نفسه ١٢/٢٢٩.

٢- وتاريخ الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً خير دليل وشاهد على صحة هذا الكلام.

٣- رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: "سَتَرونَ بَعْدِي أُمُوَراً تُنْكِرُونَهَا" ٦/٢٥٨٨ برقم: ٦٦٤٧، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣/١٤٦٩ برقم: ١٧٠٩.

٤- شرح النووي على مسلم ١٢/٢٢٩.

٥- وهذا الجواب هو الصحيح وما بعده موضح له -أما الجواب الأول فيحتاج إلى برهان على صحته-؛ ذلك أنهم اجتهدوا في ذلك، ثم ظهر لعلماء الأمة بعدهم خطأ هذا الاجتهاد، ولا عبرة بالاجتهاد البين خطؤه؛ لأن خروجهم عاد بأثر سلبي عليهم وعلى من تبعهم وعلى الأمة كذلك، فحصل إجماع بعد ذلك على تحريم الخروج، ولك أن تنظر إلى آثار خروج ابن الزبير -رضي الله عنهما-، والحسين بن علي -رضي الله عنهما-، ومحمد بن الحسن النفس الزكية، وانظر إلى ما صنع الحجاج بالكعبة وبابن الزبير، وإلى وقعة الحرة واستباحة مدينة رسول الله، لتعلم ما الذي حمل علماء الأمة على منع الخروج على الحاكم، بل انظر إلى حال وواقع الأمة اليوم، والفتن والدماء والاقتتال والحروب والدمار...

رابعاً: أن الصحابة وأئمة التابعين أنكروا على من خرج من إخوانهم، ولم يقروهم على ذلك لا في عصرهم ولا في العصور التالية لهم.

خامساً: ذكر العلماء أن من خرج من أهل الفضل فإن الاجتهاد الخاطئ هو الذي دفعه إلى ذلك، وذكروا بأنه لا يجوز متابعة المجتهد المخطئ إذا تبين خطؤه[١].

لقد استدل القائلون بوجوب الخروج على الظلمة ومنابذتهم السيف ومكافحتهم بالقتال بعمومات من الكتاب والسنة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك ولا ريب أن الأحاديث التي سبق ذكرها أخص من تلك العمومات مطلقاً، وهي متواترة متوافرة المعنى كما يعرف ذلك من له خبرة بالسنة.

ولكنه لا ينبغي لمسلم أن يحط من قدر من خرج من السلف الصالح على غيرهم من أئمة الجور؛ فإنهم فعلوا ذلك باجتهاد منهم، وهم أتقى لله تعالى وأطوع لسنة رسوله ﷺ[٢] من جماعة ممن جاء بعدهم من أهل العلم[٣].

إن نظرة العلماء في الخروج على الإمام الجائر، مع اعتمادها على النصوص، مبنية على اعتبار الظروف وواقع المسلمين في عهود بعض الفقهاء، وعلى كل حال فنظرتهم ترشدنا إلى أن نكون على بصيرة عند إصدارنا للأحكام الخطيرة بالذات، وإلى العمل على إصلاح النفوس وتغييرها من الداخل؛ فإن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

لقد كان للسابقين أسلوب في الإنكار يتناسب مع الظروف القائمة آن ذاك، مع مراعاة أن روح التدين كانت موجودة بقوة في الحاكمين والمحكومين، وهو ما أطمع بعض

١- وصيتي للإخوان في منهج أهل السنة في نصيحة السلطان لبدر العتيبي ص١٥، ١٦.

٢- على أن خفاء مثل هذه النصوص عليهم أمر وارد؛ لانتشار الصحابة رضي الله عنهم في الأمصار.

٣- نيل الأوطار ٣٦١/٧، ٣٦٢

المعارضين في القسوة أحياناً عند النصح، وما جعل الحكام يصغون إلى ما يقولون، فهم نواب الشعوب ومفاتيح السيطرة عليها، ومن الحكمة قبول ما يوجهونهم به وإليه وإن كان في بعض الأساليب عنف؛ فسببه شدة الغيرة على الحق.

إن من الأساليب السليمة اليوم في توجيه الحاكم والتي تقرها القوانين الوضعية الحالية: الخطابة، والصحافة، وإثارة الموضوع في مجالس النيابة، والتنظيمات المشروعة، والخير مرجو إذا كان ذوو اللسان والقلم مخلصين لوجه الله تعالى، وكان الذين يمثلون الأمة يختارون على أساس ديني سليم، وكانوا مؤدين لأمانتهم على الوجه المطلوب.

إن الخروج بالسلاح لتغيير المنكر غير مجد في أكثر الدول الإسلامية التي تضع مهمة التغيير والإصلاح على عاتق ممثلي الأمة، والتي تحرم حمل السلاح، وتمنع التظاهر، وتضع له أقسى العقوبات، لا يجدي هذا الخروج بالسلاح، بوجه خاص إذا كان التسلح غير كاف وقوى المواجهة غير متكافئة، فإن القضاء على الثائرين بغير حكمة سهل والنتيجة أخطر مما كانوا يتوقعون.

ولو تحققت المنعة وتوافر السلاح المتكافئ فالطريق السليم هو التفاوض والحوار حيث يكون حواراً فيه تكافؤ قد يؤدى إلى الحل المعقول، وذلك كله من أجل منع الفتنة ووقوع الحرب الأهلية من جراء المواجهة بالسلاح وإراقة الدماء، وقد يذهب ضحيتها أبرياء، فشرط تغيير المنكر-كما قال العلماء -ألا يؤدي إلى منكر أشد.

فإن لم يتوصل إلى حل بالحوار والنصح، فإن الأحاديث لا تجيز المواجهة المسلحة، وليكن الواجب هو الإنكار باللسان ما أمكن، وإلا فالإنكار بالقلب، والاجتهاد في تربية النفوس وإصلاحها وتوجه الناس وإرشادهم لاختيار ممثلين صالحين يتولون دستورياً تغيير المنكر.

إن من الواجب العمل على تقدير الظروف المحيطة بنا الآن، وأن العدو المتربص بنا لا يترك فرصة ثورية إلا انتهزها لنفسه، وإلى أن ارتباط بعض الحكام ببعض الدول

الكبرى يسهل القضاء على مثل هذه الحركات بسهولة؛ لأن صحوة الدين تضرهم، وبخاصة دين الإسلام، فالواجب أن تكون جميع الخطط لإصلاح الأوضاع وتغييرها مدروسة دراسة وافية؛ لتكون حركات التغيير مرجوة النجاح بأقل تضحيات[١].

طاعة في غير معصية

اعلم أنه قد أجمع علماء المسلمين على أنه لا طاعة لإمام ولا غيره في معصية الله تعالى، وقد جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا لبس فيها ولا مطعن، كحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"[٢]، وحديث علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال في السرية الذين أمرهم أميرهم أن يدخلوا في النار: "لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا؛ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"[٣]، وفي الكتاب العزيز: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[الممتحنة: ١٢].

قال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء: ٥٩]: «والتحقيق في معنى الآية الكريمة أن المراد بأولي الأمر ما يشمل الأمراء والعلماء؛ لأن العلماء مبلغون عن الله وعن رسوله، والأمراء منفذون، ولا

١- فتاوى الأزهر فتوى للمفتي عطية صقر في مايو ١٩٩٧م ١٠/١٨٧. بتصرف.

وانظر إلى ما يصنعه المجتمع الدولي اليوم تجاه ما يجري في البلاد الإسلامية –خصوصاً سوريا–، وتقديمه الدعم السياسي والعسكري لإحراق البلاد والعباد، وانظر كذلك إلى البلاد التي حصل فيها الخروج بالسلاح وإلى الدماء التي تسيل...

٢- رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٦/٢٦١٢ برقم: ٦٧٢٥.

٣- رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٦/٢٦١٢ برقم: ٦٧٢٦، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣/١٤٦٩ برقم: ١٨٤٠.

تجوز طاعة أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه؛ لأن ما أمر به أولو الأمر لا يخلو من أحد أمرين: **أحدهما**: أن يكون طاعة لله ولرسوله من غير نزاع، وطاعة أولي الأمر في مثل هذا من طاعة الله ورسوله، **والثاني**: أن يحصل فيه نزاع هل هو من طاعة الله ورسوله أو لا، وفي هذه الحالة لا تجوز الطاعة العمياء لأولي الأمر ولا التقليد الأعمى كما صرح الله تعالى بذلك في نفس الآية؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أتبع ذلك: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، فالآية صريحة في رد كل نزاع إلى الله ورسوله، والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله ﷺ هو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته ﷺ»[1].

وقد أنكر الله ﷻ في كتابه على أقوام طاعتهم المطلقة لأسيادهم وحكامهم وتبعيتهم لهم من دون تبصر-؛ وفي ذلك عبرة للمسلمين حتى لا يقعوا فيما وقعت فيه تلك الأقوام- قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[الأحزاب:٦٦-٦٧]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[البقرة:١٦٥-١٦٧]، وقال ﷻ موبخاً لقوم فرعون وملئه: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[هود:٩٧]، وقال ﷻ في قوم هود: ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[هود:٥٩].

١- أضواء البيان ٣٢٩/٧.

فوجوب السمع والطاعة للأمراء إنما هو في الأمور التي لا تخرج عن دائرة المعروف؛ كما ورد ذلك في الأحاديث السابقة، أما إذا خرج عن دائرة المعروف فلا سمع ولا طاعة.

س/ كيف يمكن تربية الأجيال على رفض الطاعة في غير المعروف؟

ج/يمكن تربية الأجيال على رفض طاعة الحكام في غير المعروف إذا تمكنا من إعادة صياغة العلاقات داخل الأسرة الصغيرة، بحيث يتم إبدال التسلط والسمع والطاعة في كل شيء حتى في غير المعروف، بإبداء الرأي والمشاركة والمعاونة وعدم السكوت على الخطأ، وبموازاة ذلك إحداث تغيير في النَّفسيات من خلال محاربة الانهزامية، وكذا محاربة الأخلاقيات التي تساعد الطُّغيان على النمو من الكذب والتملُّق والنِّفاق والمحسوبية وما إلى ذلك[١].

الصدع بالحق ليس من الخروج

بعد ما سبق ذكره أو الإشارة إلية من الأحاديث والتي فيها النهي عن الخروج على الحكام، فإن البعض جمد في فهمها، وظن أن الصدع بالحق في وجوه الظلمة والطواغيت والنهي عن المنكر من الخروج عليهم ،وهذا الفهم من أعجب العجيب، وقد سمعنا من يقول بذلك، بل وينشره في الناس من باب النصح، وهذا خطأ من قائله؛ لأن الصدع بالحق في وجوه الظلمة والطواغيت وإنكار المنكر ليس من الخروج عليهم، ويدل لذلك ما جاء في بعض روايات حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: **"بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ"**[٢].

١- انظر: الطغيان السياسي وسبل تغييره من المنظور القرآني ص٣٣٤، بتصرف.

٢- رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس ٦/٢٦٣٣ برقم: ٦٧٧٤، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣/١٤٦٩ برقم: ١٧٠٩.

فانظر إلى الحديث كيف جمع بين النهي عن الخروج عليهم، والقيام أو القول بالحق على كل حال وفي كل مكان، مع ترك الخوف الذي يمنع من الصدع بالحق، ويسبب المداهنة والسكوت على الباطل، ومَن الذين يُخاف من الصدع بالحق في وجوههم إلا الحكام وأصحاب النفوذ والأمر، فكيف يعد الصدع بالحق وإنكار الباطل والظلم والفساد من الخروج؟!! إنه من الخروج عن طاعة الله تعالى القائل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:١٠٤]، والقائل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[هود:١١٣]، ومن الخروج عن طاعة رسوله ﷺ القائل: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ"[١]، والقائل: "مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابَ لَكُمْ"[٢]، وليس الصدع بالحق وإنكار المنكر خروجاً على الظلمة والمفسدين، قال النووي: «معناه نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر في كل زمان ومكان، الكبار والصغار، لا نداهن فيه أحداً، ولا نخافه هو، ولا نلتفت إلى الأئمة، ففيه القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأجمع العلماء على أنه فرض كفاية»[٣].

إن الصدع بالحق وردع الظالم وإيقافه عند حده واجب على الأمة جمعاء، تأثم بتركه، وتتعرض بسببه للهلاك، ففي حديث أبي بكر الصديق ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ

١- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ١/٦٩ برقم: ٤٩.

٢- رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢/١٣٢٧ برقم: ٤٠٠٤، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢/ ٣٦٧ برقم: ٣٢٣٥.

٣- شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/٢٣٠.

يقول: "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ"(١)، وفي رواية: "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ"(٢)، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ: إِنَّكَ أَنْتَ ظَالِمٌ، فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ"(٣).

ويدل لذلك أيضاً حديث: "سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ"(٤)، وحديث النعمان بن بشير: عن النبي ﷺ قال: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً"(٥)، وفي رواية: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالمُدْهِنِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ..."(٦).

١- رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ٤/٤٦٧ برقم: ٢١٦٨، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ٨٨ برقم: ١٥٦٤.

٢- رواه أحمد، مسند الخلفاء الراشدين، مسند أبي بكر الصديق ﷺ ١/١٧٨ برقم: ا، وابن ماجه كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢/١٣٢٧ برقم: ٤٠٠٥، صححه الألباني في صحيح ابن ماجة ٢/٣٦٧ برقم: ٣٢٣٦.

٣- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص ١١/٧٢ برقم: ٦٥٢١، قال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار بإسنادين ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح وكذلك رجال أحمد إلا أنه وقع فيه في الأصل غلط فلهذا لم أذكره» مجمع الزوائد ٧/٥١٨ برقم: ١٢١١٠.

٤- رواه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب ٣/٢١٥ برقم: ٤٨٨٤، والطبراني في الأوسط ٤/٢٣٨، قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ١/٧١٦ برقم: ٣٧٤.

٥- رواه البخاري، كتابة الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه ٢/٨٨٢ برقم: ٢٣٦١.

٦- رواه أحمد، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير ٣٠/٣١٠ برقم: ١٨٣٦١، والترمذي، كتاب الفتن ٤/٤٧٠ برقم: ٢١٧٣، قال شعيب الأرنؤوط: « إسناده صحيح على شرط الشيخين».

قوله: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ" أي: الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر الصادع بالحق، وقوله: "وَالمُدْهِنِ فِيهَا" أي: من يرائي ويضيع الحقوق ولا يغير المنكر، والمدهن والمداهن واحد، قوله: "وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا" المعنى: بأن الناس إن منعوا الفاسق عن الفسق، والظالم عن الظلم، والطاغية عن الطغيان، ونهوه عن ذلك، نجا ونجوا من عذاب الله تعالى، وإن تركوه على فعل المعصية، والظلم والطغيان والفساد، ولم ينصحوه ويمنعوه من ذلك، ويرشدوه إلى إعادة الحقوق، وإقامة الحدود، ومنع المنكرات، حل بهم العذاب وهلكوا بشؤمه، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾[الأنفال:٢٥] أي: بل تصيبكم عامة بسبب مداهنتكم، والمداهنة المنهية في الشريعة أن يرى منكراً ويقدر على دفعه ولم يدفعه؛ حفظاً لجانب مرتكبه أو جانب غيره لخوف أو طمع أو لاستحياء منه أو قلة مبالاة في الدين[١].

حق الأمة في مراقبة الحاكم

إن من حق الشعوب أن تراقب الحكام؛ لمعرفة استقامتهم على الجادة أو انحرافهم عنها، وهذا هو ما يسمى بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحتساب[٢]، فقد خطب أبو بكر الصديق فقال: «يا أيها الناس أني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن ضعفت فقوموني، وإن أحسنت فأعينوني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر، ولا ظهرت -أو قال شاعت- الفاحشة في قوم إلا عمهم البلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا

١- تحفة الأحوذي ٦/٣٢٨، ٣٢٩. بتصرف.

٢- مناهج الدعوة دروس مناهج التغيير للشيخ عبد المجيد الزنداني ص ٣٠.

عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[١]، وفي رواية: «فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني»[٢].

فهذا إقرار منه ﷺ بحق الأمة وأفرادها في الرقابة على أعماله، ومحاسبته عليها، ومقاومته لمنع كل منكر يرتكبه، وإلزامه السير في الطريق الصحيح والسلوك الشرعي، وإخبار بأن كل حاكم معرض للخطأ، وهذا بدوره يتحتم جعله عرضه للمحاسبة؛ ليكون حريصاً على تتبع الصواب، والحذر من تعمد ممارسة الخطأ والضرر من جهة، ومن جهة أخرى لسد النقص البشري، وتصويب الأعمال وتوجيهها إذا انحرفت ولو بغير قصد، وفيه بيان أنه لا يستمد سلطته من أي امتياز شخصي يجعل له أفضلية على غيره؛ لأن عهد الرسالات والرسل المعصومين قد انتهى بموت آخر رسول كان يتلقى الوحي وانتقاله إلى جوار ربه جل وعلا[٣].

إن الأمة تستمد حقها في مراقبة الحاكم ومحاسبته من جملة أمور:

الأمر الأول: أنه وكيل عنها، ويستمد سلطته منها، ويمارسها نيابة عنها، والأصيل يملك على الوكيل حق الإشراف والتوجيه والعزل إن هو خرج عن حدود وكالته.

الأمر الثاني: أن الأمة هي المخاطبة أصلاً بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية -أي: القانون الإسلامي- وهي القوامة على هذا التنفيذ كما دل على ذلك كثير من خطابات القرآن الكريم، وقد اختارت الأمة الحاكم أداة ووسيلة للتنفيذ، فإذا تحول الحاكم عقبة أمام تنفيذ الشرع، حق للأمة المحاسبة؛ للقيام بواجبها الأصلي في تنفيذ الشرع.

١- رواه عبد الرزاق في المصنف ١١/ ٣٣٦ برقم: ٢٠٧٠٢.

٢- ذكره ابن كثير من رواية محمد بن اسحاق في البداية والنهاية ٥/٢٤٨، ثم قال: «وهذا إسناد صحيح».

٣- أبو بكر الصديق ﷺ شخصيته وعصره ٣ / ١٤٣.

الأمر الثالث: ما أوجبه الشرع لها من حق الشورى التي تتضمن بذل الرأي والنصح، وهذا يستلزم مراقبته على الدوام.

الأمر الرابع: أن الأمَّة مسؤولة عن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر؛ لأن الأمة كلها مطالبة بأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في كل مجال من المجالات، وبما فيها مجال الحكم ومحاسبة الحكام في سلطاتهم، قال ﷻ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة:٧١]، وقال النبي ﷺ: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ"(١)، وقال ﷺ: "أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ"(٢)، وفي رواية: " كَلِمَةُ حَقٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"(٣).

الأمر الخامس: أن الأمة مخاطبة بمناصحة ولاة أمرها، فعن تميم الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ

١- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ٦٩/١ برقم: ٤٩.

٢- رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ٥٢٧/٢ برقم: ٤٣٤٤، والترمذي، كتاب الفتن، ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ٤٧١/٤ برقم: ٢١٧٤، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٣٢٩/٢ برقم: ٤٠١١، صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢ / ٣٦٩ برقم: ٣٢٤٠

٣- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري ﷺ ٢٢٧/١٧ برقم: ١١١٤٣، النسائي، كتاب البيعة، فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر ١٦١/٧ برقم: ٤٢٠٩،قال الألباني: «صحيح لغيره» صحيح الترغيب والترهيب ٢٨٤/٢ برقم: ٢٣٠٦.

الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ"[١] ، وقد استقر في مفهوم الصحابة أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن باستقامة ولاتها، ولذلك كان من واجبات الرعية تجاه حكامهم نصحهم وتقويمهم.

الأمر السادس: أن الحاكم في النظام الإسلامي فرد كبقية الأفراد لا يكسبه الحكم الفضل والمزية على غيره، فكما يحاسب غيره ويَسأل فهو يُسأل، فنصوص الشريعة لا تفرق بين الرؤساء والمرؤوسين في خضوعهم للحساب والعقاب، وأساس التفاضل في الشريعة التقوى، فلا فضل ولا مزية بسبب الحكم أو المنصب.

الأمر السابع: أن تصرفات الراعي على الرعية منوطة بالمصلحة، ونفاذ تصرفاته عليهم ولزومها مترتبة على وجود المنفعة والثمرة في ضمنها، وإلا رد تصرفه؛ لأنه ناظر وتصرفه في غير مصلحة يكون حينئذٍ متردد بين الضرر، والعبث وكلاهما ليس من النظر في شيء.

الأمر الثامن: أنه مأمور من قبل الرسول ﷺ أن يحوط رعيته بالنصح ومتوعد من قبله على ترك ذلك بأعظم وعيد، فعن معقل بن يسار ﷺ قال سمعت من رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ (يَسْتَرْعِيهِ) اللهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ (بِنُصْحِهِ) إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ"[٢]، وفي رواية: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"[٣]، وقد نص الشافعي على أن منزلة الإمام من الرعية منزلة الولي من اليتيم[٤].

١- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة ١/ ٧٤ برقم: ٥٥.

٢- رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح ٦/ ٢٦١٤ برقم: ٦٧٣١.

٣- رواه مسلم، كتاب الأيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار ١/ ١٢٥ برقم: ١٤٢.

٤- أشباه ونظائر السيوطي ص١٢١، وشرح القواعد الفقهية للزرقا ص٣٠٩، وقواعد الفقه للبركتي ص٧٠، والمنثور في القواعد للزركشي ١/٣٠٩.

الأمر التاسع: مراقبة الأئمة أصل شرع في الإسلام حتى في العبادات مثل الصلاة، فعلى المأموم أن يذكر الإمام بخطئه ويصححه، وهذا في الإمامة الصغرى فكيف بالإمامة الكبرى[١].

إعانة وتقويم

إن دور الرعية أو الأمة-الشعوب- ومشاركتها في الأمر العام يتمثل في أمرين هما: **الإعانة والتقويم**، أي إعانة وتأييد السياسات الصائبة الصادرة من السلطة، وفي مقابل ذلك الاعتراض ورفض السياسات الخاطئة، وتقويم الاعوجاج والخلل والخطأ إذا ما بدر منها، وهو ما صرح به الصديق ﷺ عندما قال: «فإن ضعفت فقوموني، وإن أحسنت فأعينوني»، أو: «فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني».

إن على الأمة أن تكون حية واعية لها القدرة على المناصرة والمناصحة والمتابعة والتقويم، فالواجب على الرعية نُصرة الإمام الحاكم بما أنزل الله، ومعاضدته ومناصرته في أمور الدين والجهاد، ولقد أخذت الدولة الحديثة تلك السياسة الرائدة للصديق، وترجمت ذلك إلى لجان متخصصة ومجالس شورية؛ تمد الحاكم بالخطط وتزوده بالمعلومات وتشير عليه بما يحسن أن يقرره، والشيء المحزن أن كثيراً من الدول الإسلامية تعرض عن هذا النظام الحكيم، فعظم مصيبتها في تسلط الحكام وجبروتهم، وما التخلف الذي يعم معظم ديار المسلمين ما هو إلا نتيجة لتسلط بغيض ودكتاتورية خبيث، أماتت في الأمة روح التناصح والشجاعة، وبذرت فيها وزرعت بها الجبن والفزع إلا من رحم ربي، وأما الأمة التي تقوم بدورها في مراقبة الحاكم ومناصحته فتأخذ بأسباب القوة والتمكين في الأرض، فتنطلق إلى آفاق الدنيا تبلغ دعوة الله[٢].

١- انظر: الطغيان السياسي وسبل تغييره من المنظور القرآني ص٢٩٦، ٣٠٤، ومناهج الدعوة دروس مناهج التغيير ص٣٠.

٢- أبو بكر الصديق ﷺ شخصيته وعصره، ١٤٤/٣، بتصرف.

مناصحة الحاكم

لقد حث النبي على مناصحة الحكام وولاة الأمور، وبينها ﷺ في أحاديث كثيرة، ومنها حديث تميم الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ"[١]، وحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ..."[٢]، وحديث جبير بن مُطْعِمٍ: "ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَصِيحةُ لِوُلَاةِ الْمُسلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِم، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ"[٣]، قال النووي: «وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم، قال الخطابي: ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح، وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات»[٤].

١- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة ٧٤/١ برقم: ٥٥.

٢- رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ ٤٠٠/١٤ برقم: ٨٨٠٠ ، وابن حبان، كتاب الزكاة، باب المسألة والأخذ وما يتعلق به من المكافأة والثناء والشكر ٨/ ١٨٢ برقم: ٣٣٨٨، قال الشيخ الألباني: «صحيح» انظر: حديث رقم : ١٨٩٥ في صحيح الجامع، وانظر: الجامع الصغير وزيادته ٢٧٨/١ برقم: ٢٧٧٦.

٣- رواه أحمد، مسند الأنصار، حديث زيد بن ثابت٤٦٧/٣٥ رقم: ٢١٥٩٠، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب الخطبة يوم النحر١٠١٥/٢ رقم: ٣٠٥٦، صححه الألباني في صحيح ابن ماجة ١٨٢/٢ رقم: ٢٤٨٠. انظر شرح الحديث ص١٩٥.

٤- شرح صحيح مسلم ٣٨/٢.

قال ابن حجر: «"لأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ" إعانتهم على ما حملوا القيام به، وتنبيههم عند الغفلة، وسد خلتهم عند الهفوة، وجمع الكلمة عليهم، ورد القلوب النافرة إليهم، ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن»[١].

قال ابن عبد البر: «وأما قوله: "تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ" ففيه إيجاب النصيحة على العامة لولاة الأمر، وهم الأئمة والخلفاء، وكذلك سائر الأمراء»[٢].

إن النصيحة لب الدين وجوهر الإيمان، ودليل حب الخير للآخرين، وبغض الشر لهم، وفيها صلاح المجتمع؛ إذ تشاع فيه الفضيلة، وتستر فيه الرذيلة، وتحل فيه الرحمة والوداد مكان القسوة والشقاق، من قام بها على وجهها يستحق الإكرام لا اللوم والتقريع، وفي القيام بها والمحافظة عليها ما يكفل حياة مستقرة للمجتمع الإسلامي، وإنَّ تبيين خطأ المخطئ في الأمور وإن كرهه من النصيحة الواجبة لا من الغيبة المحرمة[٣]، ويجبذ أن توجه النصيحة إلى الحاكم ولا سيما في المراحل الأولى بأسلوب غير مباشر؛ حتى لا تثير في نفسيته أية حساسية تمنعه من الامتثال للحق، أو تقدم له على شكل استفسار لتذكيره ما فاته من الحق؛ فقد يقدم الحاكم على فعل الخطأ ظناً منه أنه الحق، وإن كان فيه إهدار لحقوق الآخرين في المجتمع، وبتذكيره قد يثوب إلى الصواب والحق[٤].

المقاضاة واستحقاق العزل

أما مقاضاة الحاكم ومحاكمته؛ فلأنه فرد من أفراد الدولة الإسلامية، وليس هناك شخص في الأمة الإسلامية فوق الشريعة، سواء كان حاكماً أو محكوما؛ فالجميع مطالب

١- فتح الباري ١/١٣٨.

٢- التمهيد ٢١/٢٨٤.

٣- انظر: نظرة النعيم ٨/ ٣٥٠٧

٤- الطغيان السياسي وسبل تغييره من المنظور القرآني ص٣٠٢.

بالخضوع للقضاء في أي منازعة بينه وبين أي فرد من أفراد الأمة، أو أي جماعة من أبنائها[١].

وأما استحقاق العزل فإن الحاكم بفسقه وظلمه وإساءته لا يكون مؤهلاً لحمل الأمانة، ويفقد الأهلية، فيكون مستحقاً للعزل[٢][٣].

١- مناهج الدعوة دروس مناهج التغيير ص ٣١.

٢- انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٦/٢٢٠، ومناهج الدعوة (دروس مناهج التغيير) ص٣١.

٣- هذا فيما يتعلق باستحقاقه للعزل، **أما هل ينعزل بذلك، أو هل يجب عزله بذلك؟**

فرى قوم ذلك، بشرط أمن الفتنة، قال الغزالي: «إن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته، وهو إما معزول، أو واجب العزل» ما لم يكن في الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق، وإلا فوجب تركه[إحياء علوم الدين ٢/١٤٠]؛ لأن ما فيه من الفسق والظلم يقعده عن القيام بالمهام المنوطة به، والنهوض بها، وقد نهى الله عن التعاون على الإثم والعدوان، ولا يجوز تضييع شيء من واجبات الشرائع.[تفسير القرطبي ١/٢٧١، والفصل في الملل لابن حزم ٤/١٣٥].

وقد روي عن عقبة بن عامر قال: بعث النبي ﷺ سرية، فَسَلَحْتُ رجلا منهم سيفا، فلما رجع قال: لو رأيت ما لامنا رسول الله ﷺ قال: "**أَعَجَزْتُمْ إِذْ بَعَثْتُ رَجُلاً مِنْكُمْ فَلَمْ يَمْضِ لأَمْرِى أَنْ تَجْعَلُوا مَكَانَهُ مَنْ يَمْضِى لأَمْرِى**"[رواه أحمد في المسند ٢١٩/٢٨ برقم: ١٧٠٠٧، وأبو داود ٤٧/٢ برقم: ٢٦٢٧]، قال في المرقاة: «وعلى هذا إذا ظلم الأمير رعيته، ولم يقم بحق حفظهم، جاز لهم أن يعزلوه، ويقيموا غيره مكانه، وقيل: هذا إذا لم يكن في عزله إثارة فتنة، وإراقة دم، فإن كان ذلك، فإن كان ظالماً في الأموال لم يجز لهم ذلك، وإن كان سفاكاً للدماء ظلماً، فإن كان حصول القتل في عزله أقل من القتل في بقائه على العمل جاز لهم قتله». مرقاة المفاتيح ١١/٤٩٦.

وذهب آخرون إلى أنه لا ينعزل بذلك، ولا يعزل به، وقد نقل النووي عن القاضي عياض بأن مذهب جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: بأنه لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يخلع، ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه؛ للأحاديث الواردة في ذلك، ولما يترتب على ذلك من الفتن، وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون مفسدة عزله أكثر في بقائه.[شرح صحيح مسلم ١٢/٢٢٩] فليس كل من استحق العزل يعزل.

بالإضافة إلى ما ذكروه فأن النبي ﷺ في الأحاديث السابقة قد أمر بالصبر على ظلم وجور الولاة مع أنه أخبر بأنهم يأتون أموراً منكرة، ولم يأمر بعزلهم، أو يخبر عن انعزالهم، كذلك فإن الغالب في أمر عزله أنه يحتاج معه إلى القوة وحمل السلاح، وهو ممنوع، خصوصاً مع عدم استقلالية سلطات الدولة؛ إذ أصبحت جميعها آلة في يد الحاكم الظالم، قد أحكم قبضته عليها، وهمش دور أهل الحل والعقد؛ فتعمد الحكام تقريب حاشية فاسدة منهم، وتوليتهم المناصب العليا.

فالكل يتفق على أن العزل إن أوقع في فتنة وإراقة دماء امتنع، بالإضافة إلى منعه بحمل السلاح للأحاديث الصحيحة المانعة من ذلك، وعلى أن يؤتي العزل أكله، ويولى به من هو أهل للولاية، وإلا فلا، مع نظرة فاحصة في واقع الأمة وما يحيط بها.

المطلب الثاني: الإعراض عن شكر النعمة

لقد أدر الله تعالى على سبأ -قبيلة معروفة في أدنى اليمن- في محلهم الذي يسكنون فيه -بلدة مأرب- من النعم وصرف عنهم من النقم ما يقتضي ذلك منهم أن يعبدوا الله ويشكروه، حيث كان لهم واد عظيم تأتيه سيول كثيرة، وكانوا قد بنوا سداً محكماً يكون مجمعاً للماء، فكانت السيول تأتيه فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتُغِلّ لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم ويحصل لهم الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة، منها:

* أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة؛ لحسن هوائها وقلة وخمها وحصول الرزق الرغد فيها.

* ومنها أن الله تعالى وعدهم إن شكروه أن يغفر لهم ويرحمهم.

* ومنها أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة - قيل إنها قرى صنعاء كما قاله غير واحد من السلف، وقيل إنها الشام- هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة من الأمن وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد، بسير مقدر يعرفونه ويحكمون عليه بحيث لا يتيهون عنه، ليسيروا فيها ليالي وأياماً آمنين مطمئنين في السير غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم أن أمنهم من الخوف.

فأعرضوا عن المنعم وعن عبادته، وبطروا النعمة وملوها، حتى أنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسرا، وظلموا أنفسهم بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطغتهم فأبادها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم المتوعر الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق العجيبة والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، وبدلهم بجنتيهم

جنتين ذواتي أكل أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً، وخمط وأثل وشيء من سدر قليل، وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم، فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح بدلت تلك النعمة بما ذكر؛ مجازاة على كفرهم بالله وبطر النعمة، فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا وتمزقوا بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يُتحدث بهم وأسماراً للناس، وكان يضرب بهم المثل فيقال: تفرقوا أيدي سبأ، فكل أحد يتحدث بما جرى لهم.

ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا كل صبار على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله ولا يتسخطها بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله تعالى يقر بها ويعترف ويثني على من أولاها ويصرفها في طاعته، فهذا إذا سمع بقصتهم وما جرى منهم وعليهم عرف بذلك أن تلك العقوبة جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن من فعل مثلهم فعل به كما فعل بهم، وأن شكر الله تعالى حافظ للنعمة دافع للنقمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق كما رأى أنموذجه في دار الدنيا[1].

قال الله تعالى حاكياً لنا هذه الواقعة: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا

١- انظر: تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص٦٧٧، ٦٧٨.

ءَامِنِينَ * فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[سبأ:١٥-١٩].

إن توحيد الصف، وجمع الكلمة والشتات، وتأليف القلوب، ولم الشمل، لمن أجل النعم وأعظمها، ولهذا امتن الله تعالى على عباده بتأليف القلوب، وجمع الشتات، ورفع الفرقة والنزاع، فقال جل من قائل سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[آل عمران:١٠٣]، وقال ﷻ: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال:٦٣].

وهذه النعمة من شأنها كما هو الحال في سائر النعم أن يقوم العباد بشكرها، والثناء على المنعم والمتفضل بها ﷻ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١] فهذه الآية تشمل النعم الدينية والدنيوية أي: اثن على الله بها، وانشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء والتحدث بنعم الله والاعتراف بها لله تعالى، ومن شكر كل نعمة ألا يُعصى الله بعد تلك النعمة، ومن شكرها معرفة المنعم وأن لا تعرف لنفسك في النعمة حظاً بل تراها من الله ﷻ[1] قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل:٥٣].

١- تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص٩٢٩، وتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ١٠٢/٢٠، وتفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن) ٥٠٠/٤، وتفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) ١٩٥/١.

والشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح، أما بالقلب فهو أن يقصد الخير ويضمره للخلق كافة، وأما باللسان فهو إظهار الشكر لله بالتحميد وإظهار الرضا عن الله تعالى، وأما الجوارح فهو استعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته[١].

قال ابن القيم في الشكر: «وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً، والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة»[٢].

إن شكر نعمة الوحدة يكون بالقلب بأن يقصد منها حب الخير ويُضمَر للخلق كافة، ويقصد منها العمل على تأليف قلوب الناس والسعي للوحدة العظمى للمسلمين، ويقصد منها السعي لجمع الشتات وتقوية الشعوب، ودحر مخططات اليهود والنصارى وأعوانهم العملاء، ويقصد منها التيسير والتسهيل على الناس بنزع الحدود الاستعمارية المصطنعة التي باعدتهم وعرقلت من سيرهم في الأرض، وضيقت عليهم، وأما باللسان فيكون بإظهار الشكر لله بالحمد والثناء والاعتراف بالفضل لله تعالى في جميع وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية، وفي الخطابات والكتابات، فهو ﷻ الذي هيأ أسبابها وسهل طريقها، فالفضل منه وإليه.

قال أبو تمام:

ومنَ الرزيةِ أنَّ شكري صامتٌ عما فعلتَ وأنَّ برَّكَ ناطقُ
وأخفُّ ما جشمَ امرؤٌ وسعى لهُ يوْماً لِذِي النُّعْمَى الثَّنَاءُ الصَّادِقُ

١- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ٦/٢٤١٨، ٢٤١٩.

٢- مدارج السالكين ٢/٢٤٤.

أأرى التصنيعةَ منكَ ثمَّ أسرها إني إذاً لِيَدِ الكِرامِ لَسَارِقُ[١]

وأنشد علي بن محمد:

علامة شكر المرء إعلان حمده فمن كتم المعروف منهم فما شكر[٢]

وأما بالجوارح -وهذا هو الجانب العملي التطبيقي- فباستعمال هذه الوحدة في طاعته تعالى والانقياد له، وإخضاع من دخل في هذه النعمة للشريعة الغراء، والحكم العادل الذي أمر الله تعالى به، والعمل على استثمار خيرات البلاد وإرجاع العائدات على العباد، والسعي في تطوير البلاد ورفع الفاقة والفقر عن الناس وتحسين مستواهم المعيشي وتوفير الحياة الكريمة لهم، وإعداد العدة الحربية القوية التي تحفظ لهذه البلاد المتحدة هيبتها ومكانتها أمام دول العالم، ويدخل في ذلك التسلح النووي الدفاعي، والعمل على إعادة الحقوق إلى أهلها ورفع المظالم وتحرير القضاء من الخضوع والخنوع، والعمل على إيجاد كل ما من شأنه تحقيق المصالح العامة لجميع أفراد البلاد الواحدة، والحذر من الاستعانة بهذه النعمة على معصيته تعالى أو السعي وراء تحقيق الأغراض والمصالح الشخصية أو تنفيذ مخططات الغرب من ظلم المحكومين والجور عليهم، وكل ما من شأنه أن يزعزع أركان هذه النعمة العظيمة.

قال الإمام الغزالي: «اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله

١- ديوان أبو تمام ص٦٥٨، ٦٥٩.

٢- روضة العقلاء ص٢٦٧.

عز وجل، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان»[١]، فلابد من اجتماع جميع أنواع الشكر.

قال الجنيد بن محمد: «حقيقة الشكر ألا يستعان بشيء من نعمه على معاصيه»[٢].

إن نسبة هذه النعمة إلى غير الله تعالى يتنافى مع شكرها، بل هو من الإعراض عن شكرها الذي هو صنف من الإعراض عن الحق، وقد عد الإمام ابن حجر الهيثمي الإعراض من الكبائر، وهي من كبائر الباطن التي يذم العبد عليها أعظم مما يذم على السرقة والزنا ونحوها من كبائر البدن؛ وذلك لعظم مفسدتها، وسوء أثرها ودوامه، والإنسان من طبعه الإعراض قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[فصلت: ٥١].

إن الله تعالى قد جمع كلمة الأوس والخزرج بسيدنا محمد ﷺ، ومع هذا ذكر الله تعالى أن هذا التأليف إنما هو منه ﷻ، وهذا النبي ﷺ يعيد الفضل في جمع الأنصار وتوحيدهم إلى الله ﷻ وحده، فعن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يعطِ الأنصار شيئا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: "يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي، كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ"[٣]، ودخل ﷺ مكة راكباً على ناقته القصواء مردفاً أسامة بن زيد

١- إحياء علوم الدين ٤/١٢٣.

٢- حلية الأولياء ١٠/٢٦٨.

٣- رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف ٤/١٥٧٤ برقم: ٤٠٧٥، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه ٢/٧٣٨ برقم: ١٠٦١.

بكرة[١] يوم الجمعة واضعاً رأسه الشريف على رحله تواضعاً لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى مكة وكثرة المسلمين[٢].

قال علي بن أبي طالب ﷺ: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد»[٣].

إن مما يعرض الوحدة للخطر أن تربط بالأشخاص أو الأنظمة؛ لأن الناس متى كرهوا هؤلاء الأشخاص أو تلك الأنظمة وكرهوا ولايتهم -لظلمهم وجورهم-، كرهوا هذه الوحدة، فمتى يُتفطن لهذا؟!!

هذا لا يعني أن لا يشكر الناس؛ لأنه "لاَ يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ"[٤] لكن المقصود العدل وإعطاء كل ذي حق حقه، فهل من حق هذه النعمة أن نجردها لغير الله تعالى؟!!

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[الأعراف:٥٨].

قال الإمام السعدي: «أي: ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله؛ بالاعتراف بنعمه والإقرار بها وصرفها في مرضاة الله، فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية؛ لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها، فرحين بها، فيتدبرونها، ويتأملونها، فيبين لهم من

١- الْبَكْرَة: هي الْفَتِيَّة من الإبل أي الشابة القوية، شرح النووي على صحيح مسلم ١٨٤/٩.

٢- السيرة الحلبية ٢٧/٣، والسيرة النبوية ٦٣/٥.

٣- عدة الصابرين ص٩٨.

٤- رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف ٦٧١/٢ برقم: ٤٨١١، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ٣٣٩/٤ برقم: ١٩٥٤، صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٣٥/١ برقم: ٩٧٣، من حديث أبي هريرة ﷺ.

معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة كما أن الغيث مادة الحياة، فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي تقبله وتعلمه وتنبت بحسب طيب أصلها وحسن عنصرها، وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها فإذا جاءها الوحي لم يجد محلاً قابلاً، بل يجدها غافلةً معرضةً أو معارضةً، فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ[١] والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئا»[٢].

الشاكر يسابق في أمر دينه ويقنع بأمر دنياه

عن عمرو بن شعيب عن جده عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"خَصْلَتَانِ مَنْ كَانَتَا فِيهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا، وَمَنْ لَمْ تَكُونَا فِيهِ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلاَ صَابِرًا، مَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَاقْتَدَى بِهِ، وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَيْهِ، كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَصَابِرًا، وَمَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، فَأَسِفَ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْهُ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلاَ صَابِرًا"**[٣].

إن هذا الحديث النبوي الشريف ينص على أن ينظر الإنسان في أمور الدين إلى من هو فوقه؛ حتى يعلم أنه مقصر فتشتد همته للطاعة، أما في أمور الدنيا فينظر إلى من هو دونه؛ حتى لا يزدري نعمة الله عليه، ولهذا جاء الأمر بذلك في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي

١-التي لا تُنْبِتُ من الأرض، فهي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه لينتفع بها غيرها. شرح النووي على صحيح مسلم ٤٨/١٥.

٢- تفسير السعدي ص٢٩٢.

٣- رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٦٦٥/٤ برقم: ٢٥١٢، ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي ٢٨٨/١ برقم: ٤٥١، ويشهد له حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ"**[رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه ولا ينظر إلى من هو فوقه ٢٣٨٠/٥ برقم: ٦١٢٥، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق ٢٢٧٥/٤ برقم: ٢٩٦٣].

ﷺ أنه قال: "انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ –قال أبو معاوية– عَلَيْكُمْ"(١).

إن هذا الحديث يشير إلى أمر يجمع القلوب، ويوحد الصفوف، ويرفع باب فتنة يقود إلى التمزق والتفرق؛ لأن الإنسان إذا نظر في أمور الدين إلى من هو أسفل منه ضيع وفرط، وإذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو أعلى منه تنقص النعمة، وربما قاده ذلك إلى اللجوء إلى السبل الغير مشروعة للحصول على المال من غش وسلب ونهب، فيتشاحن الناس، وتتنافر القلوب، ويتفرق المجتمع، خصوصاً إذا كان من المتنفذين ومن بيدهم القوة والسلطة، فيستخدمها لتحقيق أغراضه ومصالحه الشخصية، دون التفات أو نظر إلى الناس، فيقع الظلم بسلب الأموال والاستيلاء على حقوق الآخرين، ومخالفة أحكام الشريعة، وتركب المعاصي، وكل هذه أسباب وطرق لوقوع الفرقة والتمزق عافانا الله وجميع المسلمين.

إن هذا الأمر هو المشاهد والملموس في الواقع من المتنفذين في كثير من البلاد؛ حيث أعرضوا عن شكر النعمة، فجعل أحدهم ينظر في أمور دينه إلى من هو أدنى منه، بل ربما إلى من لا يحمل من الدين إلا النزر اليسير، فلهذا نجد التضييع والمخالفة الظاهرة لأحكام الشريعة، حتى وصل الأمر بالبعض إلى إعلان الحرب على الشريعة الإسلامية وحملتها بحجة التطرف والغلو، وينظر في أمور الدنيا إلى من هو أعلى وأغنى، فيجد أن ما معه يعتبر قليلاً ويسيراً بمقابلته مع من فوقه، وهكذا من فوقه ينظر إلى من هو أعلى منه، وهكذا بعض الوزراء والأمراء ينظر كل واحد إلى من هو أعلى منه حتى ينظر بعضهم إلى الحاكم، وبعض الحكام ينظر بعضهم إلى حال بعض، فيجد أحدهم نفسه بجوار الآخر من المعدمين، فيُسخر هؤلاء –المتنفذون والمسئولون والوجهاء والأمراء والوزراء والرؤساء والملوك– طاقاتهم

١– رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٧٥ برقم: ٢٩٦٣.

وجهودهم في العمل على زيادة الأرصدة -حتى بالممنوع- مما يلجئهم ذلك إلى النهب والسلب والسطو على الممتلكات العامة للدول والخاصة للشعوب؛ في سبيل تحقيق شرف المليونيرية أو المليارديرية، فشاع الفساد والظلم في ظل هذا الوضع من جهة، وفي ظل الوضع الاقتصادي الرديء المصطنع من أعداء هذه الأمة من جهة أخرى، مما تسبب في انتشار الفقر الفاحش والبطالة إلى حد كبير، فعندما تنظر الشعوب تجد أن المتنفذين عليها هم أصحاب الثراء الفاحش، ولها الفقر المتقع، فتضج الشعوب وتهيج وتضطرب خصوصاً عندما يشعر الفرد من أبناء هذه الشعوب أنه أصبح مذلاً مهاناً محتقراً، فيسهل على أي قوى داخلية أو خارجية العمل على تهييجها ضد هؤلاء المتنفذين، ويزداد الأمر خطراً عندما يصر أصحاب الأمر على مواقفهم وسياساتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تزيد الطين بله والأمر عله.

والخروج من مثل هذا المأزق بالإقبال على شكر النعمة، والنظر إلى حال الفقراء والمعدمين؛ ليعرف المرء نعمة الله عليه، والرجوع إلى الشريعة الإسلامية والتمسك بها والنظر إلى أهل الهمم العالية؛ ليرى المرء تقصيره وتفريطه، والحذر من خطوات الشيطان وجنوده من يهود ونصارى ومن سار على شاكلتهم.

من فوائد الشكر

الشكر للنعم ومنهما نعمة الوحدة ورد الفضل فيها إلى الله تعالى من كمال الإيمان وحسن الإسلام إذ إنه نصف الدين والنصف الآخر الصبر، وفيه اعتراف بالمنعم والنعمة، وهو سبب من أسباب حفظ النعمة، بل المزيد من الأمن والاستقرار والرخاء والألفة والأخوة والوحدة والبعد عن التفرق والتمزق والفتن والبلاء، قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم: ٧].

أنشد الكريزي:

أحــق النــاس منــك بحســن عــون لمــن ســلفت لكــم نعــم عليــه

وأشــــكرهم أحقهــــم جميعــــا بحســــن صــــنيعة مــــنكم إليــــه[١]

وبالشكر يؤدي الإنسان حق النعم، ويكسب العبد رضا الرب ومحبته، والإنسان الشكور قريب من الناس حبيب إليهم، وفيه دليل على سمو النفس ووفور العقل، والرغبة الصادقة في الإصلاح، والشكور قرير العين، يحب الخير للآخرين ولا يحسد من كان في نعمة[٢]، وهو طريق الوقاية من الفتن والقلاقل والاضطرابات في الدنيا والنجاة من العذاب في الآخرة قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[النساء:١٤٧].

أما الإعراض عن الشكر فدليل نقص الإيمان، وسفاهة الأحلام، والبعد عن الناس، وعن الله العزيز العلام، ودليل على الكبر فهو الدافع إليه في العادة، ويوقع في الضلال، والمعرض عن الحق والشكر ينساه الله في العذاب كما نسي ذكر الله وشكره، وهو طريق يوصل إلى النار وغضب الجبار[٣].

١- روضة العقلاء ص٢٦٤.

٢- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ٦/٢٤١٩.

٣- المصدر نفسه ٩/٣٩٢٦.

المبحث السادس: التآمر الخارجي

لقد سبق وأن أشرت في المقدمة إلى أن جمع الكلمة ووحدة الصف وتأليف القلوب وتوحيد المسلمين من أسمى المطالب وأغلاها وأجلها وأعلاها وأشرفها وأثمنها؛ لما ينتج عن ذلك من قوة ضاربة للمجتمع المسلم بحيث لا يجرؤ أعداؤه من التسلط عليه، وأشرت إلى أن حبيبنا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام قد أدرك هذا الأمر وأهميته، فبادر في أول تأسيسه للدولة الإسلامية إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وجمع كلمتهم وتوحيد صفهم وإزالة الفخر بالأنساب والعشائر والعصبة، فجمعت هذه الأخوة في صدرها الرحب والواسع بين علي القرشي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، فتكون مجتمع واحد صفه واحد، فقويت بذلك شوكتهم واستعصوا على عدوهم، فما استطاع مد أقوى وأعظم امبراطوريتين –فارس والروم– من الوقوف أمام زحفهم لنشر نور الحق والهداية لجميع الخلائق، بل سقطت تلك الامبراطوريتان أمام هذا المجتمع الموحد القوي، وأشرت إلى أن الأعداء نظروا إلى مصدر قوة الدولة الإسلامية، فوجدوا أن وحدتها وجمع كلمتها وصفها هو السبب الرئيس لذلك، فجعلوا يكيدون المؤامرات لتفريقهم وتمزيقهم، ونجحوا عندما أسقطوا الخلافة العثمانية، ومزقوا دولة الإسلام إلى دويلات صغيرة لكل دولة حدودها التي تفصلها عن غيرها، ومن ثم وردوا لنا كل سبل وطرق الفتنة والشتات والخلاف والتمزق تحت مسميات مرموقة كالديمقراطية المكذوبة؛ بدليل أن الغلبة إذا كانت في كفة الصالحين تكالب عليهم العالم بأسره من أقصاه إلى أقصاه كما حدث في فلسطين[1]، وإن كانت الغلبة للعملاء والظالمين المستبدين بارك العالم هذه العملية الديمقراطية المأثومة، ولا زالوا يمارسون الضغط على الحكومات العربية لتنفيذ كل الطرق

١– وانظر إلى ما حصل مؤخراً في مصر من تآمر عالمي على الرجل الصالح الرئيس المنتخب –ديمقراطياً– محمد مرسي –فك الله أسره وحماه–؛ وما نقموا عليه إلا أنه رجل يحمل هم دينه وأمته، فأين ديمقراطيتهم المزعومة المكذوبة!

والسبل والوسائل التي تمزق هذه الممزقات، ولا يزالون كلما وجدوا سبباً للفرقة والفتنة والتمزق صدروه لنا، وجعلوا له شعاراً منمقاً، وأوجدوا لهم عملاء يروجون لذلك تحت شعارات ومسميات زائفة خداعة.

إن اليهود والنصارى وأعوانهم وعملاءهم في العالم يدركون ما الذي تعنيه وحدة أبناء هذه الممزقات الإسلامية، ولهذا كلما وجدوا باباً يجمع هذه الأمة كسروه وأزالوه، وساعدهم على تسهيل ذلك عمالة مجموعة من حكام وأبناء هذه الممزقات، وإلا فلماذا لم تطبق فكرة إنشاء سوق إسلامية؟!! ولماذا لم تطبق فكرة إنشاء محكمة عدل إسلامية تنظر في القضايا الدولية المقدمة ضد الدول الإسلامية وأفرادها؟!!

الجواب هو أن قيام السوق الإسلامية يمهد لقيام اتحاد إسلامي، وهذا الاتحاد يعني أن دول الاتحاد تدخل في اتفاقية تنص على أن أي اعتداء على أي دولة من دول هذا الاتحاد يعني اعتداء على كل دول الاتحاد، وبالتالي لا بد أن يتخذ الاتحاد قراراً حازماً حيال هذا الاعتداء، وهذا ما لا يريده أعداء الإسلام، ولهذا لما طرحت أمثال هذه المقترحات أعقبها ضغط خارجي على الحكام لإفشال تنفيذ هذه الأفكار التي تنهض بهذه الأمة وتعيد لها مكانتها بين أمم العالم، ولهذا لما رأوا أن تحقيق الوحدة اليمنية أوجد الأمل في توحيد جميع الممزقات الإسلامية، بادروا الآن إلى بذل جهود قوية مادية ومعنوية لإثارة الفتن فيهم، وإشعال فتيل التمزق والانفصال بالتأثير في الناس بطرق مباشرة وغير مباشرة، وأشعلوا في قلوبهم العصبية والمناطقية، ووجد ممثلوهم تأييداً شعبياً قوياً؛ لأنهم استغلوا وتعلقوا في تحقيق هذا الهدف الخسيس بالواقع والظروف السيئة والمتردية التي يعيشها هؤلاء، بل تعيشها البلاد برمتها من ظلم وسلب ونهب للثروات والممتلكات العامة والخاصة من قبل المتنفذين، وزاد الطين بلة والأمر علة عدم استقلالية القضاء؛ نظراً لتسلط هؤلاء المتنفذين عليه، ومما زاد الأمر سوءً الحالة الاقتصادية المتردية والمتدهورة والمنهارة التي تنذر بمزيد من التدهور،

وفشو وانتشار الوساطة والمحسوبية والرشوة مما أدى إلى ضياع الحقوق وانتشار الفساد والظلم وزيادة البطالة وانتشار الفقر، كل ذلك هيأ بيئة خصبة للدعوة إلى تمزيق وتشطير البلاد، وسهل انتشار هذه الدعوى والتفاف الكثير من حولها رجاء التخلص من هذا الواقع الأليم والمرير الذي أصبح الفرد يرى نفسه فيه مهانا، فتكون حراك يدعو إلى الانفصال، أفراده من أبنا هذا البلد، نواياهم ومقاصدهم حسنة، إلا أنهم لا يدركون تماماً أن ما قاموا إليه ويقومون به وراءه قوى خارجية تسعى من وراء تأييده أودعمه إلى تشطير البلاد وتمزيقها؛ لتضعيفها -ليسهل بعد ذلك الانقضاض على كل فريسة على حدة- لا لإزالة الظلم الواقع عليهم، وإلا فلماذا لا تصرخ هذه القوى الخارجية في وجه الحكومة وتدعوها صراحة أمام كل العالم إلى إصلاح وضع البلاد ورفع الظلم والفساد؟!! لماذا تدعم هذه القوى الحراك ليقوم ضد الحكومة وفي نفس الوقت تدعم الحكومة لتطوير فسادها وتبرم معها الصفقات الغير قانونية التي تسلب وتنهب فيها أموال وثروات هذا الشعب؟!! لماذا لا يتركون التعاون مع هذا النظام الفاسد ويقاطعونه ويقفون عن إبرام الصفقات معه حتى يسوي من وضعة؟!!.

وكذلك السودان نجد فيه سعي من القوى الخارجية وسيلان لعابها لقضية دار فور والعمل على تهييج سكان الإقليم ضد الحكومة واستثارة قادة الإقليم، وحملة إعلامية منظمة ومدروسة تصور وضعاً رهيباً مريعاً مرعباً في الإقليم لتشكيل رأي عام عالمي يدعوا إلى النهوض على الحكومة وإسقاطها وشن الحرب عليها، والسبب في الظاهر تخليص أهل الإقليم من الظلم والفساد والمجاعة، وفي الباطن الانقضاض على الثروة النفطية للإقليم كما حصل تماماً في العراق، غير أن أكذوبة العراق كانت أسلحة الدمار الشامل، وأما دار فور فأكذوبتها قلوبهم التي تحمل في ظاهرها الرحمة وفي باطنها الخبث والكيد والمكر والحقد...

ونجد أكذوبة أخرى من طراز آخر فريد هي أكذوبة مكافحة القرصنة في الصومال والتي يهدفون من ورائها إلى الانقضاض على الصومال؛ لما يمتلكه من موقع استراتيجي كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

إذاً وبكل بساطة نقول: إن هذه القوى لا تهدف إلى رفع الظلم عن هؤلاء المظلومين، بل تريد تمزيق وحدة هذه الشعوب[1] والتي جعلت من هذه البلاد قوة ليس من السهل تفكيكها، ومن ثم الانقضاض على ثرواتها، فلابد من التنبه والحذر من السير في طريق الهبوط والمشاركة في تمزيق الصف، والحذر من أن نجعل الحماسة والغضب يعميان عن الأخذ بالحق، ولا يعني هذا الخنوع للظلم، بل نطالب الحكومات بإصلاح الأوضاع، ورفع الظلم والفساد، مطالبة ليس معها قتل وسلب وحرق للممتلكات العامة والخاصة، ولو وقف أبناء هذه البلدان وجميع بلدان الإسلام يدعون إلى رفع الظلم وإعادة الحقوق، لوجدت الدول نفسها مضطرة للخضوع للمطالب، وعلى الدول أن تحذر من السير وراء مخططات الأعداء لتمزيق اقتصاد البلدان تحت مسمى الإصلاحات الاقتصادية، فهي إفسادات اقتصادية تحطم الاقتصاد وتقضي عليه تنفيذاً للمخطط الرأسمالي الساعي إلى نزع الأموال من الشعوب وجعلها في يد فئة قليلة من الناس لا تزيد عن ٢٠% هي الثلة الرأسمالية؛ يهدفون من وراء ذلك إلى إذلال الشعوب وإهانتها وعولمتها لتكون لهم السيادة والكلمة، وشعارهم في ذلك جوع كلبك يتبعك، ومن لا يملك قوته لا يملك قراره، وقد انجرت كثير من الحكومات وراء هذه المخططات، وأبرمت الاتفاقيات على ذلك مع ما يسمى بالبنك الدولي تحت شعار ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، وهو شعار النهوض بالاقتصاد وتطويره والسعي لتحقيق الإصلاحات الاقتصادية والرقي بالبلدان كما حصل في اليمن بعد عام تسعين، هذه هي الأكذوبة التي لعب فيها البنك الدولي وأسياده

١- وهذا ما حققوه فعلاً في السودان؛ إذ فصلوه إلى دولتين، ويسعون إلى غيرها.

على كثير من الحكومات ومنها الحكومة اليمنية بعد عام تسعين لتمزيق وحدتها بنفس بارد من خلال تحطيم اقتصادها، والمؤسف أن الدولة أهملت نداء أهل الخبرة والاختصاص وأصحاب النظر الثاقب من العلماء والمختصين آن ذاك عندما نهضوا ووقفوا في وجه هذه الإفسادات الاقتصادية التي خدع بها الكثير، وبينوا حقيقتها بكل وضوح لكبار مسئولي الدولة، وها هي النتيجة الحقيقية لهذه الاتفاقيات الخبيثة تظهر في الواقع، وما سياسات التجريع والتجويع والإهانة والإذلال لهذه الشعوب وأوهام السياسات الاقتصادية التي الدول ماضية في تطبيقها إلا لتنفيذ هذه المؤامرة والمكيدة اللعينة على أبناء هذه البلدان؛ للقضاء على وحدتها، وما ارتفاع المحروقات من بترول وديزل وغاز إلا لتحقيق ذلك؛ إذ بارتفاعها خصوصاً الديزل يكثر الفقر وتنتشر البطالة وترتفع السلع، وتقل الزراعة الداخلية وتتحجم وتكاد تختفي، ويصبح قوت الشعوب المسلمة يأتيها من الغرب فإذا ما رفضت هذه الشعوب أن تستجيب للمقررات الرأسمالية العالمية فرض عليها الحضر الاقتصادي الذي يركعها ويذلها، والمحزن في هذا الأمر كما أشرت سابقاً أن الحكام والمسؤولين يدركون هذا تماماً ويعلمون يقيناً أن هذه الجرعات تهلك البلاد والعباد وتنفذ مخططات اليهود والنصارى، فإلى متى يا مسؤولي البلاد؟!! ولماذا تسمون المكر والخديعة والأكاذيب الفظيعة سياسات حكيمة؟!! فالحذر الحذر من الاغترار بالإمهال فـ"إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ"[1]، وكفاكم سيراً وراء مخططات اليهود والنصارى والأمم المتحدة والبنك الدولي المنتن برباه الذي يضغط عليكم لممارسة الفساد الاقتصادي ورفع الأسعار؛ ليزيد من إشعال فتيل الفتنة، فالحذر الحذر من مكرهم وكيدهم بكم وبشعوبكم؛ فإنهم

١- رواه البخاري، كتاب التفسير، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود:١٠٢] ١٧٢٦/٤ برقم: ٤٤٠٩، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ برقم: ٢٥٨٣.

يكيدون بالجميع ويستعملونكم أداة لتحقيق أغراضهم وأهدافهم، فإذا ما حققوها تخلصوا منكم إن لم تقضِ عليكم هذه الأغراض التي استخدمتم فيها، أما لكم في القادة والحكومات التي قدمت كل الولاء لليهود والنصارى ثم تركوا ولم تتشرف أي دولة منهم أن تعطي أحدهم حتى اللجوء السياسي، فالحذر الحذر من أعداء الإسلام؛ فإن من عادتهم منذ بزغ فجر الرسالة التآمر على أهل الإسلام والكيد والمكر للإسلام والمسلمين، وإثارة الفتن بينهم، والحرص كل الحرص على تمزيق كلمتهم وتشتيت صفهم؛ ليصبحوا لقمة سائغة لهم.

فقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: «مر شاس بن قيس اليهودي -وكان شيخاً قد عسا[1] في الجاهلية عظيم الكفر شديد الطعن في المسلمين شديد الحسد لهم- على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: لقد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شاباً من اليهود كان معه-وأمثاله عملاء اليهود اليوم- قال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب: أوس بن قبطي أحد بني حارثة من الأوس، وحيان بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددتها الآن جذعة وغضب الفريقان

١- عسا أو عشا: بالسين كبر وأسن، من عسا القضيب إذا يبس، وبالشين قل بصره وضعف، انظر: لسان العرب ٥٤/١٥.

جميعاً وقالا: قد جعلنا السلاح موعدكم الظاهرة وهي حرة وخرجوا إليها وانضمت الأوس والخزرج بعضها على بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: "يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، بَعْدَ إِذْ أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَلَّفَ بَيْنَكُمْ؟ تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفَّارًا، اللَّهَ اللَّهَ"، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، وأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[آل عمران:٩٩]»[١].

والأحاديث في مكر اليهود والنصارى بالنبي ﷺ والمسلمين والتآمر عليهم لا تكاد تحصر، منها: حديث الإفك، وحديث زينب بنت الحارث التي سمت النبي ﷺ ، ومحاولة قتله عندما ذهب لإحضار دية الرجلين، وغير هذا الكثير، فكل ما يظهر فيه جمع كلمة المسلمين فإنه يغيض الشيطان وإخوانه وأعوانه من اليهود والنصارى والمنافقين، ولهذا جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: "مَا حَسَدَتْكُمْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ"[٢]، لما في إفشاء السلام من حصول المحبة والألفة والأنس وصفاء القلوب والدلالة على اجتماع الكلمة، ولما في التأمين من موافقة تأمين الملائكة وغفران الذنوب بذلك، وصدورها من المصلين بصوت واحد تهز قلوب

١- تخريج الأحاديث والآثار ٢٠٩/١ برقم: ٢١٩، والجواهر الحسان للثعالبي، ١٥٨/٣، وفتح القدير ٣٦٧/١.

٢- رواه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الجهر بآمين ١/ ٢٧٨ برقم: ٨٥٦، صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ١٤٢/١ برقم: ٦٩٧.

السامعين وتشعر هذه القوة في الصوت الظاهرة -لوحدتهم في نطق هذه الكلمة- بأن القوة في الصف تحصل بتحقيق الأخوة والوحدة كما حصلت قوة الكلمة بها، وتظهر قوة هذه الأبدان والقلوب والنفوس إذا اجتمعت في صف وخندق واحد، وهكذا كل ما من شأنه جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفهم.

إن النصارى والأوروبيين لا ينسون صليبيتهم التي جعلتهم يتعاقبون على بلاد الشام ومصر على مدى مائتي سنة من القرون التي يصفونها بالوسطى فيما سمي بالحروب الصليبية، كما أنهم فيما بعد استأصلوا الوجود الإسلامي العربي في الأندلس الذي استمر ثمانية قرون، ثم في القرنين الماضيين تدفقوا على العالم الإسلامي فيما سمي بالاستعمار وكذلك الاستيطان كما في قازاقستان وأوزبكستان وقرغيزستان والجزائر وفلسطين وماليزيا وسنغافورة، ثم أعادوا تدفقهم في هذه السنوات فيما سمي بالحرب على الإرهاب، وشنوا حروب إبادة على الشيشان والبوسنة والهرسك وفلسطين والعراق وأفغانستان، وصنعوا الفوضى الخلاقة التي تخلق لهم فرص التآمر في معظم العالم الإسلامي[١][٢].

١- نقلاً عن مقال للشيخ محمد الصادق رئيس قسم التزكية في جامعة الإيمان نقلته عنه صحيفة صوت الإيمان العدد: ٢٠٤/ محرم/ ١٤٣١هـ- يناير/ ٢٠١٠، ص ١٠.

٢- وانظر اليوم إلى مواقفهم تجاه ما يجري للمسلمين في البلاد العربية والإسلامية، خصوصاً سوريا وبورما، يتفرجون ويسوفون ويماطلون في اتخاذ موقف جاد وحاسم، ويكتفون بمجرد التنديد -هذا إن تكرموا-؛ كيدا ومكرا، ولا يتخذون إي موقف جاد إلا فيما فيه الحفاظ على مصالحهم، لذا يدعمون القتلة العملاء لهم سياسياً وعسكرياً؛ إخماداً لشعوبهم المنتفضة عليهم، وسعياً إلى تمزيق الأمة الإسلامية، وتدمير مقدراتها، والقضاء عليها، نسأل الله أن يجعل كيدهم ومكرهم عليهم -آمين-.

مجالات التآمر الخارجي

إن التآمر الخارجي على الدول الإسلامية لم يقف عند مجال معين ويقتصر عليه، بل امتد ليشمل جميع نواحي الحياة وكافة المجالات، ولن يتوقف هذا التآمر عند حد حتى يروا كفرنا بالله مثلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[البقرة:١٢٠]، وقال ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة:٢١٧].

إن على الأمة الإسلامية وحكامهما الانصياع لأمر الله تعالى الذي بين فيه لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام بأن اليهود والنصارى لم ولن يرضوا عنه وعن أمته حتى يتبعوا ملتهم بالموافقة لهم فيما هم عليه، فبين بذلك شدة عداوتهم للرسول ولأمته ما تمسكوا بدينهم وحافظوا عليه، وأنهم لا ولن يرضوا عن أهل الإسلام مهما قدموا ويقدمون من التنازلات حتى يرتدوا عن دين الله.

قال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: «فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة –عياذا بالله من ذلك– فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته»[1].

١– تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ١/١٦٤.

فلتحذر الأمة من الركون إلى شيء مما يمليه الغرب عليها.

قال الإمام السمرقندي: «فأخبره الله تعالى أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، فنهاه الله عن الركون إلى شيء مما يدعون إليه»[١].

وقال الإمام الطبري: «فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق؛ فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم»[٢].

وقال الإمام البيضاوي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾: «إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم، وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم، وحتى للتعليل»[٣].

وقال الإمام ابن كثير: «قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ أي: ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين»[٤].

فمهما وجدوا من سبيل في أي مجال من المجالات سارعوا إليه.

١- تفسير السمرقندي ١/١١٦.

٢- تفسير الطبري ١/٥١٧.

٣- تفسير البيضاوي ١/٥٠٢.

٤- تفسير ابن كثير ١/٢٥٥.

وإلى صور من مجالات هذا التآمر على هذه الأمة:

التآمر على هذه الأمة في المجال العسكري

أولاً: موقف الأمم المتحدة[١] من المسألة الاستعمارية

لم تتطرق مواد ميثاق الأمم المتحدة إلى الحديث عن الاستعمار إلا في تسع عشرة مادة من إجمالي مواد الميثاق البالغة مائة وإحدى عشرة مادة، بالرغم من أن الحركة الاستعمارية كانت لا تزال طاغية في وقت صدور هذا الميثاق، مما يدل دلالة واضحة على أن تلك المنظمة الدولية لم تتخذ موقفاً جاداً تجاه المسألة الاستعمارية منذ البداية، والواقع يدل على أن دور عصبة الأمم[٢] -بل عصابة- الأمم الملحدة لم يختلف عن دور وريثتها هيئة الأمم

١- أُنشئت هيئة الأمم المتحدة في ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥م، بعد الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة، فبينما كانت الحرب تقترب من نهايتها، قررت الدول التي وقفت ضد ألمانيا، وإيطاليا، واليابان ألاّ يتكرر حدوث مثل تلك الحرب مرة أخرى، فاجتمع ممثلو تلك الدول في سان فرانسيسكو -كاليفورنيا- الولايات المتحدة في إبريل ١٩٤٥م، وتوصلوا إلى خطة لإنشاء منظمة تساعد على حفظ السلام في العالم، ثم أُدرِجت تلك الخُطّة في وثيقة سُمِّيت ميثاق الأمم المتحدة، قامت بالتوقيع عليه ٥٠ دولة في يونيو ١٩٤٥م، فصارت من أوائل الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة، ومنذ ذلك التاريخ انضمت أكثر من ١٠٠ دولة أخرى كان معظمها لا يزال مستعمراً عند إنشاء هيئة الأمم المتحدة، وباستثناء دول صغيرة جداً فإن الدولة المستقلة الوحيدة التي لم تنضمَّ للأمم المتحدة هي سويسرا، وتؤكد وثائق الأمم المتحدة أن لها هدفين رئيسيين هما السَّلامُ والكرامةُ الإنسانية، ومن أهداف الأمم المتحدة الأساسية تحديد أسباب الحرب لإيجاد الوسائل الكفيلة بإزالتها، وإن نجحت هذه الهيئة في حل بعض المشكلات، إلا أنها فشلت فشلاً ذريعاً في حل قضايا العالم العربي والإسلامي وعلى رأسها قضية فلسطين والعراق وأفغانستان، انظر: الموسوعة العربية العالمية، ومجلة البيان ١١١/٨٧.

وانظر اليوم ما الذي فعلته الأمم المتحدة تجاه ما يجري في البلاد الإسلامية والعربية -خصوصاً أرض سوريا التي يقتل شعبها كل يوم- غير مهنة رخيصة يمارسها أمينها العام وهي إعرابه عن قلقه الذي من كثرته قد أقلق من لا يعرف القلق، إنها عصابة تسيطر عليها الدول الكبرى للعبث بالقرار العالمي كيفما ومتى شاءت، وللمراوغة ودغدغة عواطف المخدوعين.

٢- عُصبة الأمم: رابطة دولية أنشئت للحفاظ على السلام بين أمم العالم، صاغت الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى -وتضم فرنسا وإنجلترا وإيطاليا واليابان والولايات المتحدة- ميثاق (دستور) العصبة في عام١٩١٩م، وتأسست العصبة في

في موقفيهما من الاستعمار على الأقل في الفترة التي سبقت احتدام الحرب الباردة[1]، فعصبة الأمم كانت قد ابتدعت نظام الانتداب؛ لمعالجة الأوضاع القانونية للمستعمرات التي كانت خاضعة للدول المهزومة في الحرب العالمية الأولى خاصة تركيا وما كان يتبعها من بلاد الإسلام، ثم أدخلت الأمم المتحدة بعض التعديلات على نظام الانتداب وأسمته نظام الوصاية، وقررت أن يسري هذا النظام على المستعمرات التي كانت خاضعة للدول المهزومة في الحرب العالمية الثانية، ورجح ميثاقها كفة المصالح الاستعمارية على كفة الشعوب المستعمرة، وتمثل ذلك عملياً في تمكين القوى الاستعمارية من استغلال الفرصة كاملة في تثبيت أقدامها وضمان مصالحها في المناطق المستعمرة، تحت زعم تهيئة الشعوب وإعدادها لتكون قادرة على حكم نفسها بنفسها، وكانت هذه فرصة ذهبية للدول الاستعمارية، استغلتها أبشع الاستغلال حيث أثبت الواقع بعد ذلك أن تلك الدول لم تغادر تلك المناطق إلا بعساكرها تاركة الشعوب المستعمرة في حالة من التبعية الذليلة، أو الفوضى المستمرة التي تسمح بالتدخل كلما لاحت فرصة، وساعد على هذا الموقف أن بريطانيا زعيمة الاستعمار القديم كانت لا تزال قوية، بل كانت شريكة للولايات المتحدة وروسيا في تحقيق انتصار الحلفاء الذي توج بإنشاء الأمم المتحدة، وقد أدت عوامل كثيرة بعد ذلك –ليس منها ميثاق المنظمة– إلى تحول في شكل الاستعمار ومضمونه، ذلك أن

=يناير عام١٩٢٠م، واتخذت من جنيف بسويسرا مقراً لها، كان ودرو ولسون رئيس الولايات المتحدة المخطِّط الرئيسي للعصبة، ولكنه لم يتمكن من إقناع الولايات المتحدة بالانضمام إليها، انحلت العصبة في أبريل عام١٩٤٦م، وحلت محلها الأمم المتحدة، انظر: الموسوعة العربية العالمية.

١– الحرب الباردة كانت بعد فترة قصيرة من نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث أصبحت أوروبا مركزاً للصراع بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي، كانوا الشيوعيون بزعامة الاتحاد السوفييتي سابقاً، والرأسماليون بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ولقد عرف هذا الصراع الذي بلغ أوجه في الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين بالحرب الباردة، وبدأت الحرب الباردة ١٩٤١م وانتهت ١٩٦٠م، الموسوعة العربية العالمية.

الولايات المتحدة الأمريكية عزمت على وراثة وتحديث الاستعمار القديم الذي كانت تقوم عليه دول عدة كانجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وبلجيكا وجنوب أفريقيا، ونجحت أمريكا في إلهاب المشاعر ضد الاستعمار القديم، وعمل الاتحاد السوفييتي في المجال نفسه، وسار على الضرب ذاته كجزء من استراتيجيته لإضعاف المعسكر الأوروبي الغربي وتفتيته وحرمانه من عمقه الاستراتيجي والاقتصادي، وكذلك أراد أن يخطب ود الشعوب المستعمرة على أمل أن تصبح جسراً لبناء النفوذ خارج منطقة حلف وارسو، ثم ألقت كلا القوتين -الاتحاد السوفييتي وأمريكا- بثقلهما في الأمم المتحدة لتشجيع حركة التحرر من الاستعمار القديم؛ لتقتسم القوتان بعد ذلك العالم كله وتقسمه إلى معسكرين متقابلين: المعسكر الشيوعي الشرقي، والمعسكر الرأسمالي الغربي، فرد الله كيدهم في نحورهم فما مضى إلا زمن على هذا المخطط حتى سقط أحد المعسكرين الحديثين، وتفردت الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم عند قيادتها للأمم المتحدة والأمم غير المتحدة، وها هي الآن بطريقها إلى الانهيار كسابقتها، نسأل الله تعالى أن يعجل بذلك آمين.

ثانياً: موقف الأمم المتحدة من مسألة التسلح:

اهتمت الفقرات التي تناولت الحديث عن نزع السلاح في ميثاق الأمم المتحدة بالكلام عن تنظيم التسلح بين الدول الكبرى؛ لأن للدول المبرمة للميثاق أوثق الصلات بالسلاح وبقوة السلاح، وجاء في المادة الحادية عشر للميثاق: (إن للجمعية العامة أن تنظر في التعاون لحفظ السلم والأمن الدوليين فيما يتعلق بنزع السلاح وتنظيم التسليح)، وبعد التوقيع بالأحرف الأولى على هذا الميثاق، وبعد أقل من شهرين على إبرامه قامت الولايات المتحدة الأمريكية بإلقاء قنبلتين ذريتين: إحداهما على مدينة هيروشيما اليابانية في ٦ أغسطس١٩٤٥م، والثانية على مدينة نجازاكي في ٩ أغسطس ١٩٤٥م، ويبدو أن الولايات المتحدة أرادت بذلك أن تطبق عملياً ما فهمته من دعوى الأمم المتحدة إلى نشر

السلم والأمن الدوليين! وبعد عام -أي سنة ١٩٤٦م- شكلت الجمعية العامة للأمم المتحدة لجنة تابعة لها أطلقت عليها لجنة الطاقة النووية تدعو إلى ضمان استخدام الطاقة النووية في الأغراض السلمية، ولكن بعد دخول بقية الدول الكبرى النادي النووي لم تطبق دعوة الأمم المتحدة بحزم إلا على الدول غير الكبرى وبخاصة الدول الإسلامية، بل إن العديد من الدول غير الكبرى سمح لها بتملك السلاح النووي؛ لأنها غير إسلامية مثل الهند وجنوب إفريقيا وإسرائيل!.

إن سبب السماح لهؤلاء بتملك السلاح النووي في الوقت الذي لا يسمح فيه أبداً للدول المسلمة هو الإصرار الدولي تحت مظلة الأمم المتحدة على إبقاء المسلمين بمجموعهم رهن الإذلال النووي في قارات العالم؛ ليتنقل المسلمون من تهديد اليهود إلى تهديد النصارى إلى الوثنيين وهكذا، والويل ثم الويل لمن أقدم أو أعلن أو نوى السعي إلى تملك هذا السلاح من القادة المسلمين أو حتى المنتسبين منهم إلى المسلمين؛ لأن الأمم المتحدة ستكون له بالمرصاد[1]، بينما التهديدات اليهودية والنصرانية النووية التي تنموا وتترعرع تحت سمع وبصر ما يسمى الشرعية الدولية، فهذه إسرائيل وفرنسا في زمن متقارب في أوائل الخمسينات توحدان مساعيهما نحو برنامج للتسلح النووي، هذه بالتجسس وسرقة الأسرار، وتلك بالتقنية ورصد الأموال، وبلغ التعاون بينهما ذروته قبل حرب السويس عام ١٩٥٦م، ولما حدثت الحرب واحتل اليهود أجزاء من سيناء، أرادت الأمم

١- وانظر مصداق ذلك ما الذي فعلوه اليوم بمحمد مرسي ومصر؛ لما فتح باب التصنيع العسكري للسلاح، وتطوير السلاح القديم، وبدأ يعمل على إبرام صفقات أسلحة، وأعلنها مدوية في خطابة (نعمل على امتلاك غذائنا ودوائنا وسلاحنا)، ثم النتيجة تآمر عالمي -وللأسف عربي- للإطاحة به، ليقبع اليوم خلف القضبان، والمؤامرة تجري على قدم وساق لتصفيته، لا لشيء، إلا لأنه فتح أهم ملفات تحقق الاكتفاء الذاتي لمصر -ومن ثم تنعم الأمة منها بعد ذلك- ملف الغذاء، وملف والدواء، وملف التسليح، وفتح الأخير -ملف التسليح- على مصراعيه للجيش المصري، فأرعب العدو، والخونة والعملاء.

المتحدة التدخل بإرسال قوات تشرف على الانسحاب بعد وقف القتال، فاشترط رئيس وزراء إسرائيل أن يسمح لإسرائيل ببناء مفاعل نووي في أراضيها، وبالفعل استمر التعاون بين فرنسا وإسرائيل بعلم الولايات المتحدة، ومن ثم بإقرار ضمني من الأمم المتحدة، ثم جاءت الثمرة بمفاعل نووي إسرائيلي في ديمونة بمنطقة النقب هو كالتوأم للمفاعل النووي الفرنسي، ثم انتقل بعد ذلك التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية حتى طلبوا منها أن تمد مظلتها النووية فوق إسرائيل، ولم يأتِ عام ٧٣ -الذي حدثت فيه حرب أكتوبر- إلا والمفاعل النووي الإسرائيلي قد أنتج أكثر من عشرين قنبلة نووية، ومن المعروف أن هذه الحرب لم تنته إلا بعد تهديد إسرائيلي باستخدام القنابل النووية موجهة الإنذار إلى العرب وأمريكا إذا لم تسارع بإقامة جسر جوي لإمداد إسرائيل بالأسلحة والذخائر التي تحتاج إليها لخوض حرب شاملة طويلة المدى، وعندما استخدم صدام حسين صواريخ سكود ضد إسرائيل في مظاهرة دعائية نصبت إسرائيل على الفور منصات صواريخ متحركة مزودة بأسلحة نووية ومصوبة نحو العراق؛ ظناً منها بأن صواريخ صدام قد تكون مزودة بأسلحة كيمائية سامة وأعطى شامير أوامره حسب ما ذكر سيمور هرش في كتابه (الخيار شمشون) باستخدام السلاح النووي إذا دعت الضرورة، ولما انتهت الحرب ووضعت أوزارها في مدريد لم ينسَ شامير أن يصطحب في جعبته ورقة التهديد النووي ضد العرب.

إن اليهود لا يزالون يواصلون أبحاثهم المكثفة لإنتاج أجيال جديدة من القنابل النووية التي تعمل بأشعة الليزر، والتي تمثل قفزة نوعية أخرى في مجال الإرهاب الرسمي على مستوى الدول، فهل لا تزال الأمم المتحدة لا تعرف شيئاً عن ترسانة اليهود النووية والكيميائية التي لم تشر إليها في جمعيتها أو مجلسها أو محكمتها ولو بقرار شجب أو إدانة أو حتى مشاعر قلق[1].

١- انظر: الأمم المتحدة علينا! نظرات في مواقف المنظمة الدولية والمتنفذين فيها تجاه الأمة الإسلامية لعبد العزيز كامل، نقلاً عن مجلة البيان، العدد٩٦، ص٤٨.

من مظاهر التآمر العسكري في الواقع

ولنرصد من الواقع مجموعة من مظاهر التآمر العسكري في عدة بقاع من أمتنا العربية والإسلامية:

فلسطين: وقصة التآمر عليها قديمة ومريرة ومعروفة للقاصي والداني، حيث سعت القوى الاستعمارية إلى جعلها نقطة ارتكاز للمشروع الصهيوني الغربي ليشق الكيان الإسلامي والعربي، فلا يلتئم له شمل، ولا تقوم له قائمة، وقد ظهر التآمر الخارجي والدولي على هذه القضية واضحاً جلياً في أحداث معركة الفرقان في غزة، وللأسف التآمر الخارجي العربي الذي نبرأ إلى الله تعالى منه ومن كل من أقدم عليه.

العراق: الذي وقع فريسة لقوى الاستكبار العالمي، وعلى رأسها أمريكا وتابعتها بريطانيا وباقي العملاء، بمبررات باطلة ودعاوى كاذبة صرح بها الخسيس بوش أذله الله، إذ أعلن أسفه لفشل استخباراته العسكرية في العراق عن وجود أكذوبة أسلحة الدمار الشامل التي وضعوها، وعلى فرض أن العراق كان يمتلكها أفلا يحق للعراق أن يمتلك سلاحا نوويا كما يحق ذلك لإسرائيل؟!! وليت العراق كان يمتلكه ليدافع عن نفسه، ولو كان يمتلكه لما تجرؤ أن يقتربوا منه كما هو الحال مع كوريا الشمالية وإيران، لقد أبادوا أبناءه ودمروا مقوماته ونهبوا خيراته ومزقوا كيانه ونشروا الفوضى في أرجائه، ثم يقول: خطأ استخباراتي، كذب قبحه الله ولعنه وأذله وإنه ليعلم ذلك من أول الأمر حين وضع هو وخنازيره هذه الأكذوبة؛ ليصلوا من خلالها إلى منابع الثروة في العالم وتقاريرهم تقول بأن بغداد تسبح فوق بحيرة من النفط، وتشير التقارير إلى أن العراق تمتلك أكبر مخزون نفطي في العالم، مع ما في كتب اليهود المحرفة من زعم بأن دولتهم لن تقوم حتى يذل أهل بابل- أي العراق-، فالحرب حرب عقيدة من جهة، وحرب ثروة من جهة أخرى، فأمريكا نفسها التي احتلت العراق وسفكت فيه الدماء وهتكت فيه الأعراض بحجة سلاح الدمار الشامل

هي نفسها التي ترسل لإسرائيل على مرأى ومسمع من العالم كله هذا السلاح لقتل إخواننا المسلمين في أرض فلسطين عموماً وأرض غزة خصوصا، بل إنها قتلت أبناء العراق بسلاح دمار شامل محرم دولياً، فمن الأولى بالاحتلال وإسقاط نظامه العراق أم أمريكا وإسرائيل؟! فمتى يستيقظ حكام أمة الإسلام؟!بل متى تستيقظ أمة الإسلام؟!

أفغانستان: الذي صُب فوق رأسه الحميم، ويعاني ويلات الجحيم من قوى شيطانية، لا ترحم طفلاً، ولا امرأة ولا شيخاً ولا مريضاً؛ لأنها منطقة غنية بالثروة المعدنية، ولأن ثلة مؤمنة قامت فيها تريد أن تحكم بشرع الله، وتسعى للحصول على القوة لمواجهة عدو الله.

لبنان: حيث تجري محاولات انتزاعه من هويته الإسلامية والعربية، وتخضيد[١] شوكة المقاومة لديه في مواجهة الكيان الصهيوني، خاصةً بعد أن مُني بالفشل الذريع والهزيمة المريرة من المقاومة الباسلة لحزب الله[٢].

السودان: حيث تحاول القوى الانتهازية الخارجية استغلال النزاع المحلي في دارفور؛ لاستجلاب القوات الدولية لتمزيقه[٣]، ونهب ثرواته، وتهديد العمق الاستراتيجي للأمن القومي المصري.

اليمن: حيث تحاول القوى الانتهازية الخارجية استغلال الفتنة المحلية التي سعوا لإشعالها؛ لاستجلاب القوات الدولية لتمزيقه ونهب ثرواته، فها هي الأساطيل الأمريكية

١- الخضد نزع الشوك عن الشجر، قال الله عز وجل: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾[الواقعة: ٢٨] أي: نزع شوكه، وخضدت العود فانخضد أي انكسر من غير بينونة، انظر: العين ١٧٥/٤، ولسان العرب ١٦٣/٣.

٢- وعلى قدر ما نحيي موقفهم في هذه الحرب، وتمريغهم للعدو الصهيوني الغاصب، على قدر ما ننكر عليهم موقفهم الراهن في أرض سوريا وغيرها، وتدخلهم العسكري وقوفاً مع الطاغية الجلاد ضد الشعب المغلوب على أمره، فادعو أعضاء الحزب أفراداً وقيادة إلى أن يكفوا أيديهم عن عباد الله، فجغرافية الأرض هي هي، فلم تصر تل أبيب في حلب، ولا درعا، ولم يقتلوا بدعمهم العسكري أمريكيا ولا إسرائيليا، إنما يقتلون أهل الإسلام، فهل يعمل هذا من تحزب لله!

٣- وهذا ما قد فعلوه.

على السواحل بحجة مكافحة القرصنة وقد كشرت أنيابها للانقضاض على البلاد وهم بانتظار تقسيمها وتشطيرها لينقضوا على الساحل الكبير الممتد الذي يحوي ثروة سمكية ليست بالقليلة، وللاستيلاء على أماكن وحقول النفط، ومضيق باب المندب الواقع في الجنوب الغربي لليمن في الطرف الجنوبي للبحر الأحمر ويؤدي إلى خليج عدن والذي بدوره يؤدي إلى المحيط الهندي، تقسمه جزيرة ميون اليمنية إلى قسمين وتتحكم في مداخله، ولهذا وضعوا مخططاً لتمزيق اليمن إلى أربعة أقسام؛ ليسهل الاستيلاء على الثروة والقضاء على القوة.

إن إسرائيل لا زالت تسير في طريق الاهتمام الاستراتيجي بمنطقة مضيق باب المندب والذي يشكل أهمية حيوية لوصول السفن الإسرائيلية من ميناء إيلات وخليج العقبة عبر البحر الأحمر إلى نصف الكرة الجنوبي في أفريقيا وجنوب آسيا؛ حتى لا يتكرر ما حدث في حرب رمضان أكتوبر ١٩٧٣م عندما نجحت البوارج والمدمرات المصرية من إغلاق مضيق باب المندب أمام السفن التجارية والعسكرية الإسرائيلية، بل يزيد على ذلك أن ينقلب الحال فتصبح إسرائيل هي المسيطرة على ذلك المضيق؛ لتضع الأمن القومي لمصر والدول العربية المطلة على البحر الأحمر –وهي مصر والسودان والأردن والسعودية واليمن– تحت تهديدها.

من أجل هذا الأمر أراد اليهود أن يجعلوا البحر الأحمر بحيرة يهودية، فأقاموا قواعدهم في بعض الجزر القريبة من مضيق باب المندب عن طريق التعاون بينهم وبين أثيوبيا ثم أرتيريا.

الصومال: حيث تقع على رأس القرن الإفريقي في منطقة استراتيجية تشرف على شرق القارة الإفريقية، وتطل على شبه الجزيرة العربية حيث مهبط الرسالة ومنابع النفط، ولهذا تتسابق الدول الاستعمارية على هذه المنطقة ويزداد تنافسها، فإن من الأسباب الغير المعلنة

للتدخل الأمريكي السيطرة على البوابة الجنوبية للبحر الأحمر، كما أن قربه من المنطقة الإسلامية تساعده على تنفيذ مخططاته تجاه الأمة، وما اجتياح القوات الإثيوبية بدعمٍ من آلة البطش الأمريكية، وأعمال القرصنة التي لا يستبعد أنها من ألاعيب ومكر الشياطين إذ بسببها بثوا ونشروا قواتهم في السواحل ووضعوا فيها القواعد العسكرية تمهيداً وتسهيلاً لأي غزو بحجة القضاء على القرصنة.

لقد عمدت إسرائيل منذ عقود طويلة إلى تدعيم علاقاتها وتعزيز تواجدها في دول القرن الإفريقي والمطلة على مضيق باب المندب، من خلال تقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية لإثيوبيا وإريتريا وكينيا وجيبوتي، وتطمع إسرائيل في الوصول إلى بسط نفوذها في الصومال، وقد نجحت نجاحاً ملحوظاً في الحضور الدائم والتأثير الفاعل في كل دول القرن الإفريقي باستثناء الصومال، لذلك فقد أصبحت الصومال هي الحلقة المفقودة الباقية لإسرائيل لتحكم قبضتها على منطقة القرن الأفريقي بالكامل، وتحقق مخططاتها فيها إلى نهايتها، والرؤية الاستراتيجية لإسرائيل في ذلك الأمر أن تخترق الصومال من خلال دعم نفوذ تلك الدول الحليفة لها وخاصة إثيوبيا وكينيا في تقرير المصير الصومالي بشكل مكثف ومتزايد[١][٢].

١- انظر: التآمر على الأمة (مظاهره، ومواجهته) موقع: إخوان أولاين: www.ikhwanonline.com، والسلام في المشروع الصهيوني مصر نموذجا ص٢٢٤، وقضايا وهموم الأمة الإسلامية دارفور- السودان – الصومال، ٨٧/١، ٨٨، والتبيين لمخاطر التطبيع على المسلمين ص٢٣، ومجلة البحوث الإسلامية ٨١/ ١٠٦، ٤٠٠، ومجلة البيان، العدد ٥٩، ص٦٠، ٧٠، والاستراتيجية الإسرائيلية إزاء شبه الجزيرة العربية ص٣٢-٤٦، والاختراق الإسرائيلي للعالم العربي ٢٠-٢٥.

٢- ومن تآمرهم على الأمة الإسلامية والعربية ما ظهر اليوم من عملهم على تدمير الجيوش العربية وبنيتها العسكرية، فانظر ما الذي فعلوه بالجيش العراقي، ثم السوري، واليمني، وفي الطريق المصري، يدعمون الفتنة المشتعلة، لتسخير هذه الجيوش وإمكاناتها في قتل شعوبها، فيعملون على تدمير الثروة البشرية، ويماطلون في اتخاذ موقف رادع وحاسم؛ حرصاً على طول عمر هذه الفتن، بل يأججون نارها المشتعلة، ويدعمون لوجستياً وعسكرياً هذه الجيوش، تدميراً لها ولكل مقدراتها وبنيتها العسكرية، في مواجهة الشعوب، فيضربون الشعوب بالجيوش، ويحرقون بذلك هذه الجيوش؛ وكل هذا في الأخير تدمير للأمة ومقدراتها العسكرية.

المجال السياسي

ويجري التآمر فيه تارة بالتدخل السافر المباشر من قِبَل القوى الخارجية الاستعمارية؛ لتنصيب أنظمة تابعة لسياستها وخاضعة لإدارتها، ومنفذة لأوامرها، وخادمة لمصالحها، ومحققة لأهدافها، أو لدعم أنظمة أخرى فاسدة مستبدة، وإطلاق يدها لمواجهة القوى الداخلية الشريفة بكل إجراءات القمع والبطش من ملاحقة وتضييق وتشويه وتلفيق وسجن واعتقال وترويع وتعذيب وتكتيم للأفواه ومصادرة للأموال.

وتارةً بإلقاء بذور الفرقة وإشعال نار الفتنة بين فصائل المجتمع الواحد ومكوناته؛ استغلالاً للخلافات الطائفية أو المذهبية أو العرقية، واتباعاً لسياسة (فرق تسد) التي بها يسيطرون على ضحاياهم، ويصلون إلى مآربهم.

وتارةً بتسخير المؤسسات الدولية لخدمة مشروعاتهم ومؤامراتهم، وذلك باستصدار القرارات منها، وفق أهوائهم مرةً لإدانة خصومهم، وثانيةً لفتح الأبواب أمام قواتهم، وثالثةً لدعم حلفائهم، أو باستخدام حق النقض الفيتو[1]؛ للحيلولة دون مجرد الإدانة للكيان الصهيوني الغاصب مهما بلغ إجرامه وعربدته، والاحتلال الأمريكي الغاشم مهما بلغ بطشه وطيشه.

المجال الثقافي

والتآمر هنا يهدف إلى طمس هوية الأمة، ومسخ شخصيتها، وتشويه حضارتها، وتعطيل رسالتها، والقضاء على مقوماتها؛ حتى تصبح كياناً مهلهلاً، وكَماً مهملاً، وهم يسعون سعياً حثيثاً لتحقيق هدفهم بشتى الحيل والوسائل، ومنها:

١- وانظر اليوم إلى ما تفعله روسيا تجاه القضية السورية نصرة لحليفها الاستراتيجي الأسد.

العبث في مناهج التربية والتعليم؛ بقصد إعادة تشكيل عقول أبناء الأمة، وصياغة نفوسها، وتوجيه سلوكها، بما يتماشى مع تصورات أعدائنا وأفكارهم، ويمتد هذا العبث إلى أخص خصوصياتنا، إلى ديننا وعقيدتنا وشريعتنا[١].

إطلاق الآلة الإعلامية الجبارة في صورها المختلفة وقوالبها المتنوعة من: فضائيات، وشبكة معلومات، وصحف، ومجلات، وراديو، وغيرها؛ حيث يختلط فيها الحابل بالنابل والسم بالعسل؛ للغواية بالفن المبتذل الرخيص، الذي يشجع على الإباحية، والانسلاخ من صبغتنا الروحية، والتحلل من قيمنا الخلقية والأخلاقية، وتشويه صوره الإسلام والمسلمين.

المجال الاقتصادي

وتتنوع أساليب التآمر فيه كذلك: فمرةً بمحاولة السيطرة على منابع الثروة النفطية والمعدنية وغيرها في منطقتنا العربية والإسلامية، وذلك بالحيلة والدهاء، أو بالحرب والاعتداء.

ومرة بدعاوى العولمة الاقتصادية؛ حيث يتم إنشاء الشركات العملاقة متعددة الجنسيات وعابرة القارات، ويفسحون المجال أمامها بالمؤتمرات والاتفاقيات مثل الجات[٢]، ومنظمة

١- ومن ذلك تقديم الدعم والغطاء السياسي والعسكري لمن يعمل على محاربة وهدم عقيدة وشريعة وقيم الأمة.

٢- الجات هي الاختصار الشائع للعبارة الإنجليزية (GATT) التي تعني الاتفاقية العامة للتعريفات الجمركية والتجارة، ومن الجانب الاقتصادي هي معاهدة دولية تنظم المبادلات التجارية بين الدول التي تنضم إليها، وفي عام ١٩٤٧م أسست أمريكا مع ٢٣ دولة صناعية اتفاقية (الجات) وهي الاتفاقية العامة على الرسوم الجمركية والتجارة، وتهدف إلى تحرير تجارة السلع الزراعية والصناعية والمنسوجات والخدمات وتحرير التبادلات التجارية والتدفقات المالية الناتجة عن العقود الحكومية الضخمة، ولما أخفقت (الجات) في تحقيق ما أرادته أمريكا من إنشائها لأن الاتفاقيات والتوصيات غير ملزمة للأعضاء استعاضت عنها بـ(منظمة التجارة العالمية) التي رأت النور في مراكش عام ١٩٩٤م ، وبدأ العمل بها ١٩٩٥م.
إن صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية هذا الثالوث هو السلاح الفتاك بيد أمريكا للتفرد بالعالم.
انظر: النظام الاقتصادي العالمي الجديد ص١٣٧، وعولمة الرأسمالية ورأسمالية العولمة لأحمد عبد الدايم، نقلاً عن مجلة البيان، العدد ١٥٩، ص١٢٣، ذو القعدة ١٤٢١هـ، فبراير ٢٠٠١م.

التجارة العالمية، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي وغيرها؛ حتى تتمكن من التنافس المباشر مع الكيانات الاقتصادية الهزيلة في بلادنا- للأسف- فتشل حركتها، ثم تبتلعها.

ومرةً بفرض الحصار الاقتصادي الظالم على الدول التي تعتبرها قوى الاستكبار والاستعمار متمردة على سياستها أو خارجة عن طاعتها، كما حدث للعراق وليبيا والسودان سابقاً، وكما يحدث لغزة فلسطين حالياً؛ عقوبة لشعبها على اختياره النزيه لحماس.

ومرة بالضغط على العملاء لإدخال البلدان في صفقات وقروض ومعاهدات اقتصادية تدمر اقتصادها؛ لينتشر فيها الفقر والفساد[١].

أعوان الداخل على تآمر الخارج

رغم خطورة هذا التآمر الخارجي المذكور إلا أنه ما كان له أن يحقق أهدافه أو يجني ثماره إلا من خلال أعوان له بيننا، يتكلمون بألسنتنا، ويتسمون بأسمائنا، ويُحسبون علينا، ومع هذا فقد آثروا أن يربطوا مصيرهم بمصير المتآمرين علينا، ومصالحهم بمصالحهم، ولو على حساب دينهم وبلادهم وإخوانهم!! وهؤلاء قد سقطت عنهم أقنعتُهم، فمنهم بعض الحكام المفسدين المستبدين والطغاة الظالمين، ومنهم- أيضاً- بعض المحسوبين على النخب المثقفة من العلمانيين والليبراليين الذين تغذوا على زاد الغرب وأصبحوا مبهورين به منادين باتباعه في جده وهزله وخيره وشره، ومنهم- أخيراً- العملاء المأجورون والجواسيس الخائنون الذين باعوا دينهم ووطنهم وأهلهم بلعاعة[٢] من الدنيا رخيصة.

١- واليوم بإشعال فتيل الفتنة في الشرق الأوسط، وتأجيج الصراع، وإطالة عمره، لتدمير البنى الاقتصادية لدول المنطقة، عن طريق الحرب التي تدمر كل شيء تأتي عليه، وتأكل الأخضر واليابس، وباستنزاف الأموال ببيع وتهريب السلاح لأطراف النزاع، فعلى الدول الحذر من جرها إلى حروب طويلة الأجل -بهدف الاستنزاف- تحت أي ستار أو مبرر. انظر: عولمة الرأسمالية ورأسمالية العولمة لأحمد عبد الدايم، نقلاً عن مجلة البيان، العدد ١٥٩، ص١٢٣.

٢- اللعاعة واحدة اللعاع ومنه: (إنما الدنيا ساعة ومتاعها لعاعة) أي: قليلة البقاء كالنبت الأخضر قليل البقاء، والبقية اليسيرة من كل شيء، قال أبو عمرو: «واللعاعة الكلأ الخفيف رعي أو لم يرعَ»، واللعاعة ما بقي في السقاء، وفي الإناء

إن الغزاة بعد أن فشلوا في فرض سيطرتهم المباشرة على العالم الإسلامي، وضعوا خطة شاملة للسيطرة غير المباشرة على هذه الأمة، شملت الجوانب السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية للمسلمين، والذي ينهض بهذا الدور هو أعوانهم في عالمنا الإسلامي، فبعد أن تمزق العالم الإسلامي إلى دويلات متفرقة هنا وهناك اهتم الغزاة بتربية أفراد من هذه الأمة ليخلفوهم في تنفيذ مخطط التبعية[١]، ليدخلوا في حرب عالمية باردة ضد الإسلام والمسلمين.

سبب التآمر الخارجي

إن السبب في التآمر الخارجي على المسلمين وبلادهم يرجع إلى جانبين: الجانب الديني، والجانب الجغرافي.

أما الجانب الديني فمن المعلوم أن أهل الكفر والباطل منذ بزغ فجر الرسالة وهم يصارعون الحق، ويكيدون له ولأهله، ويتربصون بهم، وينصبون لهم الشباك والفخ؛ لصدهم عن دينهم، وطمس الهدى والنور من قلوبهم وبلادهم، ليحل مكانه ظلام الكفر والشرك، فلن يكلوا أو يملوا أو يرضوا حتى يرتد المسلمون عن دينهم، قال ربنا جل في علاه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة: ١٢٠]، قال الإمام السمرقندي: «فأخبره الله تعالى أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، فنهاه الله عن الركون إلى شيء مما يدعون إليه»[٢].

=لعاعة أي: جرعة من الشراب، ولعاعة الإناء صفوته، وقال اللحياني: «بقي في الإناء لعاعة أي: قليل»، ولعاع الشمس السراب. انظر: لسان العرب ٨/٣٢٠، والمعجم الوسيط ٢/٨٢٨.

١- أسباب التمزق وعقبات الوحدة، نقلاً عن موقع: http://annabaa.org/nba45/wahdaislamya.htm، بتصرف.

٢- تفسير السمرقندي ١/١١٦.

إنهم يعقدون الرايات والألوية والمؤتمرات والتحالفات لقتال الإسلام والمسلمين، ويجمعون كلمتهم ويلملمون صفوفهم على ما بينهم من فرقة وشقاق ليوالي بعضهم بعضاً ضد الإسلام والمسلمين كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١]، قال أبو السعود: «متفقون على كلمة واحدة في كل ما يأتون وما يذرون، ومن ضرورته إجماع الكل على مضادتكم ومضارتكم بحيث يسومونكم السوء ويبغونكم الغوائل، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة»[١]، وقال الإمام السعدي: «يتناصرون فيما بينهم، ويكونون يداً على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء؛ فإنهم هم الأعداء على الحقيقة، ولا يبالون بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئا على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم»[٢].

لقد انطق الله تعالى قائد الحملة الصليبية ضد الإسلام والمسلمين في هذا القرن مجرم حرب العراق وأفغانستان (بوش) بحقيقة حملتهم الحربية التي يهدفون من ورائها إلى استئصال الإسلام من جذوره إذا قال: إنها حرب صليبية ضد الإرهاب، يريد الإسلام والمسلمين وكنى عنهم بالإرهاب لما يحمله بين أضلاعه الخبيثة من حقد على الإسلام والمسلمين لينعتهم بهذا النعت، والواقع خير شاهد فأكثر من مليوني عراقي قتل في حملته على العراق، ولا يدري كم قتلى أفغانستان إلا الله تعالى.

إن هذه الحروب الإبادية ضد المسلمين يدفعهم إليها معتقداتهم الباطلة وأديانهم المحرفة المكذوبة على الله، وقد صرح المجرم الأكبر حامل لواء الحملة الصليبية بأن الرب هو الذي

١- تفسير أبي السعود ٣/٤٨.

٢- تفسير السعدي ص٢٣٥.

أمره، وكذب مسيلمة الكفر، بل إن الذي أمره أسياده الحاخامات واللوبي الحاقد على الإسلام والمسلمين، لأنهم يجدون في كتبهم المحرفة بأن دولتهم المزعومة على ثرى الأرض المباركة لن تقوم مع عز أهل بابل –العراق– فهي حرب إبادية للمسلمين لتحقيق الأمن لإسرائيل، حرب عقيدة وضعية فاسدة محرفة ضد عقيدة صحيحة سماوية ربانيه، فلابد من التفطن لهذا فمهما قدم المسلمون من ولاءات وتنازلا فلن يكف الأعداء عنهم وعن بلادهم حتى يدخلوا في دينهم.

إن هناك وثائق تظهر الأساليب والجهات التي كانوا يركزون جهودهم عليها، ومن جملتها المحاضرة التي ألقاها المستر (كيردتر) في مؤتمر رجال الكنيسة العاملين في البلدان الإسلامية، وذلك في مطلع القرن الماضي عام ١٩٠٩م في أدنبرة ببريطانيا، وهذه الوثيقة وإن كانت قديمة نسبياً إلا أنها تضع أمامنا صورة واضحة عن الأساليب التي يستعملها أعداؤنا للسيطرة على العالم الإسلامي، وتنبهنا إلى مواطن الضعف والثغرات التي ينفذ من خلالها أعداء الله إلى مجتمعنا الإسلامي.

والذي يطلع على هذه الوثيقة يجد فيها الأمور التالية:

١– أن فكرة تنصير العالم الإسلامي وإدخاله في متاهات الحضارة المادية شيء مفروغ منه عند أرباب التبشير.

٢– أن التعليم والتثقيف هو الأساس الذي يبني عليه الفكر التنصيري كل آماله لبسط نفوذه في أوساط المسلمين.

٣– أن الهدف الذي رسمه أرباب التنصير هو السيطرة على العالم الإسلامي مهما كلفهم ذلك من ثمن.

٤– أن أعداءنا لا يألون جهداً في استعمال كل الأساليب التي توصلهم إلى أهدافهم.

٥- أنهم في نشاط وتخطيط مستمر؛ لإيجاد أساليب جديدة تحفظ لهم التفوق الدائم على المسلمين في كل عصر وفي كل مكان.

٦- أن أرباب التبشير يرصدون التحرك الإسلامي بدقة متناهية، ويحرصون دائماً على خنق أي فكرة تمدد للإسلام حتى لو كان ذلك بين المسلمين.

٧- أنهم يتصرفون على الأرض وكأنهم أصحابها الأصليون، وباقي الناس أو أهل الإسلام بالخصوص هم ميدان نشاطهم التبشيري.

٨ - أنهم يعتبرون أن الإسلام هو دين وثني وهم أصحاب الدين الإلهي الذي يجب أن يبسطوه على كل أنحاء العالم الإسلامي.

٩- أن الإسلام عندهم مشكلة مزمنة وفعلية تضغط على أعصابهم دائماً ويتحركون لحلها انطلاقاً من كون خطرها محدقاً بهم حالياً وبالفعل.

١٠- أنهم يعتمدون في أعمالهم على كشف الواقع والتخطيط المبرمج لتنفيذ مخططاتهم المرسومة، ومتابعة كل ذلك بشكل مستمر.

١١- أن الحرية التي تصبو إليها الشعوب الإسلامية هي إحدى منطلقاتهم للتحلل من الدين، والتي تجد لها رواجاً كبيراً بين الشباب ومختلف الطبقات.

١٢- أن الصحافة هي إحدى أعمدة النشاط التبشيري في العالم الإسلامي[1].

١٣- الاستفادة من عامل الثأر الذي يعتمل في نفوس المسيحيين الذين جرت حروب بينهم وبين المسلمين كالأرمن مثلاً.

١٤- الاحتلال العسكري هو أحد أساليب بسط الفكر التنصيري في أراضي المسلمين.

١- واليوم الإعلام بكافة وسائله المقروءة والمسموعة والمرئية، ناهيك عن شبكة الإنترنت التي دخلت إلى كل موضع عبر الجوالات.

١٥- من جملة الأساليب التي يستعملها أعداؤنا الأمور التالية:

* زيادة المبعوثين إلى البلدان الإسلامية. *المحاورات بينهم وبين شخصيات إسلامية.

* توزيع النشرات والأناجيل. *البعثات الطبية. * مدارس البنات والبنين.

* المناداة بالمساواة بين الأديان. *المناداة بالمساواة بين المرأة والرجل.

١٦- العمل على زيادة النشاط التبشيري في أي مكان ينشط فيه العمل الإسلامي؛ لمواجهته.

١٧- إعطاء المنح الدراسية في الجامعات هو أحد توصيات هذه الوثيقة التي تعتبره ضرورياً للعمل التبشيري.

١٨- التركيز الزائد من قبل المبشرين على الشخصيات الإسلامية المؤثرة، ويركزون على محاربتهم وتطويق أعمالهم بقوة.

١٩- الجامعات ودور العلم وهي من أهم الوسائل التي ينفذ من خلالها التبشير إلى أوساط الشباب والمجتمعات الإسلامية.

وبعد ذكر هذه النقاط التي تحتويها الوثيقة، فهذا نصها؛ ليقف كل مسلم غيور على دينه ليرى بعين البصيرة كيد الأعداء منذ أكثر من قرن -وكيف به الآن مع توسع سبل الغواية والإضلال- ومافتئت جهودهم لإذلال الشعوب الإسلامية والسيطرة عليها والاستمرار بامتصاص دمائها، والوثيقة تحمل عنوان: (التغيرات الطارئة على العمل التبشيري في الأراضي المحمدية):

يقول كيردتر: «حضرات السادة: الرئيس، الآباء والإخوان القساوسة السؤال المطروح هذا اليوم لا يتمثل في أين نجد الدليل على الحركة التحديثية في بلاد المسلمين، بل أين لا نجد مثل هذا الدليل؟

نحن لا شك على علم تام بالحركة التحديثية الناشطة في الوسط الإسلامي في كل من تركيا ومصر وبلاد فارس والهند، فجميع هذه الدول قد تأثرت بالأفكار الأوربية، وقد تشكلت فيها منظمات فكرية وسياسية، وأثرت هذه المنظمات بشكل مباشر أو غير مباشر على العقائد الدينية، غير أن هذه الدول ليست هي الوحيدة من دول الإسلام المتأثرة بأفكار الغرب، ففي روسيا ونتيجة لإطلاق الحريات الدينية في ١٧ نيسان عام ١٩٠٥م، وكما أعلمتني سيدة روسية قامت بدراسة خاصة أن ما يزيد على ٥٠٠٠٠ من أتباع الكنيسة اليونانية عادوا إلى اعتناق الإسلام، وقد تبعهم آخرون اعتنقوا هذا الدين لأول مرة، لاشك في أن مثل هذا الحدث سوف يحفز المحمديين في روسيا الأوربية، في الفولغا في أواسط آسيا وحتى سيبريا حيث الأفكار تسري بسرعة مثل التيار الكهربائي، وخاصة عندما تكون وسيلة النقل الجديدة: السكة الحديدية، فالقطار عبر قزوين سوف يتجه نحو روسيا وتركمانستان ثم الصين التركية وسوف ينقل الأفكار الإسلامية، وهكذا تعود الخطوط التجارية التاريخية عبر وسط آسيا نحو الصين لتصبح العصب المنظم والجهاز العضوي الأكثر فاعلية مما كان عليه قبلا.

إذن فدورنا الآن يجب أن يتركز في الصين، وإذا كانت هناك دولة واحدة في العالم المحمدي ممن لا يتأثر بالعالم الخارجي فهي الصين، والنموذج الصيني المسلم ليس من النوع الذكي، ومع ذلك فقد سمعنا بانتقال بعثة تركية مسلمة إلى الصين لتقوم بدور التبليغ لأول مرة، وأكثر ما يثير العجب أن يقوم ثلاثون طالباً صينياً من الذين يدرسون الآراء الغربية في جامعة اليابان بتحرير مجلة فصلية باسم: (أيها المسلمون استيقظوا) وتوزع هذه المجلة في عموم بلاد الصين، وعندما ننتقل إلى ماليزيا حيث السفينة التجارية تقوم بمساعدة الأعداد المتزايدة من أهالي جاوة وسومطرة وجزر الهند الشرقية في التوجه نحو مكة لأداء فريضة الحج، وحيث يتعاظم بذلك تثبيت جذور الإسلام في هذه الدول، ومن ثم يصعب القضاء

عليه، ونتجه بعد ذلك نحو الجزيرة العربية نفسها حيث هناك قبر النبي في المدينة، وحيث تتردد صفارات القاطرات.

ومن الجزيرة العربية وبشكل غير مباشر جاءت أعظم حركة للسنوسيين إن لم تكن أحدثها، والتي يمكننا أن نلمس آثارها بسهولة في السودان وفي بحيرة تشاد وأقصى أطراف حوض الكونغو.

ومن جانب آخر فإن الحركة الإسلامية الممتدة بشكل مرعب في إفريقيا أساساً هي رد فعل لما قامت به الحكومات الأوربية (الاستعمارية) التي وضعت مؤسسات حكومية من النيل وحتى زامبيا، وأضعفت بذلك الروابط القبلية، وهيأت مئات الأقنية لتوغل الإسلام بشكل هادئ، وسنجد بعد قليل أن الإسلام هو هدية السماء لوحدة إفريقيا، والمعبر الحقيقي عن الجنس الأفريقي، وسوف يحصد المسلمون الجهود التي بذلها نصارى الحبشة.

إن هذه النظرة السريعة تؤكد لنا –حتى من وجهة نظر الحركات التحديثية– مشكلة الوجود المحمدي الممتد في كامل العالم الإسلامي، وسوف أقدم في هذا المؤتمر العظيم ملاحظة أولية: إن مشكلة الإسلام هذه لا يمكن تجاوزها حتى في الظروف الاضطرارية التي لا يمكن وصفها، والتي تواجهنا في الشرق الأقصى، والسبب أن الإسلام الآن يقف على أعتاب دورنا من أقصى الساحل المغربي حيث يلامس حدود أوربا وحتى أعمدة هرقل ومدينته القسطنطينية.

إن هذه المشكلة هي مشكلتنا المركزية، لنفكر بهذه الكتلة العظيمة من دول منطقة البحر المتوسط من شمال إفريقيا غرباً وحتى أواسط آسيا شرقاً سنجدها جداراً لا يمكن زحزحته، يمنع الغرب المسيحي من الوصول إلى قلب الشرق الوثني.

أيها الآباء والإخوة: تذكروا حتى عندما تُحل مشاكلنا مع اليابان أو الكوريين أو المنشوريين أو الصينيين أو الهنود فإن الأزمات الحالية يمكن تجاوزها، وعندما يلتقي نصارى

الشرق الأقصى مع الكنيسة الكاثوليكية فإن الكتلة الضخمة المعادية سوف تشطر دولة الغرب النصراني إلى شطرين، وتفصل بين التوأمين، وتعزل أحدهما عن الأخر، ولن تقيم خطاً عازلاً ممتداً بين الرب والإنسان فحسب، بل سوف تسبب شرخاً في بنية الكنيسة الكاثوليكية العظيمة الخالية من الشروخ، والذي يتمثل بوجود المسلمين هناك، ويمكن كسبه إلى جانب المسيح، وعليه لا يمكننا تأخير حل مشكلة الإسلام.

إنها مشكلة كل يوم كما ترون فلنجعل هذا اليوم نفسه يوماً للحل والانعتاق.

إن واجبي أن أوضح لأتباع الكنيسة القادمين من جميع أنحاء العالم الأوضاع العامة في ضوء الحركات التحديثية داخل بلاد المسلمين.

إن هدفنا الموحد هو: اتخاذ الإجراءات إلى أقصى حد في ضوء المصادر المتوفرة لدينا حيث يمكن بذلك فهم الواقع لتحقيق أهدافنا.

إن المصادر المتوفرة لدينا يمكن تفسيرها بوجهين، وعلينا أن نحتفظ في أذهاننا بهذين التفسيرين، ففي المعنى الضيق، هذه المصادر غير كافية لمعالجة الواقع، غير أنها من دون شك موزعة بشكل حكيم واقتصادي ومستغلة بشكل جيد، ومن جانب آخر في متناول أيدينا مصادر الإله الحي، وهذه الفكرة تجعلنا نتذكر دائماً أثناء هذا المؤتمر الدرس الأساس وهو الفهم الجديد (للإله الحي) الذي سوف يساعدنا في انجاز هذا العمل العملاق، ليس لدينا الوقت الكافي لأن نوضح أين تتركز الأزمة اليوم، شعارنا اليوم: (العمل بحكمة)، وفي هذه القاعة وحول هذا الموضوع أؤكد على هذا الشعار: (العمل بحكمة)، لنبدأ من الامبراطورية العثمانية حيث نجد هناك حركة يمكن وصفها بشكل كبير بالتوجه نحو الحرية، الحرية السياسية والحرية الثقافية.

إن حركة مزدوجة من هذا النوع سوف تؤثر بالتأكيد على الدين وإن كان بشكل بطيء، فالتوجه الداخلي للجيل التركي الجديد نحو التسامح الديني يسير بشكل جيد،

الحقيقة الوحيدة هنا: أن المسيحية والمسيح إلى حد بعيد متوغل في عمق حركتهم، وسوف تأتي بنتائج مهمة، وها هي حرية الصحافة في معظم أنحاء الامبراطورية العثمانية وخاصة سوريا قد حققت نتائج جيدة، وها هم قادة الفكر الإسلامي يقعون في الحيرة بعد أن وجد بعضهم في القرآن الكثير من تعاليم المسيح.

أليست هذه الحقيقة جديرة بأن تجعلنا نناشد الجمعيات العاملة في الامبراطورية لكي تكون نشطة ومستعدة لجني الثمار واستغلال الموقف إلى أقصى حد؟ هل سيأتي ذلك اليوم الذي يثأر فيه الأرمن الذين تحملوا وصبروا، لشهدائهم؟ يجب أن يأتي ذلك اليوم بالتأكيد مادام هناك إله في السماء! ولذلك فإن الخطوات التالية تبدو ضرورية:

١- تقوية العمل الناجح والرائع الذي تمارسه الكنائس الشرقية في الامبراطورية العثمانية.

٢- احتلال المناطق التي لا توجد فيها الجمعيات التبشيرية كما هو موضح في تقرير بعثة التبشير رقم (١).

٣- تعزيز الأعمال الأدبية بشكل قوي ومؤكد.

٤- الضغط المنظم والمستمر على الحكومة العثمانية لإعطاء المساواة الدينية الكاملة والحرية في الامبراطورية العثمانية.

٥- العمل بحكمة وحذر واستمرارية في أوساط المسلمين.

وفي مؤتمر كنسي عام عقد مؤخراً في بيروت وحضرته بنفسي استمعنا إلى تقارير بعثات التبشير الواحد بعد الآخر حول الأعمال المنجزة، وقد عبر المؤتمرون في نهاية المؤتمر عن وجهة نظرهم بالشكل التالي:

١- العمل التبشيري المستمر منذ عدة عقود سواء في سوريا أو فلسطين هو اليوم ممكن أكثر من أي وقت مضى سواء عن طريق الزيارات، المحاورات، توزيع النشرات التبشيرية والأناجيل، البعثات الطبية ومدارس البنين والبنات.

٢- إن إعلان الدستور وخاصة في أوساط المتنورين قد سهل عمل التبشير المباشر، وبموجب مبادئ الدستور حول المساواة بين الأديان سوف يزداد سهولة، ومن جانب آخر نحن نقف اليوم وجهاً لوجه مع الإحياء الثقافي والديني المحمدي مما يستوجب زيادة العمل التبشيري.

٣- من الضروري وضع خطة حكيمة وسريعة تطبق بدقة للنشاط في الوسط الإسلامي في سوريا وفلسطين.

إن واجب جميع المنظمات الكنيسية أن تبدأ الخطوة الأولى في هذا الاتجاه.

أيها الآباء والقساوسة: شعارنا (العمل بحكمة)، والآن نصل إلى مصر حيث هناك حرية دينية واسعة تجعل العمل الإسلامي المباشر غير محدد، أصبحت القاهرة اليوم مركزاً للنشاط الفكري للإسلام، وهي هكذا منذ سقوط بغداد والحكم العباسي، عند هذه النقطة يجب التأكيد على ضرورة زيادة النشاط التبشيري دون تأخير، وأعني الزيادة في الكمية والنوعية **عن طريق إعطاء المنح الدراسية للعاملين في العالم الإسلامي وخاصة في مناطق التنوير (الجامعات)**.

يجب أن تركز هذه الدراسة على خطين رئيسين حيث يمثل مسلمو القاهرة هذين الخطين:

الأول: هو المركز الديني التقليدي والفلسفي الذي تمثله جامعة الأزهر.

والثاني: هو الحركة التحديثية التي تؤثر قليلاً أو كثيراً بكل الشباب المسلم الذي -كما ذكرت يحاول أن يتجاوز الإنجاز الإسلامي التاريخي ويفكر بسياسة جديدة ومفهوم ديني وفلسفي جديد للقرآن، ولا يهتم بأي تراث مهما كان! هذه الحركة واضحة جداً في الهند ولها موقع ثابت في القاهرة حيث الشيخ محمد عبده يعمل ويجمع حوله الطلبة المؤيدين له.

أحد طلابه محرر جريدة المنار يحاول أن يؤسس في اسطنبول جامعة دينية سوف يذهب طلابها بعد التخرج للتبشير بالإسلام في أقاصي المشرق، وهكذا ترون أن الأهداف الجديدة للإسلام هي الانتشار والتبليغ، وكلا الخطين يتطلبان قوة في التبشير وسط طلاب الجامعات وبعدد أكبر ومستويات جامعية أعلى مما هي عليه الآن، وإذا كانت الدراسة الإسلامية التقليدية قد اضمحلت –وهذا احتمال ينتظر البرهان– فلا نقاش هناك في أن تدهور وضع الأزهر وتأثيره خارج مصر ليس إلا ظلا لما كان في السابق، ومع ذلك فإن الدراسة التقليدية الإسلامية هي السائدة وسط الجماهير (المحمدية) الواسعة في العالم، وتبقى هذه الجماهير ذات استعدادات ضخمة! وعليه فالدراسة التقليدية بحاجة إلى طلبة بشكل مستمر ومتزايد، وهؤلاء يجب أن يضيفوا إلى برامجهم مهمة المراقبة والدراسة والالتقاء مع الإسلام الجديد ومع تناقضاته المتعددة! ولا أدري أين يجب أن تتم مثل هذه الدراسة في العالم العربي فيما عدا القاهرة! من الضروري إذاً تأسيس جامعة عربية تكون في خدمة التبشير في جميع أنحاء العالم الإسلامي، أقول ذلك دون تحامل على الجامعات الاستشراقية والدورات التعليمية في بلادنا، فهذه ولا شك مشاريع لها أهميتها غير أن مهمتها تكميلية ومساعدة لما أريد الإشارة إليه، وعليه يجب أن تؤسس هذه الجامعة في القاهرة وعليكم التفكير بذلك حالاً»[1].

قال الشاعر:

اقـــرأ التـــأريخ إذ فيـــه العـــبر ضـــل قـــوم لـــيس يـــدرون الخـــبر
وتأمـــل كيـــف أفـــنى ملكهـــم مـــن علـــى الملـــك تـــولَّى وقهـــر

١- التآمر الصليبي على بلاد المسلمين للشيخ عباس الكوراني نقلاً عن مجلة الطاهرة، العدد ٤١، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣م، انظر: موسوعة البحوث والمقالات العلمية.

السبب الثاني في التآمر على بلاد الإسلام: الجانب الجغرافي

إن البلاد الإسلامية تحتل موقعاً جغرافياً هاماً جداً، فهي أمة وسط، وتتحكم في كثير من المنافذ إلى العالم، وهي مع ذلك أرض غنية بالثروات.

إن مساحة الدول المكونة للعالم الإسلامي تمثل أكثر من ربع مساحة اليابسة وتقدر بـ ١٤٨,٣٥٤,٠٠٠ كيلو مترا مربعا، ويزيد في قيمة تلك المساحة الشاسعة اتصال بعضها مع بعض، وتوسطها دول العالم، وتكاملها من ناحية المناخ والتضاريس وطبيعة الأرض، وتعدد ثرواتها، وتنوع مصادر المياه فيها.

ويطل العالم الإسلامي على مسطحات مائية عديدة تخترقها أهم خطوط المواصلات البحرية في العالم، وله موانئ هامة على كل من: المحيط الأطلسي، والمحيط الهندي، والمحيط الهادي، وكل من: البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر الأسود، وبحر قزوين.

والعالم الإسلامي غني بالثروة الزراعية، والثروة الحيوانية، ومصادر الطاقة، والثروة التعدينية[١].

مع هذا فإن جزيرة العرب هي أرض المروج والأنهار في المستقبل كما تثبت ذلك الدراسات العلمية، وكل هذا جعل لعاب الأعداء يسيل على بلاد الإسلام، فهي بلاد الثروات في الحاضر، والثروات والعيش الرغيد في المستقبل.

عودة بلاد العرب مروجاً وأنهارا

جاء في السنة النبوية المطهرة في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ، حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ، فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ، وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا"**[٢].

١- سبل التقدم العلمي والتقني في البلاد الإسلامية، نقلاً عن مجلة البيان، العدد ٢٣٧، ص١٤.

٢- رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ٢/٧٠٠ برقم: ١٥٧.

الحديث في شقه الثاني يدل على أمرين:

الأول: أن بلاد وجزيرة العرب كانت مروجاً وأنهاراً في الماضي.

الثاني: أن بلاد وجزيرة العرب ستعود كما كانت مروجاً وأنهاراً في المستقبل.

فالحديث فيه إخبار عن غيب الماضي والمستقبل، وللحديث ثلاثة تفاسير:

التفسير الأول: أن العرب يتركونها ويعرضون عنها، فتبقى مهملة لا تزرع ولا تسقى من مياهها؛ وذلك لقلة الرجال، وكثرة الحروب، وتراكم الفتن، وقرب الساعة، وقلة الآمال، وعدم الفراغ لذلك والاهتمام به، حتى تصبح مجرى للأنهار التي تنبت فيها المروج[١].

التفسير الثاني: أن تنصرف دواعي العرب عن مقتضى عادتهم من انتجاع الغيث والارتحال عن المواطن للحروب والغارات ومن عزة النفوس العربية الكريمة الأبية إلى أن يتقاعدوا عن ذلك فيشتغلوا بغراسة الأرض وعمارتها وإجراء مياهها كما قد شوهد في كثير من بلادهم وأحوالهم[٢].

التفسير الثالث: أن هذا سيحدث كنتيجة لتغير شامل في مناخ الكرة الأرضية، ينتج عنه تغير مناطق المطر، بحيث تدخل صحراء شبه الجزيرة العربية فيها، مما يؤدي إلى جريان الأنهار في أوديتها الجافة، فهو يتنبأ بتغير مناخي يُصيب الأرض يرجع فيه الحزام الصحراوي الذي يشمل شبه الجزيرة العربية إلى سابق عهده من وفرة الأمطار وكثرة الأنهار وازدهار الرياض والمزارع والمراعي، وهذا ما أيدته الأبحاث العلمية في عصرنا الحاضر عن طريق البعثات الجيولوجية، والتصوير الفضائي، والمكتشفات الأثرية في شبه الجزيرة العربية، ولا يُتصور أن تصدر تلك النبوءة مجازفةً بالتخمين في صحراء جزيرة العرب التي تخلو حتى اليوم

١- شرح النووي على صحيح مسلم ٩٧/٧.

٢- الديباج على مسلم ٨٤/٣.

من نهر واحد، ويسود أغلبها الجفاف، ويمتد جنوبها الربع الخالي[١] القاحل متاهةً للعابر ومهلكًا لمن لم يتزود بالزاد والماء، وذلك قبل أن يتحدث أحد اليوم عن تغير مناخي وشيك يصيب الأرض، وقبل أن يكتشف البترول في جزيرة العرب وعلى أطرافها ليشهد لمحمد ﷺ بالنبوة الخاتمة؛ لأنه بقايا لمواد عضوية مطمورة ومخلفات غابات قديمة متحللة، وقبل أن يُعثر على أشجار متحجرة في مناطق قاحلة، وقبل أن يُكتشف باستخدام الرادار حديثاً نظام الأنهار القديم في جزيرة العرب، وقبل أن تُعرف خريطة بطليموس التي رسمها في القرن الثاني قبل الميلاد وتظهر فيها بوضوح أنهار عديدة تصب في البحر الأحمر غرباً والمحيط الهندي جنوباً والخليج العربي شرقاً[٢].

كيف كانت جزيرة العرب مروجاً وأنهار وكيف ستعود

لقد أجرى الشيخ عبد المجيد الزنداني مقابلة مع البروفسيور ألفريد كرونر –من أشهر علماء الجيولوجيا في العالم– الذي حضر مؤتمراً جيولوجياً في كلية علوم الأرض في جامعة الملك عبد العزيز حول عودة الجزيرة العربية مروجاً وأنهاراً، وهذا عرض لها:

الشيخ: هل عندكم حقائق أن أرض العرب كانت بساتين وأنهاراً – هذه الصحراء التي ترونها كانت قبل ذلك بساتين وحدائق؟

البرفسور: نعم، هذه مسألة معروفة عندنا، وحقيقة من الحقائق العلمية، وعلماء الجيولوجيا يعرفونها؛ لأنك إذا حفرت في أي منطقة تجد الآثار التي تدلك على أن هذه

١– الربع: بفتح الراء وهو المكان الذي كان مأهولاً بالسكان ثم صار خاليا.

٢– الاستفادة من الأبحاث في القرآن والسنة في كل النواحي بحث للشيخ عبد الكريم الفهدي على موقع جامعة الإيمان، ص: ١–٣، وتميز السنة النبوية في النقل الشفهي عن النقل الشفهي للأسفار قبل الإسلام أرشيف للدكتور محمد دودح نقلاً عن إرشيف ملتقى أهل الحديث، مصدره الشاملة الإصدار الثالث.

الأرض كانت مروجاً وأنهاراً، والأدلة كثيرة، فقط لعلمكم منها قرية الفاو التي اكتشفت تحت رمال الرَبع الخالي، وهناك أدلة كثيرة في هذا.

الشيخ: وهل عندك دليل على أن بلاد العرب ستعود مروجاً وأنهاراً؟

البرفسور: هذه مسألة، حقيقية ثابتة، نعرفها نحن الجيولوجيون ونقيسها ونحسبها، ونستطيع أن نقول بالتقريب حتى يكون ذلك، وهي مسألة ليست عنكم ببعيدة، وهي قريبة .

الشيخ: لماذا ؟

البرفسور: لأننا درسنا تاريخ الأرض في الماضي، فوجدنا أنها تمر بأحقاب متعددة من ضمن هذه الأحقاب المتعددة حقبة تسمى العصور الجليدية.

الشيخ: وما معنى العصر الجليدي؟

البرفسور: معناه أن كمية من ماء البحر تتحول إلى ثلج وتتجمع في القطب المتجمد الشمالي، ثم تزحف نحو الجنوب، وعندما تزحف نحو الجنوب تغطي ما تحتها وتغير الطقس في الأرض، ومن ضمن تغيير الطقس تغيير يحدث في بلاد العرب، فيكون الطقس بارداً، وتكون بلاد العرب من أكثر بلاد العالم أمطاراً وأنهاراً.

الشيخ: وكنت أربط بين السيول والأمطار في منطقة أبها وبين تلك التي تحدث في شمال أوروبا وأنا أتأمل فيما يقول قلت له: تأكد لنا من هذا!

البرفسور: نعم هذه حقيقة، لا مفر منها!

الشيخ: من أخبر محمداً ﷺ بذلك، هذا كله مذكور في حديث: **"لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى... تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا"**، من قال لمحمد ﷺ إن أرض العرب كانت مروجاً وأنهاراً؟!

البرفسور: فكر، وقال: الرومان.

الشيخ: ومن أخبره بأن أرض العرب ستعود مروجاً وأنهاراً؟!

البرفسور: فكر وفكر، وقال: فيه فوق!! –أي: أن الخبر من مصدر علوي–.

الشيخ: اكتب، فكتب بخطه: لقد أدهشتني الحقائق العلمية التي رأيتها في القرآن والسنة، ولم نتمكن من التدليل عليها إلا في الآونة الأخيرة بالطرق العلمية الحديثة، وهذا يدل على أن النبي محمداً ﷺ لم يصل إلى هذا العلم إلا بوحي علوي[١].

ويتوقع (هال ماكلور) عودة البحيرات إلى صحراء شبه الجزيرة العربية، فقد لاحظ في تموز (يوليو) ١٩٧٧م سقوط أمطار شبه موسمية على امتداد ثلاثة أسابيع في شمال الرَبع الخالي، ولم ينتج عن ذلك تشكل بحيرات جديدة، ولكن على حد قوله: إذا تكرر هذا الأمر وبقوة كافية لتكوين بحيرات فقد يكون ذلك مؤشراً على عودة الأمطار الموسمية إلى الرَبع الخالي ومعها انقلاب في المناخ[٢].

طمع في الثروة والأرض

أما الثروة فإن الغرب يدركون تماماً أن بلاد العرب كانت في الماضي مروجاً وأنهارا، وهذا يعني أن العالم الإسلامي مخزون نفطي كبير؛ لأن آثار تلك المروج والأنهار المندثرة تتحلل إلى مواد نفطية، ولذا فإن العالم الإسلامي يحوي أكثر من ٧٠% من المخزون النفطي في العالم، وهم يدركون هذا تمام الإدراك، وهذا هو السر في غزو أمريكا للعراق التي تملك أغنى مخزون نفطي في العالم، وليس هذا بغريب على أرض ذات حضارة عرقية كالعراق، وهذا هو السر الذي يجعل أمريكا تحشر أنفها في قضية السودان لتظهر تقطع أكبادها على مأساة دارفور، وفي الحقيقة تطمع في نفطها؛ ولما وجدوا حكومة أبية ترفض العمالة لفقوا

١- إنه الحق للشيخ عبد المجيد عزيز الزنداني ص١٥، ١٦، وسنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ص١٤.

٢- آفاق علمية، عدد (٢٤)، ص:(١٥)، وللاطلاع على التفاصيل انظر بحث المهندس جمال عبد المنعم الكومي بعنوان عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً على موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة على هذا الرابط، http://www.nooran.org/O/6/6O(5).htm

لها التهم، وحركوا العالم ضدها لتتحرك محكمة الجنايات الدولية وتصدر أمرها باعتقال الرئيس السوداني عمر البشير مباشرة بعد الحرب الإبادية التي شنتها إسرائيل على قطاع غزة بأسلحة دمار شامل محرمة الاستخدام دولياً، في حرب لم ترع حقاً أو حرمة لأحد، ولم تفرق بين المنازل والمساجد والمدارس، ولا حتى المستشفيات والطواقم الطبية وكل ما يدب على وجه الأرض، على مرأى ومسمع من العالم بأسره، وهذا هو السر الذي جعل أمريكا تُقْبِل بحاملات الطائرات والبوارج والباخرات لترسوا على مشارف السواحل اليمنية بحجة مكافحة القرصنة، فهو تآمر يهدف إلى السيطرة على منابع الثروة النفطية.

إضافة إلى تنوع مصادر المياه في العالم الإسلامي، وثروته الزراعية، والحيوانية، ومصادر الطاقة، والثروة التعدينية.

وأما الأرض والموقع: فإن الغرب يدركون أن بلاد العرب ستعود في المستقبل مروجاً وأنهارا، وهذا يعني أن العلم الإسلامي هو المكان المناسب للحياة في المستقبل؛ لأن بلاد الغرب ستتضرر بالعصر الجليدي الجديد، إضافة إلى ما يحتله العالم الإسلامي من موقع هام يتحكم في المضايق والطرق والممرات، والمساحة الممثلة لأكثر من ربع مساحة اليابسة، والمناخ والتضاريس وطبيعة الأرض، والإطلالة على أهم خطوط المواصلات البحرية في العالم، وكل هذا يجعل الأعداء يفكرون في غزو بلادنا والسيطرة عليها لاستيطانها بدلاً عنا، وهذا يوجب على القيادات السياسية التنبه في أخذ الترتيبات اللازمة لحماية البلاد من هذه الأخطار حيث يوجد حوادث مشابهة[1]، ومن ذلك الاستيلاء على أرض الهنود الحمر –الأمريكيتين حالياً– إذ اكتشفت القارة الأمريكية بواسطة الرحالة كولومبس، وبعد الاكتشاف أتى المستعمرون لاحتلال هذه الأرض وإخراج سكانها الأصليين منها بشتى

١– الاستفادة من الأبحاث في القرآن والسنة في كل النواحي بحث للشيخ عبد الكريم الفهدي على موقع جامعة الإيمان، ص٥.

السبل، وهذا قانون الدول العظمى التي لا تحتكم إلى شرع أو دين، وهذا توضيح عن هذه القارة المكتشفة وعن سكانها الأصليين.

الهنود الحمر والأمريكان

وصل الهنود الأوائل إلى القارة المجهولة المغطاة بطبقات كثيفة من الثلج، فعاشوا فيها بأمان إلى أن بدأت حرب الاستيطان الأوروبي ابتداءً من سواحلها الشرقية باتجاه عمقها الغربي، فنشأت القلاع المزودة بسلاح متطور توطئة إلى احتلال كامل للقارة الجديدة.

عقدت المعاهدات القسرية بين الطرفين بعد أن استقلت المستعمرات الأمريكية عن التاج البريطاني، وتعهدت القبائل الهندية بالحفاظ على السلم مع المهاجرين والاعتراف بالتشريعات التي تصدرها الحكومة وتنازلت كل قبيلة عن الكثير من أراضيها، وفي المقابل تعهدت الحكومة الفيدرالية بدفع المال إلى الهنود وحمايتهم.

اخترقت هذه المعاهدات واستولى المهاجرون على أراض الهنود والتي تبنت حمايتها من قبل الدستور مما أدى إلى نشوب حرب شرسة بينهما، وفي عام ١٨٣٠م أصدرت الحكومة قانوناً بإزاحة الهنود إلى غربي الولايات وإعطاء أراضيهم إلى المهاجرين الجدد.

وخلال عشر سنوات قامت الحكومة الأمريكية بالتهجير القسري لأكثر من ٧٠,٠٠٠ هندي عبر نهر ميسوري فمات الكثير منهم عبر الطريق الطويل نحو الغرب، وعرفت برحلة الدموع، وبعدها قام المستعمرون بالاستيلاء على أراضي الهنود حتى وصلوا المحيط الهادي.

في سنة ١٨٤٨م اكتشف الذهب في كاليفورنيا مما شجع الكثير من المغامرين إلى الرحيل إليها، وعند وصولهم راحوا يمعنون في قتل الهنود الحمر، وقاتل الهنود بشجاعة وهزموا في النهاية وحجزوا في أماكن حجز مفردة، فكانوا فقراء معدمين في حالة صحية سيئة، واضمحل عددهم وانخفض من مليون نسمة إلى ٣٥٠,٠٠٠ نسمة.

وإذا أردت أن تتصور حالة الإرهاب الأمريكي على حقيقته فلتقرأ كتاب (العملاق) الذي صدر في سنة ١٦٦٤م وكتبه (بورد جاك) الذي تضمن نصائح إلى القيادات الأنجلوساكسونية التي تزعمت المهاجرين البروتستانت إلى القارة الأمريكية وجاء فيه:

١- بأن إبادة الهنود الحمر أرخص من تنصيرهم أو تمدينهم؛ لأنهم همج برابرة عراة.

٢- بأن الانتصار عليهم سهل ووسائل تحقيق النصر: القوة، والمفاجأة، والتجويع بحرق المحاصيل، بتدمير القوارب، والبيوت، بتمزيق شباك الصيد، وبالمطاردة بالجياد السريعة والكلاب المدربة التي تنهش أجسادهم العارية.

في عام ١٧٣٠م أصدرت الجمعية التشريعية -البرلمان البروتستنتي- تقديم المكافآت الآتية:

- ٤٠ جنيهاً مقابل كل فروة مسلوخة من رأس هندي أحمر.
- ٤٠ جنيهاً مقابل أسر هندي أحمر.
- بعد خمسة عشر سنة ارتفعت المكافأة إلى ١٠٠ جنيه وتلت صدور القرارات الخاصة بتسعير قتل الهنود الحمر.

في عام ١٧٦٣م أمر القائد الأمريكي البريطاني الأصل (جفري أهرست) برمي البطانيات المستخدمة في مصحات علاج الجدري في أماكن تجمع الهنود الحمر لنقل المرض إليهم ونشر الوباء بينهم، وبعد عقود قليلة تم فناؤهم وعزل ما تبقى منهم في مجمعات نائية[1].

هذا مثال فلنحذر ولنعد العدة ولنكن أقوياء؛ حتى نحمي أنفسنا وبلادنا من كيد المعتدين.

١- الاستفادة من الأبحاث في القرآن والسنة في كل النواحي بحث للشيخ عبد الكريم الفهدي على موقع جامعة الإيمان نقلاً عن: موقع الجمعية السورية على هذا الرابط: http://www.sprasy.com/website/index.php?more=4192&category_id=89، ومقال للدكتور فهمي هويدي على هذا الرابط: http://fahmyhoweidy.blogspot.com /، وانظر: جرائم أمريكا عبر التاريخ نقلاً عن موقع: http://www.almuflehi.net/vb/showthread.php?p=4312.

كيفية مواجهة التآمر

إن الواجب على أمة الإسلام تجاه هذا التآمر بأشكاله وألوانه اليقظة والتنبه والحذر من أن يفت هذا التآمر بكل أشكاله في عضدها، أو يوهن من عزمها، أو أن تشعر حياله بالعجز أو باليأس، فأمامها الكثير من وسائل المواجهة الناجعة وأسلحتها القاطعة والتي منها:

* نصرة الله تعالى: بالقيام بدينه، واتباع شرعه، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، ونصرة رسوله ﷺ وأتباعه، ونصرة دينه والدعوة إليه، وجهاد أعدائه وقهرهم؛ حتى تكون كلمته جل وعلا هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى، وأن يُقصد بذلك وجه الله، مع المحافظة على إقامة شعائر الدين من صلاة وصيام وحج وإيتاء زكاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فالذين يمكن الله لهم في الأرض ويجعل لهم فيها الكلمة والسلطان، ومع ذلك لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فليس لهم وعد من الله بالنصر؛ لأنهم ليسوا من حزبه ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه، فلو طلبوا النصر من الله بناء على أنه وعدهم إياه فمثلهم كمثل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أجر عليه ثم يطلب الأجرة، ومن هذا شأنه فلا عقل له، فإذا نصرْنا الله تعالى نصرَنا وثبت أقدامنا؛ بأن يربط على قلوبنا بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسادنا على ذلك ،ويعيننا على أعدائنا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[محمد:٧]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج:٤٠] فهذا وعد من كريم صادق الوعد أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه وييسر له أسباب النصر من الثبات وغيره[1]، فإذ

١- انظر: أضواء البيان ٥/٢٦٥، ٢٦٦، وتفسير السعدي ص٧٨٥.

استحققنا النصر سلمنا من كل تآمر خارجي وداخلي، ومن شر كل شياطين الأنس والجن.

* أخذ الأهبة والحذر وإعداد العدة، والعمل على تصنيع السلاح بكافة أشكاله.

* استعادة الوعي: فلا يمكن أن يمر هذا التآمر إلا من خلال ثقوب الجهل والغفلة، ومن ثم ينبغي إعادة الوعي إلى أبناء أمتنا، والحرص على إبقائه دائماً يقظاً متقداً.

* الاعتزاز بهويتنا الإسلامية: فالإسلام أساس انتمائنا الأول وولائنا الأكبر، وهو مرجعيتنا العليا لعقيدتنا وقيمنا وأخلاقنا وسلوكنا، وهو الذي يحفظ كيان المجتمع ويرسم ملامح شخصيته، ويحقق تماسكه وقوته، فيأبى من الذوبان في غيره أو التبعية لهذا الغير.

* الحرص على الترابط والوحدة: فالتنازع والاختلاف سبب الخيبة والفشل، واجتماع الأمر وتوحيد الصف أساس الغلبة والاستعلاء، ولنتعاون جميعاً لتحقيق الترابط على كل المستويات، فتترابط مكونات المجتمع الواحد مهما اختلفت الطوائف والمذاهب والأعراق ويسود التفاهم والتعاون بين الأنظمة والشعوب، ثم تتواصل الدول فيما بينها وتتكامل في مختلف الميادين الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية.

* إصلاح المناهج التربوية: حتى تُخرِج أجيالاً سليمة العقيدة، صحيحة العبادة، متينة الخُلق، مثقفة الفكر، معتزةً بدينها، محبةً لأوطانها، مواكبةً لعصرها، محافظة على دينها.

* الاهتمام بالعلم والأبحاث العلمية، وتوفير الإمكانيات والسبل أمام الباحثين والمختصين.

* الجهاد الإعلامي: فلا شك أن الإعلام يُعتبر وسيلةً قويةً ومؤثرةً من وسائل الجهاد في عصرنا هذا، فبه نذبُّ عن ديننا شبهاتِ المغرضين، وافتراءاتِ المبطلين، ونبيِّنُ للدنيا كلها بهاءه، ونرسل إليها ضياءه، ونمد إليها رواءه، وذلك عبر القنوات والإذاعات

والكتابات والشبكات، وينبغي أن نعمل جاهدين على إعداد الكتائب المطلوبة لهذا الجهاد العصري من الدعاة والإعلاميين الأكفاء المدرَّبين والأمناء المقتدرين.

* دعم الجهاد: الذي يواجه الأعداء في ميدان الصراع مباشرة، وهذا حق للمجاهدين- وهم من يسمون بلغة العصر المقاومين- على الأمة كبيرٌ لدعمهم معنوياً ومادياً، بإظهار الإكبار والتقدير لهم ولرجالهم والإشادة ببطولاتهم، وبالسعي لتنقية صفوفهم من المتآمرين والمتربصين، وبإخلاص الدعاء لهم في الأوقات الشريفة التي تُرجَى فيها الإجابة، وبالجهاد المالي معهم، وبمقاطعة كل ما يمتُّ للأعداء بصلة، وبكشف المرجفين والمثبطين من دعاة الانبطاح والاستسلام.

* دعم المقاومة النفسية: وهذا النوع من المقاومة مطلوب من أبناء الأمة كلهم؛ بقصد أن يبرؤوا من ثقافة الجبن والهلع التي تدفع بصاحبها إلى اليأس والاستسلام، وأن تسود فيهم ثقافة المقاومة التي تجرِّئُهم على المواجهة والصمود، وأن تشتعل في نفوسهم من جديد حمية العزة والكرامة التي تأبى على صاحبها الركون إلى الذلِّ أو الرضى بالهوان، إنها حميةُ الصحابي الجليل التي دفعته إلى قتْلِ ذلك اليهودي الخبيث الذي احتال لكشف سَوءة مسلمة، وهي -أيضًا- الحمية التي دفعت المعتصم لتجريد جيش جرار لنجدة مسلمة أخرى وقعت عليها مظلمة في أقاصي البلاد، فاستغاثت استغاثتها الشهيرة وآآآآ معتصما[1].

١- انظر: التآمر على الأمة (مظاهره، ومواجهته) رسالة من الأستاذ محمد مهدي عاكف المرشد العام للإخوان المسلمين، انظر موقع: إخوان أولاين: www.ikhwanonline.com.

وسائل عملية في وجه التآمر الخارجي

إن من الوسائل التي تعمل على دحر التآمر الخارجي على الإسلام والمسلمين ما يلي:

١- تنفيذ فكرة إنشاء محكمة العدل الإسلامية: فعلى الحكام السعي الجاد لتنفيذ فكرة إنشاء محكمة العدل الإسلامية، ووضعها موضع التطبيق وتطويرها، وعلى الشعوب القيام بمطالبة الحكومات بذلك، والضغط عليها للمبادرة إلى ذلك، وهي فكرة بدأت باقتراح قدمه وفد الكويت في القمة الإسلامية الثالثة بمكة المكرمة عام ١٩٨١م، وحدد الاقتراح أهمية إنشاء المحكمة حتى يستكمل بها هياكل منظمة المؤتمر الإسلامي، ولكي تكون فيصلاً وقاضياً وحكماً فيما ينشب من خلافات ومنازعات بين الدول الإسلامية، وللمساعدة في تنقية وتطوير العلاقات فيما بينها في كافة المجالات بعد ما لوحظ ما انتهت إليه الإنسانية المعاصرة -رغم مظاهر التقدم المادي واتساع المكاسب العلمية والتقنية- من الفقر الروحي، ومن الانحلال في العقائد والأخلاق، وبعد ملاحظة ما اعترى المجتمعات الإسلامية من الوهن في الذاتية والضعف في الفاعلية الحضارية، وخضوع العديد منها للهيمنة الأجنبية، وتعرضها لشتى وجوه الظلم والعدوان رغم ما تهيأ لها من مقومات الوحدة، وعوامل التقدم والنهضة، ودواعي العزة والرفاهية.

وفكرة إنشاء هذه المحكمة أمر تم إقراره خلال القمة الخامسة في الكويت عام ١٩٨٧م، وأكد النظام في مادته الأولى: أن محكمة العدل الإسلامية الدولية هي الجهاز القضائي الرئيس لمنظمة المؤتمر الإسلامي، تقوم على أساس الشريعة الإسلامية، وتعمل بصفة مستقلة وفقاً لأحكام ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي، وأحكام هذا النظام وهذه المحكمة ستمثل إحدى وسائل الوحدة بين الدول الإسلامية في مجال هام وهو مجال القضاء والتحكيم[1].

١- تتشكل هيئة محكمة العدل الإسلامية من سبعة قضاة ينتخبون من قبل المؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية، لمدة أربع سنوات، قابلة للتجديد مرة واحدة، ويشترط لانتخاب عضو في المحكمة: أن يكون مسلماً، عدلاً، من ذوي الصفات=

ويمكن توسيع عملها ليشمل النظر في كل القضايا والدعاوى ضد الحكومات والبلدان الإسلامية أو أي فرد من أفرادها، بما فيها قضية تسليم المطلوبين المسلمين للدول غير المسلمة، وهي بهذا تعمل على الحد من التآمر على الإسلام والمسلمين؛ لأن الأعداء قد اشتد مكرهم وكيدهم وتآمرهم، ووصل إلى ابتكار الأكاذيب والتهم وتوجيهها إلى الدول الإسلامية أو حكوماتها التي يراد التخلص منها، أو غزوها واحتلالها وتمزيقها.

إن مشروع محكمة العدل الإسلامية يتفق في مجمله مع المبادئ التي نص عليها النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية، وأهدافها قريبة من أهدافها، كما أن نظام ميثاق الأمم المتحدة يشجع مثل هذه الهيئات الإقليمية للتغلب على المشاكل التي تقوم بين دول المنطقة، وهي من قبل ومن بعد تتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية الغراء[1].

=الخلقية العالية، ومن رعايا إحدى الدول الأعضاء في المنظمة، على ألا يقل عمره عن أربعين عاماً، وأن يكون من فقهاء الشريعة المشهود لهم، وله خبرة في القانون الدولي، ومؤهلاً للتعيين في أرفع مناصب الإفتاء أو القضاء في بلاده.

ولها ثلاثة اختصاصات: قضائي: يجعل لها ولاية الفصل بحكم قطعي غير قابل للطعن، وإفتائي فلها أن تفتي في مسألة قانونية غير متعلقة بنزاع مطروح أمامها، واختصاص بالوساطة والتوفيق والتحكيم عن طريق لجنة من الشخصيات المرموقة، أو كبار المسؤولين في جهازها.

والشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي الذي تستند إليه المحكمة في أحكامها، وتسترشد المحكمة بالقانون الدولي، والاتفاقات الدولية الثنائية، أو متعددة الأطراف، أو العرف الدولي المعمول به، أو المبادئ العامة للقانون، أو الأحكام الصادرة عن المحاكم الدولية، أو مذاهب كبار فقهاء القانون الدولي في مختلف الدول.

واللغة العربية لغة المحكمة الأولى، وهي مع الإنجليزية والفرنسية اللغات الرسمية المعتمدة.

انظر: التحكيم في الفقه الإسلامي للدكتور محمد جبر الألفي، نقلاً عن مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد التاسع ٢/١٩١٨٢-١٩١٨٤، وتسليم المطلوبين بين الدول لزايد المشيوخي ص٢٧٢، ٣٧١.

١- قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾[الحجرات: ٩]، يقول ابن العربي: «هذه الآية هي الأصل في قتال المسلمين والعمدة في حرب المتأولين وعليها عول الصحابة وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة وإياها عنى النبي بقوله: "يَقْتُلُ عَمَّارَاً الفِئَةُ البَاغِيَة"[1][رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٣/٣٦٣ برقم: ٨٥٥]، وقوله في شأن الخوارج: "يَخْرُجُونَ عَلَى خَيرِ فِرْقَةٍ مِنَ النَاسِ"»[1][رواه النسائي في السنن الكبرى٥/١٥٩برقم:٨٥٦٠]، أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٤٩،١٥٠، وانظر: مبدأ التحكيم في الفقه الإسلامي لعبد الله محمد، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد التاسع.

إن إقرار النظام الأساسي لمحكمة العدل الإسلامي يعتبر بكل المعايير إنجازاً هاماً، وقراراً تاريخياً وطريقاً مستقيماً يصل الدول الإسلامية بتراثها الخالد، ويجنبها استجداء العدالة ممن يجهلون شريعتها، أو يحتقرون تقاليدها، أو يتربصون بأهلها، وسوف يتحقق هذا المعنى حين يكون قضاة المحكمة على قدر من فقه النفس، يؤهلهم لتطبيق روح الإسلام وسياسته الشرعية، ويبعد بهم عن أن يكونوا مضغة في الأفواه، وسوف يتأكد هذا المعنى حين يكون الجهاز التنفيذي للمحكمة مؤثراً فعالاً يفرض على الجميع -ودون استثناء- احترام الحق والعدل، والخضوع لإرادة المجتمع الإسلامي، وسوف يستقر هذا المعنى حين تتكون لدى المسلمين إرادة سياسية جماعية، واقتناع بالقيم الأخلاقية والروحية، وإيمان بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠][1].

٢- وضع فكرة التكافل الاقتصادي الإسلامي -السوق الإسلامية المشتركة- موضع التنفيذ؛ باعتبارها الأساس الصالح لإقامة وحدة الأمة، وتجميع وحسن استخدام ثرواتها وقوتها الاقتصادية، وسرعة بناء القاعدة التكنولوجية الإسلامية، وسوف يؤدي التأخير في إقامة هذه السوق إلى نقل كل مشكلات النظام الغربي إلى بلادنا التي تكاد تتحول الآن إلى مجرد أسواق لمنتجاتهم.

يقول الدكتور علي محيي الدين القره داغي: «فإن الحاجة ملحة جداً لأن تخطو الدول الإسلامية خطوة جادة أخرى لإيجاد سوق ثانوية؛ لتغطية رؤوس أموالها، لها أدواتها المشروعة وآلياتها الفعالة، تكون بمثابة رئتها التي تتنفس فيها شهيقاً وزفيراً، وذلك لأن البنوك الإسلامية اليوم كأنها تسير على رِجْل واحدة تمثل في السوق الأولوية، أما رجلها الثانية المتمثلة في السوق الثانوية -البورصة- فلا تزال لم تكتمل على الرغم من أهميتها

١- التحكيم في الفقه الإسلامي للدكتور محمد جبر الألفي، نقلاً عن مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد التاسع.

القصوى وحاجتنا الماسة إليها وذلك؛ لأنها الوعاء المتكامل للفائض من سيولة البنوك الإسلامية وامتصاص حاجتها، فالبنوك الإسلامية إذا لم تحقق لنفسها سوقاً إسلامية ثانوية ستظل أسيرة النظام المالي العالمي المتحكم في تدوير أموال الشعب.

لذلك سيكون من أولى الواجبات البحث عن هذه السوق المالية الإسلامية وعن مجموعة كبيرة من آلياتها المشروعة وأدواتها المباحة شرعاً.

إضافة إلى أن عالمنا الإسلامي قد حباه الله تعالى بوفرة موارده وثرواته ومعادنه ومواده الخام، وكثرة السيولة النقدية، حتى أن الاستثمارات العربية الخليجية في الغرب تقدر بأكثر من سبعمائة مليار دولار، ومن هنا فإعادة توطين هذه الأموال المهاجرة إلى خارج البلاد تتطلب تعاون الدول الإسلامية لإيجاد سوق إسلامية لرأس المال الإسلامي، وتسييله وتدويره لخدمة الأهداف التنموية وتحقيق التكافل والتوازن والتكامل، وفي حالة عدم قيام الدول الإسلامية بهذا الواجب فإن على البنوك الإسلامية والمجامع والهيئات الفقهية أن تبذل كل جهودها للوصول إلى هذا الهدف، ولا تألو بأي جهد فكري أو مالي لتحقيق هذا الغرض الملح»[1].

يقول الدكتور صالح الرقب: «وفي المجال الاقتصادي يمكن للعالم الإسلامي أن يواجه خطر العولمة[2] بتحقيق السوق الإسلامية المشتركة، وتقوية المؤسسات العربية المنبثقة عن الجامعة العربية، ومؤتمر القمة الإسلامي، لأنّه يمتلك مخزوناً جباراً من رؤوس الأموال ومن

١- التطبيقات الشرعية لإقامة السوق الإسلامية للدكتور علي محيي الدين القره داغي، نقلاً عن مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الثامن ٢/١٦٣٩٧- ٢/١٦٣٩٨.

٢- العولمة يطلق هذا المصطلح الذي انتشر في التسعينيات من القرن العشرين على عملية التداخل الثقافي بين أنحاء العالم المختلفة، وما ينتج عن ذلك من تأثير ثقافي وسياسي واقتصادي، والعولمة ترجمة لمصطلح إنجليزي، وقد اشتقت بالعربية من توحد العالم بتوحد المؤثرات الثقافية أو الحضارية، انظر: الموسوعة العربية العالمية، وبكل بساطة فإن العولمة هي السيطرة على العالم والتحكم به في شتى المجالات ثقافياً واقتصادياً وإعلامياً وسياسياً وعسكرياً...

الثروات الحيوية والمعدنية، بالإضافة إلى التلاحم الجغرافي، والتكامل في الموارد، ولهذا لو قامت تجارة فعلية بين العالم الإسلامي لأمكننا الاستغناء عن العالم الخارجي -على الأقل- في الاحتياجات الاستراتيجية»[١].

وقد ناشد المؤتمر الإسلامي العالمي لمناقشة الأوضاع الحاضرة في الخليج الحكومات والهيئات والشعوب الإسلامية بذل الجهود لتحقيق وحدة المسلمين بإقامة سوق إسلامية وتكامل اقتصادي فيما بينها ومعاهدة دفاع مشترك[٢].

فوائد تجنى من السوق الإسلامية المشتركة:

أولاً: الاقتراب من الاكتفاء الذاتي العربي والإسلامي، وخفض نسبة الاعتماد على العالم الخارجي، في استيراد السلع اللازمة للسوق المحلية بكافة مجالات نشاطاتها، الغذائية والدوائية والصناعية الخفيفة والثقيلة، وخاصة في مجال الأمن والدفاع العسكري.

ثانياً: الاستفادة من إنتاجيات الدول المشاركة، وبالتالي إقامة الصناعات التخصصية بين الدول الأعضاء، التي تؤدي إلى تحسين الإنتاج كماً ونوعاً، وتوفيره في الأسواق بأفضل المواصفات.

ثالثاً: دعم مواقف الدول الإسلامية في وجه المنافسة الدولية في مجال التجارة العالمية؛ لتتمكن من إثبات وجودها على الساحة الدولية.

رابعاً: توسيع مجالات الإنتاج، وتعدد طرقه؛ ليلبي حاجة السوق في الدول الأعضاء، ويعمل على إيجاد فرص عمل للشباب العربي والمسلم.

١- العولمة ص٨١.

٢- قرارات وتوصيات المؤتمر الإسلامي العالمي لمناقشة الأوضاع الحاضرة في الخليج المنعقد بمكة المكرمة في الفترة من ٢١ – ١٤١١/٢/٢٣هـ، نقلاً عن مجلة البحوث الإسلامية٣٠/٢٧١.

خامساً: تغطية حاجة السوق في الدول الأعضاء والصديقة، ثم تصدير الفائض إلى الخارج، بنظام المبادلة التجارية مع الأسواق العالمية، وذلك بمبدأ التعاون المشترك القائم على العدل والاحترام المتبادل بين الأطراف المعنية.

والدول الإسلامية تمتلك كثيراً من مقومات إنشاء السوق المشتركة؛ فهي تشكل ٢٠% من العالم من حيث عدد السكان، وحوالي ٣٣% من حيث مساحة المعمورة، وتحوي أراضيها ثروات أساسية تضع الدول الإسلامية في مكان الصدارة في نسب إنتاج السلع في التجارة الدولية.

وهناك عوامل كثيرة تدفع المسلمين إلى التفكير الجدي في إقامة سوق إسلامية مشتركة بينهم، وتسهل في الوقت نفسه من إقامتها[١].

٣- إنشاء اتحاد إسلامي يجمع الدول الإسلامية، ويبقي كل دولة مستقلة في السيادة والحكم، ولكنه يجمعهم حول القضايا الأساسية التي تعنيهم جميعاً، كما هو الحال في الاتحاد الأوروبي، وهذا الاتحاد سيمنح الدول الإسلامية قوة في شتى المجالات، ويدفع عتها خطر التآمر الخارجي.

يقول الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ: «إننا ندعوكم إلى إقامة اتحاد إسلامي عالمي قوي، أساسه توحيد الله ﷻ، ومنهاجه شريعة رسوله ﷺ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الجاثية:١٨]، ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[الجاثية:١٩]، مرجعنا كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، فمنها الحكم وإليها التحاكم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[النساء:٦٥].

١- السوق الإسلامية المشتركة من يعلق الجرس، السيد أبو داوود، نقلاً عن موقع نوافذ.

نعم أيها القادة والولاة وصناع القرار نريده اتحاداً إسلامياً في السياسة والاقتصاد والأمن، أثبتوا للعالم كيف تصلح الدنيا إذا سيست بالدين، كيف ينمو الاقتصاد ويزدهر إذا وافق شرع رب العالمين، كيف ينعم الناس بالأمن إذا طبقوا أحكام الشريعة.

أيها القادة ولئن كان هذا المطلب ملحاً في وقت مضى، فإنه اليوم أشد إلحاحاً وأكثر ضرورة، اليوم وقد أحاط أعداؤكم بدياركم، اليوم وقد هوجمتم في عقر داركم، اليوم وقد جاهروا بعداء دينكم، اليوم وقد سلبت خيراتكم، اليوم وقد تداعت عليكم أمم الأرض حقداً وحسداً وطمعاً، فماذا تنتظرون؟! إنكم لن تواجهوا عدوكم وأنتم متفرقون، ولن تقدروا عليهم وأنتم متناحرون، فلا بالوسائل الشرعية عملتم، ولا بالأسباب الكونية أخذتم، فاتقوا ربكم»[1].

ويقول الشيخ عبد المجيد الزنداني: «أما قوة الوحدة فأنا أطلب من كل غيور على هذه الأمة أن يطالب الحكومات بالسير نحو اتحاد إسلامي على غرار الاتحاد الأوروبي، والذي يُبقي لكل دولة خصوصيتها، ولكل زعيم شعبه، ولكنه يجمعهم في اتحاد حول القضايا الأساسية التي تعنيهم جميعاً، وهذا الأمر إذا تحقق يصبح لنا كيان يتناسب مع حجم أمتنا، ومع تعاليم ديننا، ومع طبيعة عصرنا الذي نعيشه، ويجب أن يواجه الحكام بأن سياستكم هذه الانفصالية الانطوائية المحدودة الضعيفة لا تنفعكم في الدفاع عن وجودكم، ولا عن أنفسكم ولا عن شعوبكم، ماذا تملك دولة مقوماتها تعجز عن أن تدفع العدو أو تدفع حصار العدو؟ وما قيمة هذا الكيان؟ يجب أن يفهم الناس أننا أمام مصير أن نكون أو لا نكون، وأن نحفظ أنفسنا أو أن نضيع؛ فلا بد من فكرة وحدوية إسلامية، تدفع في هذا الاتجاه، وتحقق ما يمكن عمله، مع إرضاء كل دولة بخصوصيتها، وكل زعيم بزعامته.

١- خطبة يوم عرفة للشيخ عبد العزيز آل الشيخ، لحج عام ١٤٢٤ هـ، نقلاً عن مجلة البحوث الإسلامية ٢٢/٧١، ٢٣.

وأما قوة العدة فهي نتيجة حتمية، عندما تكون أمة لها اتحاد قوي، فسوف يبحث هذا الاتحاد عن وسائل الدفاع عن نفسه أمام العدوان، وأن تكون الإمكانات هائلة والقدرات قوية واسعة؛ فنحن لدينا دولة إسلامية لديها السلاح الذري، وربما نسمع عن دول أخرى تملك السلاح الذري، ونحن شعوب كبيرة وجيوش كثيرة، ودول تصنع كافة أنواع الأسلحة، وهذا يحتاج إلى توجه جماعي قوي، وعندئذ سيحترمنا الناس والأعداء، والناس عموماً يحترمون القوي.

فالخلاصة: الطريق الأمثل قوة في دين، وقوة في وحدة، وقوة في أسباب الدنيا»[1].

إن الدعوة إلى إنشاء اتحاد إسلامي ليس أمراً من ضروب الخيال، ولا المستحيلة المنال، فمن الممكن تحقيق ذلك وقيام هذا الاتحاد، فقد اجتمعت أوروبا في اتحاد مع عدم وجود روابط بينها، أما نحن فتربطنا أهم رابطة تضمن تحقيق هذا الاتحاد، وهي رابطة العقيدة والدين، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى عزيمة صادقة، وإرادة قوية، وشعور بالمسؤولية، وبالخطر المحدق بالأمة، فمشكلتنا عدم الشعور بالمسؤولية والاستخفاف في الحكام والشعوب، وعدم العناية بالشريعة والتيقظ للأخطار المحدقة.

يقول الأستاذ الدكتور حسن بن محمد مقبولي الأهدل: «إن هناك عدم شعور بالمسؤولية، واستخفافاً من القادة والزعماء العرب والمسلمين والناس بعدم الاهتمام بالقضايا الشرعية والثوابت الأساسية للأمة، ولذلك فنحن نشد على أيدي قادة وزعماء الأمة الإسلامية أن تعيد حسابات توحدها، فنحن أمة متفككة وليست متوحدة في مواقفها وفي كيانها خاصة في هذا الوقت الذي يشهد فيه العالم الكثير من التكتلات الكبيرة لدول كانت على مدى التاريخ مجزأة، ومختلفة المبادئ واللغات والديانات والثقافات

١- نريد أن نجتمع على طريق صحيح مضمون، حوار مع البيان للشيخ عبد المجيد الزنداني، حاوره في صنعاء عبد الله بن محمد العسكر، مجلة البيان، العدد ٢١٢، ربيع الآخر ١٤٢٦هـ.

وغيرها، لأنها فهمت أن الكيانات الضعيفة الممزقة والمشتتة لا يمكن أن يكون لها تأثير أو وجود، فيما نحن كأمة عربية وإسلامية نشهد تمزقاً وشتاتاً رغم ما يجمعنا من عوامل التوحد من دين ولغة وثقافة وغيرها من الصفات، الأمر الذي سيزيد من هجمات أعدائنا وسيسهل على الغرب احتلال بلاد الإسلام من جديد»[١].

٤- إنشاء قوة إسلامية برية وبحرية وجوية؛ تغنينا عن استدعاء وقدوم قوات أجنبية للمرابطة في أرض الإسلام ومياهها الإقليمية، وتسهم هذه القوة الإسلامية في حفظ الأمن والسلام بين الدول الإسلامية، وعلى أراضيها ومياهها الإقليمية، وتكون نواة لتوحيد القوات المسلحة في بلادنا... بوصول المسلمين إلى مرحلة الوحدة السياسية بإذن الله[٢].

وقد ناشد المؤتمر الإسلامي العالمي لمناقشة الأوضاع الحاضرة في الخليج الدول الإسلامية بتكوين قوة إسلامية دائمة، تحت إشراف منظمة المؤتمر الإسلامي عند حدوث النزاعات بينها[٣].

٥- إنشاء حلف إسلامي يكون للدول الإسلامية ذراعها العسكري لتأديب من يعتدي على نظمها وخصوصياتها أو يريد احتلال أراضيها، وتعمل الدول الأعضاء في الحلف جنباً إلى جنب لتجتمع جهودها الموحدة وجهادها الموحد في مواجهة الخطر الخارجي، والعمل معاً للتصدي للتهديدات القادمة من أي مصادر جديدة أو جهات جديدة[٤].

١- نقلاً عن مقال للأستاذ الدكتور حسن محمد الأهدل -رحمه الله- أستاذ كلية الشريعة في جامعة صنعاء والإيمان وعميدها سابقاً في جامعة صنعاء نقلته عنه صحيفة صوت الإيمان العدد: ٢٠٤/ محرم/ ١٤٣١هـ- يناير/ ٢٠١٠، ص٩.

٢- قراءة في فكر علماء الاستراتيجية ص١٨٩.

٣- قرارات وتوصيات المؤتمر الإسلامي العالمي لمناقشة الأوضاع الحاضرة في الخليج المنعقد بمكة المكرمة في الفترة من ٢١ - ١٤١١\٢\٢٣هـ، نقلاً عن مجلة البحوث الإسلامية ٣٠/٢٧٠.

٤- موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ ١٢/٢٤٣، ومجلة البيان ٣٢/٦٥.

٦- إنشاء مركز إسلامي للبحوث والمعلومات وإدارة الأزمات، يجمع المعلومات ويحللها، ويقوم بالبحوث ذات الطبيعة الاستراتيجية في كل المجالات -سياسية، واقتصادية، وعسكرية...، ويقوم بدراسات مستقبلية لتوقع الأزمات، ويضع الحلول والبدائل أمام الدول الإسلامية، فيسهل اتخاذ القرار الجماعي الإسلامي[١].

٧- تنظيم اجتماعات سنوية لرؤساء الدول الإسلامية، وفي حالات الأزمات التي تهدد الأمن الإسلامي، أو أمن أي مجتمع من المجتمعات الإسلامية في بلاد الإسلام أو خارجها، ينعقد مجلسهم خلال ٤٨ ساعة، وتخرج هذه الاجتماعات بقرارات عملية ملزمة، دن الرضوخ والميل لأي مؤثر خارجي، ويمكن أن يستعان فيها بالخبراء، مع فرض عقوبات تأديبية على أي متخلف لغير عذر قاهر.

٨- القيام بنهضة ثقافية شاملة: تتناول التعليم، والبحث العلمي، فما وصل الغرب إلى ما وصل إليه من التقدم الصناعي إلا بالعلم والبحث العلمي، فنجد أن الدول الكبرى في العالم تهتم بالعلم وتعطيه اهتماماً كبيرا، وتسخر جزء كبيرا من ميزانية الدولة في خدمة العلم والأبحاث العلمية، بينما الدول العربية والإسلامية قد جعلت من العلم والبحث العلمي أمراً هامشياً، حتى أن إحدى الدول الإسلامية لا تكاد تبلغ ميزانية وزارة التعليم العالي فيها لأحد الأعوام قيمة سيارة من السيارات.

٩- الاهتمام بالعقول والأدمغة وتشجيعها لا محاربتها وتهميشها، فلقد أصبحت دول الغرب مهجراً وملجئاً تهاجر إليه العقول والأدمغة الإسلامية؛ لأن هذه الدول تشجعهم وتتيح الفرصة أمامهم للابتكار والاختراع، وتعطيهم الصدارة والمكافئات والامتيازات والمنح العلمية النافعة، وتسخر لهم كل الوسائل التي يحتاجون إليها، أما بلاد الإسلام فإذا ما برز أحد هؤلاء المبدعين فإنه يجد نفسه غريباً بل محارباً، فلا يجد أمامه حلاً إلا الفرار، فأمريكا

١- قراءة في فكر علماء الاستراتيجية ص١٨٩.

قبل أن تغزوا العراق أو ما فعلت هو المطالبة بعلماء الذرة لإدراكها أن بقاء أمثال هؤلاء يشكل خطراً عليها، ويسبب فشل مخططاتها تجاه بلاد الإسلام.

١٠- تنظيف جميع وسائل الإعلام -المرئية والمقروءة والمسموعة- وتطهيرها من الخبائث والنجاسات والعمالات، وتوجيهها الوجه الصحيحة التي تتفق مع مبادئ الإسلام وقيمه وأخلاقه؛ لتكون معول بناء لا هدم، ووسيلة لنهضة الشعوب وصحوتها لا إخمادها وإغراقها في بحور الأهواء والشهوات والخيالات والمتاهات والسفاهات والترهات، ولتكون وسيلة تربية وتعليم وتوجيه وإرشاد وإصلاح للمجتمعات، لا وسيلة إفساد ومحق للقيم الأخلاقية والتربوية.

فعلى جميع وسائل الإعلام الاهتمام ببيان حقيقة التآمر الخارجي على الأمة، وأن تستضيف العلماء والخبراء والمختصين في جميع المجالات؛ لبيان الحلول العملية؛ حتى تكون الأمة بأسرها مدركة للخطر وطرق التعامل معه؛ لتكون على أهبة الاستعداد في كل وقت ولحظة من اللحظات.

١١- الحفاظ على مربع الأمن الإسلامي ودعمه وتحريره، ويتركز أمن الأمة الإسلامية من الناحية الاستراتيجية في مربع التوازن الجيوستراتيجي الذي يحده تركيا، وإيران، وأفغانستان، وباكستان، والصومال، والسودان، ومصر، ويعتبر المساس بوحدة وتماسك أي دولة من الدول الواقعة بداخل هذا المربع من مصادر الخطر الكبير على كل الأمن الإسلامي، فالتواجد الأجنبي حول أو بداخل هذا المربع يهدد أمن الأمة الإسلامية[1].

١٢- اغتنام فرصة الانهيار العالمي الاقتصادي، وانشغال الغرب بنفسه، لإحداث التوازن، فالكسالى والقاعدين لا يستحقون نصر الله ﷻ، إلا إذا خطوا الخطوة الأولى

١- قراءة في فكر علماء الاستراتيجية ص١٩٠،١٨٩.

باتجاه منازلة الباطل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد: ١١].

١٣- نصرة المسلمين، فالمسلمون حيثما كانوا أمة واحدة جمعتهم عقيدة التوحيد، وربطتهم الشريعة والقبلة الواحدة، وهم كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله، كما ثبت عن النبي ﷺ، لذا فإن النصرة واجبة في كل مكان إذا اعتدى عليهم، أو انتهكت أرضهم، أو نزلت بهم نازلة قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[التوبة: ٧١]، وقال ﷺ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "[1]

والنصرة إنما تكون بالنفس والمال والتأييد المعنوي والسياسي ونحوه، بما يتناسب والإمكانات والأحوال والظروف المتغيرة، فعلى الدول العربية والإسلامية مناصرة المسلمين الذين يتعرضون للاضطهاد في شتى بقاع الأرض، ودعم قضاياهم، ودرء العدوان عنهم بشتى الوسائل المتاحة، وهذا من دوره إن يحد وبشكل كبير من التآمر الخارجي على الأمة الإسلامية والعربية؛ لأن العدو حين يرى ويدرك ويتيقن أن الأمة الإسلامية والعربية حين الاعتداء على أي جزء منها ستقوم ببذل كل الجهود لنصرة المسلمين ودفع العدو عنهم بالنفس والمال وكل الوسائل المادية والمعنوية، سيتراجع وينكمش ويكف عن بطشه وعربدته.

١- رواه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ٨٦٢/٢ برقم: ٢٣١٠، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ١٩٩٦/٤ برقم: ٢٥٨٠.

١٤- الحرص على بيان سماحة الإسلام وأنه جاء لخير الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، ورد الشبهات التي أثارها أعداء الإسلام بطرق علمية سليمة رصينة، وبحيث يكون ذلك على المستوى العالمي وباللغات الحية جميعها، والحرص على إبلاغ ذلك لجميع العالم بالاستفادة الفاعلة والمدروسة من الأساليب المعاصرة في الإعلام الذي يمكن من إيصال كلمة الحق والخير إلى جميع أنحاء الدنيا ودون إهمالٍ لكل وسيلة متاحة، لتصحيح الفكر الغربي تجاه الإسلام والمسلمين، وطمس الصورة المشوهة عن الإسلام في أذهان الغرب نتيجة التعبئة الإعلامية الحاقدة، وكل هذا من شأنه تخفيف حدة التآمر الأجنبي؛ لأن الشعوب ستعمل كورقة ضغط على حكوماتها تجاه أي تدخل في الشئون الإسلامية والعربية، وبذلك يفقد قادة التآمر الخارجي التأييد الشعبي لأعمالهم الإجرامية ضد الإسلام والمسلمين.

دروس وعبر من الاحتلال الأجنبي لبلاد الإسلام

إن العدو المتربص لا يجد فرصة لبسط النفوذ والسيطرة على أي قطر من أقطار العالم الإسلامي إلا بادر إليه، وكثير من بلاد الإسلام إن لم تكن جميعها قد تعرضت للاحتلال الأجنبي، والذريعة إلى ذلك خطط تفرضها قوى الاستكبار العالمي تحت ستار الأنظمة، كنظام الانتداب الذي كان تابعاً لعصبة الأمم، وعندما تم إنشاء منظمة الأمم المتحدة قامت بتطوير نظام الانتداب إلى نظام الوصاية، ومهما تغيرات الأسماء فإن مسمياتها واحدة، وهدفها واحد، فالعدو لا يزال سائراً في سياساته الاستعمارية، ولذا كان من النافع للحكومات الإسلامية والعربية النظر في البلاد الإسلامية التي تم إخضاعها للاحتلال الأجنبي وأخذ الدروس والعبر من ذلك، ولو نظرنا بعين البصر والبصيرة للاحتلال الأجنبي للعراق وأفغانستان وفلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان مثلاً، ومن قبلها ما حصل من

استعمار للكثير من بلاد الإسلام، فيمكن أن نخرج بدروس كثيرة نستفيد منها لتلاشي هذا الخطر، ومنها:

الدرس الأول: أعداء الأمة الإسلامية لم ولن يفتروا عن محاربتها والكيد لها، ومحاولة تفريق شملها، وبث التنازع داخل صفوفها، وإيجاد الثغرات التي يتمكنون من الولوج من خلالها، واحتلال أراضيها ونهب ثرواتها.

الدرس الثاني: أن على الدول الإسلامية أن لا تأمن كيد عدوها لها، ومكره بها، بل تقدر أسوأ الاحتمالات نتيجة لهذا الكيد والمكر، ولو كان احتلال أراضيها؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾[النساء: ٧١]، وتعمل على إعداد العدة الرادعة للعدو من أسلحة متنوعة متعددة المصادر لردعه إذا ما فكر في احتلال أراضيها؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾[الأنفال: ٦٠].

قال الإمام الرازي: «والمراد أن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين نعلم كونهم أعداء كذلك يرهب الأعداء الذين لا نعلم أنهم أعداء»[(١)].

وقال الإمام البغوي: «الإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة ﴿مِّن قُوَّةٖ﴾ أي: من الآلات التي تكون لكم قوة عليهم من الخيل والسلاح»[(٢)].

وقال الإمام السعد: «﴿وَأَعِدُّواْ﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي

١- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ١٥/١٤٩.

٢- تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن) ٢/٢٥٨.

تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات، من المدافع والرشاشات والبنادق، والطيارات الجوية والمراكب البرية والبحرية، والقلاع والخنادق وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرمي والشجاعة والتدبير، ولهذا قال النبي ﷺ: "أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ"[1]، ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته فإذا كان شيء موجودا أكثر إرهابا منها كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد كانت مأمورا بالاستعداد بها والسعي لتحصيلها حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة وجب ذلك؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[2]، ويدخل في ذلك التسلح النووي؛ لأن العالم الآن يتعامل بمنطق القوة لا بقوة المنطق، وبقرار القوة لا بقوة القرار.

الدرس الثالث: أن تحذر الدول الإسلامية من جواسيس أعدائها الذين يقدمون إليها على هيئات مختلفة إما خبراء أو سياح أو باحثين... وهم إنما يرصدون أحوالها تمهيداً لما ينوون التخطيط له تجاهها؛ إما غزواً ثقافياً أو عسكرياً.

الدرس الرابع: الحد من هجرة الأجانب -غير المسلمين- إليها ممن يُكونون أرضية ممهدة لتدخل الأعداء، ولتتخذ الاحتياطات اللازمة حال الحاجة لبعضهم لتجنب شرورهم؛ كالتفريق بينهم ومراقبتهم، بل الحذر حتى ممن دخل إليها من الأجانب مسلماً

١- رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه ودم من علمه ثم نسيه ١٥٢٢/٣ برقم: ١٩١٧، عن عقبة بن عامر ﷺ قال: سمعت رسول ﷺ وهو على المنبر يقول: "﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ".

٢- تفسير السعدي (يسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص٣٢٤، ٣٢٥.

دون أن يعرف، فربما أظهر بعضهم الإسلام تصنعاً ليؤمن جانبه ويسهل عليه القيام بالمهمة الموكلة إليه.

الدرس الخامس: الحذر من الشخصيات المشبوهة التي تحل أرضي الدول الإسلامية – سواءً ممن يدعون الإسلام أم من غيرهم– ويكون لها نشاط مريب في بث الأفكار المنحرفة بين شباب البلاد؛ مما يكون عاقبته شراً؛ فإن معظم النار من مستصغر الشرر

وَلاَ تَـحْتَقِر كَـيْدَ الضَّـعِيفِ فَـرُبَّمَا تَمُـوْتُ الأفَاعِي مِـن سُـمُـومِ العَـقَـارِب

وَقَد هَدَّ قِدَماً عَرْشَ بَلْقِيْسَ هُدْهُدٌ وَخـرَّبَ حَـفْرُ الفَـأرِ سَـدَّ مَـأرِب[1]

الدرس السادس: أن الأفكار العنصرية الجاهلية التي يقع فيها بعض المسلمين؛ من تعصب لجنس أو أرض تؤدي إلى تفريق الدول الإسلامية وإضعافها؛ مما يسهل المهمة أمام العدو المتربص بها، فلو لم تكن هناك فجوة عنصرية جاهلية بين الترك والعرب مثلاً لما استطاع الغرب تفتيت العالم الإسلامي، مستغلاً هذا الأمر في إذكاء نار الفرقة بين الطائفتين، فلتأخذ الدول الإسلامية على يد كل من يثير مثل هذه النعرات الجاهلية بين أبنائها؛ ولو كان على سبيل المزاح.

الدرس السابع: أن مخالفة أوامر الله بالركون إلى أعدائه من اليهود والنصارى والمنافقين وأهل الأهواء والبدع، وتوليتهم المناصب وتقريبهم يؤدي حتماً بالبلد المسلم إلى الهاوية، وتسليمه للعدو –سياسياً أو فكرياً– بأبخس الأثمان –كما حدث في مصر بجهود اليهود والنصارى الأرمن والمنافقين وغيرهم– والله تعالى يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾[آل عمران:١١٨] وكم في التاريخ من نماذج وأمثلة للخيانات التي قام بها الكفار والمنافقون وأصحاب الأهواء والمصالح الشخصية لأمة

١- جواهر الأدب ٢/٥٠.

الإسلام، فلتحرص الدول الإسلامية على عدم تقريب هؤلاء من السلطات المؤثرة، واتخاذهم بطانة؛ فإنهم سرعان ما ينقلبون عليها ساعة العسرة.

قال الإمام السعدي: «﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة، وعمل الأسباب التي فيها ضرركم، ومساعدة الأعداء عليكم»[1]، فلم يبق إلا أهل الإيمان والعقيدة السليمة، وليس ما حصل في العراق عنا ببعيد.

الدرس الثامن: أن تبتعد الدول الإسلامية عن الإسراف وتبذير الأموال فيما لا ينفع العباد والبلاد؛ مما يؤدي بها إلى الاستدانة من أعدائها بفوائد ربوية تتراكم عليها، تكون نهايتها وقوع البلد في قبضتهم رويداً رويداً، ثم يبدأ الابتزاز والضغط عليها لتنصاع لأهوائهم في شتى المجالات، فخير للبلد المسلم أن يبتعد عن الترف والإسراف قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[الأعراف: ٣١].

و يجب على البلاد الإسلامية ترك التعامل بالربا الذي عاقبته المحق والهلاك وتسلط الأعداء، قال تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[البقرة: ٢٧٦]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ * فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾[البقرة ٢٧٨-٢٧٩].

١- تفسير السعدي ص١٤٤.

وإذا اضُطرت الدول الإسلامية إلى المال فليكن ذلك عن طريق التعاون مع أبنائها أو الدول المسلمة الأخرى عبر صناديق تعاونية مشتركة تحميها من الربا والاستدانة من أعدائها.

الدرس التاسع: أن تنظر الدولة المسلمة في عاقبة أي مشروع ضخم يُقْترح عليها أو تقوم به، ومدى مصلحته للبلاد، وتوازن بين مصالحه ومفاسده، وتستشير الخبراء وأهل الاختصاص والخبرة والقدرة والأمناء وأهل النصح والإرشاد والخير، فلا يكفي اختصاص وخبرة بغير أمانة ولا العكس، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[القصص:٢٦].

الدرس العاشر: المبادرة بالإصلاح الحقيقي النافع القائم على مراعاة مصالح العباد في المعاش والمعاد، القائم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قبل أن تجد غيرها قد سبقها إلى طرح إصلاح مزعوم لا يرضي الله ولا رسوله ﷺ، بل يرضي أعداء الإسلام الذين ينفخون فيه وفي أهله لمآربهم.

إصلاح يكون غايته وهدفه الأول تعبيد الناس لرب العالمين، وتحقيق التوحيد عن طريق كل ما يساهم في ذلك من وسائل؛ كالاهتمام بأمر العقيدة، والدعوة إليها، وإزالة ما يُخالفها.

إصلاح ينشر الفضيلة بين المسلمين، ويدعم أسبابها ومنافذها، ويُحارب الرذيلة ويُضيق على أهلها

إصلاح ينشر العدل بين الناس، ويباعد بين الدولة المسلمة وبين ظلم الرعية، فيؤمن احتياجات المسلمين، ويوفر لهم أسباب العيش الكريم دون أن يحوجهم إلى الآخرين عن طريق إقامة المشاريع النافعة التي تتبناها الدولة؛ كإقامة المجمعات السكنية لذوي الدخل

المحدود، وتشغيل العاطلين، وإعطاء العاملين والموظفين الرواتب المجزية التي تتناسب مع حال المعيشة...

إصلاح يحقق للمرأة المسلمة بيئة العلم النافع، والعمل الكريم -إذا احتاجت إليه- بعيداً عن كل ما يخالف شرع الله.

إصلاح ينهض بالبلاد دنيوياً في مجالات التقنية والصناعة والزراعة... وغيرها عن طريق تشجيع العقول والنوابغ، وتسهيل أمورهم، وإعطائهم الثقة، ووضعهم في المكان المناسب، وتنفيذ مخترعاتهم وأفكارهم التي تعود بالنفع في المعاش والمعاد...

الدرس الحادي عشر: أن تعلم الدولة المسلمة أن خير ما ينجيها من مكر الأعداء وفتنهم هو الاعتصام بالكتاب والسنة، والثبات على دين الله، وعدم المساومة أو التنازل عنه ولو بالقليل، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران:١٢٠]، وقال محذراً من مداهنة الأعداء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٩].

الدرس الثاني عشر: أن تتيقن الدولة المسلمة أن أعداء الإسلام -يهودا ونصارى ومنافقين وغيرهم- سيقفون صفاً واحداً أمامها وقت الفتن والأزمات مهما اختلفوا فيما بينهم، كما هو واضح من التحالف الغربي على فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال والسودان واليمن وسوريا وسائر بلاد الإسلام.

الدرس الثالث عشر: أعداء الإسلام يفتعلون الأحداث، ويستغلون الذرائع -مهما كانت صغيرة- ليتدخلوا في شؤون الدول الإسلامية، ولو أدى ذلك إلى احتلالها.

الدرس الرابع عشر: الأعداء يحرصون جداً تجاه الدول الإسلامية التي يريدون الضغط عليها أو التحرش بها أن ينشروا بين أبنائها فكرين خبيثين هما: فكر التهييج والثورة، وفكر العصرنة والتميع، وبالفكر الأول تُتاح لهم فرصة التدخل في شؤون الدولة المسلمة واحتلالها بعد شقها لصفها وإضعاف كلمتها[١]، وبالفكر الثاني يضمنون مسخ عقول أبناء المسلمين المسلمين وترويضهم نفسياً لقبول التغريب، ولابد تجاه ذلك من حزم، وعدم التهاون الذي قد يُكلف الكثير لاحقاً.

الدرس الخامس عشر: الأعداء يفرحون كثيراً بتلقي أبناء المسلمين العلوم عندهم ويحرصون عليه، لاسيما أبناء الذوات ممن هم مهيؤون لتولي المناصب المهمة إذا ما عادوا إلى بلادهم؛ لأنها تعلم أنهم سيتأثرون عرضاً أو قصداً بثقافتها، وسيكونون خير ناقل لها إلى بلاد المسلمين، فلتحرص الدولة المسلمة على أن يكون تلقي أبنائها للعلوم داخل أرضها؛ دون حاجة إلى البعثات الدراسية الخارجية إلا في حالة اضطرارية محدودة؛ كما في التخصصات الدنيوية النادرة مثلاً، مع تحصين المبتعث ضد الأفكار الغربية الضارة[٢].

الدرس السادس عشر: أن الأعداء لن يعدموا أن يجدوا من المسلمين أفراداً مغفلين أو طامحين يخدمونهم من حيث لا يشعرون، ممن يصدق فيهم قول الشاعر:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرؤ نصيب ولاحظٌ تمنى زوالها

ولو كان ذلك على حساب دينهم وبلدهم، ويلجأ الأعداء للاتصال بهم، والاهتمام بقضيتهم، وتشجيعهم على المضي ضد الدولة المسلمة تحت مسمى التغيير، وهدفهم من هذا كله ليس حباً في هؤلاء المغيرين إنما ضربهم بالدولة المسلمة، لتفريق أهلها، وزرع الفتن

١- فانظر على سبيل المثال ماذا حدث في مصر، عندما أراد الغرب وسفهاء الشرق التخلص من الرئيس محمد مرسي، عملوا على ذلك تحت غطاء الثورة، وعملوا بتواطؤ من الجيش على تهييج الرأي العام المصري على مرسي، ثم أطاحوا به، بانقلاب عسكري غيروا به سياسة البلاد بسياسة عملية سخرت جل إمكانات الدولة تحت خدمة العدو.

٢- ولو نظرت في سيرة بعض الحكام وسير أبنائهم لوجدتهم ممن تلقى التعليم والتدريب لدى الغرب.

والشقاق بين الراعي والرعية؛ حتى يلجأ كلٌ منهم خاضعاً مطيعاً إلى العدو لحمايته من الآخر!! وقد تقع البلاد بعدها في احتلال أجنبي بغيض بعد أن استغل هذا النزاع والتفرق، فلتأخذ الدولة المسلمة على أيدي هؤلاء الطامحين أو المغفلين قبل أن يتعاظم شرهم فيوقعوا بلاد الإسلام فيما لا تُحمد عقباه.

وجرمٌ جره سفهاء قوم فحل بغير صاحبه العقاب

الدرس السابع عشر: أن تعلم الدولة المسلمة أن ما يسمى بـ(الحرية الإعلامية) سواء في الصحافة أم في غيرها- التي تجعل مسائل الشرع كلاًّ مباحاً لكل أحد، وتسمح بالجرأة على العلماء ورجال البلاد الأمناء والشرفاء والناصحين -للبناء لا الهدم- هي فكرة مخادعة ضارة بالبلاد؛ لأنها تؤدي إلى بث الاختلافات المتنوعة بين الناس وتغذية النزاعات والخصومات، وشحن النفوس، وتهييجها وتحزيبها، وتمهد لتمزق البلاد فكرياً قبل تمزقه سياسياً، فلتحد الدولة المسلمة من هذه الحرية المزعومة التي يروج لها الأعداء بخُبث؛ لأنهم يعلمون ما يجنونه منها، ولتوجه وسائل إعلامها إلى ما ينفع الناس ويجمعهم على الحق الظاهر[1].

١- بتصرف من كيف احتل الإنجليز مصر بعنوان دروس وعبر، لسليمان بن صالح الخراشي، نقلا عن موقع: ./http://www.saaid.net

خاتمة

وفي الختام أسأل من الله جل في علاه أن ينفعني وقارئة، وأن يجمع كلمة المسلمين ويوحد صفهم، ويهدينا إلى الصراط المستقيم.

وأن يجنبا مخالفة الشريعة، ويوفقنا لموافقتها، والعمل بها، وتحكميها وحراستها.

وأن يجنبنا الوقوع في الذنوب والمعاصي، وأن يعننا تركها ومجاهدة النفس على ذلك.

وأن يرفع عنا الجهل، ويفقهنا في ديننا، وينورنا بنور العلم، والعمل به.

وأن يرفع عنا الظلم والجور، وينشر فينا العدل والمساواة.

وأن يزيل عنا التفرق والتمزق ، وأن يوحد صفنا، ويجمع كلمتنا، ويؤلف بين قلوبنا.

وأن يجنبنا العصبية البغيضة، ويرزقنا التجرد والإنصاف.

وأن يجنبا الفتن والمحن ما ظهر منها وما بطن—بحمل سلاح وبغيره–، ويبصرنا بعيوبنا.

وأن يعيننا على تحقيق وشكر نعمة الأخوة والوحدة، ويجنبنا الأعراض عن شكرها.

وأن يدفع عنا كل مكر وكيد وتآمر، ويوفقنا للأخذ بما يدفع عنا ذلك.

وأسأله تعالى أن يتجاوز عما في هذا البحث من خلل أو قصور[١]، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وإن تجد عيباً فسد الخللا فجل من لا عيب فيه وعلا[٢]

وصلى الله وسلم على حبيبنا محمد وعلى آله وأزواجه وجميع أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الصافات: ١٨٠- ١٨٢].

١- (ولا يزال الخطأ موجوداً)، بهذه الكلمات رد علي العلامة حسن الأهدل -رحمه الله- عندما وضعت بين يديه أطروحة الماجستير كاملة جاهزة لمناقشتها، واعتذرت إليه بأني قد بلغت فيها جهدي؛ تحاشياً للخطأ، فرد علي بتلك الكلمات التي لم أنسها، وكان كما قال، فكلما راجعت فيها وجدت خطأ، وذلك يدل على استحكام النقص في الإنسان، وإنما الكمال لله الواحد الديان.

٢- قاله الإمام الحريري في خاتمة ملحة الإعراب.

ملحق

ويحتوي على:

قرار مجمع الفقه الدولي بشأن الوحدة الإسلامية.

قرار مجمع الفقه الدولي بشأن الغزو الفكري.

توصيات الدورة الرابعة لمجلس مجمع الفقه الدولي.

توصيات مجمع الفقه الدولي في دورته الثالثة عشرة.

بيان علماء اليمن حول خطر التدخل الأجنبي في اليمن.

قصيدة يا أمتي وجب الكفاح.

قصيدة يا مسلمون تأهبوا.

قرار مجمع الفقه الدولي (٨٩)(١١/١) بشأن الوحدة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم، النبيين وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد: فإن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي في دورة انعقاد مؤتمره الحادي عشر بالمنامة في دولة البحرين من ٢٥-٣٠ رجب ١٤١٩هـ الموافق له ١٤-١٩ نوفمبر ١٩٩٨م، وبعد اطلاعه على الأبحاث المقدمة إلى المجمع بخصوص موضوع: (الوحدة الإسلامية)، وفي ضوء المناقشات التي وجهت الأنظار إلى أن هذا الموضوع من أهم المواضيع التي تحتاج الأمة الإسلامية اليوم إلى بحثها من الناحيتين النظرية والعملية؛ وإن العمل على توحيد الأمة الإسلامية فكرياً وتشريعياً وسياسياً، وشدها إلى عقيدة التوحيد الخالص، من أهم أهداف هذا المجمع الدولي، قرر ما يلي:

أولاً: أن الوحدة الإسلامية واجب أمر الله تعالى به، وجعله وصفاً لازماً لهذه الأمة بقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٩٢]، وأكدت ذلك السنة النبوية قولاً وعملاً حيث قال النبي ﷺ: "الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ"[(١)]، وحقق عليه الصلاة والسلام هذه الوحدة فعلاً بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقرر ذلك في أول وثيقة لإقامة الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة التي فيها وصف المسلمين بأنهم: (أمة واحدة من دون الناس).

١- رواه أحمد في المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ١١/٤٠٢ برقم: ٦٧٩٧، وأبو داود، كتاب الديات، باب أيقاد المسلم بالكافر ٢/٥٨٨ برقم: ٤٥٣٠، والنسائي، كتاب القسامة، باب القود بين الأحرار والمماليك في النفس ٨/١٩ برقم: ٤٧٣٤. قال الألباني: «قلت: ورجاله ثقات رجال الشيخين»، إرواء الغليل ٧/ ٢٦٧.

إن هذه النصوص من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وما في معناها، تقتضي أن يجتمع المؤمنون تحت لواء الإسلام، مستمسكين بالكتاب والسنة، وأن ينبذوا الأحقاد التاريخية، والنزاعات القبلية، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية، وحينما قاموا بذلك تحققت القوة لدولة الإسلام في عهد النبوة، ثم في الرعيل الأول، وانتشر دين الإسلام ودولته في الشرق والغرب، وقادت الأمة الحضارة الإنسانية بحضارة الإسلام التي كانت أعظم حضارة قامت على العبودية لله وحده، فحققت العدل والحرية والمساواة .

ثانياً: أن الوحدة الإسلامية تكمن في تحقيق العبودية لله ﷻ اعتقاداً وقولاً وعملاً، على هدي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والحفاظ على هذا الدين الذي يجمع المسلمين على كلمة سواء في شتى مناحي الحياة من فكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية، وما أن ابتعدت الأمة الإسلامية عن مقومات وحدتها حتى نجمت أسباب التفرق التي تعمقت فيما بعد بأسباب كثيرة، منها جهود الاستعمار الذي شعاره (فرِّق تَسُدْ)، فقسم الأمة الإسلامية إلى أجزاء ربطها بأسس قومية وعرقية، وفصل بين العرب والمسلمين، وانصبت معظم جهود المستشرقين إلى تأصيل التفرق في دراساتهم التي روجوها بين المسلمين.

ثالثاً: أن الاختلافات الفقهية التي مبناها على الاجتهاد في فهم النصوص الشرعية ودلالاتها، أمر طبعي في حد ذاته، وقد أسهمت في إغناء الثروة التشريعية التي تحقق مقاصد الشريعة وخصائصها من التيسير ورفع الحرج.

رابعاً: وجوب الالتزام بحفظ مكانة جميع الصحابة رضي الله عنهم، ودعوة العلماء إلى التنويه بمنزلتهم وفضلهم في نقل الشريعة إلى الأمة، والتعريف بحقهم عليها، ودعوة الحكومات إلى إصدار الأنظمة التي تعاقب من ينتقص من شأنهم في أي صورة من الصور، لما لذلك من رعاية حرمة الصحابة رضي الله عنهم، واستئصال سبب من أسباب التفرق.

خامساً: وجوب الالتزام بالكتاب والسنة، وهدي سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ومن تبعهم بإحسان، ونبذ الضلالات، وتجنب ما يثير الفتن في أوساط المسلمين، ويؤدي إلى الفرقة بينهم، والعمل على توظيف الجهود للدعوة إلى الإسلام ونشر مبادئه في أوساط غير المسلمين.

التوصيات

لا يخفي أن عصرنا هو عصر التكتلات التي لها تطبيقاته الفكرية والاجتماعية والاقتصادية تحت شعارات العولمة والعلمانية والحداثة، وبسبب الانفتاح الإعلامي دون أي قيود أو ضوابط، مما يجعل العالم الإسلامي مستهدفًا لإزالة خصوصياته وتذويب مقوماته ومعالم حضارته الروحية والفكرية، ولا تتم حماية أمتنا من هذه الأخطار إلا باتحادها وإزالة أسباب التفرق، لاسيما أن أمتنا تملك العديد من مقومات الوحدة التي تشمل الوحدة الاعتقادية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والثقافية، وعليه يوصي المجمع بما يلي:

أ- تأكيد قرار المجمع رقم: ٤٨ (٥/١٠) بشأن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وما تبعه من توصيات في الموضوع ذاته، وقرار المجمع رقم ٦٩ (٧/٧) بشأن الغزو الفكري في التوصية الأولى.

ب- التأكيد على حكومات البلاد الإسلامية بدعم جهود كل من منظمة المؤتمر الإسلامي ومجمع الفقه الإسلامي الدولي؛ باعتبارهما من صور الوحدة بين المسلمين سياسياً وفكرياً.

ج- تجاوز النزاعات التاريخية، فإن إثارتها لا تعود على الأمة إلا بإذكاء الضغائن وتعميق الفرقة.

د- التزام حسن الظن وتبادل الثقة بين المسلمين دولاً وشعوباً؛ بتوجيه وسائل الإعلام إلى تنمية روح التآلف، وإشاعة أخلاقيات الحوار، واحتمال الآراء الاجتهادية.

هـ- الاستفادة من القضايا المصيرية التي توحد الأمة الإسلامية وفي مقدمتها قضية القدس والمسجد الأقصى أولى القبلتين ومسرى رسول الله ﷺ؛ لدرء الأخطار التي تهدد إسلاميتها، والتأكيد على أنها قضية المسلمين جميعاً.

ويناشد المشاركون في المؤتمر حكومات البلاد الإسلامية مضاعفة اهتمامها بهذه القضية وأمثالها، والمبادرة إلى الإجراءات المناسبة ومنها:

- التنديد بما تتعرض له الأراضي الفلسطينية وأهلوها من سياسات التهجير والاستيطان والتهويد، وما يعانيه الإنسان الفلسطيني من احتلال وظلم، وقمع وحرمان، وقتل وتشريد، وامتهان لكرامة الإنسان وحقوقه الأساسية.

- الدعم المطلق لفلسطين المجاهدة وأرضها المباركة ومسجدها الأقصى أولى القبلتين، في معركتها الاستقلالية والوقوف بجانبها وجانب الشعب الفلسطيني في صموده.

- إدانة الحركة الصهيونية والاحتلال الإسرائيلي فيما يقوم به من ألوان التنكيل وصور العدوان البشع على الشعب الفلسطيني المناضل في سبيل حريته وتحرير مقدساته.

و- الاهتمام بالآليات المطروحة التي لها أولوية في تحقيق الوحدة الإسلامية مرحلياً مثل:

١- إعداد المناهج التعليمية على أسس إسلامية.

٢- وضع الاستراتيجية الإعلامية الإسلامية المشتركة.

٣- إنشاء السوق الإسلامية المشتركة .

٤- إقامة محكمة العدل الإسلامية.

ز- قيام الأمانة العامة لمجمع الفقه الإسلامي بتكوين لجنة من أعضاء المجمع وخبرائه؛ لوضع دراسات عملية قابلة للتطبيق تراعي واقع الأمة الإسلامية، وتشمل الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وتضع آليات تحقيق الوحدة في هذه المجالات، مع الاستفادة من الجهود القائمة حالياً في إطار المنظمات العربية والإسلامية، والاستعانة بالمختصين في

المجالات المختلفة، ولضمان جدية نشاط هذه اللجنة وتنفيذ نتائج دراستها، نوصي باعتماد تشكيلها ومهامها من منظمة المؤتمر الإسلامي، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[١].

والله الموفق

١- مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الحادي عشر، ٢/٢١٩٥٣- ٢١٩٥٦.

قرار مجمع الفقه الدولي (٦٩)(٧/٧) بشأن الغزو الفكري

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبين، وعلى آله وصحبه، إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره السابع بجدة في المملكة العربية السعودية من ٧ إلى ١٢ ذو القعدة ١٤١٢هـ الموافق ٩-١٤ مايو ١٩٩٢م، بعد إطلاع على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع: (الغزو الفكري)، والتي بينت بداية هذا الغزو وخطورته وأبعاده وما حققه من نتائج في بلاد العرب والمسلمين، واستعرضت صوراً مما أثار من شبه ومطاعن، ونفذ من خطط وممارسات استهدفت زعزعة المجتمع المسلم ووقف انتشار الدعوة الإسلامية، كما بينت هذه البحوث الدور الذي قام به الإسلام في حفظ الأمة وثباتها في وجه هذا الغزو وكيف أحبط كثير من خططه ومؤامراته.

وقد اهتمت هذه البحوث ببيان سبل مواجهة هذا الغزو وحماية الأمة من كل آثاره في جميع المجالات وعلى كل الأصعدة، وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حول هذه البحوث، يوصى بضرورة ما يلي:

١- العمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، واتخاذها منهجاً في رسم علاقاتنا السياسية المحلية منها والعالمية.

٢- الحرص على تنقية مناهج التربية والتعليم والنهوض بها؛ بهدف بناء الأجيال على أسس تربوية إسلامية معاصرة، وبشكل يعدهم الإعداد المناسب الذي يبصرهم بدينهم، ويحصنهم من كل مظاهر الغزو الثقافي.

٣- تطوير مناهج إعداد الدعاة؛ من أجل إدراكهم لروح الإسلام ومنهجه في بناء الحياة الإنسانية، بالإضافة إلى اطلاعهم على ثقافة العصر؛ ليكون تعاملهم مع المجتمعات المعاصرة عن وعى وبصيرة.

٤- إعطاء المسجد دوره التربوي الكامل في حياة المسلمين؛ لمواجهة كل مظاهر الغزو الثقافي وآثاره، وتعريف المسلمين بدينهم التعريف السليم الكامل.

٥- رد الشبهات التي أثارها أعداء الإسلام بطرق علمية سليمة بثقة المؤمن بكمال هذا الدين، دون اللجوء إلى أساليب الدفاع التبريري الضعيف.

٦- الاهتمام بدراسة الأفكار الوافدة والمبادئ المستوردة والتعريف بمظاهر قصورها ونقصها بأمانة وموضوعية.

٧- الاهتمام بالصحوة الإسلامية ودعم المؤسسات العاملة في مجالات الدعوة والعمل الإسلامي؛ لبناء الشخصية الإسلامية السوية التي تقدم للمجتمع الإنساني صورة مشرقة للتطبيق الإسلامي على المستوى الفردي والجماعي، وفي كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

٨- الاهتمام باللغة العربية، والعمل على نشرها، ودعم تعليمها في جميع أنحاء العالم؛ باعتبارها لغة القرآن الكريم، واتخاذها لغة التعليم في المدارس والمعاهد والجامعات في البلاد العربية الإسلامية.

٩- الحرص على بيان سماحة الإسلام، وأنه جاء لخير الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، وبحيث يكون ذلك على المستوى العالمي وباللغات الحية جميعها.

١٠- الاستفادة الفاعلة والمدروسة من الأساليب المعاصرة في الإعلام مما يمكن من إيصال كلمة الحق والخير إلى جميع أنحاء الدنيا، ودون إهمالٍ لكل وسيلة متاحة.

١١- الاهتمام بمواجهة القضايا المعاصرة بحلول إسلامية، والعمل على نقل حلول الإسلام لهذه المشكلات إلى التنفيذ والممارسة؛ لأن التطبيق الناجح هو أفعل طرق الدعوة والبيان.

١٢- العمل على تأكيد مظاهر وحدة المسلمين وتكاملهم على كل الأصعدة، وحل خلافاتهم ومنازعتهم فيما بينهم بالطرق السليمة وفق أحكام الشريعة المعروفة؛ إفساداً لمخططات الغزو الثقافي في تفتيت وحدة المسلمين وزرع الخلافات والمنازعات بينهم.

١٣- العمل على بناء قوة المسلمين واكتفائهم الذاتي اقتصادياً وعسكرياً.

١٤- مناشدة الدول العربية والإسلامية مناصرة المسلمين الذين يتعرضون للاضطهاد في شتى بقاع الأرض، ودعم قضاياهم، ودرء العدوان عنهم بشتى الوسائل المتاحة.

كما يوصى المجلس أيضاً الأمانة العامة للمجمع باستمرار الاهتمام بطرح أهم قضايا هذا الموضوع في لقاءات المجمع وندواته القادمة؛ نظراً لأهمية موضوع الغزو الفكري، وضرورة وضع استراتيجية متكاملة؛ لمجابهة مظاهره ومستجداته، ويمكن البدء بقضيتي التنصير والاستشراق في الدورة القادمة، والله ولى التوفيق[1].

١- مجلة مجمع الفقه الإسلامي العدد السابع، ١٥٥٣٤/٢، ١٥٥٣٥.

توصيات الدورة الرابعة (٣٨)(٤/١٣) لمجلس مجمع الفقه الدولي

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه، إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره الرابع بجدة في المملكة العربية السعودية من ١٨-٢٣ جمادى الآخر ١٤٠٨هـ الموافق٦-١١ شباط (فبراير)١٩٨٨م.

أولاً: بعد الاطلاع على البحوث الواردة للمجمع في موضوع: (كيفية مكافحة المفاسد الأخلاقية) والتي أوضحت ما يعانيه العالم بأسره من المفاسد الأخلاقية التي أخذت تنتشر في عالمنا الإسلامي بصورة لا ترضي الله تعالى، ولا تتوافق مع الدور القيادي المنوط بهذه الأمة في قيادة البشرية نحو الطهر العقدي والأخلاقي والسلوكي، وانسجاماً مع خصائص الإسلام المتكاملة، وكون الجانب الأخلاقي من أهم جوانب الدين، ولا تتحقق الثمار الكاملة للانتماء إلى الإسلام إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية بجميع مبادئها وأحكامها، وفي شتى مرافق الحياة، يوصي بما يلي:

أ- العمل على تصحيح وتقوية الوازع العقدي، عبر القيام بتوعية شاملة، والتحسيس بآثار العقيدة الصحيحة في النفوس.

ب- السعي إلى تطهير الإعلام المقروء والمرئي والمسموع، والإعلانات التجارية في عالمنا الإسلامي من كل ما يشكل معصية لله تعالى، وتنقيته تماماً من كل ما يثير الشهوة، أو يسبب الانحراف، ويوقع المفاسد الأخلاقية.

ج- وضع الخطط العلمية للمحافظة على الأصالة الإسلامية والتراث الإسلامي، والقضاء على كل محاولات التغريب والتشبه واستلاب الشخصية الإسلامية، والوقوف أمام كل أشكال الغزو الفكري والثقافي الذي يتعارض مع المبادئ والأخلاق الإسلامية.

وأن توجد رقابة إسلامية صارمة على الأنشطة السياحية والابتعاث إلى الخارج؛ حتى لا تتسبب في هدم مقومات الشخصية الإسلامية وأخلاقها.

د- توجيه التعليم وجهة إسلامية، وتدريس كل العلوم من منطلق إسلامي، وجعل المواد الدينية مواد أساسية، في كل المراحل والتخصصات، مما يقوي العقيدة الإسلامية، ويؤصل الأخلاق الإسلامية في النفوس، كما يجب أن تحرص الأمة أن تكون رائدة في مجالات العلم المتعددة.

هـ- بناء الأسرة الإسلامية، بناء صحيحاً، وتيسير الزواج والحث عليه، وحث الآباء والأمهات على تنشئة البنين والبنات تنشئة صحيحة؛ حتى يكونوا جيلاً قوياً يعبد الله على حق، ويتولى المهمة الدائمة لنشر الإسلام والدعوة إليه، وأن تهيأ المرأة لتقوم بدورها أماً وربة بيت، حسب ما تقضي به الشريعة الإسلامية، والقضاء على ظاهرة انتشار استخدام المربيات الأجنبيات، خاصة غير المسلمات.

و- تهيئة جميع الوسائل التي تحقق تربية النشء تربية إسلامية، بحيث يلتزم بأركان الإسلام وسلوكياته، ويدرك واجباته تجاه ربه وأمته، ويتخلص من الخواء الروحي الذي يتسبب في تعاطي المخدرات والمسكرات والتفسخ الأخلاقي بأشكاله المتعددة، وإشغال الشباب بمهمات الأمور، وإعطاؤهم المسؤليات، كل أحد حسب قدرته وكفاءته، وإشغال أوقات الفراغ لديهم بما هو مفيد، وإيجاد وسائل الترفيه والرياضات والمسابقات البريئة الطاهرة، وأن توجه وجهة إسلامية كاملة.

ثانياً: بعد الاطلاع على البحوث الواردة للمجمع في موضوع: (مجالات الوحدة الإسلامية وسبل الاستفادة منها)، وانطلاقاً من أولوية رابطة الإسلام بين شعوب الأمة الإسلامية، وهي رابطة لا انفصام لها، وأساس متين للتضامن المنشود، وقاعدة ثابتة لكل

بناء حضاري يرمي إلى توحيد صفوفها، وإلى التأليف بين الجهود المبذولة في مجابهة التحديات المعاصرة، وتحقيق العزة والتقدم.

وبما أن في رابطة الإسلام حافزاً قوياً وعاملاً باقياً لأحكام التوجه، ولتنسيق سياسات الدول الإسلامية في مختلف ميادين التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ولتوثيق علاقات التناصر والتعاون والمرحمة بين شعوب الأمة في رفع ما يعوق سيرها من ألوان التبعية ويجابهها من التحديات المعاصرة، وفي بلوغ ما تسعى لتحقيقه من رقي ومنعة وازدهار، يوصي أيضاً بما يلي:

أ- الذود عن العقيدة الإسلامية، وتمكينها بصورتها النقية من الشوائب، والتحذير من كل ما يؤدي إلى هدمها، أو التشكيك في أصولها، ويقسم وحدة المسلمين ويجعلهم مختلفين متنابذين.

ب- تأكيد عناية مجمع الفقه الإسلامي بالأبحاث والدراسات الفقهية التي ترمي إلى مجابهة التحديات الفكرية الناشئة عن مقتضيات المعاصرة، واهتمام الفقه الإسلامي بمشكلات المجتمع، واعتماده كعنصر أساسي في النهضة الفكرية للأمة، وتوسيع دائرة اعتماده فيما تسنه الدول الإسلامية من تشريعات وقوانين، في عامة شؤون المجتمع.

ج- وجوب التناسق الوثيق في ميدان التربية والتعليم مضموناً ومنهاجاً على السبل القويمة للحضارة الفكرية التي بناها الإسلام؛ بغية تكوين أجيال من المسلمين متوحدين في المرجع التعبدي، متقاربين في التوجه الفكري، متشاركين في الاعتزاز بالانتساب الحضاري.

د- إعطاء درجة عالية من الأولوية للبحث العلمي في مختلف ميادين المعرفة، وتخصيص نسبة ١% من الناتج الإجمالي لتمويل البرامج البحثية، وإنشاء المخابر العلمية على أساس وثيق من التكامل والتعاون بين الجامعات الإسلامية.

هـ- العمل مع الجامعات الإسلامية على ضبط برنامج دراسي يتألف من عدد من المحاور الكبرى؛ تكون غرضاً للبحث الفقهي، وإنشاء لجنة عليا من المفكرين المسلمين لمتابعة هذه الأبحاث وإجازتها، وتخصيص جائزة تفوق لمكافأة أحسنها.

و- أن يكون الإعلام في بلاد المسلمين بكل أنواعه المسموعة والمقروءة والمرئية إعلاماً هادفاً إلى تحقيق العبودية لله في أرضه، وبث الخير ونشر الفضيلة، والتحرر من المبادئ الهدامة للفكر والخلق، والملحدة في دين الله، والمنحرفة عن الصراط المستقيم، ودعم جهود توحيده.

ز- إقامة اقتصاد إسلامي لا شرقي ولا غربي بل اقتصاد إسلامي خالص، مع إقامة سوق إسلامية مشتركة، يتعاون فيها المسلمون على الإنتاج وتسويقه، دون الحاجة إلى غيرهم؛ لأن الاقتصاد ركن مهم من أركان قيام المجتمعات، وتكامله سبيل للوحدة بين شعوب الأمة الإسلامية.

ثالثا: انطلاقا من أن إسلامية التعليم في الديار الإسلامية اليوم ضرورة لا مناص منها لبناء الأجيال الإسلامية بناءً سوياً متكاملاً في الفكر والتصور والسلوك والعمل، وذلك بجعل جميع العلوم محكومة بالإسلام في المنطلقات والأهداف، وأن يكون الإسلام بنظمه وضوابطه إطارا لهذه العلوم، وأن تكون العقيدة الإسلامية قاعدة وأصلاً في بناء المنهج التربوي والتعليمي، وتتلخص أهم معالم المنهج المنشود في إسلامية التعليم فيما يلي:

أ- جعل العقيدة الإسلامية قاعدة التصور الإسلامي الكبير الذي يعطي نظرة كلية شاملة للكون والإنسان والحياة، كما تعرف الإنسان بخالق الحياة وعلاقته بالكون، وعلاقة الإنسان بخالقه، وبمجتمعه.

ب- اتخاذ الإسلام محوراً للعلوم الاجتماعية والإنسانية والاقتصادية والسياسية، وإبراز نظرياته الإنسانية وتعلقها بخالق الكون والإنسان والحياة بالتنسيق مع المنظمات الإسلامية

العاملة في هذا المجال، كالمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم.

ج- العمل على إظهار فساد ما يخالف العقيدة الإسلامية من علوم مادية وملحدة، وأخرى مضللة، كالكهانة، والسحر، والتنجيم، والتحذير من العلوم التي ذمها وحرمها الإسلام، وكذلك العلوم التي تقوم على الفسق والفجور.

د- إعادة كتابة تاريخ العلوم والمعارف، وبيان تطورها وإسهامات المسلمين في كل منها، وتنقيتها مما دس فيها من نظريات استشراقية وتغريبية تحرف المسار التاريخي الحق، وإعادة النظر في تصنيف العلوم ومناهج البحث وفق النظرة الإسلامية، من خلال أنشطة مراكز ومعاهد البحث العلمي ومراكز الاقتصاد الإسلامي في شتى البلاد الإسلامية.

هـ- إعادة الوشائج بين العلوم التي تبحث في الكون والإنسان والحياة وبين خالقها؛ فإن العالم الباحث في هذه المجالات يجب أن ينظر فيها على أنها تمثل الإبداع الإلهي، والصنعة الربانية المحكمة.

و- وضع الضوابط والقواعد المستخلصة من الدين الإسلامي أو المنسقة مع أهدافه وغاياته، وأن تكون مبادئ لجميع العلوم أو لعلم واحد منها، وإبراز عيوب المناهج الغربية التي أقامت فصاماً موهوماً بين الدين والعلم، أو بنت العلوم خاطئا، كعلم التاريخ والاقتصاد والاجتماع.

وينبغي أن يأخذ في الاعتبار أن هناك مشروع يشكل ظهيراً لإسلامية التعليم، بل ربما كان من الوسائل الضرورية له، وهو مشروع (إسلامية المعرفة) وينهض (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) بمتطلباته من حيث التخطيط ورسم سبل التنفيذ؛ من خلال مقالات ومؤلفات وعدة ندوات[1]. والله الموفق.

١- مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الرابع، ٢/ ٨٤٥٨- ٨٤٦١.

توصيات مجمع الفقه الدولي (١٢٥)(١٣/٧) في دورته الثالثة عشرة

وجاء في قرار مجمع الفقه الدولي في دورة مؤتمره الثالثة عشرة المنعقدة في الكويت في ١٤٢٢هـ الموافق ٢٠٠١م بشأن: (أحداث فلسطين وغيرها):

وإن المجمع يوصي الأمة الإسلامية حكاماً وشعوباً بالآتي:

أولاً: الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة:

إن ما حلَّ بالأمة الإسلامية داخلياً وخارجياً من مصاعب وأزمات وحروب، سببه الابتعاد عن العقيدة والشريعة، وهي هدي الله وذكره، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه: ١٢٤]، وإن طول الأمد باستبعاد الشريعة الإسلامية يزيد من الفجوة بين الحكومات وشعوبها، ويزيد من الاجتهادات الخاطئة، والانحرافات الفردية والجماعية في الفكر والسلوك.

ويؤكد المجمع توصيته في الدورة السابعة بدعوة الحكومات في البلاد الإسلامية للذود عن العقيدة الإسلامية، وتمكينها بصورتها النقية من الشوائب، والتحذير من كل ما يؤدي إلى هدمها، والتشكيك في أصولها، ويقسم وحدة المسلمين ويجعلهم مختلفين متنابذين، كما يؤكد ما جاء في هذه التوصية بدعوة الحكومات في البلدان الإسلامية إلى العمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، واتخاذها منهجاً في رسم علاقاتها السياسية: المحلية والعالمية[1].

ثانياً: نصرة المسلمين:

المسلمون حيثما كانوا أمة واحدة، جمعتهم عقيدة التوحيد، وربطتهم الشريعة والقبلة الواحدة، وهم كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله، كما ثبت عن النبي ﷺ، لذا فإن النصرة واجبة في كل مكان إذا اعتدى عليهم، أو انتهكت أرضهم، أو نزلت بهم

١- مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الثالث عشر ٢/٢٥٨١٢، ٢٥٨١٣، ٥٨١٧.

نازلة، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[التوبة: ٧١]، وقال ﷺ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ"[١].

والنصرة إنما تكون بالنفس، والمال، والتأييد المعنوي، والسياسي، ونحوه، بما يتناسب والإمكانات والأحوال والظروف المتغيرة، ويؤكد المجمع توصيته في دورته السابعة التي ناشد فيها الدول العربية والإسلامية مناصرة المسلمين الذين يتعرضون للاضطهاد في شتى بقاع الأرض، ودعم قضاياهم، ودرء العدوان عنهم بشتى الوسائل المتاحة.

ثالثاً: تحريم العدوان في الإسلام:

إن الإسلام يحرم الاعتداء بغير حق، ومن ذلك ترويع قلوب الأبرياء الآمنين ممن عصمت دماؤهم، فأي عدوان من هذا النوع هو إرهاب محرم.

وإن إعداد العدة والقوة لإرهاب العدو مطلوب شرعاً، وهو الذي ورد فيه قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[الأنفال: ٦٠] .

ولا ريب أن من يدافع المغتصب لأرضه المحتل لوطنه بكل ما يمكنه من إعداد وقوة عمل مشروع وواجب، وهذا هو حال مقاومة الشعب الفلسطيني للصهاينة المحتلين المنتهكين لكل الحقوق.

١- رواه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ٨٦٢/٢ برقم: ٢٣١٠، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ١٩٩٦/٤ برقم: ٢٥٨٠.

وإن من الظلم والمؤسف أن بعض الدول الكبرى تكيل بمكيالين في القضية الفلسطينية، وتعتبر صاحب الحق في الأرض المدافع عن نفسه وعرضه وأرضه إرهابياً، والمعتدي الظالم المنتهك لكل القيم الإنسانية مع ما يستخدمه من أسلحة دمار، وما يستبيحه من دماء، الضارب بعرض الحائط كل الأعراف والقوانين الدولية هو المدافع عن نفسه المغلوب على أمره!!

كما أن من الظلم وأبشع الإرهاب إلباس الإسلام اسم الإرهاب، بل هو دين الاعتدال والوسطية، ومن الظلم أيضاً محاربة عدد من الجمعيات الدعوية والخيرية والمؤسسات المالية الإسلامية باسم الإرهاب، دون أن يقوم دليل على ذلك.

رابعاً: الأخلاق الإسلامية:

إن العالم اليوم في أمس الحاجة إلى أخلاق الإسلام في السلم والحرب، ليسود ميزان العدالة الذي قامت عليه السماوات والأرض، ولنبذ ما يسود العالم اليوم من الظلم والاستكبار والإفساد، **فإن سبب الثورات والفتن** تقسيم العالم إلى طبقات، واستئثار الدول الغنية بالقوة والثروة والعلم الذي أوجبه الله تعالى وأرسل به الرسل وأنزل به كتبه ليقوم الناس بالحق والقسط، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد:٢٥].

هذا وإن مجمع الفقه الإسلامي يقدر لمعالي الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي كلمته الضافية المهمة التي ألقاها نيابة عنه معالي الأمين العام المساعد للشؤون السياسية والأقليات الإسلامية التي جاء فيها: إن دورتكم الموقرة تنعقد في ظروف بالغة الدقة والحساسية، تفاقم فيها التحدي لوجودنا أكثر من أي وقت مضي؛ لأن العدوان الواقع

علينا اليوم يهدد أسس مصيرنا، ويضعنا في واقع كالح، مما يحتم علينا الوقوف صفاً واحداً متراصاً عاقدين العزم على الذود عن مقدساتنا وتراثنا دولاً وشعوباً.

إنكم ترون مدى الصلف والغرور لدى العدو الصهيوني، واستفحال غريزة العدوان الجنونية لديه، هذا العدو الذي يضع المنطقة كلها على شفير انفجار مدمر مستمر في حرب الإبادة التي يشنها على الشعب الفلسطيني الباسل ظلماً وجوراً، مستنداً في غروره وعربدته إلى ما يتمتع به من دعم أجنبي أعمى غير مشروط عسكرياً واقتصادياً وسياسياً.

وإلى جانب فلسطين دار قتال شرس وحرب ضبابية الأهداف على أرض أفغانستان الإسلامية المنكوبة، اكتوى بنارها من لا ناقة له فيها ولا جمل من شيوخ ونساء وأطفال.

وعليه فإن تحصين الذات الإسلامية أمام العوامل الخارجية التي أفرزتها تطورات السياسة الدولية يدخل في صميم عملكم العلمي المتخصص؛ لما له من دور هام في تشكيل الرأي العام، وتأصيل الفكر، وتعميق قوة الانتماء إلى الحضارة الإسلامية الأصيلة التي لا سبيل إلى اقتلاع جذورها مهما عظم عنف الضربات الموجهة إليها؛ ذلك أن إرشاد الإنسان عقدياً وعلمياً قضية محورية تعلو فوق كل القضايا، لارتباطها بمصير الأمة ارتباطاً وثيقاً، وهي بهذا الاعتبار تعد قضية جديرة بأن تعطى ما تستحقه من عناية، وإبرازها في صورة عمل جدي ومنتج؛ يعتبر إنجازاً حضارياً هاماً ضمن الأسس التي تقوم عليها نهضة المسلمين.

وفي الختام يدعو علماء المجمع الله تبارك وتعالى أن يوفق ولاة أمور المسلمين لما يحبه ويرضاه، وأن ييسر لهم طريق تطبيق شريعته، فهي حبل الله المتين، ونوره المبين، وصراطه المستقيم، لا نجاة ولا عزة لهم إلا بالتمسك به، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل[1].

١- مجلة مجمع الفقه الإسلامي العدد الثالث عشر، ٢/٢٥٨١٢-٥٨١٧.

بيان علماء اليمن حول خطر التدخل الأجنبي في اليمن

اجتمع علماء اليمن يوم الخميس ٢٨/ محرم/١٤٣١هـ في مسجد المشهد في صنعاء وهو أول مصلى للعيد في اليمن في الإسلام الذي بناه الصحابي الجليل فروة بن مُسَيك المرادي رضي الله عنه كما يقول المؤرخون وكتاب السير، وذلك للبيان حول خطر التدخل الأجنبي في اليمن، وذلك إثر إعلان بريطانيا الدعوة إلى مؤتمر في لندن لمناقشة أوضاع اليمن، وقبل البيان ألقى الشيخ عبد المجيد الزنداني كلمة بين فيها خطر التدخل الأجنبي والتآمر على ذلك جاء فيها: «فهذا الوجود العسكري المكثف في خليج عدن منذ أكثر من عام الذي يبرر بمطاردة القراصنة، وهو بحجم يفوق الكثير الكثير لهذه المهمة التي يمكن أن تكفي فيها سفينة واحدة مع بعض حاملات الطائرات بل مع طائرات مروحية بهذه السفينة وزوارق سريعة تكفي، لكن أن تحتشد هذه الأساطيل فجميع المراقبين العسكريين والسياسيين يقولون: إن هذه القوات تحتشد لأمر أكبر من ذلك، ثم ما نشرته الصحف الأمريكية وتناقلته الصحف العربية واليمنية عن نصيحة تقدم بها مستشار البنتاجون –وهي وزارة الدفاع الأمريكية– يقول هؤلاء المستشارون لوزارة الدفاع الأمريكية: إن الحكومة اليمنية آيلة إلى الفشل–تسير في طرق الفشل– وإذا فشلت الدولة اليمنية فننصحكم بأن تتحرك قوات المارينز البحرية، وقوات حلف الأطلسي؛ للسيطرة على منابع النفط في اليمن، والسيطرة على السواحل البحرية الجنوبية والغربية، هم نشروا ذلك، هم نقلوا لنا هذه المعلومة، ونقلتها عنهم الصحف العربية واليمنية، وفوجئ الناس بأن بريطانيا التي كانت تستعمر الجنوب اليمني تعلن عن عقد مؤتمر دولي في لندن تنصبه وصياً على شؤون اليمن، لماذا تجتمعون؟ قالوا: لنتدارس مسألة اليمن، مَن أنتم؟ من ولاكم؟! من أعطاكم الحق أن تبتوا في قضاياي اليمن! قضايا اليمن يبت فيهل أهل اليمن، هم المسؤولون عن بلادهم، هم المسؤولون عن شؤونهم، فكانت هذه الدعوى مفزعة ومقلقة لجميع أبناء

اليمن؛ لأنها لا تكون إلا بالتدخل في شؤون اليمن، وفرض نزع من الوصاية عليه، ثم إذا بهذه الجهة نفسها تروج بأن الدولة اليمنية في طريقها إلى الفشل، هناك يقلون إذا فشلت احتلوا منابع النفط وسيطروا على السواحل الجنوبية والغربية، وفي لندن يقولون: اليمن في طريقه إلى الفشل، ماذا يفهم من هذا كله...».

نص البيان

«الحمد لله رب العالمين القائل: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[الممتحنة:٢]، والقائل ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[البقرة:٢١٧]، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين القائل: "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كما تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا، فقال قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قال: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ الله من صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ الله في قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ فقال قَائِلٌ يا رَسُولَ اللَّهِ وما الْوَهْنُ قال حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"[١].

وبعد: فقد تابع علماء اليمن ما تمر به بلادنا من أحداث ومستجدات خطيرة، وما يحاك ضدها من كيد ومكر وتآمر وتلويح من القوى الأجنبية بالتدخل في شؤون اليمن أمنياً وعسكرياً وسياسياً، ومحاولة تصوير الوضع في اليمن بأنه يمثل خطراً على الوضع الإقليمي والدولي، وتهويل ذلك لتدويل القضية، والدعوة من بعض القوى الأجنبية لعقد مؤتمر دولي للنيل من أمن اليمن ووحدته واستقراره، وانتهاك سيادته تحت ذرائع واهية ومغلوطة؛ لتكرار ما حصل في العراق وأفغانستان وباكستان الذي أدى إلى احتلال

١- رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على أهل الإسلام ٢/٥١٤ برقم: ٤٢٩٧، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/٦٤٧ برقم: ٩٥٨.

الأرض، وانتهاك العرض، وتدمير المقدسات، ونهب الثروات، وقتل وتشريد الملايين، وترويع الآمنين، وإثارة النعرات، وتمزيق البلاد، وانفلات أمني فيها لا يأمن أحد على نفسه، ومآس لا تخفى على أحد منكم، ووفاء بالعهد والميثاق الذي أخذه الله تعالى على العلماء بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران:١٨٧] وقياماً منهم بهذا الواجب فإنهم يبينون ما يلي:

أولاً: وجوب الرفض الكامل لأي تدخل خارجي سياسي أو أمني أو عسكري في شؤون اليمن وقضاياه الداخلية، ووجوب المحافظة على سيادته من أي انتهاك يمس ديننا أو استقلالنا أو وحدة أراضينا.

ثانياً: رفض أي وجود أو اتفاقية أو تعاون أمني أو عسكري مع أي طرف خارجي يخالف الشريعة الإسلامية، ويضر بمصلحة وامن البلاد، ولابد في حال عدم المخالفة والضرر من مصادقة مجلس النواب أو الشورى، وأهل الحل والعقد من العلماء والمشايخ والوجهاء في هذا البلد.

ثالثاً: الرفض المطلق لإقامة أي قواعد عسكرية في الأراضي اليمنية، أو مياهها الإقليمية.

رابعاً: تحريم الإسلام قتل الأبرياء والمعاهدين والمستأمنين، وكل عدوان ضدهم، ومن ارتكب شيئا من ذلك يحال إلى القضاء الشرعي.

خامساً: تجريم ما حدث من قتل وسفك لدماء الأبرياء في أبين وشبوة وأرحب، وتجريم أي قتل خارج القضاء الشرعي، ودون محاكمة عادلة.

سادساً: الدعوة إلى تشكيل لجنة من العلماء والقضاة والخبراء والمختصين؛ للنظر في هذه الحوادث وأسبابها وآثارها، والعمل على إيجاد الحلول الشرعية لها.

سابعاً: دعوة جميع اليمنيين رئيساً وحكومة وشعباً وكافة القوى المؤثرة والفاعلة إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الشورى:١٠] ولقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[النساء:٥٩]، والعمل على توحيد الصفوف وجمع الكلمة؛ لتقوية الجبهة الداخلية، بتحقيق العدل، ورفع المظالم، ورد الحقوق إلى أهلها، والاستجابة للمطالب المشروعة من أي طرف كان.

ثامناً: يناشد علماء اليمن أبناء الأمة الإسلامية حكاماً ومحكومين، وعلماء وهيئات ومنظمات إسلامية، وعلى رأسها منظمة المؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية، ورابطة العالم الإسلامي، واتحاد علماء المسلمين، لتأييد إخوانهم في اليمن، والوقوف معهم صفاً واحداً ضد المؤامرات والتدخلات الخارجية.

وبعد هذا كله فإنه وفي حال إصرار أي جهة خارجية على العدوان وغزو البلاد أو التدخل العسكري أو الأمني، فإن الإسلام يوجب على أبنائه جميعاً الجهاد؛ لدفع عدوان المعتدين، وذلك حق مكفول في جميع الشرائع.

وختاماً فإن علماء اليمن يدعون أبناء المسلمين عموماً وأبناء الشعب اليمني خصوصاً بالمبادرة بالتوبة، والرجوع إلى الله، ولزوم طاعته، واجتناب معاصيه في كل حال، والقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[الشورى:٣٠]، ثم الله تعالى يقول: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ

﴿مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[النحل:١١٢]، كما يندب علماء اليمن الناس للقنوت في الصلوات؛ طلباً للفرج من الله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾[الأنعام:٤٣].

كما يُهيب العلماء بجميع أبناء الشعب اليمني بأن يلتفوا حول ما جاء في هذا البيان، وبأن يطالبوا بما ورد فيه، وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وحفظ على المسلمين دينهم وأمنهم ووحدتهم واستقرارهم.

وأخيراً: وبينما هذا البيان يعد للطبع تناقلت أجهزة الإعلام أخباراً إيجابية تفيد بأن الرئيس الأمريكي وقائد قواته صرحا بأنهم لا يفكرون في احتلال اليمن أو إرسال قوات عسكرية إليها، وبناء عليه فإن لجنة المتابعة لهيئة علماء اليمن لمتابعة القضايا الإسلامية تقدر هذا الموقف، وتطالب الإدارة الأمريكية بالالتزام بهذه السياسة على الدوام، وتطلب من الحكومة اليمنية الالتزام بالضوابط التي أوضحها العلماء في هذا البيان بشأن الاتفاقيات الدولية؛ لضمان استقلال البلاد، ومنع أي تدخل أجنبي، كما تطلب من مؤتمر لندن احترام السيادة اليمنية واستقلال البلاد، ومنع التدخل في شؤونه الداخلية أو فرض أي شكل من أشكال الوصاية، فإن أبناء اليمن يعتبرون أي شيء من هذا القبيل هو عدوان عليهم، وانتهاك لسيادتهم، ومصادرة لحرياتهم واستقلالهم، والله غالب على أمره، والحمدلله رب العالمين».

يا أمتي وجب الكفاح

يـــا أمتـــي وجـــب الكفـــاح ... فـــدعي التشـــدق والصـــياح
ودعـــي التقـــاعس لـــيس ينصـــر ... مـــن تقـــاعس واســـتراح
مـــا عـــاد يجـــدينا البكـــاء ... علـــى الطلـــول[1] ولا النـــواح
يـــا قـــوم إن الأمـــر جـــد ... قـــد مضـــى زمـــن المـــزاح
ســـقط القنـــاع عـــن الوجـــوه ... وفعلهـــم بالســـر بـــاح
عـــاد الصـــليبيون ثانيـــة ... وجـــالوا فـــي البطـــاح
عـــادوا ومـــا فـــي الشـــرق ... نـــور الـــدين يحكـــم أو صـــلاح
عـــاثوا فســـاداً فـــي الـــديار ... كأنهـــا كـــلأ مبـــاح
لـــم يخجلـــو مـــن ذبـــح شـــيخ ... لـــو مشـــى فـــي الـــريح طـــاح
أو صـــبية كـــالزهر لـــم ينبـــت ... لهـــم ريـــش الجنـــاح
ذبحـــوا الصـــبي وأمـــه ... وفتاتهـــا ذات الوشـــاح
عبثـــوا بأجســـاد الضـــحايا ... فـــي انتشـــاء وانشـــراح
لـــم يشـــف حقـــدهم دم ... ســـفحوه فـــي صـــلف وقـــاح
فغـــدوا علـــى الأعـــراض لـــم ... يخشـــوا قصاصـــاً أو جنـــاح
لـــم يعبـــؤوا بقـــرار أمـــن ... دانهـــم أو بـــاقتراح
يـــا أمـــة الإســـلام هبـــوا ... واعملـــوا فالوقـــت راح
الكفـــر جمَّـــع شـــمله ... فلـــم النـــزاع والانتطـــاح
فتجمعـــوا وتجهـــزوا ... بالمســـتطاع وبالمتـــاح
يـــا ألـــف مليـــون وأيـــن هـــم ... إذا دعـــت الجـــراح

١- الطلل الشاخص من الآثار و الجمع أطلال، انظر: المصباح المنير ٢/٣٧٧، ولسان العرب ١١/٤٠٦.

هـــاتوا مـــن المليـــون مليـــاراً صـــــحاحاً مـــــن صـــــحاح
مـــن كـــل ألـــف واحـــدا أغـــزو بهـــم فـــي كـــل ســـاح
لابـــد مـــن صـــنع الرجـــال ومثلـــه صـــنع الســـلاح
وصـــناعة الأبطـــال علـــم قـــد دراه أولـــو الصـــلاح
مـــن لـــم يلقـــن أصـــله مـــن أهلـــه فقـــد النجـــاح
لا يصـــنع الأبطـــال إلا فـــي مســـاجدنا الفســـاح
فـــي روضـــة القـــرآن فـــي ظـــل الأحاديـــث الصـــحاح
لا يســـتوي فـــي منطـــق الإيـــ مـــان ســـكران وصـــاح
مـــن همـــه التقـــوى وآخـــر همـــــه كـــــأس وراح
شـــعب بغيـــر عقيـــدة ورق تذريـــــه الريـــــاح
مـــن خـــان حـــي علـــى الصـــلاة يخـــون حـــي علـــى الكفـــاح[1]

١- قصيدة يا أمتي وجب الكفاح للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي.

يا مسلمون تأهبوا

يـــا مســـلمون تـــأهبوا فالكـــافرون تـــألبُوا
فـــي كـــل صـــقع مـــن بـــلادِ المســـلمين تســـرَّبوا
دســـوا لكـــم أفكـــارهم فيهـــا الفســـوق المرعـــبُ
يـــدعونكم أن تفجـــروا وتفـــارقوا وتحوبـــوا[1]
كـــي يـفســـدوا أخلاقـــكم وتعـــربدوا وتجانـبـــوا
حـــتى إذا جانـبتـــموا ديـــن الحـــنيفـــة أجـلـبـــوا[2]
وأخـــذتموا بمبـــادئٍ تخزيكمـــو و تعيـــبُ
جروكمـــوا برقـــابكم مثـــل النعـــاج وغســـلبوا[3]
فـــإذا انتهـــت أخلاقكـــم قهروكمـــوا وتغلبـــوا
يـــا مســـلمون تيقظـــوا وتنبهـــوا وترقبـــوا
يـــا مســـلمون هُـــمُ العِـــداةُ فشـــمروا وتـــأهبوا
هـــم شـــمروا للحـــرب تعصـــف بالـــديار وتخـــرب
صـــبوا علـــيكم نـــارهم وتـــآمروا واســـتذأبوا
يـــا أمـــة الإســـلام هـــذا مـــا يقـــول الأجنـــبُ
الكـــافرون هُمُـــو همُـــو إن شـــرقوا أو غربـــوا
مـــن يتخـــذ مـــنهم وليـــاً ســـاء مـــا يتطلـــب
الكـــره للإســـلام فـــيهم ملـــةٌ تترســـب

١- الحوب: هو الإثم، مشارق الأنوار ٢١٥/١.

٢- أي تجمعوا من أجلبوا عليه إذا تجمعوا وتألبوا، وأجلبه أعانه، وأجلب عليه إذا صاح به واستحثه. لسان العرب ٢٦٩/١.

٣- الغسلبة انتزاعك الشيء من يد الإنسان كالمغتصب له، انظر: لسان العرب ٦٤٨/١، وتاج العروس ٤٨٣/٣.

لِـــمَ زودوا إســـرائيل بـــالحُمَمِ المشـــعةِ تُرهِـــب
لِـــمَ ســـلطوا الهنـــدوس ضـــد المســـلمين وأحربـــوا
لِـــمَ ســـوَّغوا للـــروس غَـــزوَ المســـلمين وخَبخَبـــوا[١]
يـــا مســـلمون تـــذكروا أجـــدادَكم واستنسِـــبوا
هـــم خيـــرة الـــدنيا وصَـــحبُ محمـــد فتقربـــوا
يـــا ألـــف مليـــون تُعَـــد خَسِـــئتُموا إن تُغلبـــوا
كغُثـــاء ســـيلٍ أنتمـــو إن تُقهَـــروا أو تَرسُـــبوا
يـــا مســـلمون اســـتعبروا ممـــا يُـــذاع ويكتَـــب
تخطـــيطهم أن يحتَـــوُوا خيراتِنـــا ويُغَســـلِبوا
فقِفُـــوا دفاعـــاً عـــن بلادِكُمُـــو ولا تتهيبـــوا
لا تجبنـــوا يـــا مســـلمو نَ وغـــامِرُوا وتحَســـبُوا[٢]
وتهيـــأوا للنـــازلاتِ تـــؤزكم وتُصـــوِّبُ
لاتجنَحُـــوا عـــن ديـــنكم فهـــو الصـــراط الأرحـــبُ
والنصـــرُ فـــي تقـــوى الإلـــهِ فقـــاربُوا وتقَربـــوا[٣]

١- خبخب ووخوخ إذا استرخى بطنه، وخبخب إذا غدر، و تخبخب الحر سكن بعض فورته، وخبخبوا عنكم من الظهيرة أبردوا، لسان العرب ٣٤٤/١، ومقاييس اللغة ١٥٨/٢.

٢- تَحَسَّبَ توسد وتعرف وتوخى واستخبر، القاموس المحيط ٩٥/١، وكأن مراد الشاعر والله أعلم التوخي والحذر.

٣- الشاعر اللواء علي زين العابدين، نقلاً من كي لا يستمر الهوان ص٤٨، ٤٩.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	٤
المبحث الأول: المخالفة والذنوب.	٧
المطلب الأول: مخالفة الشريعة.	٨
الأمن والنجاة في ظلال الشريعة.	١١
لماذا الشريعة الإسلامية؟	١٢
شريعة سماوية من عند الله.	١٣
شريعة محفوظة.	١٤
شريعة شاملة.	٢١
شريعة عامة.	٢٤
شريعة مثالية وواقعية.	٢٥
الجزاء في الشريعة الإسلامية.	٢٧
حراسة الشريعة سبيل النجاة.	٣٠
قرار مجمع الفقه الدولي بشأن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.	٣٥
بيان مجمع الفقه الإسلامي الدولي في دورة مؤتمره الثالثة عشرة.	٣٦
المطلب الثاني: الذنوب والمعاصي.	٣٨
انتشار الذنوب والمعاصي بأنواعها.	٤٢
وسائل إعلام أم معاصي وإجرام.	٤٣
عقلاء الغرب يرفضون التبرج.	٤٧
شركات نقل أم شاشات إفساد.	٤٨
وسائل معينة على الخلاص من الذنوب والمعاصي.	٥٠
المبحث الثاني: انتشار الجهل.	٥٩
جهل الحاكم والمحكوم	٦٠
أعظم الجهل والتجهيل.	٦٣

أنواع الجهال وكيفية التعامل معهم.	٦٤
أحوال وعقوبة أهل الجهل في الحال والمآل.	٦٥
دور العلم في رفع الجهل وتحقيق الوحدة وتثبيتها.	٦٨
دور العلماء في رفع الجهل وتحقيق الوحدة وتثبيتها.	٧١
لازموا الركب.	٨٦
دور الدعوة والدعاة في رفع الجهل وتحقيق الوحدة وتثبيتها.	٨٧
الوسائل العلمية والعملية لوحدة العلماء والدعاة.	٩٨
القطب الأعظم في الدين وأثره.	١٠٧
الحذر من تضييع الدعوة والتقصير في تغيير المنكر.	١٠٨
الغاية لا تبرر الوسيلة.	١١٠
من أضرار ومفاسد ترك تغيير المنكر وتضييع الدعوة.	١١٢
الجهل وآفة العجب.	١١٤
منشأ العجب وعلاجه.	١١٥
المبحث الثالث: الظلم.	١١٩
أنواع الظلم.	١٢١
دواوين الظلمة يوم القيامة.	١٢٣
من مضار الظلم.	١٢٤
ظلم الولاة والسلاطين.	١٣١
الحذر من الاغترار بالإمهال.	١٣٧
الحذر الحذر من بطانة السوء.	١٤٩
خير من تشاورون العالم العامل الورع التقي.	١٤٤
دواء الداء بالعدل وإعادة الحقوق والمظالم إلى أهلها.	١٤٥
أقسام العدل.	١٥٠
أئمة العدل أمان وتوحد واستقرار.	١٥١
المساواة.	١٥٣

الفرق بين العدالة والمساواة.	١٥٧
الحذر من مساواة الخديعة التي لا توافق الشريعة.	١٥٨
استقلالية القضاء.	١٦٠
قصة المرأة الجريرية مع القاضي شريك.	١٦٣
القاضي شمس الدين الفناري والسلطان بايزيد العثماني.	١٦٥
من وسائل تحقيق القضاء العادل المستقل.	١٦٦
نص رسالة سيدنا عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما.	١٧٤
المبحث الرابع: التفرق والعصبية.	١٧٧
المطلب الأول: التنازع وتفرق جماعة المسلمين.	١٧٨
الفرق بين التفرق والتنازع.	١٧٩
ذم التفرق والتنازع المفضي إليه.	١٧٩
الأدلة من القرآن الكريم على النهي عن التفرق في كل صوره.	١٧٩
الأدلة من السنة النبوية على النهي عن التفرق في كل صوره.	١٨٧
الزموا الاجتماع وانبذوا الفُرقة.	٢٠٠
من مضار التنازع والتفرق.	٢٠٦
دواء الداء بتحقيق الاجتماع والاتحاد والتخلص من الافتراق والتنازع.	٢٠٧
وسائل تعين الأمة والمجتمعات على تحقيق الاتفاق والوحدة.	٢٠٧
التعامل مع النمام.	٢١٤
أكلت يوم أكل الثور الأبيض.	٢١٧
المطلب الثاني: إثارة العصبية.	٢١٩
النعرات القومية والطائفية.	٢٣١
أضرار ومخاطر العصبية.	٢٣٥
أسباب التعصب.	٢٣٨
من لوازم التعصب.	٢٤١
علاج التعصب.	٢٤٤
التعصب والعمل الإسلامي.	٢٤٦

مظاهر التعصب في العمل الإسلامي.	٢٤٧
أثر التعصب على العمل الإسلامي.	٢٤٩
أسباب التعصب في العمل الإسلامي.	٢٥٢
علاج التعصب في العمل الإسلامي.	٢٥٤
الفهم الصحيح نعمة.	٢٥٤
المبحث الخامس: الخروج والإعراض.	٢٦٥
المطلب الأول: الخروج بالسلاح.	٢٦٦
إفراط وتفريط.	٢٦٩
أهل الحق.	٢٧٠
الخروج المشروع.	٢٧٥
طاعة في غير معصية.	٢٨٢
كيف يمكن تربية الأجيال على رفض الطاعة في غير المعروف.	٢٨٤
الصدع بالحق ليس من الخروج.	٢٨٤
حق الأمة في مراقبة الحاكم.	٢٨٧
إعانة وتقويم.	٢٩١
مناصحة الحاكم.	٢٩٢
المقاضاة واستحقاق العزل.	٢٩٣
المطلب الثاني: الإعراض عن شكر النعمة	٢٩٥
الشاكر يسابق في أمر دينه ويقنع بأمر دنياه.	٣٠٢
من فوائد الشكر.	٣٠٤
المبحث السادس: التآمر الخارجي.	٣٠٦
مجالات التآمر الخارجي.	٣١٤
التآمر على هذه الأمة في المجال العسكري.	٣١٦
موقف الأمم المتحدة من المسألة الاستعمارية.	٣١٦
موقف الأمم المتحدة من مسألة التسلح.	٣١٨

من مظاهر التآمر العسكري في الواقع.	٣٢١
المجال السياسي.	٣٢٥
المجال الثقافي.	٣٢٥
المجال الاقتصادي.	٣٢٦
أعوان الداخل على تآمر الخارج.	٣٢٧
سبب التآمر الخارجي.	٣٢٨
السبب الأول: الجانب الديني	٣٢٨
السبب الثاني: الجانب الجغرافي	٣٣٩
عودة بلاد العرب مروجاً وأنهارا .	٣٣٩
كيف كانت جزيرة العرب مروجاً وأنهار وكيف ستعود.	٣٤١
طمع في الثروة والأرض .	٣٤٣
الهنود الحمر والأمريكان.	٣٤٥
كيفية مواجهة التآمر.	٣٤٧
وسائل عملية في وجه التآمر الخارجي.	٣٥٠
فوائد تجنى من السوق الإسلامية المشتركة.	٣٥٤
دروس وعبر من الاحتلال الأجنبي لبلاد الإسلام.	٣٦٢
خاتمة.	٣٧١
ملحق.	٣٧٢
قرار مجمع الفقه الدولي بشأن الوحدة الإسلامية.	٣٧٣
قرار مجمع الفقه الدولي بشأن الغزو الفكري.	٣٧٨
توصيات الدورة الرابعة لمجلس مجمع الفقه الدولي.	٣٨١
توصيات مجمع الفقه الدولي في دورته الثالثة عشرة.	٣٨٦
بيان علماء اليمن حول خطر التدخل الأجنبي في اليمن.	٣٩٠
قصيدة يا أمتي وجب الكفاح.	٣٩٥
قصيدة يا مسلمون تأهبوا.	٣٩٧
فهرس الموضوعات.	٣٩٩